

إدواردو مندوثا

شجار ققط

مدريد ١٩٣٦

[الحائزة على جائزة بلانيتا للرواية - 2010]

ترجمة: طه زيادة

مكتبة ٦٣٢



مکتبہ | 632

شجار ققط
مکتبہ ۱۱۳۶

حصلت هذه الرواية على جائزة بلانيتا لعام 2010، التي منحتها لجنة التحكيم التالية: ألبرتو بليكوا، أنخيليس كاسو، خوان إسلابا جالان، بييري خيمفيريث، كارمن بوساداس، كارلوس بويول وروسا ريجاس

إدواردو مندوثا

مكتبة | 632

شجار ققط

مدريد ١٩٣٦

[الحائزة على جائزة بلانيتا للرواية - 2010]

ترجمة: طه زيادة

MIP

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

الطبعة الأولى 2019

EDUARDO MENDOZA
RIÑA de GATOS

MADRID 1936

TRANSLATED BY: TAHA ZIADA

مكتبة
t.me/t_pdf

شجار قطط: مدريد 1936 / رواية

إدواردو مندوثا

ترجمة: طه زيادة

العنوان الأصلي للكتاب:

Riña de Gatos

Madrid 1936

by: Eduardo Mendoza

Translated by: Taha Ziada

الطبعة الأولى - 2019

ISBN 978-1-988483-84-9

جميع الحقوق محفوظة

MASA

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

Ottawa, ON, Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com

Copyrights Riña de Gatos: © Eduardo Mendoza 2011

by arrangement with AGENCIA LITERARIA CARMEN BALCELLS, S.A.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

تصميم الغلاف: محمد النبهان

Cover Photo: iStock

روسا وقفت بجانبى وإليها هذه الحكاية

من غرابة طباع النفس البشرية أن كل حياة كان يمكن أن تكون
مختلفة عما كانت عليه.

خوسيه أورتيغا إي جاسيت / بيلانكيث

مقدمة المترجم

النص المطارد مكتبة

t.me/t_pdf

بعد نحو سبع سنوات انتهيت من ترجمة عمل ظل يلاحقني وألاحقه بلا كلل أو ملل منا، وإن تخللت الرحلة فترات ضجر، وخصام، واشتياق وضنى وسهر، وسفر ولوم وعتاب أحيانا، وإنتاج غزير وانشغال كبير أحيانا أخرى. بدأ اللقاء في ليلة رتيبة ساعاتها بطيئة في صالة تحرير الوكالة الإسبانية، تطل علينا من شريط الأخبار بين الفينة والفينة أخبار ثقافية غير جديرة بالترجمة، في وقت كنا نحاول فيه تثبيت خط الأخبار الثقافية، المتداعي أمام طوفان الأخبار الرياضية بكل أصنافها وأنواعها، وأخبار الديناميكيات المجنحة، ناهيك عن أخبار السياسية والاقتصاد التي لا سبيل لملاحقتها ولو أردنا. في تلك الليلة، ربما في نفس ذلك اليوم، من شهر نوفمبر قبل سبع سنوات، وبعد طول انتظار، ظهر على الشاشة نبأ فوز إدواردو مندوثا، أديب إسبانيا الكبير بجائزة دار نشر بلانيتا، لم يكن الخبر الذي كنت أتمناه ولكن لمن لا يعرف مندوثا أو بلانيتا، فليستعد الآن ليعرفهما، عن طريق وكالتي وأخبارها العظيمة. حين وصلت للفقرة التي تتحدث عن العمل الفائز، وكيف تفنن الصحفي الذي صاغ الخبر الإسباني في طمس معالمه، وجدنتي أتمنى لو كان العمل بين يدي لأشعر في ترجمته على الفور، ولكن ليس للمرء ما يتمنى. مرت شهور وقامت الثورة وانطلقت قاطرة الربيع

العربي، ونسيت مندوثا، وروايتها، ولكن على ما يبدو هو لم ينس، ففي لفظة نادرة لا تتكرر، قررت السفارة الإسبانية نظرا لعدم إقامة معرض الكتاب بسبب الظروف التي كانت تمر بها البلاد، ولما كانت الكتب قد وصلت مصر بالفعل، ولأن تكلفة إعادتها لموطنها الأصلي، تفوق سعرها في ذلك الوقت، قررت توزيع الكتب على العاملين في السفارة وفي المركز الثقافي الإسباني، علمت بالخبر من زملائي في القسم الثقافي، فأسرعت على الفور كأني مدمن كتب عتيد، وهجمت على القاعة قبل الجميع، فإذا بي وجها لوجه مع رواية صديقي مندوثا، بلا أدنى تردد حملتها دون غيرها وخرجت مكتفيا. بدأت على الفور في قراءتها ووجدتها شيقة للغاية، وفي تفاصيلها تتضح ظروف تشابه مع كثير مما جرى ويجري في عالمنا ولكن قبل وقوع الحرب الأهلية الإسبانية (1936 - 1939). المهم؛ انتهيت من القراءة، وأسرعت لتقديمها كمقترح لمشروع ترجمة في المركز القومي للترجمة، وبالفعل بعد مرور نحو عام، رفض الاقتراح بسبب الاتجاه إلى ترجمة أعمال غير الرواية نظرا لوجود فائض كبير من الروايات لدى المركز. لم يشنني ذلك عن المشروع. يضاف إلى ذلك انشغالي عن الترجمة لأسباب تتعلق ببدء دراسة الماجستير عام 2014 والانتهاء منه عام 2016. كنت خلال هذه الفترة كلما شعرت بالكتاب يناديني لبيت النداء، ولكن كان هناك شبه جفوة من جانب النص تجاهي، فيلين جانبي ونسهر سويا لأسترضيه بعشر صفحات مرة واحدة، أو فصل كامل أحيانا، ثم نغيب عن بعضنا بالشهور، لدرجة أن النسخة المصورة التي أعمل منها، من شدة الضيق مني ومن أسلوب الغريب اختفت بدون إبداء أسباب. لم ييأس مندوثا بالرغم من أنني كنت أتركه كثيرا لكتابة نصوص، أو ترجمة أخرى، لأنني خلال تلك الفترة ترجمت ونشرت أعمالا أخرى مترجمة، فاز أحدها بجائزة مهمة. قبل مناقشة الماجستير، اقتنيت سبورة بيضاء مثل الناس المنظمين الذين يدونون مهامهم، قسمت سطحها ثلاثة

أقسام: الرسالة، ورواية مندوثا والثالث لمهام أخرى. حصلت على الماجستير في الترجمة، فلم يعد متبقيا في السبورة سوى قسمين. كانت تبقى على الحائط معلقة دون أن يتم تغيير المهام المدونة عليها لأنها لم تنجز. في تلك الأثناء سافرت إسبانيا أربع مرات، أحمل كتاب مندوثا معي ذهابا وإيابا. أحيانا أفتحه فأقرأ فصولا أو مقاطع أعجبتني، وأحيانا مثل الحمار يحمل أسفارا! أما عن السفر للإسكندرية أو شرم الشيخ أو الغردقة، فقبل أي متعلقات، كتاب مندوثا كان له الأولوية، بالرغم من علمي المسبق بأنني قد لا أفتحه أصلا. لكنني لم أستطع المقاومة. في النهاية، قررت دخول التحدي بعد طول الزمن وشعوري المؤلم بالتقصير في حق العمل، وشرعت في الإنجاز. ولم تكن المهمة سهلة. الرواية طويلة وتفصيلها كثيرة، تقع في 41 فصلا في 427 صفحة من القطع المتوسط. أسلوب مندوثا ليس صعبا ولكنه خاص جدا، فهذه تقريبا أول رواية لابن برشلونة (1943) عن مدريد، يبدو أنه اجتهد في توثيقها قدر المستطاع، أعمال بيلانكيث الفنية وحوادث البلاط الملكي تعتبر أحد الأبطال الأساسيين في الرواية، وشرح ذلك وربط التاريخ بالواقع مسألة في غاية الصعوبة. يمكن تقسيم الشخصيات من حيث مستويات اللغة على سبيل المثال من أعلى شريحة في المجتمع: طبقة النبلاء وأوساطها، رجال دين، ثم رجال سياسة، وأحزاب، وخدم ورعاع، ولكل منها أسلوبه المنفصل، لكن يجمع بينها جميعا الطابع المردي، في فترة الثلاثينيات بأمثلتها وصورها الاستعارية وعباراتها الدارجة وأقوالها المأثورة مغلقة دائما بأسلوب مندوثا الساخر بمرارة، سواء في أوقات الفرح أو أوقات الحزن. اللغة تطارد الشخصيات، والنص يطاردها والمترجم بينها يلهث، إلى أن سنحت الفرصة للسفر إلى إسبانيا خلال شهر نوفمبر 2017، لقضاء فترة من الوقت في بيت المترجم، حيث ساعدتني الأجواء المواتية به على إنجاز ترجمة هذه الرواية بالرغم من كل صعوباتها. من بين العلامات التي رأيتها وأنا في الطريق

إلى مدينة تاراثونا التابعة لمقاطعة أراجون بين تاراجوثا وصوريا، وجدت في أكثر من وسيلة مواصلات مقاطع من نصوص مطبوعة لمندوثا معلقة على أركانها، وصورته بوجهه البشوش المبتسم في براءة أسرة. حينما قدموني في معرض كتاب تاراثونا، وهو حدث ثقافي مهم بالنسبة للمقاطعة، نظرا للمكانة التاريخية للمدينة التي احتضنت أول مدرسة للمترجمين في تاريخ إسبانيا وتسبق مدرسة طليطلة، قدموني على أنني مترجم مندوثا، حاولت التهرب، مؤكدا أنني ترجمت من قبله أنطونيو ماتشادو، منشد حقول صوريا وريف قشتالة، رفائيل سانثيث فرلوسيو وخوان خيلمان وإيميليو جارثيا جوميث، لكن مندوثا كان له السبق، بالرغم من أنني لم أكن قد انتهيت منه بعد، وهؤلاء الآخرون أعماهم بالفعل في مكتبتي.

أود أن أشكر مندوثا فعلا على العالم الذي فتح أبوابه أمامي من خلال هذه الرواية التي توضح بصورة خيالية وعلى لسان غرباء، كيف يمكن للحوار أن يحل الكثير من الأمور وأن غيابه يؤدي لانقراض الجميع على بعض في شجار ققط مميت، يخسر فيه الجميع.

طه زيادة

تاراثونا، 23 / 11 / 2017

إدواردو مندوثا

شجار ققط

مدريد ١٩٣٦

«شجار ققط» لوحة زيت على قماش للفنان الإسباني فرانسيسكو دي جويا ترجع لعام 1786 وهي معروضة حاليا بمتحف البرادو بمدريد وتصور قطين في وضع شجار عنيف أعلى جدار حجري منهدم، لكي يثبت كلا منهما جدارته بإزاحة الآخر والتربع على قمة الجدار. وتلخص وضع التحفز في إسبانيا في ربيع عام 1936 قبل فترة وجيزة من اندلاع الحرب الأهلية. (المترجم)

4 مارس، 1936

عزيزتي كاثرين:

بعد عبور الحدود بقليل والانتهاه من الإجراءات الجمركية المضجرة، رحى في النوم، يهددني اهتزاز القطار، ذلك أني قضيت ليلة مضطربة، بسبب تراكم المشاكل والأحداث والأزمات التي تسببت فيها علاقتنا المتقلبة. لا أرى عبر نافذة القطار سوى ظلام الليل، وانعكاس صورتي على الزجاج: هيئة إنسان مشوش بفعل القلق. لم يجلب الشروق الراحة التي تصاحب عادة الإنباء عن يوم جديد. لا تزال السماء ملبدة بالغيوم وزاد شحوب الشمس المحتضرة من وحشة المشهد الخارجي وصورة روعي ذاتها. أخلدت للنوم في هذه الظروف، وأنا على وشك البكاء. بمجرد أن فتحت عيني، كان كل شيء قد تغير. سطعت شمس تتألق في سماء بلا حدود ذات زرقه عميقة، تعبرها بالكاد سحب صغيرة ناصعة البياض. كان القطار يقطع الميزيتا القشتالية القاحلة. أخيراً إسبانيا!

أو يا كاثرين! محبوبتي كاثرين، لو كان بمقدورك معاينة هذا المشهد الرائع لأدركت الحالة النفسية التي أكتب لك بها! لأنها ليست مجرد ظاهرة جغرافية أو مجرد تغير في المناظر الطبيعية، ولكنه شيء أكبر، شيء أكثر روعة. في إنجلترا وكذلك الحال في شمال فرنسا التي مررت بها تواء، الريف يكتسي

بحلة خضراء، الحقول خصبة، والأشجار سامقة؛ ولكن السماء منخفضة ورمادية وضبابية، لذا فالجو كثيب. أما هنا فعلى العكس، الأرض قاحلة والحقول جافة ومتشققة، ولا تنبت سوى شجيرات هزيلة؛ ولكن السماء لانهائية، والضوء مبهر. في بلادنا نسير دائماً مطاطي الرأس، ونظرنا مثبت نحو الأرض، مقهورين، هنا حيث لا تمنح الأرض أي شيء، يمضي الرجال برأس مرتفع، شاخصين بأبصارهم نحو الأفق. إنها أرض عنف، وشجن، وخصال فردية عظيمة. لا يرزحون مثلنا تحت وطأة أخلاقنا العتيقة وقناعاتنا الاجتماعية التافهة.

هكذا أرى علاقتنا الآن، عزيزتي كاثرين: خيانة ذنيئة محفوفة بالمكائد، الشكوك والندم. لم نعم خلال استمرارها (هل لعامين، أو ثلاثة ربما؟) سواء أنتِ أو أنا بأي لحظة سكينه أو بهجة. مستغرقتين في ضالة مناخنا الأخلاقي الوضع، لم نتمكن من إدراك ذلك، بدا لنا أننا مرغمان بصورة مأساوية على المعاناة، وأنه أمرٌ لا يمكن تجاوزه. ولكن ها قد حانت لحظة انعتاقنا، وشمس إسبانيا هي التي تولت كشفها لنا.

وداعاً عزيزتي كاثرين، أعيد إليك حريتك، السكينه والقدرة على الاستمتاع بالحياة التي تستحقينها عن جدارة، شبابك، جمالك وذكاءك. وأنا أيضاً، وحيد ولكن عزائي في الذكرى الممتعة لعناقاتنا الحارة بالرغم من أنها غير محتشمة، سوف أحاول العودة إلى طريق السلام والحكمة.

ملحوظة أخيرة. لا أعتقد أنك يجب أن تكدرى زوجك بالاعتراف بمغامرتنا. أدرك كم سيؤلمه معرفة خيانة صداقة ترجع لأيام كمبريدج الخوالي. فضلاً عن الحب الصادق الذي يكنه لك.

المخلص للأبد،

أنتوني.

باغته السؤال. كان مستغرقا في تحرير الرسالة، وبالكاد استوعب وجود ركاب آخرين في الديوان. كانت رفقته الوحيدة منذ كاليه⁽¹⁾ سيد فرنسي قليل الكلام، تبادل معه تحية في بداية الرحلة وأخرى عند الوداع، في بلباو؛ أما باقي الوقت فقد استغرق الفرنسي في النوم ملء جفنيه، وبعد رحيله؛ هذا ما فعله الإنجليزي. توالى صعود الركاب الجدد في المحطات المتعاقبة بينهما. يسافر الآن أيضًا، بالإضافة إلى أنتوني، وكأعضاء فرقة مسرحيات اجتماعية متجولة، قس عجوز، ريفي متقدم في السن، فتاة قروية شابة خشنة المظهر والشخص الذي يرافقها، رجل يصعب تحديد عمره أو ظروفه الاجتماعية، ذو رأس حليق وشارب عريض على طريقة الجمهوريين. كان القس مسافرًا بحقيبة خشبية متوسطة، الفتاة ببقعة متفخخة، أما الآخر فمعه حقيبتان ضخمتان من الجلد الأسود.

- أنا لا أتكلم الإنجليزية، أتعلم حضرتك؟ (تابع إزاء إذعان الإنجليزي أمام السؤال الأول) نو إنجليس⁽²⁾. أنا، إسبانيس. حضرتك إنجليس، أنا إسبانيس. إسبانيا مختلف تماما عن إنجلترا. Different مختلف. إسبانيا، شمس، ثيران، قيثارات، نبيذ. Everibodi كل الناس أوليه⁽³⁾. إنجلترا، لا شمس، لا ثيران، لا بهجة، (إيفريودي كابوت).

صمت برهة ليمنح الإنجليزي وقتا لاستيعاب نظريته السوسولوجية
وأضاف:

1. بلدة شمال فرنسا

2. اختار الكاتب إظهار المبالغة في ادعاء المسافر من خلال كتابة كلمة English كما ينطقها الإسبان Inglis حيث إن صوت (Sh) لا يوجد في الإسبانية، وهو نفس ما فعله في نطق كلمة (Spanish) حيث جاءت (Spanis) على لسان المتحدث. (المترجم)

3. صيحة تشجيع مصارعة الثيران الشهيرة

- في إنجلترا، ملك. في إسبانيا، لا ملك. زمان، ملك. الفونسو. لا ملك بعد الآن. انتهى. الآن جمهورية. رئيس: نيتو الكالا تامورا⁽¹⁾. انتخابات. تولى لروكس⁽²⁾ السلطة، الآن أثنان⁽³⁾. أحزاب سياسية، كثيرة كما تشاء، كلها سيئة. سياسيون أوغاد. إيفريودي حمقى.

خلع الإنجليزي نظارته، مسحها بالمنديل الذي كان يطل من الجيب العلوي لسترته، وانتهز الفرصة لينظر من النافذة. لم تكن هناك شجرة واحدة فوق الأرض المصطبغة بالطمي، الممتدة على مرمى البصر. رأى من بعيد بغلاً، يمطيه على طريقة النساء فلاح يتلفع بشال ويعتمر قبعة عسكرية. يعلم الله من أين أتى وإلى أين يمضي. فكر قبل أن يعود إلى محدثه بتعبير متجهم، مظهرًا عزوفه عن الحوار.

- أنا على دراية بتقلبات السياسة الإسبانية (قال برود) ولكن بصفتي أجنبي، أعتبر أني غير مسموح لي بالتطفل على الشؤون الداخلية لبلدكم أو إبداء آراء في هذا الخصوص.

- لا أحد هنا يتعرض لأحد، يا سيد (قال المسافر الثرثار محبطاً إلى حد ما، بعدما أدرك إجادة الإنجليزي التي استعرضها للإسبانية) لا حاشي وكلا. قلت ذلك فقط لأحيطكم علماً بالمسألة. حتى لو كان الإنسان عابراً، لا يضر - إذا لزم الأمر - أن يعرف من سيقابل. على فرض: أني كنت في

-
1. نيتو الكالا تامورا (1877 - 1944) أول رئيس حكومة في الجمهورية الإسبانية الثانية.
 2. أليخاندر لروكس جارثيا (1864 - 1949) سياسي إسباني تولى رئاسة الحكومة لفترة وجيزة لا تتجاوز شهر خلال الجمهورية الثانية.
 3. مانويا أثنان دياث (1880 - 1940) خلف تامورا في رئاسة الحكومة عام 1936 واستمر حتى عام 1939 وهي فترة الحرب الأهلية التي قضت على الجمهورية وأتت بنظام فرانكو الديكتاتوري والذي استمر حتى عام 1975.

إنجلترا لسبب ما، وطراً على بالي سب الملك. ماذا سيحدث؟ فليسجنوني. طبيعي. وهنا، نفس الشيء، ولكن بالعكس. القصد من الكلام أن الأمور تغيرت منذ فترة في هذا المكان.

- لا يبدو ذلك، فكر الإنجليزي، ولكنه لم يفصح: كان فقط يريد إنهاء هذه المحادثة المملة. أدار بصره ببراعة نحو القس، الذي كان يتابع خطبة الجمهوري المنمقة بتظاهر يشوبه الرفض. أتت المناورة بثارها المرجوة. أشار الجمهوري إلى القس بإبهامه وقال:

- هنا - ودون أن نذهب بعيداً - لديك يا سيدي مثال على ما كنت أتحدث عنه. حتى بضعة أيام، كان هؤلاء يخلّون ويربطون وفق هواهم. اليوم يعيشون على الكفاف، ومتشرذمون ونحن وراءهم بالمرصاد. أليس كذلك يا أبتّ؟

عقد القس ذراعيه أمام صدره وتطلع باهتمام إلى المسافر.

- يضحك كثيراً من يضحك أخيراً. (أجاب بلا وجل).

تركهما الإنجليزي مشتبكين في مبارزة بالعبارات والأمثال. بطيئاً ومملأً ظل القطار يواصل طريقه، مرّ عبر سهل كثيب مخلفاً عاموداً من الدخان في الهواء النقي الشفاف في شتاء الميزيتا. قبل معاودة النوم سمع الجمهوري يعلق:

- أرأيت يا أبتّ، لا يحرق الناس الكنائس والأديرة جزافاً أو من دون سبب مقنع. لم يحرقوا حانة أبداً، أو مستشفى أو حلبة مصارعة ثيران. إذا كان الشعب في كل إسبانيا اختار أن يحرق كنائس، مع صعوبة إضرام النيران فيها، فذلك لعلّة ما.

أيقظته هزة عنيفة. كان القطار قد توقف في محطة مهمة. عبر الرصيف كان موظف سكة حديد يرتدي عباءة وكوفية وقبعة رسمية يسرع مغمغماً.

يهتز في يده ذات القفاز مصباح نحاسي مطفأ.

- بينتا دي بانيوس⁽¹⁾! تغيير القطار بالنسبة للمسافرين المتجهين إلى مدريد! الإكسبريس خلال 20 دقيقة!

أنزل الإنجليزي حقيبته من على رف القطار، ودّع رفاقه وخرج إلى المرمر. ارتعشت ساقاه المتيستان بفعل البقاء لساعات طويلة بلا حراك. وبالرغم من ذلك قفز إلى الرصيف، حيث تلقفته لفحة من هواء بارد قطع أنفاسه، وعبثا حاول البحث عن موظف السكة الحديد: الذي بدوره بعد إتمام مهمته، كان قد عاد بلا تأخير إلى مكتبه. كانت ساعة المحطة قد توقفت مشيرة إلى ساعة غير منطقية. كان هناك علم ثلاثي الألوان⁽²⁾ رثّ معلق في سارية. رجّح الإنجليزي أنه من الأصوب البحث عن ملاذ في قطار الإكسبريس، ولكنه بدلا من ذلك قطع المحطة في اتجاه الخروج. توقف أمام باب زجاجي معتم بسبب الصقيع والسخام، فوقه لافتة مدون عليها: مقصف. في الداخل كانت مدفأة زيت تبعث قليلا من الدفء وتجعل الهواء مكتوما. خلع الإنجليزي نظارته المتسخة ونظفها بربطة عنقه. في المقصف كان هناك زبون وحيد يرتشف مشروبًا كحوليًا أبيض، مستندا بمرفقيه إلى الطاولة، ويدخن سيجارا. كان عامل المحل ينظر إليه وييده زجاجة شراب. اتجه الإنجليزي نحو العامل.

- صباح الخير. أنا بحاجة إلى إرسال رسالة. ربما يكون لديكم طوابع

1. بلدة صغيرة تابعة لإقليم كاستييا إي ليون شمال إسبانيا.

2. علم الجمهورية الإسبانية الثانية، اعتمد رسميا خلال الفترة بين 1931 و 1939، وهو مخطط بشكل أفقي يحمل الألوان الأحمر من أعلى والأصفر في الوسط والبنفسجي في الأسفل ويتوسطه شعار الجمهورية.

بريد. وإن لم يكن؛ أخبرني إن كان في المحطة محل دخاخي⁽¹⁾.

ظل العامل ينظر إليه فاغراً فاه. ثم غمغم.

- ما كان ليعرف ماذا يقول لك.

تدخل زبون البار الوحيد بدون أن يرفع عينيه عن كأس الشراب.

- لا تكن فلاحاً ساذجاً. أي انطباع سيأخذه السيد عنا؟ (وأشار إلى الإنجليزي) اعذر الفتى. لم يفهم كلمة واحدة مما قلت. لديك كشك سجائر في مدخل المحطة ذاتها حيث يمكنك شراء طوابع وستجد صندوق بريد. ولكن فلتتناول كأساً من الشراب.

- لا شكراً جزيلاً.

- لا ترفضها مني. أنا أدعوك. بهيئتك هذه، تحتاج إلى مقوِّ.

- لم أحسب البرد سيكون شديداً هكذا، عندما رأيت الشمس...

- هذه ليست مالا جايًا سيدي. إنها بنتا دي بانوس، إقليم بالنسيا. هنا عندما تشتد؛ تشتد. حضرتك أجنبي، حسبما يبدو من هيئتك.

صب عامل البار كوب شراب، تجرّعه الإنجليزي بسرعة. ولما كانت معدته خاوية، فقد أحرق حلقة وأهلب جوفه، ولكن دفناً محبباً سرى في جسده بالكامل.

- أنا إنجليزي (قال مجيباً على سؤال زبون البار) ويتعين عليّ الإسراع إن لم أرغب في أن يفوتني إكسبريس مدريد. إذا لم يكن ثمة مضايقة؛ سأترك الحقيبة هنا حتى أذهب إلى كشك السجائر لأكون أخف حملاً.

1. كانت هذه الأماكن هي المختصة ببيع طوابع البريد. (المترجم)

ترك الكأس فوق الطاولة وخرج من باب جانبي يؤدي إلى بهو المحطة. طاف عدة مرات دون أن يعثر على الكشك حتى أشار له عامل إلى نافذة مغلقة. طرق بأطراف أصابعه، وبعد برهة فتحت النافذة وأطل رأس رجل أصلع، يحمل تعبير انزعاج. عندما شرح له الإنجليزي غرضه، أغمض عينيه وحرك شفتيه كما لو كان يصلي. ثم انحنى، وعندما اعتدل ثانية وضع على حافة النافذة مجلدًا ضخماً. أخذ يتصفحه بعناية، ذهب وعاد بميزان صغير. سلم الإنجليزي له الخطاب، فقام موظف البريد بوزنه بحرص. ثم عاد لمراجعة الكتاب وحسب رسوم البريد المقررة. دفع الإنجليزي ورجع عدواً إلى المقصف.

كان النادل ينظر إلى السقف ويده خرقة قدرة. أجاب على سؤال الإنجليزي بأن حسابه دفعه الزبون الآخر حسب الاتفاق. كانت الحقيبة ماتزال على الأرض. أخذها الإنجليزي، أعرب عن شكره وخرج عدواً. كان إكسبريس مدريد قد بدأ يتحرك ببطء بين سحب البخار الأبيض وزخات الدخان، بخطى مهرولة لحق العربة الأخيرة وصعد إلى القطار.

وبعد أن طاف بعدة عربات دون أن يعثر على مقصورة خالية، قرر أن يبقى في الممر، بالرغم من تيار الهواء البارد الذي يخترقه. أشعره العدو بالدفء، كما عوّضه الارتياح لإرسال الخطاب عن المجهود. لم يعد هنا من سبيل لحل الأمر الآن. فلتذهب النساء إلى الجحيم.

كان يودّ البقاء بمفرده ليستمتع بحريته التي نالها أخيراً، والاستمتاع بالمنظر الطبيعي، ولكن بعد برهة رأى الشخص الذي دعاه في المقصف قادمًا يترنح. حيّاه فوقف الآخر إلى جواره. كان رجلاً يناهز الخمسين من عمره، قصيراً، هزيلًا، ذا وجه متغضن، جفونه متورمة أسفل عينيه، وذا نظرة قلقة.

- هل تمكنت من إرسال الخطاب؟

- نعم. حين عدت إلى المقصف، كنت حضرتك قد انصرفت. لم تتح لي الفرصة لأشكرك على لطفك. هل تسافر في الدرجة الثانية؟

- أسافر كما يحلو لي. أنا شرطي، ولا تنظر هكذا: بفضول هذا لم يسرق أحد حقبتك. في إسبانيا لا يمكنك أن تكون حسن النية إلى هذا الحد. هل ستبقى في مدريد أم ستواصل السفر؟

- لا، أنا ذاهب إلى مدريد.

- هل يمكنني أن أسألك عن الغرض من زيارتك؟ بصفة شخصية... مفهوم. لا تجب إن لم ترغب.

- لا أمانع. أنا خبير في الفن، وخاصة فن التصوير الإسباني. لا أبيع ولا أشتري. أكتب مقالات، ألقى محاضرات وأتعاون مع بعض قاعات العرض. وبسبب أو بدون سبب، أذهب إلى مدريد كلما استطعت إلى ذلك سبيلا. يعتبر متحف البرادو بمثابة منزلي الثاني. ربما كان من الأجدر أن أقول الأول. أشعر بالسعادة فيه أكثر من أي مكان آخر.

- ياه، يبدو أنها مهنة لطيفة. لم أكن لأقول ذلك مطلقاً (علق رجل البوليس) إذا لم تكن وقاحة مني، هل يوفر لك هذا لقمة العيش؟

- لا تدرُّ كثيرا (أضاف الإنجليزي) ولكنني أحظى بدخل صغير.

- لحسن الحظ أنه موجود، (قال رجل البوليس لنفسه تقريبا. ثم أضاف) إذن، إذا كنت تأتي إلى إسبانيا كثيرا وتتكلم لغتنا جيدا؛ أتصور أنه يجب أن يكون لك أصدقاء كثيرون هنا.

- أصدقاء، أصدقاء، لا. لم أقض مطلقا فترة طويلة في مدريد، والإنجليز... كما تعرف، قوم متحفظون.

- إذن فستبدو لك أسئلتى نوعاً من الابتزاز. لا تأخذ الأمر على محمل
السوء، إنها عيوب المهنة. أراقب الأشخاص وأحاول تخمين مهنهم، حالتهم
الاجتماعية، وحتى نواياهم، إن استطعت. تعتمد مهنتي على التوقع، وليس
القمع. التحقت بالعمل بإدارة أمن الدولة والأوقات مضطربة. بطبيعة
الحال لا ألمح إلى سيادتك؛ الاهتمام بشخص ما لا يعني الشك فيه. يمكن
أن يتخفى وراء الشخص الأكثر ابتذالاً، فوضوي أو عميل استخبارات
قوى أجنبية، تاجر رقيق أبيض. فكيف نفرق بينهم وبين الناس الشرفاء. لا
يحمل أحد شارة تخبر عن وضعه. ومع ذلك الجميع يخفون أسراراً. وبدون
أن نذهب بعيداً، حضرتك مثلاً، لماذا كل هذه العجلة في إرسال خطاب كان
بمقدورك أن ترسله من مدريد بمنتهى الهدوء بعد بضع ساعات؟ لا تقل
شيئاً، أنا متأكد أن لكل شيء تفسيراً في غاية البساطة. ضربت لك مثلاً فقط.
هذه هي مهمتي، لا أكثر ولا أقل: كشف الوجه الحقيقي خلف القناع.

- الجو بارد هنا، (قال الإنجليزي عقب فترة صمت) وأنا لست متدثراً
كما ينبغي. بعد إذن حضرتك، سأبحث عن مقصورة فيها القليل من الدفء.

- حسناً، حسناً، لن أعطلك أكثر. سوف أذهب إلى عربة المطعم لتناول
شيء والثرثرة مع النُدُل. أنا معتاد السفر على هذا الخط وأعرف العاملين. يعتبر
أي نادل مصدر معلومات قيم للغاية، خاصة في بلد يتحدث بصوت عالٍ. أتمنى
لك رحلة سعيدة وإقامة طيبة في مدريد. بالتأكيد لن نرى بعضنا مرة أخرى،
ومع ذلك أترك لك بطاقتي، لعل وعسى. ليفتاننت كولونيل جومير سيندو
مارانون في خدمتك. إذا احتجت لشيء اسأل عني في إدارة الأمن العام.

- أنتوني وايتلاندرز، (قال الإنجليزي وهو يحفظ البطاقة في جيب سترته)
تحت أمر سيادتك بالتأكيد.

بالرغم من الإرهاق بسبب السفر الطويل، نام أنتوني وإيتلاندر نوما خفيفا وأيقظته في بعض الأحيان ضوضاء بعيدة تشبه طلقات بندق. نزل في فندق متواضع لكنه مريح، عرفه من سفريات سابقة. البهو ضيق ومحصور، وموظف الاستقبال مدعٍ بشكل سيئ، ولكن التدفئة المركزية جيدة، والحجرة فسيحة وذات سقف عالٍ، وبها خزانة ملابس كبيرة جدًا، سرير مريح بملاءات نظيفة وطاولة بمقعد ومصباح جانبي مثالي للعمل. تطل النافذة المستطيلة، ذات المصاريع الخشبية، على ميدان أنخل الهادئ المنعزل، بينما تلوح قبة كنيسة سان سباستيان من أعلى المنازل المقابلة.

ومع ذلك لم يكن الجو العام مبهجا. بسبب البرد، حل محل صخب الليل المدريدي، العواء الكثيب لرياح الجبال القاسية، والتي تلف أوراق الشجر الجافة وأوراق القمامة المتناثرة في دوامات عبر أرض الشارع السوداء، اللامعة من أثر الصقيع. كانت واجهات المباني مغطاة بلافتات دعايات انتخابية، ممزقة وقذرة، وملصقات إعلانية تمثل كل الاتجاهات وتدعو بلا استثناء للإضراب، للتمرد والصدام. لم يكن أنتوني ملما بالموقف فحسب، بل إن خطورة الموقف كانت هي سبب مجيئه إلى مدريد، إلا أن الرؤية الحقيقية للأشياء أغرقته في مزيج من القلق والإحباط. يندم أحيانا على إرسال الخطاب الذي أنهى علاقته بكاثرين، كانت علاقة مليئة بالقلق، ولكنها كانت الحافز الوحيد لحياته في الوقت الحاضر.

بقلب منقبض ارتدى ملابسه على مهل، متفحفا هيئته بين الفينة والأخرى في مرآة الدولاب. لم تكن الصورة مرضية. كانت الثياب مجمدة من أثر السفر، وبالرغم من تمرير الفرشاة عليها بعناية فائقة، لم يتمكن من إزالة آثار تراب القطار. هذه الثياب، علاوة على سحته المريضة وحالته المنهكة، أضفت عليه هيئة بعيدة كل البعد عن جو الناس الذين كان يستعد لزيارتهم، كما أنها لا تتلاءم أبداً مع الانطباع الذي أراد أن يتركه لديهم.

بمجرد خروجه من الفندق سار عدة أمتار ليصل إلى ميدان سانتا آنا. طلع النهار، ومحت الريح السحب وأصبحت للسماء حدة صفاء صباحات الشتاء الثلجية. تستقبل الحانات والمطاعم الشعبية أول زبائنها. ينضم أنتوني إليهم ويدلف إلى محل تفوح منه رائحة قهوة وخبز ساخن. يتصفح جريدة، بينما ينتظر أن يأتيه النادل. يخرج من العناوين الرئيسية وسيل إشارات الإعجاب بانطباع عام أقل تشويقاً. وقعت مصادمات في كثير من مقاطعات إسبانيا بين مجموعات تنتمي لأحزاب متناحرة، أسفرت نتائجها المشؤومة عن سقوط عدد من القتلى والكثير من الجرحى. وهناك إضرابات في عدة قطاعات. في إحدى بلدات إقليم كاستييون، طرد العمدة راعي الإبراشية، ونُظّم حفل راقص داخل الكنيسة. في بلدة بيتانثوس قطعوا رأس وقدمي تمثال للمسيح. كان زبائن الحانة يعلقون على هذه الأحداث بإشارات متكلفة وعبارات اجتهادية، بينما ينفثون دخان سجائرهم بغضب.

معتاداً على وجبات الإفطار الإنجليزية الدسمة، سبب له فنجان القهوة الثقيلة والتشوروس⁽¹⁾ المزيته شعوراً سيئاً، كما لم يسهم في تصفية أفكاره أو رفع حالته المعنوية. نظر في ساعته في كل مرة بدت فيها الساعة السادسة

1. حلوى إسبانية تشبه بلع الشام في العالم العربي. وتعتبر القهوة مع هذه الحلوى الإفطار الإسباني التقليدي. (المترجم)

المعلقة فوق المشرب متوقفة مثل ساعة محطة بنتا بانيوس. مازال لديه وقت كاف لحضور الموعد، ولكن الصباح والدخان أضجراه، لدرجة أنه دفع الحساب وخرج إلى الميدان.

بعد دقائق قليلة من السير بخطى سريعة وجد نفسه أمام أبواب متحف البرادو، الذي فتح تَوًّا للجمهور. أظهر لموظفة شباك التذاكر أوراق هويته التي تثبت أنه بروفيسور وباحث، وعقب مداولات وتردد، تركوه يدخل مجانًا. لم يكن هناك زوار تقريبًا خلال هذه الفترة من العام وخاصة في ظل أوضاع العنف وانعدام اليقين التي تعيشها مدريد، ومن ثم كان المتحف مهجورًا. عمت القاعات برودة ثلجية. لا مبالياً بأي شيء آخر لا علاقة له بلم الشمل مع متحفه الذي طال شوقه إليه؛ توقف أنتوني لحظة أمام تمثال «الغضب» لكارلوس الخامس المنحوت من البرونز من أعمال ليون ليوني. يرتدي الإمبراطور درعًا رومانياً، وممسكًا برمح بينما يقبع خاضعاً تحت قدميه، مهزومًا ومكبلاً تجسيد العنف البربري، بأنف مسحوق أسفل مؤخرة المنتصر، الذي يمثل النظام ويفرضه على الأرض بتفويض إلهي مهما كلفه الأمر.

يغمره شعور بالارتياح إزاء هذا النموذج للقوة، شد الإنجليزي قامته واتجه بتصميم إلى قاعة بيلاثكيث⁽¹⁾. تبهره أعمال هذا الفنان لدرجة أنه لا يعاين مطلقاً أكثر من لوحة. هكذا درسها منذ سنوات، واحدة تلو الأخرى، مترددًا على المتحف بشكل يومي ومعها مفكرة كان يدون فيه الملاحظات التي كان يستخلصها. بعد ذلك، يعود إلى مقر إقامته منهكًا ولكن سعيدًا ليقوم بنقل الملاحظات إلى دفتر أكبر بورق مسطر.

1. ديجو رودريجو دي سيلبا إي بيلاثكيث (1599 - 1660) يعد أحد أشهر فناني العصر الذهبي الإسباني وأهم فناني عصر الباروك. وبالرغم من أنه اشتهر كفنان البلاط الملكي إلا أن فنه مايزال يقف متفردًا بعبقرية لا خلاف عليها حتى اليوم (المترجم)

ومع ذلك، هذه المرة، لم يأت بغرض كتابة أي شيء، ولكن كحاج هرع إلى المكان الذي يبجل فيه القديس، متوسلاً حمايته. مفعماً بهذه الشعور المبهم، توقف أمام لوحة، اختبر المسافة المناسبة، مسح نظارته ونظر إليها ساكناً تقريباً دون أن يصدر عنه أي نفس.

كان بيلاثكيث قد رسم بورتريه دون خوان النمساوي⁽¹⁾ في نفس المرحلة العمرية التي عليها الإنجليزي الآن، والذي يتطلع إليه مبهوراً. فيما مضى كان ضمن مجموعة المهرجين والأقزام الذين رُسمت لهم لوحات خُصصت لتزيين القصور الملكية. ربما يكون صادماً الآن أن يكلف أحد فنائنا كبيراً لرسم بورتريهات لهذه المخلوقات المثيرة للشفقة، ويحوّل تلك اللوحات إلى تحف وديكورات، ولكن هذا الأمر لم يكن كذلك في الماضي، وفي النهاية؛ فإن نزوة الملك الغريبة كانت الدافع وراء هذه الأعمال العظيمة.

وبعكس رفاقه في المجموعة، لم يكن لدون خوان النمساوي العضو المتبنى، وظيفة ثابتة في البلاط. كان مهرجاً بدوام جزئي، يتم التعاقد معه بشكل موسمي لملء فراغ مؤقت أو لدعم فرقة المرضى، البلهاء والمجانين الذين كانوا يرفهون عن الملك وحاشيته. لم تحفظ سجلات الأرشيف اسمه، فقط لقبه الشاذ. مساواته بأعظم رجل عسكري في الجيوش الإمبراطورية والابن غير الشرعي لكارلوس الخامس ربما كان جزءاً من المزحة. يوجد قربينة عند قدمي المهرج في البورتريه، بدافع تشريف اسمه، وخوذة وبضع كرات تصلح لأن تكون لمدفع من العيار الصغير، ثيابه ملكية، يقبض على عصا المارشالية ويعتمر قبعة كبيرة بشكل غير متناسق، بها إعوجاج طفيف،

1. كان دون خوان النمساوي (1547 - 1578) ابناً غير شرعي للإمبراطور كارلوس الخامس. ينسب إليه تحقيق النصر الحاسم على العثمانيين في موقعة ليبانتو الشهيرة للسيطرة على البحر المتوسط ربما تجدر الإشارة إلى أن اللوحة المعنية هنا هي لمهرج يحاكي هيئته. (المترجم).

مزينة بريش زاهي الألوان. هذه الثياب الباذخة لم تخف الواقع، بل أبرزته: يلاحظ في التوشوارب ضخمة سخيفة وإقطاب الجبين الذي، مع التقدم لبعضة قرون، تجعله يشبه نيتشه. المهرج لم يعد شابًا. يدها غليظتان، ساقاه على العكس رفيفتان وتوحيان بينية ضعيفة. الوجه هزيل إلى حد بعيد، بارز عظام الوجنتين، ذو نظرة مراوغة ومرتابة. وللمزيد من السخرية، خلف الشخصية وفي أحد جوانب اللوحة، تلمح معركة بحرية أو آثارها: مركب مشتعل، ودخان أسود. تولى دون خوان النمساوي الحقيقي قيادة القوات الإسبانية في معركة ليبانتو ضد الأتراك، أعظم مآثرة عرفت على مر القرون، حسب كلمات ثربانتييس. معركة اللوحة ليست واضحة: يمكن أن تكون تفصيلا من الواقع، مجازًا، محاكاة أو حلم المهرج. المقصود من التأثير أن يكون ساخرًا، لكن الإنجليزي كانت تدمع عيناه كلما تأمل معركة موضحة بتقنية تتفوق على كل فنون الرسم في عصرها، والتي سوف يستخدمها تيرنر⁽¹⁾ لنفس الغرض.

بعد جهد، استعاد أنتوني هدوءه تطلع مجددًا إلى ساعته. لن يذهب بعيدًا، ولكن يتعين عليه الانصراف إذا كان يريد الوصول إلى الموعد بالذقة المتوقعة منه بكل تأكيد، ليس على سبيل الفضيلة أو كبرهان على النبالة، بل كملمح فلكلوري من جنسيته: المثالية الإنجليزية في دقة المواعيد. ولما لم يكن أحد يراه، حيا المهرج بإنحناءة من رأسه، استدار نصف دورة، وخرج من المتحف دون إبداء اهتمام بالأعمال العظيمة المعلقة على الجدران.

بمجرد أن وطئ أرض الشارع، أدرك بشكل مفاجئ أن التفكير

1. هو الفنان الإنجليزي المثير للجدل جوزيف مالورد ويليام تيرنر (لندن 1775 - 1851) نجحت تقنياته الرائدة في رفع فن رسومات المناظر الطبيعية إلى مصاف الأعمال التاريخية. (المترجم)

الكثيب الإضافي بسبب تأمل اللوحة، بدد إحباطه بدلاً من أن يزيده. وعى لأول مرة بوجوده في مدريد، المدينة التي تستحضر ذكرياته الطيبة، وتغمره بشعور مثير بالحرية.

لطالما أحب أنتوني وايتلانديز مدريد. بخلاف العديد من مدن إسبانيا وأوروبا، أصل مدريد ليس يونانياً، ولا رومانياً، ولا يرجع حتى إلى العصور الوسطى، إنما إلى عصر النهضة. أنشأها فيليب الثاني من العدم، حيث أقام البلاط الملكي هناك عام 1561. ولهذا السبب، ليس لمدريد أساطير حول تشييدها ترجع إلى آلهة غامضة، أو عذراء رومانية تحتضنها تحت عباءة منحوتة من الخشب، أو كاتدرائية مقدسة تبسط ظلها الثقيل على الجزء القديم منها. لا يحمل شعارها قاتل تنانين متمرس؛ قديسها الشفيع فلاح متواضع ينظمون في ذكره احتفالات شعبية ومهرجانات لمصارعة الثيران. شيد فيليب الثاني، للحفاظ على هبة استقلالها الطبيعية، الإسكوريال⁽¹⁾ وبهذا أبعد عن مدريد غواية التحول إلى مركز روحاني علاوة على مركز السلطة. وبالمعيار نفسه، رفضت إيجريكو⁽²⁾ كفنان بلاط. بفضل هذه الإجراءات الحكيمة؛ فإن في المدرديين عيوب كثيرة، ولكنهم ليسوا مهرطقين. ولما كانت عاصمة إمبراطورية ضخمة يمنحها الدين الدعم والتماسك، فلم تتمكن مدريد من البقاء مطلقاً بمنأى عن الظاهرة الدينية، ولكن بقدر المستطاع أرسلت إلى مدن أخرى أكثر جوانبها قتامة: فكانت سلمنكة مسرحاً للمناقشات الشيولوجية الحادة، عبر آبيلا سلك كلُّ من سانتا تيريسا دي خيسوس، سان خوان دي لا كروث وسان بدرو دي ألكانترادروب انتشائهم، أما قضايا

1. دير الإسكوريال جنوب مدريد الشهير ويرجع للقرن السادس عشر.

2. الرسام الشهير دومنيكوس ثيوتكوبولوس المعروف بإيجريكو (1541 - 1614) يعد أحد أهم فناني عصر النهضة في إسبانيا. (المترجم)

العقيدة الرهيبة فكان مألها إلى توليدو.

سار أنتوني وايتلاندر بالرغم من البرد والرياح، مستمتعاً بصحبة
بيلانكيث والمدينة التي احتضنته وبوأتة قمة الشهرة، عبر باسيو ديل برادو⁽¹⁾
حتى ميدان ثيبيليس ثم واصل عبر ريكوليتوس حتى باسيو دي لا كاستيانا.
بحث هناك عن الرقم الذي أخبروه به فوجد نفسه أمام سور عالٍ وسياج
من القضبان الحديدية. رأى عبر القضبان في نهاية حديقة، قصرًا من طابقين
ذا مدخل بأعمدة وشرفات مرتفعة. ذكرته هذه الفخامة بلا تفاخر بطبيعة
مهمته، وتخلت النشوة عن دور البطولة للشعور السابق بالإحباط. على أي
حال؛ أصبح الوقت متأخرًا على التراجع. فتح الباب، اجتاز الحديقة حتى
باب المدخل وطرق.

مكتبة
t.me/t_pdf

1. واحد من أهم الشوارع الرئيسية بوسط مدريد (المترجم).

قبل ثلاثة أيام فقط، كان العرض يبدو بالنسبة له فرصة عظيمة لتغيير جانب من حياته التي أصبحت لا تطاق. عندما كان وحيداً عقد العزم على إنهاء مغامرته مع كاثرين. بعد ذلك، كانت عزمته تخور، بمجرد التقائه بها، فيتخذ موقفاً ملتبساً متحيراً يحول اللقاء إلى دراما عبثية: كلاهما كان معرضاً لخطر افتضاح أمره، ومقابل ذلك كله؛ لم يحصل إلا على فترة من التكدير، مليئة بالعتاب والصمت المرير. ولكن كلما اتضحت له أكثر ضرورة الانتهاء من تلك العلاقة غير السوية؛ زادت كآبة استحضار صورة حياته الطبيعية المستعادة. كانت كاثرين تمثل عنصر الإلهام الوحيد في حياة مبنية على الكثير من الغش. والآن، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، كان محكوماً عليه ألا يأمل في شيء، سوى روتين كلما ازداد سَحْقُهُ؛ كلما بدا في أعين الناس أنه في قمة آماله وطموحاته.

كان ينحدر من أسرة تنتمي للطبقة المتوسطة، ولكن ذكائه وإصراره فتحا له أبواب كمبريدج. هناك كان سبب انبهاره بالفن أولاً، ثم فن التصوير وأخيراً التصوير الإسباني في العصر الذهبي، فكرس له كل طاقته الفكرية والعاطفية. وكتائج لهذا التركيز تحلى عن أي اهتمام أو نشاط آخر، وهكذا بينما كان زملاؤه يجرون بحثاً عن مغامرات عاطفية أو يتحولون إلى الأيديولوجيات المسمومة في تلك الأعوام؛ ظل هو متفوقاً في عالم مسكون

بقديسين وملوك، أميرات ومهرجين أبدعتهم فرشة بيلاثكيث، ثورباران⁽¹⁾ وإلجريكو وغيرهم كثيرين من الفنانين الذين جمعوا بين براعة تقنية لا نظير لها ونظرة دراماتيكية سامية للكون. بدأ يعمل عقب الانتهاء من الدراسة، وبعد أن قضى فترات طويلة في إسبانيا وفي رحلات عبر أوروبا. سرعان ما أكسبته المعرفة، النزاهة، والدقة؛ مكانة مرموقة، ولكن بدون شهرة أو مال. كان اسمه يتردد داخل الدائرة المحدودة بين المنتطعين، الذين لديهم استعداد مسبق للنقد أكثر من التشجيع. لم يكن يتطلع للمزيد في هذا المجال أو أي مجال آخر. حل التطور الطبيعي لصدقة أفضت إلى الزواج من فتاة شابة جذابة، مثقفة وثرية، مشاكله المادية كما أتاح له أن يكرس كل وقته وجهده لاهتمامه الأكبر. رغبة منه في مشاركة امرأته بموضوع أحلامه؛ قاما معا برحلة إلى مدريد. تزامنت للأسف مع إضراب عام، زد على ذلك أن زوجته أصيبت بمرض معوي بسبب الماء أو الطعام، مما دفعهما لعدم تكرار التجربة. أجهزت حياة البيت مع شبكة كثيفة من العلاقات الاجتماعية المتسلطة على علاقة لم تكن عاطفية أو مستقرة على الإطلاق. مع فقدانه بالطلاق لمصدر دخله الرئيسي، ركز أنتوني على عمله. وعندما بدأ العمل أيضًا يصبح خانقًا بالنسبة له، تقريبًا بلا هدف محدد؛ شرع في مغامرة مع زوجة زميل دراسة قديم. على عكس زوجته، كانت كاترين جامحة وشهوانية. من المؤكد أنها كانت تبحث فقط، مثله، عن القليل من الإثارة داخل وجود تقليدي، ولكن على الفور أصبح الموقف بينهما لا يحتمل: أدركا متأخرًا جدًا الثقل الجاثم على نفسيهما من قبل القواعد الاجتماعية، كان قد تراءى إليهما كسرهما من باب التسلية، ليكتشفا بعد ذلك أنها لا تمثل فقط جزءا من ضميرهما، بل من صميم هويتها.

1. فرانثيسكو ثورباران (159 - 1664 8) واحد من أهم فناني العصر الذهبي الإسباني تميز برسم اللوحات الدينية للقديسين والشهداء والراهبات. (المترجم).

مرات عديدة، وإزاء استحالة طلب الانفصال وجها لوجه، عنّ لأنتوني وإيتلاندر كتابة رسالة إلى كاثرين، رغم الخوف من أن يعدّ ذلك ترك دليل مكتوب على جرمه، لي طرح عليها بطريقة ما قراره الذي لا رجعة فيه، ولكنه كان يتراجع بعد جهد كبير ومضن في التحرير. وبقدر ما كان يفتقر للحجج كانت تعوزه الكلمات أيضًا.

ذات مساء كان في مكتبه، مستغرقًا مجددًا في هذه المهمة المضجرة، حين أخبرته الخادمة بحضور سيّد محترم وقدمت بطاقته على صينية. لم يكن أنتوني يعرف الزائر شخصيًا ولكنه كان قد سمع في مناسبات عديدة بالحديث عن بدرو تيتشر مصحوبا دوماً بعبارات قليلة الشناء. كان شخصًا ذا خاتمة غامضة، اندس بين عالم جامعي المقتنيات الفنية، حيث جرت العادة على أن يرد ذكر اسمه مرتبّطًا بصفقات مشبوهة. حالت هذه الشائعات، والتي ربما كانت غير صحيحة، وفي كل الأحوال لم يتم إثباتها مطلقًا، دون قبول طلب انضمامه إلى «⁽¹⁾Reform Club»، الذي ينتمي إليه أنتوني. ففكر أن هذه المسألة قد تكون الحافز وراء هذه الزيارة غير المتوقعة. لو كان منشغلًا بكتابة مقالٍ حول تخصصه، لكان قد صرف الزائر غير المنتظر بلباقة. ولكن الآن سمحت له المقاطعة تأجيل خطاب كاثرين، وهكذا حفظ ورق الرسالة، وطلب من الخادمة إدخال بدرو تيتشر.

- في المقام الأول، (قال الزائر بمجرد استيفاء الرسميات الأولية) يجب أن أعتذر على اقتحام خصوصيتك بدون موعد مسبق. أثق في أن طبيعة الأمر الذي جاء بي إلى هذا المنزل ستكون مُبررًا لهذا الخطأ الذي لا يغتفر.

كان أسلوب الخطاب سليماً بشكل مبالغ فيه، أكثر من أن يكون طبيعيًا،

1. نادٍ اجتماعي عريق تأسس عام 1836 بلندن، وافتتح عام 1841 وتم اتخاذه بعد ذلك كمقر للحزب الليبرالي بغرض تشجيع حركة الإصلاح الكبرى في بريطانيا. (المترجم)

على غرار كل ما يتعلق بشخصه. يناهز الأربعين وقصير القامة. طفولي الملامح ويده قصيرتان ودقيقتان لدرجة أنها تتحركان بلا توقف أمام وجهه. ذو شارب رفيع طرفاه مبرومان إلى أعلى قليلاً، وعينان مستديرتان ورماديتان تضيفان عليه هيئة قط، يلمح من بشرته طبقة مكياج خفيفة كما يفوح منه عطر غال ومسكّر. كان يضع مونوكل، ويتتعل حذاء أجلسيه يعلوه واطق جلدي، وأسلوب ملبسه رائع ولكنه غير متماشٍ مع هيئته: كانت ثيابه عالية الجودة، لتضفي وجهة على رجل طويل؛ بينما بدت عليه كوميدية نوعاً ما.

- لا عليك، (أجاب أنتوني) أخبرني كيف يمكنكني أن أفيد حضرتك.

- سوف أوضح لحضرتك فوراً سبب المقابلة. ومع هذا، قبل ذلك أود أن أترجلك ألا يتعدى أي مما ستحدث عنه هذه الجدران الأربعة. أعلم أنني أهين حضرتك بالتشكيك في حسن تصرفك الذي لا غبار عليه، ولكن هذا الأمر على وجه التحديد يتعلق بأمور حيوية على المحك. هل تمنع لو دخنت؟

إزاء إيحاء إذعان من جانب مضيفه، أخرج سيجارة من علبة مذهبة، وضع طرفها في مبسم من الكهرمان، أشعلها، أخذ نفساً وتابع:

- لا أدري إن كنت تعرفني، سيد وايتلاندرز. من اسمي يمكن تخمين أنني، نصف إنجليزي ونصف إسباني، ولهذا السبب لدي صداقات في كلا البلدين. اهتمت بالفن منذ المراهقة، ولكن لافتقاري لأي موهبة، باستثناء إدراك هذه الحقيقة، فقد دخلت المجال بصفتي تاجراً وأحياناً استشاري. يشرفني بعض الفنانين بصداقتهم وأفتخر بأن بيكاسو وخوان جريس سمعوا بي.

بدر عن أنتوني إشارة على نفاذ صبر لم تخف على زائره.

- سوف أدخل في الموضوع الذي كنت أود الحديث مع حضرتك بشأنه،

(قال) اتصل بي منذ يومين صديق قديم وعزيز، سيد إسباني رفيع الشأن، مقيم في مدريد، رجل ذو جاه و ثراء والمالك السعيد، بالميراث وبفضل حسن ذوقه الخاص، لمجموعة لوحات إسبانية لا يستهان بها. ليس ضروريًا أن أشرح لك المآزق الذي تتعرض له إسبانيا. معجزة فقط يمكن أن تحول دون انجراف هذه الأمة إلى هاوية ثورة دامية. العنف السائد يصيب بالقشعريرة. لا منجى لأحد في هذه الأوقات، ولكن بالنسبة لحالة صديقي وأسرته، لأسباب واضحة، الموقف أقل من يائس بقليل. أشخاص آخرون في ظروف مشابهة غادروا البلاد أو استعدوا لذلك. ومن قبل ولتأمين المعيشة، حولوا كميات كبيرة من المال إلى بنوك أجنبية. أصدقائي لا يستطيعون القيام بعمل كهذا، نظرًا لأن كل دخلهم مصدره في الأغلب من الأملاك الزراعية. يتبقى لهم فقط المجموعة الفنية المذكورة. حضرتك معي سيد وايتلاندرز؟

- تمامًا، وأتوقع نهاية القصة.

ابتسم الضيف ولكنه استمر في الحديث، بدون أن ترهبه مقاطعة محدثه. - الدولة الإسبانية، مثل كل الدول، لا تسمح بتصدير تراثها الفني الوطني، حتى لو كان ذلك مقتنيات خاصة. ومع ذلك، فإن قطعة ليست كبيرة الحجم أو معروفة جيدًا، يمكنها خداع الحراسة والخروج من البلاد، وعمليًا، إذا كانت العملية، تتخللها بعض الصعوبات، فإن المعضلة الأساسية ستكون تحديد القيمة المادية للعمل موضوع الصفقة. لهذا يستلزم الأمر خبير مثنى يحظى بثقة جميع الأطراف المعنية. لا داعي لأن أقول في هذه الحالة من سيكون الخبير المثنى الأمثل في الأمر الذي يشغلنا الآن.

- أنا، على ما أعتقد.

- ومن أفضل؟ أنت على معرفة عميقة بفن التصوير الإسباني. قرأت

كل كتاباتك عن الموضوع وبمقدوري أن أشهد بمدى علمك، وكذلك أيضًا بقدرتك على فهم أكثر من أي شخص آخر الشعور المأسوي لدى الإسبان. لا أقول إنه لا يوجد في إسبانيا أشخاص أكفاء للغاية، ولكن وضع الأمر بين أيديهم ينطوي على مخاطرة كبيرة: يمكن أن يقدموا على إدانتنا لأسباب أيديولوجية، لضغينة شخصية، لمصلحة خاصة أو حتى من باب الثرثرة. الإسبان يثرثرون. أنا نفسي أفعل ذلك، كما ترى حضرتك.

صمت لبرهة ليثبت أنه يستطيع أن يكبح هذه الرذيلة القومية، ثم تابع خافضًا من صوته:

- سوف أخص في كلمتين تفاصيل عرضي: على وجه السرعة، لأن الأيام وحتى الساعات فارقة، حضرتك سوف تتوجه إلى مدريد، حيث ستتصل بالشخص المعني، والذي سوف أكشف لك عن هويته إذا توصلنا لاتفاق. وبمجرد الاتصال، فإن الشخص المعني سيعرض مقتنياته الفنية عليك، أو جزءًا منها، لتساعده بشأن القطعة الأنسب للأغراض الموضحة؛ لاحقًا، فور الاتفاق على الاختيار، ستقيم حضرتك العمل وفقًا لأفضل ما لديك من معلومات وتقدير، يتم الإفادة عن القيمة التي يتوصل إليها بموجب هذا التقييم تليفونيًا من خلال كلمة سر أو شيفرة سرية، سيجري إحاطتك بها في حينه. على الفور وبلا نقاش تُودع هذه القيمة في أحد بنوك لندن في حساب باسم الشخص المعني، وبمجرد ضمان السداد، يبدأ العمل محور الصفقة رحلته. لن تشارك حضرتك في المرحلة الأخيرة من العملية؛ وهكذا أي مشاكل يمكن أن تحدث لن تتحمل عنها أي عواقب قانونية أو من أي نوع. على أية حال، ستظل هويتك مجهولة، ولن يظهر اسمك في أي مكان، مالم تكن حضرتك تفضل العكس. يتحمل الطرف المعني نفقات السفر، وبحسب العرف، سوف تحصل حضرتك على العمولة المقررة في هذا

النوع من الصفقات. وبمجرد انتهاء المهمة سيكون بمقدورك العودة للإقامة في إسبانيا، كما يحلو لك. وبخصوص السرية التي يتعين أن تحيط بالصفقة، فإن كلمتك كسيد إنجليزي ستكون كافية.

وقف لمدة وجيزة لثلا يتيح وقتاً للاعتراض، واستطرد:

- اعتباران آخران لتبديد الشكوك والحيرة. لا يمكن اعتبار أن استعارة قطعة تافهة من التراث الفني الإسباني الضخم في الظروف الحالية بمثابة تهريب بل إنقاذ. إذا اندلعت الثورة، سيتعرض الفن لخسائر فادحة مثل باقي البلاد، وبصورة لا يمكن إصلاحها. الاعتبار الثاني لا يقل أهمية في مضمونه، لأنه بتدخلك سيد وايتلاندرز، سوف تسهم بدون شك في إنقاذ العديد من أرواح البشر. تدبّر الآن وقرر وفقاً لضميرك.

بعد ثلاثة أيام، أمام بوابة القصر المنيف الذي تبدو عليها بوضوح سمات أسلوب هيريرا⁽¹⁾، تساءل أنتوني وايتلاندرز إذا كان وجوده هنا تلبية لأغراض الإيثار التي أوضحها بدرو تيتشر، أم لمجرد الرغبة في التخلي عن روتينه، ومدفوعاً بهذه الرغبة، وفقاً لما كان عليه الحال، للفراغ من مغامرته العاطفية. وبينما كان يحاول أن ينفخ في حماسه المتداعي روح مغامرة يفتقر إليها تماماً، فُتح باب القصر وسأله كبير الخدم عمّن يكون وما هو سبب زيارته.

1. خوان دي هيريرا (1530 - 1597) أحد أشهر المعماريين الإسبان خلال عصر النهضة. إشارة الكاتب لأنار هيريرا البادية على القصر تأكيد على العراقة.

أخبر السيد الدوق أن بدرو تيتشر هو مَنْ أرسلني. للغرابة كان كبير الخدم رجلاً يافعا. ذا بشرة داكنة، شعر مجعد، سوارف طويلة وهيئة مساعد مصارع ثيران⁽¹⁾. من الصعب تصور تناقض أكبر من الذي كان جليا بين الإنجليزي والفجري. ظل يتطلع متفحّصًا إلى الزائر، وحينما بدا أنه على وشك أن يغلق الباب في وجهه، تنحى جانبًا، وطلب إليه الدخول بإيماءة إذعان ثم أغلق الباب بسرعة خلفه.

- انتظر هنا، (قال بنبرة جافة جديرة بأمر أكثر من خادم) سوف أخبر صاحب السعادة.

اختفى عبر باب جانبي تاركًا أنتوني وايتلاندرز في بهو فسيح الأبعاد، عالي السقف، ذي أرضية من الرخام وعارٍ من الأثاث، مضاء بالكامل مصمم بغرض أن يكون معبرًا للأصدقاء، ولاستقبال الغرباء وقوفًا وبدون مجاملات. ولولا الضوء الخارجي الذهبي الداخل من النوافذ المرتفعة الضيقة المطلة على الحديقة، لكانت فترة الانتظار موحشة.

غاضبا بصره عن كل ما ليس له علاقة بالمجال الضيق لاهتماماته، حين مكث أنتوني بمفرده أخذ يتفحص اللوحات المعلقة على الحوائط. أغلبها

1. هو حامل الراية من بين طاقم مصارعة الثيران.

كانت لمشاهد صيد، شدت واحدة من بينها اهتمامه بقوة. تعد «مصرع أكتيون»⁽¹⁾ واحدة من أهم أعمال مرحلة نضوج تيزيانو⁽²⁾. كانت اللوحة التي يتطلع إليها تقليدا رائعا للأصل، الذي لم تتح لأنتوني الفرصة مطلقاً ليشاهدها، على الرغم من أنه شاهد العديد من التصاوير وقرأ ما فيه الكفاية ليتعرف على العمل في التو، ورد الموضوع في عدة مصادر، لكن أشهرها كانت «التحولات» لأوفيد. منطلقاً في رحلة صيد مع بعض الأصدقاء، ضل أكتيون طريقه وبينما كان يهيم على وجهه في الغابة؛ فاجأ ديانا عندما تجردت من ثيابها لتستحم في البركة. غضبت الإلهة فحولت أكتيون إلى أيل فمزقته كلابه، دون أن يبدو أمراً ذا بال. أورد أوفيد أسماء جميع الكلاب التي كان يضمها قطيع كلاب الصيد الخاصة بأكتيون، وفي بعض الأحيان أصولها، أشار إلى منشئها وعدّد خصاها. تراكم التفاصيل في النهاية جعل منها تهديداً، كل المشاركين فيه يعرفون بعضهم بعضاً، ولأنهم لا يدركون ولا يمكنهم التواصل، فقد كان ذلك أكثر ألماً. يحكي أوفيد أن كلبين متأخرين كانا أول الواصلين إلى سيدهم، ولكنها سلكا طريقاً مختصراً. يقول الشاعر، لا يجب إلقاء اللوم على أحد، بسبب هذا الحادث المفجع، لأن سلك الطريق الخطأ ليس جريمة. تقول روايات أخرى إن أكتيون كان يرغب في غواية الإلهة، بالحديث أو بالقوة. بعضها يلخص القضية في أن أحداً لا يستطيع

1. بحسب الأسطورة فإن أرتميس إلهة الصيد والبرية، وإبنة زيوس وشقيقة أبولو، كانت تستحم في بحيرة على جبل كيثايرون عندما شاهدها بالصدفة الأمير والصيد، أكتيون. وفقاً لإحدى روايات الأسطورة فإن أكتيون اختبأ بين الشجيرات واستمر باستراق النظر إليها وهي تستحم، فغضبت أرتميس غضباً عارماً عندما اكتشفته وحولته إلى أيل فطارده كلابه الخاصة وقتلته. وبالمقابل، فإن رواية أخرى تحكي أن أكتيون تفاخر بأنه أمهر في الصيد من أرتميس، فحولته الأخيرة إلى أيل، فاقتاتت عليه كلابه. (المترجم).

2. فنان عصر النهضة الإيطالي الشهير تيتسيانو فينشلينو (1488 - 1576) يعتبر من أشهر رسامي بلاط ملوك أوروبا وباباواتها خلال عصر النهضة. (المترجم)

مشاهدة الآلهة؛ -سواء بملابس أو بدونها- ويخرج سالماً. يصور تيزيانو المشهد بطريقة غير متسقة: ديانا لاتزال مرتدية ثيابها وبدلاً من إلقاء اللعنة على أكتيون، بدت كما لو كانت تتأهب لرميه بسهم أو أنها قد رمته بالفعل. بالكاد بدأ تحول الصياد تعيس الحظ: لا يزال يحتفظ بجسده البشري، ولكن له رأس أيل صغير بصورة غير متناسقة؛ ولم يحل هذا دون أن تهاجمه الكلاب بضرواة كما لو أنها قد انقضت على فريسة صيد عادية، على الرغم من أنها من المفترض أن تكون قد تعرفت على رائحة سيدها. للوهلة الأولى يمكن إرجاع هذه الأخطاء إلى التسرع أو تراجع حماس الفنان بسبب عمل كلف به. لكن تيزيانو، على العكس، رسمها في آخر عمره، واستغرق في إنجازها أكثر من عشر سنوات. عند وفاته، كانت اللوحة لاتزال في حوزة الفنان. تنقلت بين عدة أيدٍ، وطافت بعدة بلاد حتى آلت في النهاية لمجموعة خاصة في إنجلترا. النسخة التي كان أنتوني يطالعها الآن حجمها أصغر قليلاً من الأصل، وتم إنجازها، حسبما أتبع له أن يستنتج، أواخر القرن التاسع عشر، على يد ناسخ لوحات متمكن. كيف وصلت إلى بهو ذلك القصر المدريدي؟ كان هذا لغزاً حاول أن يحله عندما قاطعه صوت من خلفه.

- معذرةً، سيدي، هل حضرتك مدرس الإنجليزية الجديد؟

عندما استدار واجه طفلة ذات صفائر طويلة، ترتدي زي تلميذة.

- أخشى أنه لا، أجب. كيف عرفتِ أنني إنجليزي؟

- من الهيئة.

- إلى هذه الدرجة يلاحظ عليّ؟

اقتربت الطفلة أكثر قليلاً من الضيف القادم تَوّاً للتأكد من صحة تخمينها أو من صدق محدثها. من رؤيتها عن قرب بدت أكبر مما تدل عليه

ثيابها وسلوكها الطفولي؛ كانت نحيفة، دقيقة الملامح وذات عينين واسعتين فضوليتين.

- والدي يريدني أن أتعلم الإنجليزية إذا ما اضطررنا لمغادرة مدريد. لا أذهب إلى المدرسة منذ أكثر من شهر. لكنني لا أحب دراسة اللغات. الإنجليزية بروتستانت، أليس كذلك؟
- الأغلبية.

- يقول الأب رودريجو إن البروتستانت سوف يذهبون إلى الجحيم بلا رحمة. السود، حتى لو كانوا وثنيين، إذا كانوا أخيرًا فسوف يذهبون إلى اللببوس⁽¹⁾. البروتستانت، على العكس، سوف يذهبون إلى الجحيم، حتى لو كانوا أخيرًا، لأنهم مع استطاعتهم أن يكونوا كاثوليك، أصروا على الخطأ.
- إذن لن أكون أنا من يعارض الأب رودريجو. ما اسمك؟

- ألبا ماريا، لكن الجميع ينادونني ليلي.

- ليلي، في خدمتكم. (صحح صوت قوي من خلفها).

دخل رجل طويل، عابس، ناصع الجبين وأشيب الشعر. استوعب الموقف من نظرة واحدة، مر بجانب الطفلة مرتبًا وبسط نفس اليد إلى الإنجليزي بدون أن يغير الحركة.

- معذرة على الانتظار. أنا ألبارو ديل بايي إي سلاميرو دوق إجوالاتا. حضرتك مبعوث بدرو تيتشر. أمل ألا يكون هذا الزلزال قد أزعجك بجراته. وقفت ليلي خلف ظهر والدها. شبت على أطراف أصابعها وهمست

1. وفقًا للاعتقاد الكاثوليكي: (limpo) هو المكان الذي تتجمع فيه أرواح البشر الأخيار الذين توفوا قبل قيامة المسيح.

بشيء في أذنيه، بالانتهاء من ذلك، خرجت عدوًا من البهو.

- على الإطلاق (قال الإنجليزي) إبنة حضرتك تصرفت كمضيفة رائعة وبشرتني بالعقاب بأسلوب ساحر.

- لا تكثر لها، (أجاب الدوق) ولا تعتقد أنه يقلقها كثيرًا خلاص روح حضرتك. أخبرتني توًا أنك تشبه ليسلي هوارد⁽¹⁾. لكن لن نمكث هنا. تفضل في مكثي لو تكرمت.

اجتازا حجرتين دون أن يلتقيا بأحد ثم دلفا إلى حجرة مكتب شديدة الرحابة. بدلًا من الأثاث القشتالي الفظ، كانت المكتبة مزينة على الطراز الإنجليزي، بأرفف من الخشب الفاتح مكتظة بالكتب القديمة مغلقة بالجلد موشاة بأحرف مذهبة. على أحد الحوائط كانت إحدى مائيات سورويا⁽²⁾، وعلى الآخر مجموعة رسومات لم يتمكن الإنجليزي من تحديد رساميها. بجانب اللوحات كانت هناك صور فوتوغرافية شخصية في أطر وقورة من الفضة. فقط في أحد الأركان تقبع خزانة الكتب التي لا مفر منها، ميراث عائلي على الأرجح. كان كل شيء في ذلك المكان ينضح بالذكريات. نافذة كبيرة ذات ثلاث درف تطل على قطاع من الحديقة حيث أشجار السرو السامقة، وسياج النبات المشذب يحوط ركنًا بديعًا به تماثيل، فسقية ومقعد من الرخام. لاحظ أنتوني، عندما أطل ليتأمل هذه البانوراما، وجود شخصين واقفين إلى جوار الفسقية. المسافة وظلال الأشجار أتاحا له فقط

1. ليسلي هوارد (1893 - 1943) ممثل مسرحي وسينمائي بريطاني من أشهر أدواره (أشلي ويلكس) في فيلم «ذهب مع الريح» 1939. عُرف أيضا عنه نشاطه المناهض للنازي أثناء الحرب العالمية الثانية (المترجم).

2. خواكين سورويا (1863 - 1923) فنان إسباني برع في رسم البورتريه والمناظر الطبيعية خاصة شواطئ إسبانيا. نال شهرة عالمية بسبب روعة أسلوبه.

تحديد رجل طويل، ذي معطف طويل، أزرق داكن، وسيدة شقراء الشعر ترتدي ثوبًا أخضر. على الرغم من أنهما كانا وحدهما، ولا يمكن رؤيتهما إلا من القصر فقط لأن سورًا كان يفصل الحديقة عن الشارع، اعتقد أنه لاحظ شيئًا مختلفًا في سلوكهما. مدرّكًا أنه يراقب من كانا لا يرغبان أن يُشهدا، حوّل نظريه عن النافذة ووجهها نحو مضيفه، الذي تكدرت سحته، إما بسبب ما كان يحدث في الحديقة في تلك اللحظة، أو لأن شخصًا غريبًا عن البيت قد اطلع عليه. ومع ذلك لم يقل أي منهما شيئًا بهذا الخصوص. استعاد وجه الدوق سكينته الودودة وأشار بيده إلى أريكة جلدية. مستجيبًا لتلك الإشارة، جلس أنتوني على الأريكة والدوق على أحد المقاعد. تناول علبة فضية من منضدة صغيرة، فتح الغطاء، قدم سيجارة إلى الزائر، وإزاء رفضه، تناول واحدة، أشعلها، وضع ساقًا على ساق ودخن لبرهة لكي يترك انطباعًا أن الموضوع الذي جمعهما لن تجري مناقشته على عجل.

- ليس سهلاً (قال في النهاية) طرح موضوع بالغ الحساسية مع شخص يُعرف فقط من السماع. كلمني بدرو تيتشر عن حضرتك بعبارات مديح، سواء بخصوص كفاءتك أو شمالك الشخصية. أعرف بدرو تيتشر منذ عقود، وبالرغم من أن معاملاتنا كانت تجارية قبل أن تكون صداقة، لا يوجد ما يجعلني أشك في نزاهة أحكامه ونواياه. إن هذا برهان على حساسية الموقف الذي أشرت إليه تَوًّا، إنني أستطيع أن أضع ثقتي، لكن بصورة أقل في مَنْ لا أعرفهم. حضرتك سيد محترم: احكم إلى أي مدى من المشين أن يضطر رجل مثلي إلى اللجوء لطلب مساعدة الغرباء.

عندما قال ذلك ارتعش صوته قليلاً، لكن سيطر على الانفعال وواصل قائلاً مدعيًا التلقائية:

- لا أخاطبك بهذا الأسلوب لاستدرا عطفك أو ما شابه، لكي

أعوّل على مساندتك، بل على العكس: كل ما يحدث في إسبانيا اليوم مغلفٌ بسمت الجنون، علاوة على الخطر، ولو أنكرناه. وبناء عليه، في حالة إذا قررت حضرتك التخلي عن الأمر والعودة إلى بلدك، فسأتحمل المسؤولية تمامًا. بعبارة أخرى: تصرّف حضرتك بمعيار مهني محض، قدم مصالحك الشخصية على أي اعتبار آخر ولا تدع العواطف تتدخل في قرارك. لا أريد عبثًا آخر على ضميري.

أطفأ السيجارة في منفضة السجائر بحركة عنيفة، نهض واتجه إلى النافذة. بدا أن تأمل الحديقة هدأً من روعه، لأنه عاد للجلوس، أشعل سيجارة أخرى وأضاف:

- إذا لم أكن مخطئًا، صديقنا المشترك أحاطك بالخلفيات...

أوما أنتوني برأسه علامة الإيجاب. ثم، إزاء صمت محدثه، قال:

- أخبرني كريمتكم اللطيفة، لربما بدون أن تقصد، أنكم قد ترحلون للعيش في الخارج. أتصور أن موضوعنا له علاقة بهذه الخطط.

تنهد الدوق وقال بصوت عميق:

- ابنتي شديدة النباهة. أنا لم أقل لها شيئًا بهذا الشأن، ولكن من الطبيعي أن تكون قد خنت مقصدي. يكفي الخروج إلى الشارع لمعاينة مدى تداعي الموقف. أخرجتها من المدرسة منذ أكثر من شهر لدواعي الأمن. يتولى قس بصورة مؤقتة تأهيلها، سواء أخلاقيا أو أكاديميا.

أطفأ السيجارة، وأشعل أخرى بصورة آلية وتابع:

- إنها فقط مسألة وقت لتندلع الثورة. اشتعل الفتيل ولا شيء يمكن إطفائه بالفعل. سوف أكون صريحًا مع حضرتك، سيد وايتلاندرز، أنا لا أخشى الثورة. لن أكون بهذا العمى لكي لا أرى الظلم الذي ساد في إسبانيا

منذ قرون. لم تمنعني امتيازاتي الطبقيّة من دعم إجراءات إصلاحية، بدءًا من الإصلاح الزراعي. علمتني إدارة ضياعي والمعاملة مع مستأجري الأرض الكثير في هذا الخصوص أكثر من كل الخطب، التقارير ومناقشات بعض سياسيي المقهى، المصطبة والوزارات. أعتقد من الممكن تحديث العلاقات الطبقيّة والمنظومة الاقتصادية بما يعود بالنفع على البلاد بصورة عامة، وتحديدًا جميع الإسبان، أغنياء أو فقراء. ما نفع الثروات إذا كان الشعب نفسه يشحذ السكين الذي سيقطع أعناقنا؟ ولكن الوقت قد تأخر كثيرًا بالنسبة للإصلاح. بسبب اللامبالاة، العجز أو الأنانية، لم يكن هناك تفاهم وعند هذا الحد فإن حلًا سلميًا للصراع سيكون بلا جدوى. اندلعت منذ عام ونيّف ثورة شيوعية في أستورياس. تم إخمادها، ولكن، ارتكبت طوال مدة استمرارها، تجاوزات كثيرة، خاصة ضد رجال الدين. أخرجت رفات الراهبات من توابعها ودُنست، جثة واحد من قساوسة كثيرين تم اغتيالهم تحولت لموضوع استهزاء من قبل العامة، حيث علقت عليها لافتة تقول: لحم خنزير للبيع. هذه ليست أفعال الشيوعيين تحديدًا ولا تنتمي لأية أيديولوجية، سيد وايتلاندرز. إنها ببساطة وحشية وتعطش للدم. ثم تدخل الجيش والحرس المدني والقمع كان رهيبًا. أصابنا مس من الجنون، ولم يعد هناك سوى الكلام. في ظل هذه الظروف لا سبيل أمامي سوى إخراج عائلتي من البلاد. لدي زوجة وأربعة أبناء، ولدان وابتتان. ليلي هي الأصغر. لدي ثمانية وخمسون عامًا. لست كهلاً، ولكني عشت كثيرًا وعشت جيدًا. لا أستبعد مسألة قتلي، ولكنها لا تخيفني أو تزعجني. لو كان الأمر يتعلق بي لبقيت. فكرة الهروب تتناقض مع طبيعتي؛ ليس لما تنطوي عليه من جُبن فحسب بل لأكثر من ذلك. التخلي عن إسبانيا مثل التخلي عن شخص عزيز في المرحلة الأخيرة من داء عضال لا شفاء منه. لا يمكن عمل شيء، ولكن مكاني إلى جوار فراش المريض. ومع ذلك، عائلتي تحتاج إليّ.

من وجهة النظر العملية، بطل ميت عديم النفع مثل جبان ميت.

نهض فجأة، قطع بضع خطوات في المكتب ومد ذراعيه.

- لقد تحدثت كثيرة وأستميحك عذرًا. مخاوفي لا تعنيك. لكن كنت أود أن أثبت لك أني لست من المضارين على الأعمال الفنية. كما أنه في الآونة الأخيرة لدي مناسبات قليلة للكلام. أحاول أن أحافظ على أهلي بعيدًا عن هذه الأشياء ولا يتساوى الأمر مع مَنْ هم من خارج المنزل. يخشى الناس التعبير عن رأيهم ولا نقول الكشف عن مخططاتهم. لم يعد هناك أصدقاء، بل علاقات حزبية.

بدر عن الإنجليزي احتجاج مبهم، تعبيرًا عن انزعاجه من التلميح بأن أحدًا قد يسيء تفسير القرارات النبيلة والحكيمة لمضيفه. «ليس أنتوني وايتلاندرز بالتأكيد». لكن قبل الإدلاء بهذا التصريح، شق جو الغرفة الساكن رنين جرس منغم. انتفض دوق إجوالادا واقفًا كما لو كان جزءًا من النظام الميكانيكي للساعة نفسها مغتصبًا تعبيرًا مرحًا قال:

- المجد للرب المقدس، الواحدة والنصف ونحن نثرثر! الوقت يتبخر، يا صديقي، خاصة مع صحبة ثرثار قديم ومستمع كريم ومتفهم. على أي حال، لا يمكن أن أشرع في العمل ساعة طعام النصارى. فلندع الأمر لوقت أكثر ملاءمة. إلى ذلك الحين، إنه لشرف لي ومن دواعي سروري لو تكرمت بمشاركة وجبة خفيفة مع عائلتي. ما لم تكن، بالطبع، لدى حضرتك ارتباطات أخرى.

- على الإطلاق، (أجاب الإنجليزي) ولكن لا أريد بأي حال من الأحوال اقتحام حياة جنابكم الأسرية.

- ترهات، صديقي العزيز! كل شيء مباح في هذا المنزل، ما عدا

المجاملات. ولا تدع هذا المنزل الكبير يبهرك: ستري كم نحن أناس بسطاء.

بدون أن ينتظر إجابة، أفلت حبل شرابة ستارة معلقة في السقف، وبعد برهة اقتحم المكتب كبير الخدم وسأل إذا كان السيد الدوق يريد شيئاً. فسأله إذا كان السيد جييرمو قد عاد. لكن كبير الخدم لم يره.

- حسناً، (قال السيد بنفاد صبر) اطلب منهم أن يعدوا مكاناً إضافياً على المائدة. وأن يقدم الطعام في الثانية والنصف تماماً. وإذا عاد السيد جييرمو فليأكل أي شيء موجود، مُعاد تسخينه. وأخبر السيدة الدوقة أننا سنتناول فاتح الشهية في قاعة الموسيقى. جييرمو (أوضح بجدية غير مقنعة عندما انصرف كبير الخدم لينفذ الأوامر التي تلقاها) إنه ابني الأصغر، لكنه كبير الحمقى. يدرس الحقوق في مدريد، بينما يقضي جزءاً من العام في التردد على الضياع. وأنوي أن أترك بين يديه بالتدرج إدارة الممتلكات والعقارات. لم يغادر المنزل منذ عدة شهور. أمه لم تعش لتعلم كيف تسير الأمور في المناطق الريفية ولا تتوقع أقل من ذلك. لذلك فضلت الإبقاء على الأسرة منزوية. لكن الشباب لا يمكن تقييده من عنقه. بعد ثمانٍ وأربعين ساعة انهدت جدران البيت فوق رأسه وأول أمس ذهب في رحلة صيد في أرض بعض الأصدقاء، على وعد بالعودة اليوم الضحى. سوف نرى. ابني الآخر في رحلة إلى إيطاليا مع اثنين من رفاق الكلية. فلورنسا، سينا، بروجيا. أنهى دراسة الحقوق لكنه مغرم بالفن، ولن أكون من سيلومه على ذلك. هيا سيد وايتلاندرز، سوف أقدمك لزوجتي ونتناول كأساً من الشراب. نظام التدفئة عتيق وهذا قبر. آه، ولا تنبس بكلمة عمّا كنا نتحدث فيه بحضور زوجتي وبناتي. لا داعي لإقلاقهم أكثر مما هن عليه.

كانت عدة جذوات تشتعل بجذد في مدفأة قاعة الموسيقى، التي يتصدرها التمثال النصفي الأبيض المكفهر لبيتهوفن. شغل بيانو ذو غطاء ضخّم جزءاً كبيراً من فراغ الغرفة. كانت نوتة مقطوعة الافتتاحية المفتوحة على الحامل والنوتات الأخرى المتكومة فوق المقعد تدل على اعتياد استخدام الآلة الموسيقية. كانت الحوائط مكسوة بالحرير الأزرق فيما تطل النافذة على ركن من الحديقة به شجيرات برتقال وليمون.

ما إن دخلوا حتى اندفعت السيدة الدوقة إلى القاعة. كانت امرأة دقيقة الحجم تعلوها مسحة قبح طفيفة حولها السن والنزوع لعدم التكلف إلى نوع من الكبرياء. كان سلوكها يدل على ذكاء، طاقة وعناد، وتكلم بلكنة أندلسية أضفت عليها خفة دم فطرية. أوقعتها تلقائيتها وصراحتها اللتان لا يمكن كبحهما في أخطاء كثيرة وحماقات ساذجة، احتفى بها من عرفوها وتعاملوا معها بمتهى الرقة والحنان. لم يكن من الصعب تخيل أن هذه المرأة هي محور البيت.

- أهلاً بك في هذا البيت، وبصفة خاصة هذه الحجرية: إنها ملاذي ومحرابي، (قالت بصوت مبتهج رخيم شبه متسرع) زوجي يعشق الرسم وأنا أعشق الموسيقى. وهكذا لا نتجادل أبداً. هو يحب ما يبقى وأنا ما يمضي. هل سيادتك مولع بالموسيقى، سيد...؟

- وايتلاندرز.

- يسوع، أي أسماء غريبة يسمونكم بها! ما اسمك بالمعمودية؟

- أنتوني.

- أنتونيتو؟ يا رجل، هذا أفضل.

- السيد وايتلاندرز (تدخل الدوق بنبرة عفوية لا تخلو من احترام)

هو خير الرسم الإسباني الذي حدثتِك عنه، صديق بدرو تيتشر. جاء من إنجلترا مباشرة ليلقي نظرة على مجموعتنا المتواضعة، ولكن لأن الوقت داهمنا، قلت له أن يبقى للغداء. ألم يعد جييرمو؟

- منذ برهة، بحسب ما قاله لي خوليان، ولكن لأنه جاء بهيئة قاطع

طريق، فقد صعد ليغتسل ويرتدي ملابس نظيفة.

في تلك اللحظة دخلت ليلي، برفقة شابة قُدمت إلى الإنجليزي باسم فيكتوريا فرانثيسكا إيوخينيا ماريا ديل بايي إي مارتينيث دي ألكانتارا، ماركيزة كورنيا، والتي يناديها الجميع باكيتا، ابنة الدوقين وشقيقة ليلي الكبرى. كانت نحيلة، وبرغم الملامح العادية، احتفظت بالشبه بينها وبين والدتها، والذي على النقيض من ذلك جعل منها امرأة شديدة الجاذبية. تناولت بدون ابتسام اليد التي مدها إليها الضيف وضغطت عليها بسرعة وقوة، تكاد تكون ذكورية. بعد ذلك انسحبت إلى ركن في الصالة وأخذت تتصفح مجلة مصوّرة. بالرغم من أنها لم تكن ترتدي ثوباً أخضر، تساءل أنتوني وايتلاندرز إن كانت تلك الشابة ذات المظهر الخجول هي المرأة الغامضة التي رآها في الحديقة منذ برهة برفقة عشيق مجهول. في تلك الأثناء، كانت ليلي قد وقفت إلى جواره وأمسكت بيده بثقة صبيانية وجريئة. عندما وجه الإنجليزي اهتمامه إليها، قالت:

- معذرة على ما قلته لك من قبل. لم أقصد إهانتك.

- أوه، ليس إهانة أن أشبه ليسلي هوارد.

خجلت الطفلة وتركت يده.

- ليلي، اتركي أنطونيتو يمحتسي الخيريث⁽¹⁾ في سلام. قالت الدوقة.

- لا تزعجني. غمغم وقد احمرّ خجلاً بدوره.

أعلنت خادمة هزيلة بصوت مرتفع أن الطعام مُعد. تركوا الكؤوس واتجهوا إلى حجرة الطعام. وبدون مراعاة البرتوكول، وقفت باكيثا إلى جوار أنتوني وأخذت بذراعه.

- هل حقاً تفهم في الرسم إلى هذا الحد؟ (سألته بفضاظة) هل يعجبك بيكاسو؟

- أوه، (أجاب الإنجليزي في عجلة ومرتبكاً بعض الشيء إزاء هذا الهجوم المباغت) بدون شك، بيكاسو يتمتع بموهبة عظيمة. ولكن لكي أصدقك القول، أعماله لا تثير حماسي، وهو نفس موقفي من الرسم الحديث بصفة عامة. استوعبت التكعيبية والتجريد من وجهة النظر التقنية، ولكن لا أدري إلى أين تريد أن تصل. إذا كان يتعين على الفن أن يصل إلى هدف ما، بالتأكيد. هل حضرتك من أنصار الطليعية؟

- لا، ولا المؤخرة⁽²⁾. أنتمي إلى القطاع الموسيقي في الأسرة. الرسم يضجرتني.

- لا أستوعب ذلك. تعيشين محاطة بأعمال فنية عظيمة.

1. أشهر أنواع النبيذ الإسباني ويصنع في منطقة خيريث لذا أطلق عليه اسمها (الترجم)

2. تلاعب لفظي بين مصطلحي الطليعية كحركة فنية والتي تعني أيضاً مقدمة الجيش (المقصود أنها ليست من أنصار التقدم ولا التأخر)

- هل تريد القول إنني طفلة مدللة؟

- لا، أستميحك عذرًا، لم أقل شيئًا من هذا القبيل. علاوة على إنها ستكون سخافة من جانبي: تعرفت بحضرتك تَوًّا.

- كنت أعتقد أن مهنة حضرتك هي التمييز بين الزائف والأصيل من النظرة الأولى.

- آه، لقد فهمت، حضرتكِ تعبين معي آنسة باكيثا.

- نعم قليلًا، سيد أنطونييتو.

تزايد ارتباك الإنجليزي. وفقًا لحساباته، فإن باكيثا يجب أن تكون قد تجاوزت السن التي تكون فيها فتاة من عائلة، خاصة لو كانت ميسورة الحال، ذكية ومرحة، فلا بد أن تكون متزوجة، أو مخطوبة على الأقل؛ أما إن كان العكس، وهو ما كانت عليه الحالة الراهنة بكل جلاء، فالبنت في هذه الحالة عادة ما تؤثر الاحتشام أو تبالغ في الطبيعية والاستقلالية بما لا يدع مجالًا للشك في عزوبيتها الطوعية. من هذه الأسباب استشعر أنتوني علة غامضة في النبرة الطروب للشابة الجذابة التي كان يدخل برفقتها في تلك اللحظة تحديدًا حجرة الطعام الفخمة بالمنزل.

السفرة كانت تتسع لثلاثين مدعوًا بكل سعة، على الرغم من أنه في تلك المناسبة تم وضع سبعة مفارش فقط على أحد الأطراف. تدلت ثريتان من السقف، وعلى الجدران كانت هناك لوحات بورترية حوّل أنتوني اهتمامه نحوها، منصرفًا بصورة مؤقتة عن المرأة الغامضة التي كدّرت بدافع المرح. بدون شك كانت عبارة عن قاعة للأسلاف بدءًا من شخصيات البلاط خلال القرن السابع عشر، على طريقة فان ديك، وصولًا إلى التيبس الأكاديمي أوائل القرن العشرين. متطلعًا إليها، تيقن أنتوني مرة أخرى من

أن الأرستقراطية الإسبانية لم تنجرّ مطلقاً للتكلف المبالغ فيه الذي سيطر على باقي أوروبا. رفضت بصلابة متغترسة الأزياء الرخيصة، الماكياج، وخاصة، الشعر المستعار الزائد، التي لم تكن تتماشى مع ملامحهم الداكنة، المتقشفة والمتجهمّة. قبلوا في المجلع عقص الشعر على هيئة ضفيرة ذيل حصان، وأن يظلوا في منتهى الفظاظة وراثثة الثياب مثل سائسي الخيل. الآن يبدي أنتوني إعجابه بهذا العناد النبيل، وبمقارنة عقلية بين البورترهيات الإنجليزية المترجعة المبالغة في التأنق ذات السترات المطرزة، والحدود المتوردة، والشعر المستعار منسدل حتى الأكتاف، مع شخصيات جوياء، الفظة، المنهكة، القذرة، غير أنها مفعمة بدفقة إنسانية وسمو، تأكدت قناعته بأنه اختار الجانب الصالح من المواجهة.

جلس الخمسة إلى المائدة، تاركين مقعداً ومفرشاً للشقيق الغائب وآخر إضافي على يسار السيدة الدوقة. أما هذه فتأكدت من أن كل شيء في موضعه ثم أشارت لزوجها، فأوماً بالإيجاب وأحنى رأسه. قلده الجميع ما عدا أنتوني وايتلاندرز. عندما فرغ الدوق الذي بارك الطعام الذي سيتناولونه؛ رفع رفاق المائدة رؤوسهم، سألت ليلي إن كان البروتستانت أيضاً يباركون المائدة. آتبها والدها على قلة احتشامها، إلا أن الإنجليزي أجاب بود أن البروتستانتين كانوا مولعين بالصلوات، وكانوا يقرؤون مقاطع من الإنجيل في كل وقت ومناسبة. - لكننا نحن الإنجيليين لا نبارك المائدة مطلقاً، ولهذا جزاءً لنا فإن الطعام سيء للغاية في إنجلترا.

حوّل دخول قس عابس الدعابة البريئة إلى نوع من الاستهزاء. قبل تقديمه له، الأب رودريجو كان قد انقضض بالفعل على الإنجليزي بنظرة محقق في محاكم التفتيش تكشف عن احتقاره الفطري تجاه كل ما هو قادم من الخارج. كان شخصاً في منتصف العمر، بديناً، فظاً ومقطب الجبين، تؤكد

بقع الزيت المتماثلة على مسوحة احتقار صاحبها لزخرف الدنيا الفانية.

خفّ التوتر مع دخول الخادمة بوعاء الحساء، وفي ذيلها فتى حديث الاغتسال، متقلب، مصفف الشعر، قبل جبين أمه، وبسط يده إلى الضيف.

- هذا هو ابني جييرمو. (قال الدوق بنبرة فخر في صوته).

كان جييرمو فتى طيبا. وكان يشبه أمه أيضا، ولكن في سلوكها، لديه مسحة غطرسة خفية على غرار كثير من الشبان الوسيمين، الأغنياء والأذكياء. بدا شديد الحماس وباندفاع كبير أخذ يحكي ما حدث لهم. في ذلك الصباح ذاته والشمس قد ارتفعت عاليا، وهم منهكون ومتجمدون من شدة البرد، دخل الصيادون والمراقب الذي كان برفقتهم قرية صغيرة، بحثا عن بعض الطعام، صحن حساء أو أي شيء ساخن لاستعادة حيويتهم، عندما وصلوا إلى ساحة القرية، حيث من المفترض أن يوجد المقصف، التقوا بفرقة موسيقى كانت تعزف في تلك اللحظة «لا انترناثيونال»⁽¹⁾، وبأهل القرية عن بكرة أبيهم، في جلبة كبيرة يهدرون بهتافات متوعدة ضد البلدية وضد الكنيسة، بالرغم من أن الكنيسة كانت مغلقة بينما كان يرفرف من شرفة البلدية العلم ثلاثي الألوان. استغرق الأمر برهة من الصيادين ليدركوا الخطر الذي يترصدهم، وكانت لحظة التردد هذه كافية لكي يلحظ واحد من سكان القرية وجودهم ويلفت انتباه الباقيين لهذه المجموعة من أبناء الذوات. أراد أحد الصيادين أن يمد يده إلى البندقية التي يحملها على كتفه، ولكن المراقب، وهو رجل ناضج وذو خبرة، منعه من ذلك. في رد فعل هادئ، ولكن غير مستفز، بدأ الصيادون في التراجع خطوة خطوة وانتهى بهم الأمر للرحيل من حيث أتوا. عندما ابتعدوا لعدة كيلومترات، نظروا خلفهم

1 . النشيد الوطني الشيوعي للحركة العمالية الإسبانية في الثلاثينيات (المترجم)

فلمحوا عامود دخان، استنتجوا منه أن الحشد أضرَم النار في الكنيسة، اقتداءً
بمثال العديد من المناطق في إسبانيا.

- هذا حدث لكم (قالت الدوقة في نهاية القصة) لأنكم خرجتم للصيد
في هذا التوقيت من العام. مع البرودة الشديدة في الصباح، لا أدري كيف
لم تصابوا بالتهاب رئوي أو ما هو أسوأ. صيد مشؤوم. في مثل سنكم يجب
عليكم أن تذهبوا للدرس والاستذكار.

- لكن، ماما (أجاب الفتى) كيف نذهب للدرس إذا كانت الجامعة
مغلقة؟

- مغلقة؟ (استغربت الدوقة) الجامعة مغلقة في شهر مارس؟ وما
المناسبة إذن؟

كانت ليلى تضحك في الخفاء بينما غمغم الأب رودريجو بكلام غير
مفهوم. غير السيد الدوق دفعة الحديث لكي لا يقلق زوجته.

- بخلاف ذلك، (سأل) كيف حال الصيد؟

- لم يكن الصيد على مايرام. في البداية كانوا يطاردون ظبي أيل شديد
الدهاء، نجح في جعل الكلاب تتقافز خلفه على المنحدرات؛ بعد ذلك أطلقوا
الرصاص على نسر ملكي، ولكنه كان يحلق على ارتفاع شاهق للغاية. عاد
الصيادون في النهاية بحصيلة هزيلة في التجربة: بضعة أرانب وأوزتين. بلغ
الإحباط مبلغًا، فقد كان هدف الرحلة في الأساس هو قنص دجاجة رومية.

- في هذا الوقت من العام لن تروا أيًا منها، وخاصة في الجبال.

استغرق النقاش برهة. كان أنتوني يأكل ويراقب. كان يتوسط المائدة
طبق من الفضة الخالصة دقيق الصياغة؛ طقم السفرة والمفارش كانت أيضا
رائعة. ومع ذلك، كان الطعام بسيطًا، مغذيًا ومقتصدًا، باستثناء الدوقة التي

بدت بلا رغبة، كان الجميع يأكلون بشهية كبيرة، ومن بينهم الابنتان، دون تكلف من يدعون الرقي. كان الخدم أكفأ ومحترمين، ولكن بفتنة أقرب للريفية. لم يسع أنتوني وايتلاندرز إلا أن يقارن بين هذا النموذج للأسرة الأرستقراطية الإسبانية وبين العائلات الإنجليزية التي يعرفها، ويلاحظ مجددًا الاختلافات. تمتاز هنا بتلقائية تامة بساطة الحياة الأسرية مع الترف، سلاسة هدوء الريف ونُضج رُقِّي الطبقة، البساطة مع الفطنة والثقافة. على النقيض تمامًا، بالتأكيد، وبصورة قاطعة مع الأرستقراطية البريطانية المغرورة، المهووسة بألقابها، علاقات قرابتها، مداخيلها. وضیعة في التعامل، متغطرة ومعدومة الثقافة.

أخرجه صوت السيدة الدوقة من هذه التأملات.

- بالله، هلا تركتم الصيد المشؤوم. إنكم تضجرون ضيفنا. حسنًا، أنتونيتو، كلمنا عن نفسك. ماذا جئت تفعل في مدريد؟ بخلاف الضجر منّا، هل ستلقي محاضرة في الأتيو؟ أنا أعشق المحاضرات. ولو لم أكن أنام، بصورة أو بأخرى، فإنني أقضي وقتًا رائعًا. جاء ألماني منذ شهر وشرح لنا أن كريستوفر كولمبس كان ابن رجل من الإسكيمو وسيدة من مايوركا. شيق للغاية. ما لم يقله هو ماذا فعل الاثنان لينجبوا القائد البحري. هل لديك أنت أيضا نظريات عبثية؟

- لا يا سيدتي. أخشى أنني إنسان تافه قليلًا. تقريبًا لم ألتق محاضرات أبدًا، ومن حين لآخر أنشر مقالًا في مجلة متخصصة.

- آه حسنًا، مازلت شابًا. قالت الدوقة.

استمر الغداء على نفس الوتيرة المعتادة. تصور أنتوني، أنه عقب الانتهاء سيعود كل واحد من الحاضرين إلى مشاغله، وأنه سيتمكن من البدء في

العمل الذي استدعي لأجله. ولكن الدوق، وكما لو كان قد اعتبر أن دوام العمل قد انقضى، أو أنه نسي الغرض من وجود الغريب في القصر، اقترح انتقال الجميع مجددًا إلى قاعة الموسيقى، حيث سيقدم لهم القهوة والمشروبات الروحية، وأضاف مشيرًا إلى نفسه، وحيث يمكن لمن يرغب أن يدخن سيجارًا كوبيًا جيدًا.

هكذا فعل الجميع، ما عدا الأب رودريجو الذي انسحب مغممًا بعبارة غير مفهومة على سبيل الاعتذار والوداع، أما السيدة الدوقة، فجلست عقب تناول فنجان القهوة إلى البيانو وبدأت عزف عدة مقطوعات خفيفة. بعد ذلك جلست ليلى إلى جوارها وقدمتا معًا مقطوعة بأربع أيدي، صفق أنتوني عندما انتهتا وغادرت ليلى مقعد البيانو جريًا نحوه، تعلقت بذراعيها في عنقه وسألته بعذوبة شديدة إذا كان العزف قد أعجبه. ربت بحنان على وجنتها مؤكدة مغممًا بعبارات مديح شاردة، لأنه في تلك اللحظة كان جييرمو قد جلب جيتارًا من مكان ما، وضبطه بالضغط على بعض المفاتيح، بينما جلست باكيثا إلى جواره على الأريكة وشرعت في الغناء بصوت به بحة، ولكنه رائق جدًا وحسّي. كان أنتوني مسحورًا. ظل الشقيقان يغنيان ويداعبان أوتار الجيتار بالتبادل لفترة طويلة. أخذت ليلى، التي كانت لا تزال إلى جواره، تهمس في أذن الإنجليزي: هذا فاندانجو، هذه سيجيديا. كان الدوق يدخن شاردًا، فيما نعست السيدة الدوقة على أحد المقاعد. في الخارج كان ضوء الشفق يصهر صور الحديقة. عندما لم يعد الظلام يتيح تمييز وجوه الحاضرين، نهض الدوق وأضاء ثريا. غاشية أبصارهم بسبب الضوء الفجائي، انفك السحر. نهض الجميع من مقاعدهم وعمت لحظة من التيه.

- اللعنة، (هتف أخيرًا سيد المنزل) لقد تأخرنا قليلًا. ماتزال هناك، بالتأكيد ساعات عمل، ولكن يتعين عليّ إنجاز بعض الأمور التي لا تحتمل

الانتظار. أما بالنسبة إلى حضرتك، سيد وايتلاندرز، فلا جدوى من أن تشاهد اللوحات تحت ضوء الكهرباء فلن تلاحظ الألوان أو أي شيء. أخشى أنك مضطر لمعاودة زيارتنا، إن لم تكن صحبتنا تضجرك كثيرًا.

- أوه، بالنسبة لي سيكون شرف حقيقي (قال الإنجليزي بانفعال صادق) إن لم يكن هذا يعني استغلالًا لكرم الضيافة.

- على العكس، تمامًا (قاطعته الدوق) في الآونة الأخيرة أصبحنا نستقبل عددًا قليلًا جدًا من الزوار، وكان وقع حضرتك علينا كأفضل ما يكون. ومن ثم لا مزيد من الكلام. سوف أنتظرك غدًا صباحًا، وقتها يروق لك، ولكن لا تتأخر كثيرًا، كي لا يتسرب الوقت من بين أيدينا مرة أخرى. لدينا أشياء كثيرة معلقة. ليلى ودّعي صديقنا واذهبي بسرعة لإنجاز واجباتك. عدم ذهابك للمدرسة لا يعني تخليك عن التعليم وأن تتحولي إلى هونتوت⁽¹⁾. الأب رودريجو في انتظارك ليعطيك الدرس وأنتِ تعرفين طبع نيافته.

أخذ الجميع يودعون وعندهما حان دور باكيثا، عرضت مرافقة أنتوني إلى الباب. قطعًا معًا الحجرات التي تفصل قاعة الموسيقى عن البهو، حيث قالت الشابة الجذابة لمرافقها:

- لا تحكم على عائلتي باستخفاف. في الظروف الراهنة، نتصرف جميعًا بأسلوب مبالغ فيه، قد يبدو غير ناضج بالنسبة لغريب. عندما يكون المستقبل غير مؤكد، تتركز في الحاضر الأفعال والمشاعر التي كانت لتتطور بهدوء ولياقة أكثر في الأوقات العادية. وأندرج أنا نفسي تحت هذه الاعتبارات، من

1. إشارة ساخرة إلى أحد الشعوب البدائية بجنوب أفريقيا. وتعد إهانة ابتدعها البيض لتحقير المرأة الأفريقية البدائية، وقد تناول المخرج عبد اللطيف كشيش الموضوع في فيلمه «فينوس السوداء» ويدور حول امرأة أفريقية من السكان الأصليين تم اختطافها وعرضها في صالونات أوروبا في القرن التاسع عشر. (المترجم)

ناحية أخرى أسرتي مزاجية وإقطاعية: اعتادت منذ قرون على أن تستحوذ على ما يروق لها. وحضرتك تروق لهم، ربما لأن قدومك من الخارج جلب إلى هذا المنزل ذكرى واقع مغاير، أكثر سعادة وأقل عنفاً.

- يسعدني أن أترك انطباعاً طيباً لدى أسرتك، (أجاب الإنجليزي) ولكنني أود أن أعرف الانطباع الذي تركته عند حضرتك.

- هذا يجب أن تتحرى عنه بوسائلك الخاصة، سيد وايتلاندرز. أنا أيضاً أستحوذ على ما يروقي، ولكنني لا أسمح لأحد أبداً أن يستحوذ عليّ.

فتح أنتوني باب الشارع. توقف في الظلام والتفت وقال:

- هل سأرى حضرتك غداً مرة أخرى؟

- لا أدري. لا أضع مطلقاً خططاً طويلة الأجل هكذا. أجابت وهي تُغلق الباب.

وجد أنتوني وايتلاندرز نفسه وحيداً في شارع باسيو دي لا كاستييانا، حيث كانت تقطعه سيارات قليلة ولا يوجد أي عابر سبيل. بالكاد كان ضوء المصابيح الخافت، بسبب الهواء البارد والثقيل لليل المديردي، يرسم دوائر بين الأشجار وسيقان النباتات في البولفار. عندما شرع في السير، ظهر من الظلام خيال شخص طويل بدا متجهاً بإصرار نحو القصر. توقف الإنجليزي وحين شعر الشخص المجهول أنه مُراقب أسرع الخُطى وواصل طريقه فيما غاصت يده في جيوب معطفه وياقته مرفوعة فوق وجهه، حتى اختفى في الظلام. على الرغم أنه لم يتمكن من قبل أو الآن من رؤية وجهه، كان أنتوني متأكداً من أن ذلك الشخص كان هو نفسه الذي قد رآه في الصباح في الحديقة، في خلوة حميمة مع المرأة الغامضة ذات الثوب الأخضر.

أخبره موظف استقبال الفندق عند عند تقديم مفتاح الغرفة أن شخصاً
سأل عنه في نفس الليلة.

- هل أنت متأكد؟

- تمامًا. استقبلته بنفسه، وأعطاني اسم ولقب حضرتك. لم يترك أي
رسالة أو إن كان سيعود. بدا من هيئته أنه أجنبي، ولكن كان يتحدث
الإسبانية جيداً مثل حضرتك وبلكنة أفضل، إذا سمحت لي بإبداء الملاحظة.

صعد أنتوني إلى الغرفة وهو يسأل نفسه عمّن يمكن أن يكون هذا الزائر
المجهول، وكيف عثر عليه بينما لم يطلع أحدًا أين نزل. بالتأكيد سجل اسمه
بمجرد وصوله في دفتر نزلاء الفندق وربما أخبرت إدارة الفندق الشرطة
بوجود نزيل جديد، أجنبي لمزيد من لفت الانتباه. يتردد على مدريد أجناب
كثيرون، ولكن الظروف الآن استثنائية، فكر. لكن الآن، إذا كان الذي سأل
عنه شرطي، فلماذا لم يفصح عن هويته؟ علاوة على ذلك ما مصلحة الشرطة
أو أي شخص آخر في الحديث معه؟ هل حدث شيء في لندن والسفارة
تبحث عنه؟ وفي نهاية المطاف، لم كل هذا التكتّم؟

بينما أخذ يقلّب الأمر، أخرج كتابًا، كان قد حاول عبثًا أن يقرأه في
القطار. ولم يتمكن أيضًا من التركيز خلال عزله في الحجرة. بعد برهة أغلق
الكتاب وخرج ليتجول. في الشارع كان البرد قارساً، ولكن وسط مدريد كان

مكتظًا بالناس. حينها رأى الناس تتسكع بلا عجلة أو قلق، والجميع منهمك في المعارك الكلامية التقليدية لأهل مدريد، نسي الإنجليزي كل الهواجس وشعر بعدوى سعادة الحياة الطافية في الجو وراقت له الإقامة في إسبانيا.

متسكعا على غير هدى، وجد نفسه أمام حانة تذكر أنه تردد عليها في أحد الأسفار السابقة. تجاوزت أبواب المكان أصوات وابتسامات مرحبة. في الداخل لم يبدو أن ثمة متسع لشخص آخر، ولكن بعد وقت قليل للغاية تمكن من أن يشق طريقا ويستند بمرفقه إلى المشرب. قام نادل بخدمته بسرعة وترحاب مذهلين وسط هذه الجلبة: كان كما لو أنه لم يعد هناك زبون آخر سواه في الحانة كلها. طلب أنتوني طبقًا من الروبيان وكأسًا من النبيذ. أثناء انتظاره أخذ يتذكر مغامرات سابقة في نفس الحانة، التي كانت جدرانها مغطاة بصور مصارعي الثيران، لأن رابطة كبيرة ومتعصبة من مشجعي مصارعة الثيران اتخذت من ذلك المحل مقرًا لها. أحيانا كان مصارعو الثيران أنفسهم يحضرون لتناول بضعة كؤوس من النبيذ مع رابطات مشجعيهم. في هذه المناسبات كانت تعقد هدنة للخلافات الحادة، نظرا لأن مصارعي الثيران كانوا أيقونات حقيقية، ولم يكن أحد ليجرؤ على ارتكاب أي حماقة بالتعبير عن رأي قد يزعج أحد المصارعين. بالرغم من الفظاظ، كان الجو يشع بالود، وعادة ما كانت تنتهي السهرات بالأغاني في وقت متأخر من الليل. كان أنتوني شديد الإعجاب بهذا الجو. ذات ليلة، منذ عدة سنوات، أخبره شخص ما بحضور مصارع ثيران ذائع الصيت، الأسطوري، رفائيل سانثيث ميخيا، رجل مهيب، ذو سلوك مميز. كان أنتوني يعرفه بالاسم، كما يعرف أنه بالإضافة لشهرته كمصارع ثيران، كان مثقفاً وشاعراً مرموقاً. بعد فترة وجيزة من هذا اللقاء العابر، علم أنتوني بوفاة المصارع في الحلبة. رثاه فيدريكو جارثيا لوركا بقصيدة مؤثرة أما أنتوني، الذي صدمته الفاجعة بصورة كبيرة، فقد قام بترجمة تلك القصيدة إلى الإنجليزية، كانت رصينة من

المنظور اللغوي، إلا أنها كانت ضعيفة من المنظور الشعري.

جعلته هذه الذكرى ببساطتها السطحية يضحك، حين رآه رفيق المشرب
على هذا الحال قال له:

- الأمر مضحك إلى هذا الحد؟

- معذرة؟

- أنت أجنبي، أليس كذلك.

- نعم، يا سيدي.

- وكما هو واضح ما تفكر فيه يبهجك.

- عذرا، لا أدري إلامَ تلمح. أنا أضحك على ذكرى ليس لها أي علاقة
بالحاضر.

بينما كان يعتذر، أدرك سبب سوء الفهم. خلف ظهره كانت هناك
مجموعتان تتجادلان بأسلوب حاد وتافه. في البداية فكر أن الأمر يتعلق
بإحدى موضوعات مصارعة الثيران المعتادة، لكن هذه المرة لم تكن مصارعة
الثيران سبب الجلبة. كان الفريق الأقل عددا بين المجموعتين المتنازعتين،
يضم شبانا أصغر سنا، أكثر وسامة وهندمة وتبدو عليهم آثار النعمة. أما
الفريق الثاني فكان يضم أشخاصا أجلافاً، حرفيين وعمالاً، بالحكم على
ملابسهم والقلنسوة والوشاح المنقط المعقود في العنق. كان النزاع المبدئي
قد بلغ مرحلة الشتائم. كان العمال يصيحون: فاشيست! وهو ما كان يرد
عليه الآخرون: حُمُر!⁽¹⁾. فيما اتفق كلا الطرفين على نعت بعضها بالتبادل
بالجبناء! بالرغم من أنه لم يكن هناك مؤشر على الانتقال من الأقوال إلى

1. في تلك الفترة كان هذا الوصف مرادف لشيوعي

الأفعال. هؤلاء وأولئك كانوا يتشككون في مدى قوة الخصم وكانت نتيجة هذه الحسبة تردعها معا عن التماهي في أكثر من السباب. في لحظة بادر أحد الشباب بمدّ يده إلى جيبه. وعند إدراك نيته، أوقفه أحد رفاقه، وقال له شيئا وأسرع مهرولا نحو باب الخروج. تبعه الباكون دون أن يلتفتوا للجمهور الذي كان ينظر لهم بتعبير متحدٍ.

- كما ترى حضرتك، (قال جار أنتوني عقب استعادة الهدوء في المكان) في الماضي كنا نأتي هنا لتتعارك حول ما إن كان كاجانتشو هو الأفضل أم خيتانيو دي لا تيريانا... مصارعو ثيران، أتفهمني؟
- نعم، بالطبع فأنا مولع بمصارعة الثيران.

- لا، إلا إن كنت حضرتك ما تزال تتندر. ماتيو، صب لي واحداً أحمر آخر ومثله هنا للسيد. ليكن يا رجل، لاحقاً تدفع حضرتك دورة أخرى ونكون في قمة السعادة. حسناً، وكما كنت أقول لك، هذا كان في الماضي. اليوم: إذا كان لينين أو موسوليني، أو ما إذا كانت البطن التي نفضتهم جميعاً، مع الاعتذار لأفكار حضرتك بالطبع. كما رأيت، في الوقت الحالي، لا تجري الأمور على مبدأ الأخذ والرد. لا أحد يضارعنا في المكايدة، إلا أننا نحن الإسبان يصعب علينا الوصول للشجار بالأيدي. ومن ثم، فالיום الذي سنبدأ فيه بذلك؛ حتى الرب لن يوقفه.

يتمتع الإسبان بحاسة سمع حادة تجاه المحادثات التي لا تعنيهم، ولا يردعهم شيء عن مقاطعتها للتعبير عن آرائهم، ولا يكتفي أحدهم بإبدائها بالحسنى، بل على أنها أمر نهائي. وهكذا في غضون بضعة دقائق، كانت قد تشكلت حلقة نقاش جهوري وحاسم، تصارع خلالها عدد من زبائن الحانة على لفت انتباه الغريب ليقدموا له تشخيصهم غير القابل للتشكيك لأمراض إسبانيا العضال وحلها البسيط. كان أغلب المشاركين في النقاش من العمال،

ولكن الأمر لم يخل من موظفين، حرفيين، تجار وصحفيين مبتدئين، يوحد بينهم جميعا الولع بمصارعة الثيران، التي أزالته كافة الفوارق الاجتماعية. كان الذين دخلوا المحل منذ برهة ينتمون إلى (الفلانخي⁽¹⁾). من المؤكد أنهم كانوا يبحثون عن عراقك، ولكن الهيئة المسالمة للرواد والطابع غير السياسي الغالب على المكان، ثبطت همتهم. كانوا قد حكوا له إن الفلانخي قلة، غالبيتهم من الشباب، ولهذا فهم متهورون ورُعن؛ ولأن حزيم حقق نتيجة سيئة في الانتخابات الأخيرة، فقد اتجهوا الآن إلى التصعيد. يعتقدون أنهم يمتلكون الشارع، وخاصة في مدريد، بالرغم من ذلك أحيانا ينال منهم الاشتراكيون أو الفوضويون. في الآونة الأخيرة تصاعدت حدة المواجهات، ولم يعد مستغربا أن تنتهي بإصابات أو حتى قتلى. قال أحدهم إن الفلانخي، كانوا حفنة من أبناء الذوات المدللين، لم يكتف الوالد بإعطائهم المال، فأعارهم السلاح. هذا الصباح، يبدو أن مجموعة من الصبية التافهين، ذوي القمصان الزرقاء، اقتحموا اجتماعا للاشتراكيين وأطلقوا وابلا من طلقات الخرطوش على منصة المتحدثين، وقبل أن يفيق جمهور الحضور من الصدمة، كان المعتدون قد لاذوا بالفرار في سيارة. تابع زبون الحانة قائلا إنه لو كان قد مر في تلك اللحظة أي شخص له هيئة الرأسالي، أو إذا ساءت الأمور أكثر وكان قسا، لكانوا قد مزقوه إربا بكل تأكيد. وبهذا الأسلوب أنهى كلامه قائلا، يُجأزي الصالحون بعمل الخطائين.

1. الفلانخي: هو حزب إسباني فاشي قومي نقابي، عزز ظهوره في إسبانيا نجاح الفاشية على يد موسوليني في إيطاليا، والنازية في ألمانيا على يد هتلر في ثلاثينيات القرن الماضي. تأسس الحزب عام 1933 على قطاعات من اليمين المتطرف من رجال الأعمال والصناعة والإقطاعيين وتزعمه القائد العسكري السابق خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا، نجل الديكتاتور الراحل ميغيل بريمو دي ريبيرا (1870 - 1930) عسكري وسياسي وإقطاعي إسباني. وقد تم حل التنظيم عام 1934 إثر خسارته في الانتخابات العامة. (المترجم)

قال آخر، المشكلة إنه عند هذا الحد، لم يعد هناك صالحون أو طالحون. كان من السهل اتهام الفلانخي بارتكاب كل الشرور، ولكن لا يجب نسيان من الذي مهّد لهم الطريق؛ الاعتداءات، الإضرابات، أعمال التخريب، حرق الكنائس والأديرة، القنابل والديناميت، ولا نسيان التأكيدات الواضحة على أن الهدف النهائي من كل هذه الأفعال، ألا وهو هدم الدولة، تدمير الأسرة، والقضاء على الملكية الخاصة. وهذا مع التغاضي الجبان والمتواطئ من جانب السلطات. بالتمعن في هذه البانوراما، لم يكن من المستغرب تصميم بعض قطاعات المجتمع على اتخاذ إجراءات لفرض صوتها، أو على الأقل، الموت بالسلاح في أيديها.

تدخل رجل ضئيل الحجم، يرتدي قبعة سوداء مستديرة رثة، دون أن يدع له الفرصة لكي ينهي حديثه، عرّف نفسه باسم موسكا⁽¹⁾ وأنه عضو في (UGT⁽²⁾). من وجهة نظر السيد موسكا، فإن جذور النزاع تكمن في موقف القطلونيين. فبحجة إصلاح البنى الإدارية للدولة الإسبانية، دمر القطلونيون بالفعل وحدة إسبانيا، والآن انهارت الأمة كجدار تُزَع منه المِلاط. ونظرا لأنه لم يكن هناك قطلونيين بين الحضور، لم يدحض أحد الحُجّة، أو يتحقق من دقة التشبيه المريب، مما دفع السيد موسكا لأن يتابع قائلاً، باختفاء الشعور بالانتماء إلى وطن للجميع، ينضم كل مواطن لأول موكب يمر من أمام بيته، وبدلاً من أن يرى كل شخص في جاره أحد أبناء وطنه، يرى عدواً. قبل أن ينتهي، أجبره على السكوت صياح زبائن آخرين متعطشين لتقديم تحليلهم الخاص

1. تعني ذبابة في الإسبانية (المترجم)

2. اتحاد العمال العام، تنظيم عمالي نقابي إسباني تأسس عام 1888، بأيديولوجية يسارية وتوجه ماركسي تحول بعد ذلك إلى اشتراكي ديمقراطي. مايزال قائماً وفعالاً على المسرح السياسي والاجتماعي في إسبانيا، كما أنه يعتبر الفكرة التي نشأ عليها حزب العمال الاشتراكي الإسباني الحالي، قطب المعارضة الإسبانية حالياً (المترجم)

للموقف. لكي يكون صوته مسموعا، وقف السيد موسكا على رؤوس أصابعه ومد عنقه لأقصى مدى، إلا أنه لم ينل من ذلك سوى تمكين ضجيج شخص آخر من الإطاحة بقبعته السوداء المستديرة.

أخذت نبرة الجدل ترتفع، أما أنتوني الذي لم يتوقف النادل عن ملء كأسه بالنبيذ، فقد تدخل لكي يعبر عن قناعاته بأن كل الأمور يمكن حلها من خلال الحوار والتفاوض. أكسبه هذا عدااء الجمهور، ولأنه لم يدافع عن موقف أحد، فقد اعتبره كل فريق حليفا لخصمه. في النهاية وقف شخص إلى جواره، وأمسكه من مرفقه وأوما له بالإشارات أن يترك لنفسه القيادة حتى باب الخروج. ألقى أنتوني بعض القطع المعدنية على المشرب، وفعل ما أشار عليه به الشخص الآخر.

قال الغريب عندما تجاوزا معا الحاجز البشري بدون حوادث، ووجدا نفسيهما في الشارع:

- ليس هناك داعٍ لأن تنال صفة.

- هل تعتقد أنهم كانوا سيفعلونها؟

- محتمل. حضرتك طويل القامة، وبصفتك أجنبي، فلن تجد من يرد عنك الضربات. عاود الدخول إذا أردت أن تتأكد. لعلك تدرك أن الأمر لا يفرق معي بتاتا.

- لا، حضرتك محق وأشكرك على أنك بصّرتني هكذا. علاوة على أن الوقت قد تأخر ويجب أن أعود إلى الفندق بدلا من أن أزج بنفسي فيما لا يعني.

بسط يده لمحسنه المجهول، والذي بدلا من أن ييسط يديه بدوره، وضعها في جيوب معطفه وقال:

- انظر، سوف أصحبك إلى محل إقامتك. الشوارع تكون أكثر خطورة في هذه الأوقات. وبالطبع لا أستطيع أن أقدم لك أي ضمانات أمنية، ولكن لأنني من هنا، وقط عجوز، أدرك متى يجب إثارة التغيير، ومتى يجب أن تنجو بجلدك.

- حضرتك إنسان ودود للغاية، ولكن لا أريد أن أسبب لك أية مضايقات. فندقي قريب.

- في هذه الحالة سيكون التعب بسيطاً. وإذا كنت تفضل بدلاً من الذهاب إلى الفندق مباشرة، قضاء بعض الوقت مع صحبة طيبة، أعرف مكاناً، على مرمى حجر، ونظيف جداً، وبسعر جيد والخدمة درجة أولى.

- آه (قال الإنجليزي، وهو يشعر بتبخر آثار الكحول، وتنبه حواسه من تأثير برودة الليل والخطر المحدق) عندما كنت طالبا هنا في مدريد، قمت بزيارة أحد بيوت الدعارة.

- حسناً، من شبَّ على شيء شاب عليه. (أجاب الغريب).

سارا عبر جادة جران بيا، ثم انحرفا في زقاق جانبي معتم. أخذا يصفقان أمام باب أحد المنازل الحقيرة الضخمة، ذات جدران سقطت طلاؤها، حتى ظهر حارس العقار يسير مترنحا ويهز حلقة مفاتيح. من بعيد كانت تفوح منه رائحة نبيذ وعيناه نصف مغلقتين. فتح الباب بهمة كبيرة، أعرب عن امتنانه للبقشيش بانحناءة وتجشؤ ثم مضى. دلفا إلى رواق مظلم حيث قال الخيرقي⁽¹⁾ الطيب:

- اصعد حضرتك الطابق الثاني، يمينا، واسأل هناك عن لاتونينا. أنا لن أرافقك اليوم، لا رغبة لي في ذلك، لكنني سأنتظرك هنا، في هدوء،

1. دليل سياحي شوارع.

بينما أَدخِن لفافة تبغ. لا تتسرع، فلست متعجلاً على الإطلاق. آه، وقبل أن تصعد، أقترح عليك أن تترك المحفظة، وجواز السفر وأي متعلقات ذات قيمة تحملها معك، باستثناء ثمن الخدمة، وبعض القليل، لربما تكون لديك نزوة ما. الفتيات شريفات، لكن حتى في أفضل المحلات يمكن أن يوجد نشالون.

وجد أنتوني اقتراح مرافقه منطقياً، فأعطاه المال والأوراق، والساعة والقلم الحبر. ثم صعد على الضوء الهزيل لللمبة الغاز التي كانت تهتز في فراغ الدرج، إلى الدور الثاني وطرق الباب. فتحت له الباب سيدة عجوز ترتدي رويًا وشالًا. كانت هناك أربع سيدات أخريات متقدمات في العمر يستمعن إلى المذياع ويلعبن الورق على منضدة. قال الإنجليزي إنه يريد أن يرى لاتونينا. صدر عن العجوز إيحاءة تنم عن الدهشة، ولكن دون أن تنبس بكلمة، اختفت خلف ستارة وعادت في التوبصحة فتاة شديدة النحافة، ورائعة الجمال، يبدو أنهم يخفونها بكل تأكيد نظراً لأنها مازالت قاصراً. أمسكت الصبية بذراع الإنجليزي وقادته إلى غرفة قدرة بها سرير طفل ومغسلة قديمة، خرج منها بعد فترة راضياً تماماً. بعد أن دفع وهبط الدرج، لم يجد أحداً في انتظاره في الرواق أو حتى في الشارع. كان كل شيء مغلقاً، ومن ثم عاد أدراجه إلى الفندق ودخل الفراش. وفي لحظة إطفاء النور هاجمه الشك أنه كان ضحية عملية احتيال، ولكن لأنه كان منهكاً، أغمض عينيه ونام في الحال.

مكتبة -7-

t.me/t_pdf

رأى، عندما فتح شيش النافذة، ساء تلفها الغيوم وخيوط مطر ناعم تندي أسقف المنازل؛ تذكر فجأة اسم تلك الظاهرة بالإسبانية: (هزهزة المغفلين⁽¹⁾) مسمى مناسب لشخصه. لم يمنعه الصداغ الناجم عن الإفراط في الشراب ليلة أمس من أن يستوعب بوضوح مدى مأساوية موقفه. شعر بغثيان نتيجة للإجهاد البدني والضيق. ربما أراحه تناول وجبة حقيقية واحتساء قهوة قوية، ولكنه استبعد الفكرة لأنه لم يتبق له ستيما واحدا، وأصبح بدون جواز سفر، ولا يستطيع اللجوء إلى البنك. لم يعد أمامه سبيل آخر سوى اللجوء إلى السفارة البريطانية، طلبا للعون، مهما كان المثول أمام موظف نكد كواحد من أكثر السائحين سداجة ينجله.

شرع في الجري عبر شارع البرادو، محتما من المطر أسفل الأفاريز، فيما أخذ يفكر في أفضل وسيلة للتعريف بنفسه في السفارة، بينما لا يحمل أي أوراق ثبوتية تؤكد هويته. أيكثفي بالإعلان عن اسمه لعل هناك موظفاً اطلع على كتاباته عن فن الرسم الإسباني في العصر الذهبي؛ وإن لم يكن، فسوف يضطر للجوء إلى أصدقائه في وزارة الخارجية، لكنّ هذه الاحتمالية أقلقته، لأن صديقه في الخارجية كان زميل دراسة قديم في كمبريدج، وحاليا زوج كاثرين، الذي ظل يندعه معها في السنوات الأخيرة وإذا كانت رسالة

1. كلابوبوس بالإسبانية وترجمتها حرفيا تعني رذاذ لا ينقطع. بالمفهوم الدارج تعني هزهزة المغفلين (المترجم)

الانفصال قد وقعت بين يديه، فالتوقع رد فعل غاضب، أو ربما اعتراف بمغامرته العاطفية. في كلتا الحالتين لم يبد له الاعتماد على سلطة صديقه فكرة جيدة. من ناحية أخرى فإن إقامة أنتوني وإيتلاندر في مدريد، كانت تخضع لغرض يستوجب أقصى درجات التكتّم. تساءل الإنجليزي بينه وبين نفسه إذا كانت طبيعة المهمة لم تفرض عليه السرية المهنية الصارمة، ومن ثم، فهل تحول دون إحاطة علم خارجية بلاده بوجوده؟ ولكن إذا لم تسانده السفارة، فكيف سيحل هذا الموقف الذي بدا له يائسا؟ الخيار الوحيد هو أن يقص على دوق إجوالاتا كل ما جرى وأن يضع نفسه تحت حمايته. بالطبع من المتوقع أن يفقده هذا الإجراء كل احترام ومصداقية في نظر الدوق وعائلته. تبدلت ألوان وجهه من مجرد تخيل تعبير وجه باكيئا عندما تعلم بنزواته. فكر أن جميع الظروف تأمرت عليه.

كان قد وصل إلى شارع نبتون عندما اشتد هطول المطر. ولما لم يكن يعرف إلى أين يلبأ، قطع في خطوتين سلم متحف البرادو وتوجه نحو شباك التذاكر. نظرا للساعة المبكرة وقلة الزائرين، تعرفت عليه موظفة الشباك، بدا له مشجعا وسط كل هذا الإحباط، سمحت له بالدخول بدون أن تطلب منه تحقيق شخصية، والذي سُرق منه أيضا. الآن وقد أصبح تحت سقف، وبالرغم من أنه لم يحسم بعد الطريق الذي سيسلكه، ترك خطواته تقوده مرة أخرى إلى قاعة بيلانكيث. كان سي شاهد لوحة «الغزالات⁽¹⁾»، ولكن عند مروره بلوحة «منيبو⁽²⁾» توقف لبرهة، مهددا بنظرة تلك الشخصية، نصف

1. أسطورة أراكني والمعروفة بالغزالات هي لوحة زيتية للفنان دييجو فيلانكيث، ترجع لعام 1657، وتوجد حاليا بمتحف البرادو في مدريد. يعد هذا العمل أحد أفضل معروضات عصر الباروك الإسباني، وتعتبر أيضا من أعظم الأمثلة على براعة بيلانكيث. (المترجم)

2. لوحة رسمها بيلانكيث بين عامي 1639 و 1640 للفيلسوف والكاتب اليوناني منيبو دي جادارا مؤسس مدرسة السخرية، عاش بين القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد. بالرغم من ذلك يصوره بيلانكيث بملابس عصر الباروك (المترجم)

فيلسوف ونصف صعلوك. لطالما بدا له غريبا اختيار بيلاثكيث لموضوع اللوحة. في عام 1640 رسم بيلاثكيث لوحتين، منيبو وأيسوب⁽¹⁾، بغرض المنافسة لصالح الملك مع عمليين مشاهيرين لبيتر بول روبينز⁽²⁾، في مدريد في ذلك الوقت. رسم روبينز لوحة «هرقليطس وديمقريطوس»⁽³⁾، اثنان من الفلاسفة اليونانيين ذوي شهرة عالمية. على النقيض من ذلك اختار بيلاثكيث شخصيتين قليلتا الأهمية، أحدهما غير معروف تقريبا. كان أيسوب روائي حكايات خرافية أما منيبو فكان فيلسوفا ساخرا لم يصلنا عنه شيء، باستثناء ما يرويهِ لوتشيانو السميساطي⁽⁴⁾ وديوجين لايريشوس⁽⁵⁾. وفقا لهذين، وُلد منيبو عبدا رقيقا وانضم لمدرسة السخرية، ربح أموالا طائلة بطرق مشكوك في نزاهتها وفقد في طيبة كل ما يملك. تشير الأسطورة إلى أنه صعد جبل الأوليمب وهبط في هاديس⁽⁶⁾، ووجد نفس الشيء في المكانين: فساد، خداع، وخسة. يصوره بيلاثكيث على هيئة رجل محني، طاعن في السن، ولكنه مازال مفعما بالحيوية، يرتدي أسهالا بالية، مشرد بلا أي متعلقات مادية وبدون أي موارد سوى ذكائه ورباطة جأشه إزاء عوادي الزمن. أما أيسوب رفيقه في التصوير، فيمسك بيده اليمنى مجلدا ضخما، يحتوي بلا

-
1. روي أساطير يونانية شهير عاش بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. يصوره بيلاثكيث بأسلوب تهكمي ساخر، على هيئة متشرد مجذوب عجوز. (المترجم)
 2. بيتر بول روبينز فنان فلمنكي (1577 - 1640) يعتبر من أشهر فناني عصر الباروك جمعت أعماله بين خصائص المدرستين الإيطالية والفلمنكية. (المترجم)
 3. اثنان من أشهر الفلاسفة اليونانيين، شاع تصويرهما خلال عصر الباروك خاصة في إسبانيا من منطلق فكرة التناقض بين التفاؤل التام والتشاؤم المطلق، التي سادت في تلك الفترة. (المترجم)
 4. فيلسوف وأديب يوناني. (125 - 180 ميلادية)
 5. أحد أشهر مؤرخي الفلسفة الكلاسيكية اليونانية في القرن الثالث الميلادي.
 6. العالم السفلي وفقا للأساطير اليونانية (المترجم)

شك على كتاباته من الحكايات الخرافية، إنما المتواضعة. يرافق منيو أيضا كتاب، ولكنه على الأرض، مفتوح وبه صفحة ممزقة، كما لو أن كل ما قد كتبه يخلو من أي أهمية. تُرى ماذا كان يود بيلاثكيث أن يقول عند اختيار هذه الشخصية التافهة، التي تمضي دوما في طريق لا يؤدي إلى أي هدف، سوى خيبة الأمل المستمرة بلا توقف؟ في تلك السنوات، كان بيلاثكيث على النقيض تماما: فنائا شابا يبحث عن اعتراف بموهبته الفنية، وخصوصا الغطاء الاجتماعي. ربما يكون قد رسم منيو كتحذير، ليذكر نفسه أنه في نهاية الرحلة لا ينتظرنا المجد، بل خيبة الأمل.

مستلهما هذا التفكير، خرج الإنجليزي مسرعا من القاعة ومن المتحف، عاقدا العزم على حل المشاكل بالطريق الأكثر عملية. كان المطر قد توقف، والشمس تطل من بين السحب. بلا تردد، توجه إلى منزل دوق إجوالادا. في شارع سييلس، تنحى جانبا مفسحا المجال لعبور مجموعة كبيرة من العمال، يعتمرون قبعات ومآزر، كانوا متجهين لمظاهرة أو اجتماع، من مظهر اللافات والأعلام المطوية التي كان بعضهم يحملها. وبفضل قامته فائقة الطول، استطاع أنتوني أن يرى مجموعات من الشباب يرتدون قمصان زرقاء متوقفين في جران بيا يتأملون المشهد بتحدٍ. رامهم العمال بنظرات حانقة. مسترجعا ما حدث الليلة الماضية في رابطة مصارعة الثيران، أثر أنتوني تجنب أي مواجهة والعودة إلى لندن بدون تأخير، بمجرد حل الموضوع الذي كان يبقيه في مدريد. في الوقت نفسه، كان الشعور بالعنف والخطر يولد نوعا من الاستثارة غير العادية في شخص كان يعتبر نفسه دوما يسير إلى جوار الحائط وجبانًا. عند وداعه قالت له باكيثا إنه في أوقات عدم اليقين، عندما تتحكم الاحتمالات في حياة وموت الأشخاص، يتصرف هؤلاء باندفاع مفاجئ فريد. أدرك الآن مغزى هذه الكلمات وتساءل إذا كانت الشابة الحسنة

الغامضة لم تقلها إلا لدفعه للتصرف على سجيته بدون التفكير في العواقب العاجلة أو الآجلة.

وصل إلى القصر وطرق الباب بطاقة متجددة. على غرار المرة السابقة، فتح له كبير الخدم الضخم الباب، وأدخله إلى البهو ثم ذهب لإخطار السيد الدوق. حضر هذا على الفور وحيا الإنجليزي بنبرة ودية وطبيعية تليق بمن يستقبل صديقاً رآه منذ برهة وجيزة.

- هذه المرة لن أجعلك تضيع وقتك، (قال، وأضاف مخاطبا كبير الخدم) خوليان، أخطر السيد جيرمو. سوف نكون في حجرة مكتبي. أريد أن يكون ولدي حاضرا، (أوضح مخاطبا أنتوني) وآسف لأن ولدي الآخر لا يمكنه المشاركة أيضا في العملية. لدي مفهوم تقليدي عن الميراث. لم أعتبر مطلقا أن ضياعي وممتلكاتي تخصني فعليا، بل جزء من سلسلة متعاقبة كل جيل يمثل حلقة فيها، وعلى هذا النحو فهو مُؤْتَمَن على هذا الإرث، ويجب أن يحافظ عليه، وزيادته قدر الإمكان، وعندما تحين اللحظة ينقله إلى الجيل التالي، بهذه الطريقة في التفكير تتحول الثروة إلى التزام، ويصبح الرضا الذي تمنحه متوازنا من خلال شعور بالمسؤولية، مما ينزع عنها جزءا كبيرا من سحرها. لا أقول إنني أحسد الفقراء؛ الإنسان السعيد، الذي وفقا للأسطورة لم يكن يملك قميصا، ما كان ليبقى على قيد الحياة في شتاء مدريد. أخبرك بهذا لكي تدرك مدى الضيق الذي يملؤني حين أتخلى عن جزء مهم من ثروتي.

بينما كانا يتحدثان بلغا حجرة مكتب الدوق، حيث حكى له الأخير عن مجنه خلال اللقاء السابق. الآن تراصت دزينة من اللوحات على الأرض مستندة إلى الحائط.

- ابني لن يتأخر. (قال سيد القصر).

أدرك الإنجليزي أن نساء الأسرة لن يشاركن في القرارات التي ستُخذ هناك، وهو ما أدهشه قليلا، لأنه بحكم خبرته، كانت النساء أكثر واقعية عند تقييم الفن ربما لأن نقص حميمية الكبرياء الأسري يسمح لهن بقبول حلول وسط ضرورية بين القيمة الفنية لعمل ما، وقيمتها العاطفية كسلعة.

قطع دخول جييرمو ديل بايي المفاجئ تأملاته. تبادلًا التحية بمجاملة باردة بينما تقاطعت نظراتهما عند سيد المنزل.

- فلنواصل بأسرع ما يمكن. (قال بنبرة تنم عن حماس زائف لمن يستعد لإجراء جراحة) كما ترى، أيها الصديق وايتلاندرز، من أجل تيسير حكمك التقييمي، جمعنا في حجرة المكتب القطع الأكثر ملاءمة لأغراضنا، وفقا لمعرفتي وفهمي الراسخين. إنها لوحات متوسطة الحجم، ذات موضوعات زخرفية، أغلبها موقعة وأصلية. لو تكلمت ألقى نظرة عليها ثم أعطنا انطبعا أوليا.

مسح وايتلاندرز عدسات نظارته بالمنديل واقترب من اللوحات. بقي الدوق ووريثه على مسافة معقولة، بدون إحداث ضوضاء، بترقب لم ينجحوا في إخفائه، مما أعاقه عن التركيز في اختبار موضوعي للأعمال. لم يكن بأي حال من الأحوال يريد تخيب آمال تلك الأسرة النبيلة المكروبة، والتي شعر بأنه مرتبط بها لعدة أسباب؛ إلا أن انطبعا أوليا جعله يدرك أنه ليس بوسعه أن يقدم لهم شيئا سوى كلمات طيبة. وعلى الرغم من أنه كان قد كوّن رأيا، توقف لبرهة أمام كل لوحة لاستبعاد احتمال بعيد أن تكون مزيفة، لتقييم جودة العمل، واختبار حالة المحافظة على الألوان، وجميعها لم تفد إلا في إعادة تأكيد رأيه. قرر في النهاية مواجهة الواقع بدون تأخير، لأنه أيضا كان يعتره قلق متزايد، ليس فقط بسبب استحالة إرضاء الآمال المعلقة على تقييمه، ولكن لأن فكرة قيامه برحلة محفوفة بالمتاعب وربما بمخاطر حقيقية

دون جدوى، كان يصيبه بضيق متزايد من نفسه: ما كان ينبغي أن ينصت أبدا لثرثار سيع الخلق مثل بدرو تيتشر.

يبدو أن هذه المشاعر انعكست على تعبيراته عندما التفت إلى مضيفه، لأنه قبل أن يفتح فمه قال هذا:

- هل بدت لك بالغة السوء؟

- أوه، لا. على الإطلاق. تشكل اللوحات مجموعة رائعة. وتمتع كل لوحة بمزايا فريدة، لا يساورني أدنى شك حيال ذلك. تحفظاتي... تحفظاتي من نوع آخر. لست متخصصا في أعمال القرن التاسع عشر الفنية الإسبانية، ولكن معرفتي الضئيلة تدفعني للتفكير في أن التوقيت قد لا يعتبر الأروع بالنسبة لها. بالطبع، ليس من الإنصاف، أن لا يصمد عمل في مقارنة مع أعمال ليبلاثكيث، أو جويا... ولكن هكذا هي الأمور: خارج إسبانيا أسماء ذات قيمة مثل مدراثو⁽¹⁾، درايو دي رجويوس⁽²⁾، إيوخينيو لوكاس⁽³⁾، وغيرهم كثيرين تتضاءل أمام شخصيات الماضي العظيمة. ربما فورتوني⁽⁴⁾، سورويا⁽⁵⁾،... بالإضافة إلى النذر اليسير...

1. خوسيه دي مدراثو إي أجودو (1781 - 1859) فنان تشكيلي إسباني جمعت أعماله بين خصائص الباروك والكلاسيكية الجديدة. (المترجم)
2. داريو دي رجويوس (1857 - 1913) فنان تشكيلي ينتمي إلى مدرسة الإنطباعيين الإسبان. (المترجم)
3. إيوخينيو لوكاس (1817 - 1870) تخلى عن الكلاسيكية الجديدة من أجل مواصلة تقليد إبداع بيلانكيث وجويا. (المترجم)
4. ماريانو خوسيه ماريا برناردو فورتوني إي مارسال (1838 - 1874) يعتبر بعد جويا واحداً من أهم فنانين إسبانيا في القرن التاسع عشر. (المترجم)
5. خواكين سورويا باستيدا (1863 - 1923) فنان تشكيلي ينتمي إلى مدرسة الإنطباعيين الإسبان ترك أكثر من ألفي عمل فني. (المترجم)

- نعم، نعم، أستوعب ما تقول، أيها الصديق وايتلاندرز، (قاطعهُ الدوق بتحفظ) وأتفق معك كلية، ولكن بالرغم من ذلك، هل تعتقد حضرتك أن هذه الأعمال قد يعثر لها على مشتر في إنجلترا؟ وفي حالة الإيجاب، إلى كم يمكن أن تصل حصيلة البيع؟ لا أطلب منكم بالطبع أرقاماً محددة، فقط حسبة تقديرية.

سعل أنتوني قبل أن يغمغم من بين أسنانه:

- صاحب السعادة، صدقا، لا أدري كما لا أعتقد أن هناك من هو مؤهل للقيام بهذا التقدير مقدما. أجهل من قد يكون مهتما بهذه الرسومات خارج إسبانيا. الأمر الوحيد المتاح، من وجهة نظري، هو وضع اللوحات تحت تصرف دار مزادات مثل كريستيز أو سوثيرز. ولكن هذا، ونظرا للظروف... صدرت عن دوق إجلادا إيلاء عريضة ومتساحة.

- هون عليك، أيها الصديق وايتلاندرز. أنا ممتن لركتك، لكن أعتقد أنني فهمت ما تحاول أن تخبرني به. ليس بهذه الطريق ستممكن من تجميع رأس المال، (إزاء صمت محدثه تنهد، وابتسم بأسى وأضاف) لا يهم. القدير سيرزقنا. صدقني أنا آسف، لأنني جعلتك تضيع وقتك الثمين هباءً، بالرغم من أن عمملك سوف يُكافأ على الوجه الأمثل. وأبشرك بأنني لن أتخذ أي اعتبارات سلبية تجاهك: لا يجب أن تتأثر الصداقة بالاتفاقات المبرمة، خاصة لو كانت ذات طابع اقتصادي. أنتم أيها الإنجليز جعلتم من هذه القاعدة عقيدة حقيقية وهذا وضعكم في صدارة العالم المتحضر. ولكن ستتاح أمامنا الفرصة لاحقا لكي نتفلسف. فلننح جانباً هذا الموضوع البائس، ولنر إذا كانت المقبلات قد أعدت. نعول على مشاركتك مائدتنا المتواضعة، بطبيعة الحال.

لم يكن أنتوني وايتلاندرز يتوقع هذه الدعوة، وعندما تلقاها تصور أن

أبواب السماء قد فُتحت، ليس فقط لأنها تمنحه الفرصة لكي يرى الساحرة باكيثا مرة أخرى، ولكن لأنه لم يتناول شيئاً طوال اليوم وعلى وشك الإغماء. بالرغم من ذلك، لاحظ قبل الموافقة، إيحاءة اعتراض على وجه جييرمو ديل بايي. كان واضحاً أن الوريث الشاب يشعر بالإهانة بسبب الحكم التحقيري الصادر عن أجنبي، ليس فقط على ما يعتبره إرثه الشرعي، بل أيضاً على رمز عزة لقبه العائلي.

- أي، (سمعه يغمغم) أذكرك أن لدينا اليوم مدعو.

نظر الدوق إلى ولده بلوم وحنان وقال:

- أعلم ذلك، جييرمو، أعلم ذلك.

وجد الإنجليزي نفسه مضطراً للتدخل على مضض.

- لم أرغب بأي حال من الأحوال...، على وجه التحديد لدي موعد...

- لا تكذب، سيد وايتلاندرز، (رد الدوق) وإذا كذبت فلا يكن بهذا السوء. كما لا تكثرث لابني. ما أزال أنا من يقرر من هم الضيوف الذين يجلسون إلى مائدتي. بالتأكيد لدينا اليوم ضيف، ولكنه محل ثقة، صديق عزيز للأسرة. وما عدا ذلك، فأنا على قناعة بأنه يسعده التعرف إلى حضرتك، كما أن حضرتك ستفيد من التعرف إليه. ولا مزيد من الكلام.

حسم الأمر، وعند دخول كبير الخدم قال:

- خوليان، السيد سيبقى لتناول الطعام. وبمنتهى الحذر اعمل على أن يعاد تعليق اللوحات في مكانها. بمقتضى التفكير السليم، سيكون من الأفضل أن أشرف بنفسي على العملية. جييرمو، اعتن بصاحبنا.

ساد صمت مشحون عند خروج الدوق من المكتب. من أجل إنقاذ

الموقف، قرر أنتوني طرح الموضوع بلا مواربة.

- آسف على إحباطك. (قال).

صوب الشاب جيرمو نحوه نظرة عدائية.

- بالفعل، (أجاب) لقد أحبطتني ولكن ليس بسبب ما تتصوره حضرتك. لم تكن لدي النية لمغادرة البلاد مطلقا. على العكس: هذه هي اللحظة لكي نصمد في مواقعنا ونحمل السلاح. لا يسعنا أن نترك إسبانيا بين يدي الحقراء. ولكن كنت أتمنى أن أرى أمي وشقيقتي في مأمن. ربما والدي أيضا: إنه عجوز وأصبح عبثا رغما عنه. أصبحت عائلتي الآن مصدر قلق مضاعف. بسببهم، ولأنه عندما تحين اللحظة، سيحاولون منعي. يعتبرونني طفلا، في حين أنني بلغت الثامنة عشرة بالفعل. الآن، إن مكثت، سيظن الجميع أن هذا ليس بناء على قراري الشخصي، ولكن بسبب نقص الموارد، وهذا يؤلمني. حضرتك لا تستوعب ذلك، لأنك لست إسبانياً. بعد أن قال هذا شعر بارتياح، كما لو أنه أزاح عبثا ثقيلًا عن كاهله.

وصلت إلى مسامعه عندما اقترب من القاعة مقطوعات البيانو وفي الخلفية صوت باكيثا المميز، ذو بحةٍ ومثير يشدو بأغنية فلكلورية⁽¹⁾.

أيها الفارس عالي الهمة،

إلى أين تمضي مزهوا؟

توقف أنتوني وايتلاندر أمام الباب، وكذلك فعل رفيقاه. عقب تنغيمه استمع الإنجليزي بشغف متزايد.

إلى دروب المجد

التي يجب أن نسعى إليها بجد

بالرغم من ذلك، فإن سعادة المستمع العاشق بُرتت فجأة بصوت باريتون يرد عليها:

أيتها الفتاة التي تروي الحبق،

كم وريقة بالشجيرة؟

أتصور أن بها أكثر من مائة

مثل ريشات خوذتي.

1. التنوديا أغنية فلكلورية مرحة ازدهرت مع مسرح لوبي دي بيجا في القرن السابع عشر فيما يعرف بالاستراحة أو المقبلات الكوميديية بين فصول المسرحية الدرامية. (المترجم)

فتح صاحب السعادة دوق إجولادا باب القاعة وقاطع اللحن. كانت ليلى جالسة إلى البيانو، بينما كانت شقيقتها الكبرى واقفة إلى جواره، مرتدية الثوب الأخضر الذي كانت تضعه عندما رآها أنتوني لأول مرة في الحديقة. كان يقف بجانبها رجل تجاوز الثلاثين بأعوام قليلة، داكن البشرة، حسن المظهر، ذو ملامح ذكورية، له عينان واسعتان يشع منهما الذكاء، ناصع الجبين، أسود الشعر، ذو طابع مميز وبسيط جدير بالأرستقراطية الإسبانية. أسكت تدفق الوافدين، المغنيين، إلا أنهم ظلوا يتبادلون النظرات، بأفواه شبه مفتوحة، حيث كانوا مازالوا منهمكين في التواطؤ المرح للموسيقى المؤداة في دويتو. جاء رد فعلهم فوراً إذ اتجهت نظراتهم نحو الباب. ثم لفترة وجيزة تقاطعت نظرات الإنجليزي مع الغريب الوسيم. حسم الانتباه لوجود السيدة الدوقة مستلقية على الأريكة، نزال الصالون الذي لاحت بوادره بين الذكرين. هرع الإنجليزي مراعاة للمشاعر لمجاملة دوقة المنزل، التي مدت له يدها قائلة:

- المجد للرب، أنتونيتو، كم افتقدناك.

لم يستوعب أنتوني إذا كانت هذه الكلمات تنم عن ود أم سخرية. فكر أنه ربما عنَّ للدوقة استفزاز رصانته. مصدوما قليلا من هذا الاستظراف، شعر الضيف بالإحراج، حتى أنقذت ليلى الموقف بالارتقاء بين ذراعيه ببراءة تلقائية. وبخها السيد الدوق:

- ألبا ماريّا، اتركي البروتستانتى المفضل لديك في سلام وتصرفي كأنسة راقية. (وملتفتا إلى أنتوني بنبرة مرحة) أعذر هذه الطفلة سيئة التربية، أيها الصديق وايتلاندرز، واسمح لي أن أقدم لك الصديق العزيز الذي كنت أحدثك عنه منذ برهة.

متحررا من معجبهته الطفولية، اضطر أنتوني تأجيل تحية باكيئا لكي يركز انتباهه على الغريب الوسيم. قام الدوق بالتعريف برصانه.

- ماركيز دي إستيبيا، فضلا عن أنه شخص يحظى بتقدير كبير من جانب عائلتي، فهو رجل متعدد الاهتمامات. أنا متأكد أنه لا تعوزه موضوعات للحوار. السيد وايتلاندر خير بارز في الفن الإسباني، تكرم أثناء تواجده في مدريد، بإلقاء نظرة على بعض القطع بغرض تقييمها. ماركيز دي إستيبيا - أوضح - على علم بخططنا.

أزال الماركيز أي ظل لتوتر بمصافحة قوية باليد وابتسامة مشرقة خالية من أي تحفظ.

- الجميع في هذا المنزل لا يكفون عن كيل المديح لك، (قال ماركيز دي استيبيا) يسعدني التعرف إليك.

- الشرف لي. (أجاب أنتوني، متوقفا رغما عنه أمام طلاقة لسان السيد المحترم).

قدم لهما كبير الخدم بالتعاقب كأسين من الخيريث على صينية من الفضة. - لا تنخدع في الأسلوب الطيب، (قال الدوق بخبث) الماركيز وأنا نتمى إلى جيلين مختلفين، وعلى ما يبدو إلى عالمين متناقضين. أنا ملكي متشدد، بينما هو على العكس من ذلك، ثوري على استعداد لقلب العالم رأسا على عقب إذا طلب منه.

- سوف يكون أقل من دون ألبارو. (ابتسم ماركيز دي استيبيا).

- لم أقل ذلك على سبيل اللوم، (أجاب الدوق) العمر يجعلنا أكثر اعتدالا. الشباب جموح. دون الذهاب بعيدا، الصديق وايتلاندر، ثوري، برغم كل فتوره الإنجليزي. على استعداد لإلقاء كل ما عدا بيلاثكيث، في المحرقة. أليس كذلك؟

أفقد النبيذ الكثيف المعتق ووعي الإنجليزي الذي كان لم ينزل جوفه أي

طعام، كما أثقل لسانه.

- لم أقل أبدا شيئا من هذا القبيل، (قال) كل عمل فني يجب تقديره وفقا لظروفه الخاصة.

عندما قال ذلك، نظر من طرف خفي بصورة لا إرادية إلى باكيثا واحمر خجلا. زاد خبث الفتاة الشابة من توتره.

- السيد وايتلاندرز يكافح بين المعارف الباردة والشغف الجامح.

انبرى الماركيز الوسيم للدفاع عنه بنبالة.

- من الطبيعي أن يكون كذلك. لا يمكن أن توجد قناعة أصيلة بدون شغف. العاطفة هي الأساس والسند للأفكار العميقة. من وجهة نظري، يجب أن نكون سعداء وممتنين لأن إنجليزيا كرس حياته لأمر إسباني خالص مثل بيلاثكيث. حدثنا سيد وايتلاندرز عن ولعك بهذا الفنان وكيف تعلقت به.

- لا أريد أن أضجركم بحكاياتي. (اعترض أنتوني).

- أي، يا بنيّ (تدخلت الدوقة بخفة دمها اللاذعة) في هذا المنزل لا تُسمع سوى مشاجرات حول الصيد، الثيران والسياسة. إذا لم أمت من الملل حتى الآن، فلن يقتلني أي شيء. قل متى شئت ما يحلو لك.

- موقفي ليس له أية علاقة بالعاطفة. أنا رجل دراسة، جامعي أكثر ميلا للبيانات المقتضية من التقدير العاطفي. المناقشات مع زملائي أقرب لمحاضر الموثقين العموميين من الأعمال الفنية.

- هذا السلوك (قال ماركيز إستيبيا) لا يتماشى مع فنان شديد المأسوية مثل بيلاثكيث.

- أوه، لا، معذرة إذا اختلفت مع رأي حضرتك. ليس في بيلاثكيث أي

مأساة على الإطلاق. كان كارافاجيو⁽¹⁾ مأسويا، كما كان إيجريكو مأسويا. أما بيلاثكيث فعلى العكس، كان لا مباليا، باردا، يرسم كما لو كان بلا رغبة، يترك اللوحات غير مكتملة، نادرا ما يختار الموضوع، يفضل الصورة الثابتة على مشاهد الحركة؛ وحتى عندما يرسم الحركة يرسمها ثابتة، كما لو كانت متوقفة في الزمن. فكروا في بورتريه الفروسية للأمير بالتسار كارلوس: قفزة الحصان معلقة ولن تتم مطلقا، كما لا يلاحظ على الأمير جهد الفارس. كان بيلاثكيث من داخله شخصا ذا دم بارد. حياته الشخصية تخلو من أية أهمية، لم يهتم بالسياسة قط: أمضى حياته بالكامل في البلاط ولكن دون المشاركة في مكائد القصور، وهو أمر يصعب تصوره. أثر أن يكون موظفا على أن يكون فنانا. في النهاية حينما حصل على منصب رسمي رفيع كف عن الرسم تماما أو قبل ذلك بقليل.

- من يسمع حضرتك تتكلم (قال السيد الدوق) لا يتصور أنك تقصد فنانا عالميا عظيما، عبقريا لا خلاف عليه.

ظلت باكيثا على مبعدة، وكما لو كانت مغيبة، أقحمت نفسها فجأة في الحديث.

- بالنسبة لي، السيد وايتلانديز يدير دفة الحديث لصالحه (قالت).

- ماذا تقصدين؟ (تساءل أنتوني).

وجهت إليه باكيثا نظرة استخفاف وتحدي:

- أود القول إن، بقوة المعرفة المكتسبة من المتاحف والمكتبات، استحوذت حضرتك على بيلاثكيث وقولبته على شاكلتك وهيئتك.

1. لقب ليوناردو دافنشي

تدخل صاحب السعادة الدوق ملطفا الأجواء.

- باكيثا، لا تكوني وقحة مع ضيفنا. وقحة ومندفة. الصديق وايتلاندر مرجعية عالمية: ما يقوله عن بيلاثكيث مقدّس، إن جاز لي التعبير.

- الذهاب للقداس شيء وتدرّس منهج شيء آخر (أجابت الشابة دون أن ترفع بصرها عن وجه أنتوني، لدرجة أنها من شدة انفعالها، تجرعت كأسا ثانية من نبيذ خيريث ورأت الصالون بأثاثه وشاغليه يدورون من حولها). من المؤكد أنني لا أعلم شيئا عن بيلاثكيث، لكن هل يعني هذا أن السيد وايتلاندر يعرف كل شيء؟ لا أنفي أنه يعرف قدر ما يعرف. ولكن، عن شخص عاش منذ قرون، وأمضى حياته محشورا في متاهة من المراسم، والمكائد والدسائس، مثلما هو حال البلاط الإسباني، كيف يمكننا أن ندعي أنه لم يحمل معه إلى القبر أي سر، أو أنه بصورة ماكرة، عاش حياة مزدوجة؟ بذل أنتوني جهدا لكي يسيطر على الانفعال والارتباك الذي لم يستطع إرجاع سببه إلى النبيذ فقط وحالة الجوع. على مدار مشواره الأكاديمي المتألق دحض وواجه حجج زملاء من نفس المستوى، دوما حول مسائل تفصيلية، ومتسلحا دوما بعتاد بيليوغرافي ثقيل. على العكس من ذلك، يواجه الآن امرأة جميلة تهاجمه في ملعبه وتعرض عليه قتالا وجها لوجه يبدو له استنساخا لمواجهة أخرى أكثر حيوية ومباشرة. أمر مختلف عن المكانة الأكاديمية التي صارت على المحك. جلي حنجرته وأجاب:

- لا تسيئي فهمي. في العمق أتفق مع ما تقولين، أكثر مما تتصورين أنني قلته. يمكننا إعادة بناء حياة بيلاثكيث خطوة خطوة، بما في ذلك أنفه المواقف. في الواقع، إن الحياة في بلاط فيليبي الرابع، مثل جميع بلاطات الملكيات العظيمة، كانت وكرا للدسائس والمكائد والإشاعات، ولكن أيضا، وربما لهذا السبب بالتحديد، كانت معينا لا ينضب من الوثائق الرسمية، المراقبة

الدقيقة، معلومات تفصيلية فضلا عن النميمة. توجد شهادات موثقة عن كل شيء. بصر وآنأة، ووسائل مناسبة، وذوق عام، ليس من الصعب فصل الحب عن القش. بالرغم من ذلك، بقدر ما يكشف لنا ذلك الواقع اليومي، لا يوجد شيء أو أحد يكشف لنا السر الأخير للإنسان والفنان. كلما شاهدت ودرست لوحات بيلاثكيث وبيلاثكيث نفسه، كلما أدركت اللغز العميق المائل أمام عيني. وبالفعل هذا اللغز وقناعتي بعدم القدرة على التوصل لحله هو مصدر الشغف في مجالي ويسبغ شرفا على حياتي كبروفيسور متواضع ومعلم.

عندما انتهى من الحديث، ساد صمت مشحون، كما لو أن خطاب الإنجليزي يحمل اتهامًا ضمنيًا. لحسن الحظ تدخل الدوق على الفور بلطفه المعهود.

- سبق أن قلت لكِ ألا تعبئي معه، باكيثا.

رمقت الشابة الإنجليزي بنظرة محملة بالمعاني وأجابت:

- لقد كنت مقنعا، ولكن السيوف ماتزال مشهورة.

- حسنا أنا أقترح استبدال هذه السيوف بالملعقة والشوكة (قال السيد الدوق مشيرا إلى باب حجرة الطعام، الذي فُتح توا مفسحا الطريق أمام الخادمة الريفية لتعلن أن الطعام جاهز).

توجه الجميع إلى حجرة الطعام، ولكن في هذه المناسبة ولأسباب بروتكولية أو بسبب الشعور بالإهانة، لم تتأبط باكيثا ذراع ماركيز إستيبيا، الذي همس لها بعبارة غير مفهومة لباقي الحضور.

اختتم الصمت المفروض من أجل مباركة الطعام، التي قام بها هذه المرة الأب رودريجو الكثيب والمتربص، وبينما كانت الخادمة تمر وعاء الحساء، الذي يتصاعد منه البخار، من شخص لآخر؛ أبدت السيدة الدوقة اهتماما بتقييم اللوحات. وفقا لما هو متفق عليه، أعرب الدوق عن رضاه باعتدال.

- الصديق وايتلاندر شرف سمعته: فلا هو متحمس ولا هو انهزامي، قدر ما اعتبره سعرا عادلا. قال أيضا إن الصفقة لن تكون طريقا مفروشا بالورود. صحح لي إن كنت قد اخطأت في التعبير عن قصدك.

- لا، لا، (اندفع الإنجليزي مؤكدا) كما عبرت سعادتك تماما.

الدوقة التي لم تفهم سوى ما أرادت أن تفهمه، ضمت يديها، شخصت بصرها نحو السماء وقالت:

- ماشاء الله! أخيرا ستمكن من ترك هذا الجحيم خلفنا! لكم توصلت في صلواتي إلى القلب المقدس وإلى العذراء المقدسة، ولم تذهب صلواتي هباء. وكل هذا بسبب تدخلك، عزيزي أنتونيتو، ومع أنك مجرد بروتستانتي! وسيلة العناية الإلهية. الله يكتب مستقيما في سطور معوجة⁽¹⁾، أو بالعكس.

1. مثل إسباني يعني أنه بالرغم من أخطاء البشر التي لا نجاة منها قدر الله يصنع المعجزات وينقذنا. (المترجم)

تختلط عليّ الأمور مع الأمثال. ولكن مهما يكن من أمر، فلإني أباركك من أعمق أعماق قلبي باسم جميع أفراد الأسرة وبالأصالة عن نفسي.

أصدر أنتوني عدة أصوات مرتبكة، آملا أن تفهم على أنها تعبير عن التواضع أو المجاملة، فبينما كان مقتنعا بأنه تصرف بنزاهة، كان يمزقه ندم؛ الخائن حديث العهد بالدين، ومهما ساعده الحساء الشهوي على التعافي بشكل طيب من وهنه، كم كان يتمنى لو تنازل عنه عن طيب خاطر لكي يفر هاربا من المشهد الذي بدا له كذبة عنيفة. مستشعرا لقلقه، تدخل صاحب السعادة دوق إجوالادامرة أخرى:

- المشكلة الآن، أنه بعد اكتمال مهمته، سيعود صديقنا إلى بلاده، ومن يدري متى سنراه مجددا.

- لا تقل هذا، ألبارو (قالت الدوقة)، أينما ذهبنا، حتى لو إلى الأمريكتين، سيظل أنتونيتو دائما محل ترحيب، من جانبي ومنا جميعا.

لم ينضم أحد لتظاهرة التعاطف هذه، إلا أن المذكور لاحظ لمحة سخرية في العيون الجميلة لباكيثا وحرنا حقيقيا في عيون شقيقتها الصغرى. كسر ماركيز دي إستيبيا الوسيم، الذي كان قد أثر السكنينة حتى تلك اللحظة، الصمت المشحون قائلا بصوت جهوري:

- حسنا أنا أيضا سيؤسفني غيابه، بالرغم من أنه لأسباب أنانية مريضة. كأني مدريدي من أسرة عريقة، ترددت على متحف البرادو منذ نعومة أظفاري، ويجب أن أعترف أن ذلك لم يكن دائما عن طيب خاطر. كانت ميولي تتجه بشكل أكبر نحو الشعر. بالرغم من ذلك كان هناك مؤدب يصطحبنا أنا وأشقائي إلى المتاحف، كجزء من تربيتنا، على الرغم من أنه لم يرنا شيئا على الإطلاق. معارفي في هذا الشأن تكاد تكون معدومة بالفعل، وبالنسبة لي

ببلاثكيث أمر عادي تماما مثل أشجار الرتيرو⁽¹⁾. أدرك الآن عندما أستمع لحديث حضرتك، أنه في متناول يدي منجم من المعادن النفيسة على سبر أغواره. وليس هناك ما هو أحب إليّ من استكشافه بصحبتك النافعة.

أعرب أنتوني عن امتنانه للتحول الذي أحدثه هذا التعليق غير المجدي في مسار الحديث وسارع بالقول:

- سأفعل ذلك بكل سرور إذا سمحت الظروف. أرى أن حضرتك رجل ثقافة، ولكن أظن أن حياتك تمضي وفق مسارات مختلفة. هل سيكون من الوقاحة أن أسألك سيدي الماركيز عن مجال عملك؟

- لا على الإطلاق، مهنتي معروفة للجميع. أنا محامي، واتجهت للسياسة منذ فترة، من جانب كتقليد عائلي، ومن جانب كميول شخصية، وأيضاً بسبب شعور يصل إلى مرتبة العقيدة بالواجب نحو الوطن.

- السيد الماركيز (تدخلت الدوقة) كان حتى وقت قليل نائبا برلمانيا عن مدريد.

- ياله من أمر شيق (قال أنتوني).

- شيق؟ (قال الماركيز) ربما كان كذلك. ولكن من وجهة نظري، أمر عقيم أيضا. صحيح أني كنت نائبا برلمانيا، ولكني لم أكن أتحملى سواء باليقين أو بالتقدير. في إسبانيا سقطت تجربة الديمقراطية الليبرالية بشكل مروع. لم يؤهلنا التاريخ من أجل هذا النظام الذي لا أنكر مميزاته، طالما أنه سيصير ما يجب أن يكون، وليس مجرد مبرر للطائفية، الديهاجوجية والفساد. يتجلى الفشل والانهيار بوضوح في شوارع مدريد بصورة يومية.

1. حديقة ضخمة بوسط مدريد (الترجم)

أوماً الإنجليزي في صمت، تفاديا لنقاش حول موضوعات يجهلها تماما، كما لا يعتقد أنه من الصواب التعليق عليها بسبب وضعه كأجنبي. لكن باكيثا، الشريرة دائما، لم تكن مستعدة لأن تتركه في سلام.

- لقد فاجأني سيد وايتلاندرز، (قالت مدعية البراءة) بصفتك إنجليزي كان يجب أن تدافع عن الديمقراطية البرلمانية. أم أنك متشكك في الأمر مثلما كان بيلانكيث.

- معذرة، آنسة باكيثا، ولكني لا أعتقد أن بيلانكيث كان مرتابا (أجاب أنتوني بحدة) كان ببساطة مخلصا للملك، كان بدوره يجوبه بفضلته وصداقته الشخصية. في هذه الظروف، لا غرابة في سلوك بيلانكيث المتكيف مع المظاهر، مثلما لا غرابة في موقفه بشأن بلادي ومليكي، مقابل أمور ليس لدي دافع على الإطلاق للاعتراض عليها. ومع ذلك أعترف بأنه لا مزايا على الإطلاق في أن يكون المرء وفيها في زمن الازدهار والسلام الاجتماعي.

- أحسنت القول، (تدخل ماركيز دي إستيا) هناك هوة شاسعة تفصل بين بلدنا، ولنفس السبب النظام السياسي الذي تستطيع إنجلترا السماح به قد فشل هنا. تركز الديمقراطية ومفهوم المساواة الخاص بكم على علاقات اجتماعية مُرضية لجميع الأطراف، والذي بدوره يتوافر بفضل الثروات التي وفرتها إمبراطوريتكم الإستعمارية مترامية الأطراف. ويمكن أن يقال الشيء نفسه إلى حد ما عن فرنسا. أما بالنسبة للدول التي لا مصادر ثروات لديها، فإن هذا هو الذي يحل ويعقد كل شيء، فيم تفيدهم تمثيلية الانتخابات؟ ألا يمكن أن توجد أساليب أخرى أكثر منطقية لإدارة مصير أمة ما؟ انظر إلى حالة ألمانيا، انظر إلى حالة إيطاليا...

- هل تدعو حضرتك إلى نظام شمولي؟ (سأل الإنجليزي مصدوما نوعا ما).

- لا (أجاب محدّته) على العكس تماما: أتحدث عن الدفاع عن إسبانيا في مواجهة شمولية أسوأ ألف مرة من الأنظمة سالفه الذكر. الشمولية السوفيتية التي تتقدم بخطى عملاقة بزعم حكومة وبرلمان يفترض أنهما منتخبان في اقتراع عام.

- هذه كلمات قاسية جدا، سيدي الماركيز (قال أنتوني).

- الأفعال أشد قسوة. (أجاب الآخر).

- هل تقبل إذن حلا على الطريق الإيطالية؟

- لا: على الطريقة الإسبانية.

بصفة عامة، لم يشب الحوار أي نبرة توتر أو تحفز، ومن ثم تراءى لكلا المتحدثين أن الوقت ملائم لترك الموضوع عند هذه النقطة، فيما انصرف باقي وقت المأدبة إلى موضوعات مبتدلة بتهذيب. بمجرد انتهاء الطعام، اعتذر الماركيز لاضطراره للانصراف على عجل، حيا بوده المعهود جميع أفراد الأسرة، شد بقوة على يد الإنجليزي وقال له قبل المغادرة:

- لقد كان تشريفا وسعادة التعرف إليك، سيد وايتلاندرز. أي صديق لهذه الأسرة التي أحبها كأسرتي، سيظل صديقي إلى الأبد. يسعدني أن أراك ثانية وأنا على ثقة أن هذا ما سيكون. ولكن إذا كنت مضطرا للعودة إلى ديارك، فأتمنى لك رحلة سعيدة وحظا وفيرا، كما أرجو منك أن تعيد النظر فيما تحدثنا بشأنه.

ظل أنتوني جالسا إلى المائدة، ولكن على عكس اليوم السابق، لم تكن هناك موسيقى أو ترفيه. خلّف رحيل الماركيز الوسيم فراغا يبدو أنه لم يكن هناك أحد لديه القدرة على ملئه. كما لو أنه برحيل الضيف المبجل قد سحب معه الأكسجين من الهواء، مخلفا جوا غريبا. سقطت الدوقة، التي كانت حتى

الآن في منتهى السعادة بتأثير فكرة مغادرة البلاد قريبا، في صمت كئيب، كما لو أنها تستشعر بالفعل في دخيلتها الوضع البائس للمنفى. كان الدوق شاردا. وأخذ نجله جييرمو، فريسة التوتر والضجر، يغمغم بعد بضع دقائق بأعذار غير مفهومة. كما أظهرت الفتاتان الشابتان علامات ضجر. وكانت ليلي من حين لآخر ترمق الإنجليزي بنظرات فاترة عابرة، فيما لم تحف باكيثا قلقا عميقا. تصور أنتوني أنها تشعر نحو الماركيز الوسيم بحب من طرف واحد. ليس هناك ما هو أكثر منطقية: كان الماركيز وسيما، متميزا، مرموقا، ويتسم بطابع حامٍ بدون أدنى شك. فكّر أنه لو كان في كمبريدج لكان أثار بلبلة. ثم قال بينه وبين نفسه، بدون استبعاد هذا الاحتمال، إن المعرفة التي لديه حتى الآن عن هؤلاء الأشخاص تجعل أي تخمين عرضيا تماما. بالنسبة لامرأة بذكاء ومكانة باكيثا لم تكن لتعدم أسبابا للقلق في المواقف الراهن، دون أن تكون بالضرورة ذات طابع عاطفي. وفي نهاية المطاف، حدث نفسه، وبالنسبة لي، ماذا يعنيني؟ غدا في مثل هذا الوقت سأكون في القطار، في الطريق إلى هندايا، ولن أرى هؤلاء الناس مرة أخرى. ولكن حتمية وعقلانية هذه الفكرة أصابته بحزن عميق. عندما يستعيد مجددا أمان وراحة منزله في لندن، أي تقييم يمكن أن يجريه لهذه الرحلة الموسومة بالفشل المهني والدليل على حماقته الشخصية؟ أي رأي كونه عنه، بصفة خاصة باكيثا، وخصوصا حينها يعلمون أن تقييم اللوحات لن يفتح طريق النجاة أمام الأسرة؟ مثل الطبيب الذي يشخص مرضا خطيرا ويعلم أنه بدون أن يكون له أي ذنب، لن يكون من الصواب أن يأمل في تعاطف المريض، لم بين أنتوني آمالا حول مشاعر باكيثا تجاهه، في إطار فرضية مستحيلة بخصوص معاودة اللقاء. باه، قال لنفسه، أولا وأخيرا، ماذا يهمني أي رأي تكون لدى هذه المرأة عني، مهما بدت لي جذابة؟ كان من العبث التكهن بمشاعره نحو باكيثا، تحديدا بمجرد انتهائه من علاقته بكاثارين. مغادرة هذا المنزل بأسرع ما يمكن، وضع حد

للمغامرة المدريدية، ومحاولة نسيان ما حدث، لم يكن بالفعل الأفضل، بل الشيء الوحيد المنطقي. فكر، فليفعل الإسبان ما بدا لهم فيما بينهم وكيفما اتفق؛ حتى لو قتلوا بعضهم بعضا، عندما تمر العاصفة، سيظل بيلاثكيت هنا، منتظرا عودتي.

عاقدا العزم على التخلص من الموقف ومن تكهنته، بدأ وداعا، توقع أن يكون مطولا وجاء مختصرا. باستثناء الدوقة التي استبقت يدي الإنجليزي بين يديها، الباردتين على غير العادة في غرفة دافئة، وغمغمت:

- إذا لم نلتق مجددا في مدريد، سنتظرك على الساحل الأزرق⁽¹⁾. سنستقر هناك حتى ينتهي كل شيء، أليس كذلك أبارو؟

أوما صاحب السعادة الدوق بوقار. مدت باكيता يدها إليه وطبعت ليلي قبلة رطبة على وجنته. عرض الدوق اصطحابه إلى الباب:

- تعال لتراني غدا باكرا وسوف نسوي الحسابات. لا تُحِبُّ. الاتفاق، لقد أنجزت عملي على خير وجه وأنا دائما أفي بوعدتي وأشكرك بصفة خاصة على تكتمك: أعلم أن الإنجليزي لا يحبون الأكاذيب المبالغ فيها.

ابتعد أنتوني عن القصر بخطى منهكة وقلب مثقل بالهموم. لو كانت لديه نقود لكان استقل أول قطار عائد إلى إنجلترا. ولكن هذا كان مستحيلا. لم يكن مفلسا فحسب، بل وبلا أوراق هوية. لعن نفسه ألف مرة بسبب غيابه. وبعد اقتناعه بعدم جدوى هذا الوقاحة، قرر أن يقوم بما هو مُتاح لاسترجاع حافظته وأوراقه. إذا كان الشخص الذي استولى عليها لص محترف كما هو واضح من أسلوبه، فإنه سيتحرك على الأرجح في حدود ثابتة بحيث تكون الأماكن والأشخاص مألوفة بالنسبة له. كان الليل قد

1. الكوت دازور جنوب فرنسا

هبط وبدأت الحانات تمتلئ. قرر أنتوني، بالرغم من أنه كان احتمالاً ضئيلاً العثور عليه مجدداً في نفس المكان، البدء برابطة مصارعة الثيران حيث تعرف بالصعلوك على خلفية الشجار الذي تسبب فيه شبيرة الفلانخي.

لم يعثر عليه، سواء هناك أو في الأماكن التي لا تحصى التي طاف بها. ولأنه كان قد قرر التحرك بأسلوب منهجي، كان كلما رأى تجمعاً كبيراً دخل فيه. بعض الأماكن كانت تعج بالشخصيات المرموقة، بعضها الآخر بالموظفين، وأخرى بأشخاص خطرين لا يمكن تصور مهنهم، بالرغم من ذلك كانت غالبية المحال تحوي خليطاً متنوعاً وديمقراطية بكل تأكيد. ساد معظمها ضوضاء تصم الأذان وفيض لا ينقطع من النيذ والمقبلات. كل شيء ينذر باندلاع عنف وشيك، ولم يكن لدى أنتوني أي دافع للتشكك في التوقعات المؤكدة، لكن طالما لم تقع المأساة بعد، بدا واضحاً أن الإسبان كانوا عازمين على الاستمتاع.

خرج أنتوني من رحلته الطويلة خلال الليلة البوهيمية، بهذا الاستنتاج ولا أكثر من ذلك. عاقدا العزم على المرور بأكبر عدد ممكن من المحال وبدون نقود لإنفاقها، كان بمجرد دخوله يتجه مباشرة إلى المالك أو العامل أو أحد الرواد، ويسأله إن كان يعرف أحداً بمواصفات الشخص الذي احتال عليه البارحة. اندفاعه ولكنته، واستحالة الإكرام المادي لمن يقدم له المساعدة المطلوبة، جعل جميع المحاولات تبوء بالفشل. أثارت لهفته شكوكاً وفي بعض الأحيان فتحت مجالاً للعداء. وفي أكثر من مناسبة كان يؤثر انسحاباً حذراً إن لم يكن مخزياً. في النهاية، قفل عائداً إلى الفندق. في الطريق وقبل أن يعلن فشل المهمة، قرر العودة إلى مسرح الجريمة. سرعان ما عثر على البوابة المتهالكة، صفق وقبع منتظراً في صمت. حين أهل هذا الشخص مترنحاً عند زاوية الشارع قال له:

- هل تتذكرني حضرتك؟

- منذ متى؟

- من ليلة البارحة.

- وما هو الشيء المهم الذي حدث بالأمس؟

- لا شيء. افتح لي الباب.

أبدت نفس المرأة البدينة دهشة مشوبة بوجد عند رؤية أنتوني. لا يجب الإكثار من الزبائن المنتظمين. بدد هذا الاستقبال شكوك الإنجليزي بشأن احتمالية وجود تواطؤ بين المرأة البدينة والمحتمل. أدخلته، أغلقت الباب وبدون أن تتركه يتكلم، عادت بضوضائها إلى عمر البيت المظلم.

- تونينا، ابتني، تعالي مسرعة، ها قد عاد عشيقك الوسيم! (ثم مخاطبة أنتوني) لن تتأخر، سيدي. إنها تتزين. المسكينة غارقة في غرام حضرتك، هذا شيء واضح. لا تعرف كم تحب القطالونيين. تونينا، يا حلوتي، هلا أسرعنا! وارتي التنورة التي أهداك إياها ذلك المسافر من ساباديل!

- سيدي، أنا لست قطالونيًا، (أوضح أنتوني) أنا إنجليزي.

- أوه! معذرة حضرتك على زلة لساني! بسبب لكنتك شديدة الغرابة ولأنك لم تترك بقشيشًا... لكن ها هي الفتاة. عاين حضرتك الحسن، يا سيدي وتاج رأسي!⁽¹⁾

حزينا مهزوما، لاحظ أنتوني لأول مرة نظرة نهمة في عيون الطفلة الواسعة.

1. الترجمة الحرفية للتعبير المستخدم «سيد روحي» ولكنها لا تعطي نفس الإيحاء المناسب للموقف في العربية، لذا رأينا التغيير (المترجم)

- في الحقيقة، سيدتي، أنا لم آت من أجل ما تتصورينه (قال).

بعبارات مرتبكة حكى ما حدث، محاولاً تهدئة المرأتين بشأن نواياه. لا يوجد أي شكوك تخوم حول ساكنات هذا البيت الكريم، كما أنه لم يفكر في اللجوء للسلطات. بكل بساطة وجد نفسه في موقف عصيب، كأجنبي بلا نقود ولا أوراق، وكان يريد أن يعرف إذا كن يعرفن الشخص الذي خدعه. وكما هو متوقع، لم تبدد تلك الكلمات مخاوف المرأتين. أقسمتا أنهما لا تعرفان أي شيء عن الشخص المذكور، فيما أكدت المرأة البدينة أن عدم طرح أسئلة أو تذكر أسماء من قواعد البيت الصارمة. أعرب أنتوني عن امتنانه وودعهما. قبل أن يخرج قالت المرأة السمينية:

- بما أنه ليس معك نقود، فأنت لم تتعش.

- لا يا سيدتي.

- حسناً، فلتر حضرتك، هنا من لا يدفع لا يمرح، لكن لن نحرم مؤمنا من لقمة. حتى لو كان إنجليزيا. هل يرتدي الرجال في بلدكم تنورات حقاً؟
- في إسكتلنده، وفي أيام الأعياد فقط.

- أها، أنا أشك، أي أعياد هذه (ضحكت المرأة البدينة).

بعد برهة، ظهرت لا تونينا ومعها وعاء من الفخار مملوء بعصيدة مدهنة، وملعقة خشبية وكوب ماء، بينما كان يتناول الطعام، تذكر أنتوني وايتلاندر بالتفصيل لوحة بيلاثيكت التي تحمل عنوان «يسوع في منزل مارتا وماريا».

بثقة وبدأب بني جلدته، توجه أنتوني وايتلاندر في الصباح الباكر، إلى السفارة الإنجليزية الكائنة بشارع باسيو ريكوليتوس. أوضح للموظف، الذي استوقفه عند المدخل وطلب منه أوراقه، أنه لجأ إلى هذا المكان تحديدا بسبب فقدانها. تردد الموظف. إن لم يكن بوسعك التسجيل كأحد رعايا التاج البريطاني، في هذه الحالة لن يكون بمقدورك عبور المدخل. ضجرا لأن هيئته ولكنته المميزة من كمبريدج لم تكونا كافيتين، أصر أنتوني على رؤية السفير شخصيا، أو على الأقل دبلوماسي ذي درجة رفيعة. أخبره الموظف بأن ينتظر في قاعة الاستقبال بينما ذهب ليسأل.

خرج الموظف. رأى أنتوني في حجرة مجاورة لقاعة الاستقبال، سيدة مسنة ترتدي ثيابا فاخرة تحيك التريكو. عندما أدركت أنها مراقبة، أومأت السيدة برأسها محمية. وأثناء تبادل التعليقات حول الطقس، عاد الموظف وبإبهام بارد، كما لو أنه تلقى تأنيبا بسبب الوافد الجديد، أشار إليه أن يتبعه. صعدا إلى الدور الأول عبر درج عريض مكسو بالسجاد. اجتازا مرأ قصيراً وأمام أحد الأبواب، طرق الموظف بأطراف أصابعه، وفتح بدون انتظار رد ثم تنحى جانبا. استقبله شاب تبدو عليه بوضوح أمارات السعادة في مكتب متوسط الأبعاد، أثنائه أرفف مملوءة بكتب القانون، مكتب ثقيل وبعض المقاعد المنجدة.

- هاري باركر، مستشار السفارة. (قال مادا كفا رخوة إلى مواطنه) ماذا يمكنني أن أقوم به من أجل حضرتك؟

كان سلوكه مهذبا، ولكن هيئته اللامبالية وتعبير التحذير المستتر في عينيه كان يثي بتوجس الموظف، الذي لا يشعره بالأمان سوى أن الأمر يتعلق بإجراء واضح غير قابل للتغيير. كانت ملامحه التي ماتزال طفولية تنبئ عن الصلع والبدانة التي تدخرها له السنين. كان موضوعا على أحد زوايا المكتب صورة في إطار لريتشارد باركر يصافح نيفيل تشامبرلين⁽¹⁾. بالإضافة إلى صورة لصاحب الجلالة الملك إدوارد الثامن على الحائط، كان هذا كل ما يبوح به المكتب عن شخصية شاغله.

- سعيد بمعرفتك. اسمي...

- أنتوني وايتلاندز (سارع الدبلوماسي الشاب بالرد). وفقدت حافظتك. موقف مُحرج بالفعل. في الواقع انتظرنناك بالأمس، بمجرد علمنا بالحادث. وأتساءل كيف تمكنت من قضاء يوم بالكامل بدون بنس واحد. مثير للإعجاب. لحسن الحظ، الأمور بخواتيمها⁽²⁾، أليس كذلك؟

أخذ يفتش في أحد أدراج المكتب بينما كان يتحدث. في النهاية أخرج الحافظة، جوز السفر، الساعة والقلم الحبر الخاص بأنتوني وسلمها إليه.

- تأكد من أن كل شيء موجود من فضلك. بيني وبينك لا داعي للمراجعة، بالطبع، ولكن السفارة وقعت إيصالا ويجب أن تصادق عليه. إذا كنت توافق بالتأكيد.

1. زعيم حزب المحافظين ورئيس وزراء بريطانيا خلال الفترة بين (1937 - 1940) (المترجم)

2. إشارة إلى مسرحية ويليام شكسبير وعنوانها بالإنجليزية (All's Well That Ends Well) (المترجم)

استفاد أنتوني من دهشته، وفحص محتوى الحافظة وتأكد من أنه لا شيء مفقود ثم أفاد المستشار بذلك. بعد ذلك سأله كيف وصلت هذه الأشياء إلى يديه.

- أوه، بأيسر السبل، (قال الدبلوماسي الشاب) صباح أمس جاء شخص يحمل الجنسية الإسبانية وسلمها لنا. حسب قوله، حضرتك أعطيتها له عند دخولك بيت دعارة لكي يحفظها لك. ظل الشخص ينتظر لفترة طويلة في الطقس الرديء، ولما لم تخرج، متجمدا من البرد؛ اضطر للعودة إلى منزله، البعيد عن وسط المدينة، أثر الرحيل، معترضا إعادتها إليك في اليوم التالي. لم يدرك أنه لا يعرف عنوانك إلا عندما وصل إلى منزله. ولما كان لا يدري ماذا يفعل، تراءى له إحضارها إلى السفارة، متوقعا أنك عاجلا أم آجلا ستأتي بكل تأكيد إلى هنا. بطبيعة الحال، نحن بأنفسنا كنا سنتصل بك على الفور لو كنا نعلم مكان إقامتك.

- أهكذا! (تعجب أنتوني)، لم أتخيل مطلقا هذه الخاتمة. وذلك الشخص، هل ترك أي اسم أو عنوان؟ أود أن أعرب له عن امتناني وأكافته على نزاهته.

- الاسم مدون في الإيصال: إينجينيو تامورا تامورانو، لكن العنوان لا. حسبما أتذكر أشار إلى مكان يدعى نابالكارنيرو، هل سمعت به؟

- نعم، إنها بلدة بعيدة جدا عن مدريد، لا أعتقد أن محسني الكريم يعيش هناك. ربما يتعلق الأمر بعنوان قديم أو المركز المسجل به. في كل الأحوال، ليس أمامي سبيل للاتصال به، لأنه بعد استعادة الحافظة وجواز السفر، وبما أنه لا يوجد ما يبقيني هنا، فأنا أعزم العودة إلى إنجلترا اليوم. إذا لم تخني الذاكرة، هناك قطار يغادر الواحدة والنصف بعد الظهر. وإذا أسرع، من الممكن أن أكون في هندايا هذه الليلة.

كان قد اتخذ هذا القرار بشكل متسرع وبدون تفكير، إلا أن الدبلوماسي الشاب أوماً بالإيجاب كما لو أن ذلك قد تم بالفعل.

- بكل تأكيد (قال) نظراً للأوضاع في إسبانيا، فليس من الحكمة إطالة الإقامة بدون سبب قوي. وبما أننا تطرقنا إلى ذلك، هل يمكن أن أسألك عن سبب وجودك في مدريد، سيد وايتلاندرز؟

- أمور خاصة. جئت لأرى بعض الأصدقاء.

- أتفهم ذلك. بكل تأكيد، ليس الأمر من شأني. على الإطلاق. أتمنى لك رحلة سعيدة. فقط سؤال واحد آخر لو تكرمت. هل تعرف المدعو بدرو تيتشر؟ بوسعي تهجي لقب العائلة لك.

- ليس هناك داع. بدرو تيتشر تاجر أعمال فنية في لندن. أنا خبير فنون، وبحكم مهنتي، من الطبيعي أن أعرف اسم السيد تيتشر. هل ترغب في معرفة شيء آخر؟

نظر هاري باركر نحو النافذة التي توتر السماء الزرقاء الصافية، رفع كتفيه كما لو كان يعلن نهاية الموضوع، وبدون أن يرفع نظره عن النافذة قال:

- كل شيء يدعوني لافتراض، أنك، سيد وايتلاندرز، تعرف هذا البلد جيداً. لو كان الأمر كذلك، فلن تتجاهل الموقف الخطير الذي أنت به. ليس من الضروري إضافة قلق الحكومة البريطانية بشأن احتمالية تطور الأحداث بصورة تنذر بوقوع عواقب وخيمة على مستوى القارة. هذا القلق يعني سفارتنا بشكل خاص. في المقام الأول، لأنه يمكن أن يؤثر على سلامة رعايا التاج الكثيرين المقيمين في إسبانيا أو المؤقتين؛ ثانياً لأنه يمكن أن يؤثر على مصالحنا، سواء الاستراتيجية أو الاقتصادية. بالطبع، يضطلع السيد السفير بهذه الأمور بالغة الخطورة والملحوقون المعنيون. تقع على عاتقي أمور أقل

أهمية، ولكنها ليست تافهة. إنه مجالي ويجب أن أكون على دراية، أليس كذلك؟

رفع نظره عن النافذة وهدق بقوة في أنتوني بنفس تعبير البراءة.

- ليس سرا (تابع القول) في أوقات انعدام اليقين هذه، تحاول كثير من العائلات إنقاذ ممتلكاتها، تحسبا لاضطرارهم لمغادرة البلاد. وهو أمر منطقي تماما من جميع وجهات النظر. إلا أنه في أوقات انعدام اليقين هذه تحديدا، ترغب حكومتنا في تجنب أي توترات صغيرة تتعلق بقضايا التهريب. حضرتك تفهمني. سأخبرك بصورة سرية، لدينا معلومات منذ فترة أن السيد بدرو تيتشر، تاجر أعمال فنية في ماي فير، كما تعلم، كان يقوم بالتوسط في... اتصالات... بكل تأكيد لا أحد يشكك في سمعة السيد تيتشر. بالرغم من ذلك، السيد تيتشر ليس... كيف أقول لك؟ ليس إنجليزيا مائة بالمائة. على الرغم من أنه ليس في هذا ما يضير: ليس بوسع المرء أن يقرر أصوله. أنا فقط أشير إلى، كما تعلم، ولاءات موزعة، معضلات أخلاقية، إن كان بوسعنا أن نسميها كذلك. حسنا، من المؤكد أن المعضلات الأخلاقية ليست من اختصاصي. حضرتك خبير فنون كما سبق أن أخبرتني...

- اسمع يا سيد...

- باركر. هاري باركر.

- يمكنني أن أعطيك كلمتي كسيد محترم أنني لست متورطا في أي عملية بيع أو شراء أعمال فنية في مدريد، وأقل من ذلك في صفقة غير قانونية لبيع لوحات.

- أوه، بالتأكيد، (قال الدبلوماسي الشاب بتعبير تحذيري)، بالتأكيد. لم أشأ التلميح لمثل هذا الأمر. المرء يفكر، تدري حضرتك، وأحيانا يفكر أن الحدود مبهمه إلى حد ما بين ما هو قانوني وما هو... غير قانوني. ولكنه مجرد

افتراض. ليست قضية، بالطبع، خاصة طالما أنك لم تأت إلى مدريد للمشاركة في أية صفقة، سواء قانونية أو غير قانونية. هل كنت تقول إنك عائد اليوم إلى إنجلترا؟

- إذا لم يعقني عائق.

- لا يوجد سبب لأن تتعرض لأي منها بشكل عرضي. القطارات الإسبانية ليست دقيقة أو نظيفة أو مريحة، ولكنها تعمل بشكل جيد إلى حد ما، حينها لا تكون هناك إضرابات أو أعمال شغب. على أية حال، إذا قررت لأي سبب البقاء في مدريد، أعدو ممتنا لك لو أحطني علما بذلك. سأعطيك بطاقتي. هاري باركر. رقم الهاتف هو نفس رقم السفارة؛ يمكنك الاتصال في أي وقت، هناك دائما شخص مناوب، وهذا الشخص سيقوم بالاتصال بي. لا تتردد في الاتصال في أي وقت، سيد وايتلاندر.

تنفس أنتوني الصعداء عند خروجه من السفارة. لقد حُلَّت جميع مشاكله في لحظة. استطاع إخفاء سبب سفره، بدون أن يخجل بوعده، لأنه صراحة لم يشترك في أية صفقة، وبما أنه أصبحت بحوزته الأوراق والنقود، فبمقدوره العودة إلى إنجلترا بدون الحاجة إلى الحصول على المكافأة التي عرضها عليه الدوق بمنتهى النبالة. كان يشعر بالحزن لمغادرة مدريد دون العودة لرؤية أسرة الدوق الودودة، ولكن مع ذلك، شعوره بالارتياح كان أكبر. من داخله أثنى على أمانة ذلك الشخص الفقير رمز الشعب الإسباني، والذي قد نسي اسمه بالفعل، والذي كان بمقدوره الحصول على غنيمة بدون مجازفة، ومع ذلك أثر إعادة كل شيء، كان يتحلى بذكاء كافٍ لكي يخطر على باله التوجه إلى السفارة، متكلفا عناء الذهاب بالأشياء بنفسه دون انتظار أية مكافأة.

كان الهواء باردا؛ والناس يهرولون عبر الشوارع وأيديهم في جيوبهم، قبعاتهم مسدلة وياقات معاطفهم مرفوعة. وبدت في الأفق قمم جبال سيرا

دي جواداراما المكسوة بالثلوج. كانت العاشرة والنصف: كان لديه وقت أكثر من كافٍ للعودة إلى الفندق، حزم الحقائب، الذهاب إلى محطة أتوتشا وركوب القطار.

بمجرد دخوله الفندق أخبر موظف الاستقبال أنه سيرك الحجرة. قام موظف الاستقبال بتدوين الملاحظة المناسبة في سجل النزلاء. بعد ذلك أعطاه المفتاح وظرفاً.

- أحضروه منذ فترة وجيزة.

كان الظرف مغلقاً ولا يحمل اسم مُرسل أو مُرسل إليه.

- من أحضره؟ نفس الشخص الذي سأل عني أمس؟

- لا. هذا كان شاباً، مدريديا⁽¹⁾، يبدو غجريا. لم يذكر اسمه أو أي شيء على الإطلاق، سوى أن أسلمك الرسالة في يدك شخصياً بمجرد أن أراك. وأنها مهمة. هذا ما قاله.

- حسناً (قال أنتوني وايتلاندر وهو يضع الرسالة في جيبه) سوف أحزم الحقائب. جهّز لي حضرتك الحساب. ليس لدي وقت لأضيّعه.

صعد إلى الحجرة، وضع الحقيبة على السرير وفتح باب الدولاب، مستعرضاً متعلقاته القليلة. قبل الشروع في نقل محتوى الدولاب إلى الحقيبة، أخرج الظرف من جيبه، اقترب من النافذة، فتح الظرف وبسط ورقة مطوية مكتوبة بحروف كبيرة، مهذبة وأثوية. يقول النص ما يلي:

1. الثشولابو هو شخص من العوام يرتدي ملابس عمال مدريد خلال أوائل القرن التاسع عشر أوائل القرن العشرين

أعلم أنك ووالدي لديكما موعد مؤكد هذا الصباح، إلا أن الشخصية النبيلة التي سمحت معاملتنا القصيرة أن أستمفها في حضرتك، تجعلني أخشى عدولك عن حضوره. من فضلك، لا تفعل. من الضروري لنا أن نرى بعضنا مجددا. ضروري بالنسبة لي، وإذا لم تخدعني غريزتي وعقلي، ضروري أيضا بالنسبة لحضرتك.

لهذا السبب القهري سمحت لنفسي بالكتابة لحضرتك. كبير الخدم الخاص بنا، الذي تعرفت عليه من قبل، سوف يوصل إليك رسالتي، والتي لا يعرف شيئا عن محتواها، كما أنه يجهل أيضا شخصية كاتبها. إذا رأيته، فلا تقرأها في حضوره ولا تسأله عن أي شيء. ثم تخلص منها بعد قراءتها.

عندما تأتي إلى البيت لا تطرق باب الدخول. دُر حول السور حتى تجد في شارع جانبي بوابة حديدية ضيقة تؤدي إلى الحديقة. في الثانية عشرة تماما، اطرق ثلاث مرات وسوف أفتح لك. عندما تأتي تأكد من أنك لم تكن متبوعا ولا مراقبا. سوف أوضح لك في الوقت المناسب سبب كل هذه الاحتياطات.

من تثق بك دوما،

باكيئا

أعاد قراءة الرسالة دون أن يستوعب مضمونها. ومع ذلك، وبالرغم من أن ذلك سوف ينسف خططه، لم يكن ليصم أذنيه عن نداء شديد الإلحاح. نزل إلى الاستقبال وأعلن أنه سيقى في الفندق ليوم آخر. شطب موظف الاستقبال التسجيل السابق ودون البيان الجديد في الدفتر بدون إبداء أي

تعليق، وهو ما أثار ريبه أنتوني: الحرص الذي توصي به الرسالة والتحذيرات المتكررة جعلته في حالة تأهب شديدة.

عاد إلى حجرته، حفظ حقيبته وأغلق الدولاب. كانت الحادية عشرة. كان هناك وقت كافٍ لكي يذهب إلى الموعد، ولكن لأن قلقه لم يسمح له بأن يظل حبيسا، خرج إلى الشارع. احتسى شرابا في مقصف لليرة بميدان سانتا آنا وتناول طبقا من الحبار، لأنه لم يكن قد أفطر بعد. ثم انطلق في طريقه عبر مسارات معقدة. عندما دلف إلى الزقاق حيث يقبع القصر كان واثقا من أنه لم يكن متبوعا أو أنه ضلل أي متابع محتمل. بمجرد وصوله إلى هناك لم يجد صعوبة في العثور على البوابة الحديدية المذكورة في الرسالة. طرق بأطراف أصابعه ورن المعدن بصدى مقبض. في الحال دار المفتاح في القفل الصدى وانفتح الباب مصدرا صريرا. أدخل الإنجليزي من الفتحة وأغلق سريعا ظل شخصية أنثى تتوقى البرودة وتلصص المتطفلين بعباءة مطر واسعة؛ وشال يغطي ملامح وجهها. لاح لأنتوني في عيون باكيثا العميقة المتبدية من بين ثنيات الشال وهج المغامرة المحموم. رأى مسبحة مشدودة على هيئة طلسم بين أنامل اليد التي تمسك بالمفتاح الضخم.

- لا تخافي (قال) لم يتبعني أحد.

وضعت إصبعها على شفثيه وهمست:

- صه!

ثم أمسكته من يده وجذبه برفق وقادته بخطى حثيثة عبر درب الحديقة المؤدي إلى المنزل. لم يكن أنتوني قد رأى من الحديقة سوى لمحات عابرة من خلال نوافذ القصر. الآن وقد أصبح داخلها، بدت له أكبر وأكثر غموضا. كان ينتشر بالمكان عبير حزين منبعث من التربة المبتلة، التي ترقد البذور في

باطنها. ظهرت من بين الرياحين الجافة وشجيرات الورد المقلمة، مقاعد حجرية ملطخة بالطحالب. لمح من بين فروع الأشجار العارية، نوافذ القصر، تنعكس على زجاجها شمس شتوية، ذهبية كابية. كان ثمة كلب ينبح في حديقة قريبة. توقفت باكيثا والإنجليزي أمام باب مقوس. بمجرد فتحه ظهر دهليز مظلم. قبل الدخول، احتضنته هي بصورة مفاجئة. شعر أنتوني بحرارة وجنتي الفتاة الشابة تلمح وجهه واحتكاك شفاه باردة. «حياتي بين يديك» حسب أن هذا ما استوعبه من بين صرير الريح. كيف يجب عليه أن يفسر هذه الكلمات؟ طرأ على عقله تفكير خاطف، بقية من منطوق: في هذه التوقيت كان يجب أن أكون على متن القطار المتجه إلى هندايا. سيطر هذا الخاطر على خيالاته الفتازية الجامحة وقرر الانتظار بحواس متيقظة لتطور هذا الحدث الفريد. بدون أن تترك يده أو تتيح له وقتا للمزيد من التفكير، دلفت باكيثا إلى الدهليز. بمجرد إغلاق الباب لفهما الظلام حتى اعتادت أعينهما على الضوء الشحيح المنبعث من مصباح زجاجي متدلٍ من السقف. انبعثت من الممر برودة رطبة قاتلة. واصلا السير حتى بلغا بابا آخر، فتحتة الفتاة في حركة رشيقة وحاسمة. دخلت وتبعها أنتوني. وجد نفسه بمجرد اجتياز العتبة، في مخزن فسيح ممتلئ بالأثاث القديم، الصناديق الضخمة والطرود من مختلف الأحجام مغطاة بملاءات. بدت التماثيل على هيئة أشباح. حين رأى أنها لم تقل شيئا ولم تحرك ساكنا، سأها:

- أين نحن؟ لماذا أحضرتني إلى هنا؟

من ركن مظلم أجاب صوت عميق:

- لا تخش شيئا سيد وايتلاندرز، أنت بين أصدقاء.

بينما كان يقول ذلك، ظهر من بين الطرود صاحب السعادة دون ألبارو ديل بايي، دوق إجوالادا، متلحفا برداء ثقيل ويعتمر قلنسوة من اللباد

الأخضر لها ذر. ارتبك الإنجليزي عندما رآه: المشاعر التي أثارها سلوك باكيثا داخله جعلته ينسى سبب وجوده في القصر.

- لك جزيل الشكر على مجيئك (تابع ذلك الشخص قائلاً) انتابني الخوف للحظات من أن يثنيك شرف المهنة عن موعدنا. أما بخصوص السرية التي تكتنف اللقاء، فأرجعها إلى المبالغة في الحيطه. من المهم ألا يعلم أحد بوجودك هنا، وخصوصاً، ما سوف نتحدث بشأنه وما سوف يحدث بعد ذلك. نود الاعتذار أيضاً على هذا المكان غير المريح. والآن، إذا سمحت لي، وبدون المزيد من الدياتجات، سوف أقدم إليك الإيضاحات التي بدون شك ندين لك بها، إذا كان لديك الصبر على سماعها، سوف تفهم وتصفح عن مسلكنا الميلودرامي إلى هذا الحد. في المقام الأول، أيها الصديق وايتلاندرز، أتقدم إليك بألف اعتذار بسبب الخداع المدبر الذي خدعته لك حتى الآن. لكم اضطررت لمخالفة صدقي الفطري لكي أظهار أمام حضرتك، وأكثر من ذلك مبادئ الطبيعية، مدركا أنني أستغل بذلك ثقتك وشهامتك. يريحيني من تأنيب الضمير هذا أن حضرتك ستنال في النهاية مكافأة معنوية تتلاءم مع الضرر الذي ألحقته بك.

اقرب السيد الدوق من ضيفه المرتبك وواصل حديثه بصوت خفيض ومتحفظ بينما يضع يده على كتفه.

- بالرغم من عدم خبرتي في أمور الفن، فلست بهذا الجهل أو الادعاء لكي أتوهم أن اللوحات التي عرضتها عليك أمس يمكن أن يكون لها قيمة تذكر في السوق الخارجي. لم أكن لأستدعي خبيراً مثل حضرتك لتقييم المجموعة المتواضعة لهاوي بسيط. لا تشعر بالإهانة إذا قلت لك إن السبب الوحيد الذي من أجله جعلتك تأتي مرتين وتشارك في جو الأسرة كان أن أراقبك. كان لدي أفضل توصيات بشأنك ولا يوجد سبب على الإطلاق

يدعو للتشكيك في نزاهتك؛ إلا أن طبيعة علاقتنا كانت تستوجب ثقة تولد فقط من خلال التعامل الشخصي. وغني عن القول إن نتيجة هذا الاختبار لم تكن مرضية فحسب، بل فاقت بمراحل أكثر التوقعات تفاوتاً. أعلم الآن أنك رجل ذكي، نزيه ومنصف؛ بصورة تجعلني أضع حياتي وحياة أسرتي بين يديك بلا تردد. وفي الواقع، هذا ما أقوم به بالفعل.

توقف بصورة عاطفية، كما لو أن ذكر الخطر الذي يحوم حول أحبائه يسرق أنفاسه. وعلى الرغم من أنه كان يلقي نظرات جانبية مشحونة بخوف ظاهري، كان جلياً أنه يجد متعة ما في تمثيل التعبير عن قلقه.

- ما أخبرك به وما سوف أخبرك لاحقاً، لا يعلم به أحد ولا حتى أفراد أسرتي أنفسهم، باستثناء باكيثا بالتأكيد، الحاضرة هنا، والتي على الرغم من وضعها كأثني، تتمتع بحكم صائب وشجاعة لا تُنكر. بالنسبة للباقيين، ما حدث منذ قدومك، بالإضافة إلى الكذبة البيضاء بخصوص التقييم المحتمل للوحدات والذي سيخيب آمالهم بعد ذلك، فهو عين الحقيقة. بهذه الطريقة لا أحملك فقط من عواقب وخيمة محتملة، بل مما هو أهم من ذلك: إذا كنا مخرقين، كما أشك، من يتجسس علينا سيخرج بنفس استنتاجات عائلتي والتي يمكن أن تكون قد انتهت إليها حتى الآن. وبعد أن انتهينا من ذلك، أيها الصديق وايتلاندرز، سوف أعرض عليك لوحة كانت السبب في رحلتك إلى مدريد. لا يعلم أحد بوجودها، ومن أجل دواعي الحذر سألقة الذكر، لا أستطيع أن أعرضها عليك خارج هذا القبو حيث الضوء كابٍ. لاحقاً سوف أحضر مصباحاً إضافياً. في الوقت الراهن، يجب أن تتكيف مع المصباح البائس. لكن لم يكن ممكناً تأجيل هذه المحادثة لوقت أطول أو التخلي عن إطلاعك على هذا الأمر بالغ التعقيد والسرية.

صمت السيد الدوق، وبدون انتظار إجابة، دار على عقبه واتجه إلى

أعماق المخزن. تبعه الإنجليزي أكثر تشويشا من قبل حصوله على إيضاحات مضيفه؛ وقفت باكيثا، التي استمعت لهما في صمت، إلى جواره، عاقدة الذراعين، ترنو بنظرها إلى أسفل، بينما تعلو شفثيها ابتسامة خفيفة وغامضة. كان هناك طرد مستطيل متوسط الارتفاع مكسو بغطاء ثقيل مربوط مستند إلى صوان قديم ذي مرايا. أخذ السيد دوق دي إجوالادا، يرفع الغطاء بحرص شديد، حتى كشف عن لوحة زيتية فريدة، أمام أعين الإنجليزي غير المصدقة.

دون أنتوني سريعا رقم هاتف في صفحة مفكرة ملاحظات وطلب من عاملة الهاتف بالريتز⁽¹⁾، أن تتصل له بالرقم. اضطر لتكرار الطلب أكثر من مرة، لأنه كان يتلعثم بالإنجليزية والإسبانية في نفس الوقت وبصورة متقطعة. كان قد دخل الفندق لكي يجري المكالمة، إلا أنه كان يبحث أيضا عن الأمان الذي يمكن أن تمنحه إياه فخامة المكان الوقورة والخصوصية. هناك كان يشعر لوهلة بأنه خارج العالم الحقيقي. لكي يهدئ من روعه ويرتب أفكاره، اتجه إلى البار وطلب كأسا من الويسكي. شعر بعد احتسائه بسكون العاصفة التي قلبت كيانه، إلا أنه لم يربو ضوح الطريق الذي يجب أن يسلكه في هذه الظروف غير المسبوقه. لم يُزل كأس الويسكي الثاني شكوكه لكن جعله يتيقن من ضرورة خوض المخاطرة. قامت عاملة الهاتف، المعتادة على السلوكيات الغريبة لبعض الشخصيات من بين الصفوة من زبائن الفندق، بطلب الرقم، انتظرت لبرهة وفي النهاية أشارت إلى أحد الكبائن. أغلقها أنتوني على نفسه، رفع السهاعة وبمجرد الاستماع إلى صوت السكرتيرة المتعب قال:

- أود الحديث مع السيد باركر. اسمي هو...

1. يعتبر الفندق العريق من معالم وسط المدينة بمدريد، افتتحه الملك الفونسو الثالث عشر عام 1910 ويقع بحي الرتيرو ملاصقا لمتحفني البرادو وتيسين. (المترجم)

- لا تذهب حضرتك (قاطعته في صحوة مفاجئة).

بعد انقضاء ثوان معدودة، تردد على الجانب الآخر من الخط صوت

هاري باركر:

- حضرتك؟

- نعم...

- لا تذكر اسمك. من أين تتصل بي؟

- من فندق ريتز، أمام متحف البرادو.

- أعرف أين يوجد. هل كنت تتناول الشراب؟

- كأس ويسكي، هل يُلاحظ علي؟

- لا، على الإطلاق. تناول كأساً أخرى حتى أصل، ولا تتحدث مع

أحد، هل فهمتني؟ مع أي أحد. سأكون هناك خلال أقل من عشر دقائق.

عاد أنتوني إلى البار وطلب كأس ويسكي أخرى، كان سعيداً ونادماً في

الوقت نفسه بسبب المكالمة التي انتهت من إجراءاتها. وبمجرد احتسائها رأي

هاري باركر يدخل البار. قبل تحية مواطنه، ترك الدبلوماسي الشاب القبعة

والمعطف والكوفية والقفاذات على أحد المقاعد ونادى بإشارة على النادل.

عندما حضر مد له يده بعملة ورقية وقال:

- أحضر لي كأس أوبرتو وكأس ويسكي آخر لهذا السيد. اسمي باكر،

مثل الأقلام الحبر. إذا سأل أحد عني، تعال لتخبرني بنفسك، بدون ترديد

اسمي. لا أريد أن يُذكر اسمي مهما كانت الأسباب. واضح؟ (وضع النادل

الورقة في جيبه، أوما برأسه وانصرف. خاطب الدبلوماسي الشاب أنتوني)

هنا الكل يراقب الكل: الألمان، الفرنسيون، اليابانيون، الأتراك. إنها مزحة

بالطبع. لحسن الحظ البقشيش يحل أية مشكلة بصورة مرضية. في هذا البلد يمكن تسوية كل شيء ببقشيش جيد. في البداية واجهت مشكلة لفهم ذلك عندما جئت، لكن الآن يبدو لي نظاما رائعا: يسمح بالإبقاء على الرواتب منخفضة وفي الوقت نفسه يبرز تراتبية الهرم الاجتماعي. العامل يكسب النصف والنصف الآخر يتعين عليه أن يعبر عن امتنانه لسيدة من أجله بعبودية مضاعفة. وحضرتك، ماذا لديك؟ إذا لم تخني الذاكرة، آخر مرة تقابلنا، حضرتك كنت على وشك ركوب القطار عائدا إلى لندن. ما الذي جعلك تغير خططك؟

تردد أنتوني قبل الإجابة.

- حدث شيء... لا أدري إن كنت فعلت الصواب بالاتصال بك.

- هذا أمر لن نعرفه مطلقا. ماذا كان سيحدث لو أننا تصرفنا بطريقة مختلفة، إيه؟ لغز غير قابل للحل. في الوقت الراهن، الشيء الوحيد الذي نعلمه هو أن حضرتك اتصلت بي وأني هنا. خذ الأمر بهدوء واحك لي من البداية عن سبب مكالمتك.

أحضر النادل المشروبات. عندما رحل، قال أنتوني:

- لن أطلب منك وعدا كرجل محترم بأن كل ما سوف أقصه عليك سيظل سرا، ولكنني أرجو منك توخي أقصى درجات التكتّم بشأن هذا اللقاء. لا ألقأ إليك بصفتك دبلوماسيا معتمدا، بل بصفتك ابن بلدي وبصفتك شخصا تتمتع بالقدرة على استيعاب خطورة المسألة. كما أود أن أخبرك (أضف بعد تردد واضح) لم أكذب عليك حين أخبرتك هذا الصباح بأنني لست مشتركا في أية صفقة تجارية. في الحقيقة لقد استدعيت للتوسط في صفقة بيع محتملة لعدة لوحات، إلا أن العملية انتهت قبل أن تبدأ.

- ما اسم الشخص الذي اتصل بك؟ وما هي جنسيته؟

- أوه، سيد باركر، لا أستطيع أن أكشف لك هوية ذلك الشخص. إنه

سر مهني.

تناول المستشار رشفة من كأس الأوبورتو، أغمض عينيه وغمغم:

- سأعتني بذلك. استمر.

- السبب الذي من أجله اتصلت بك، كان ما ألمحتَ حضرتك إليه

بشأن: بيع لوحات خارج إسبانيا من أجل الحصول على المال في الخارج، وبهذه الطريقة يتمكن الشخص المقصود من الهجرة مع عائلته كلها، إذا اقتضت ظروف البلاد السياسية ذلك.

- ولكن حضرتك قلت توا إن العملية لم تتم.

- بالفعل. في البداية، أنا نفسي نصحت بعدم بيع اللوحات، ليس

فقط لأسباب قانونية بل لضعف احتمالات العثور على مشتري لها في أي بلد في أوروبا أو الأمريكتين. بالرغم من ذلك، تغيرت الأمور في منتصف نهار اليوم نفسه،... بصورة جذرية.

- بصورة جذرية؟ (كرر الدبلوماسي الشاب) ما معنى بصورة جذرية؟

جلى أنتوني حلقة قبل أن يجيب وهدق في كأس الويسكي. كان على

وشك القيام بأهم كشف في حياته وكان يجزئه أن يفضي بذلك لرجل غريب لا يتمتع بكل تأكيد بالحس الضروري لتقدير أهميته، وفي مكان مختلف تماما عن مسرح الأحداث الذي كان قد تخيله للحظة بلوغه القمة.

- الأمر يتعلق بلوحة لبيلاثكيث (قال في النهاية بتنهيدة طويلة).

- آه، يا للهول (قال هاري باركر بدون إبداء أدنى حماس).

- ليس هذا فحسب (تابع أنتوني وایتلاندر كلامه بفتور) إنه عمل غير معروف لبيلاثكيث، مجهول تماما حتى الآن. لا يعلم أحد بوجوده، باستثناء أصحابه، والآن حضرتك وأنا.

- وهل يجعله هذا أكثر قيمة؟

- أكثر قيمة بكثير، بكل تأكيد. وليس من منطلق القيمة المادية وحدها. لأن هناك المزيد. هل لديك خبرة في الفنون، سيد باركر؟

- أنا لا، لكن حضرتك نعم؛ أخبرني بكل ما يتعين علي معرفته.

- حاولت أن أوضح لك ما هو جوهرى بالأسلوب الأكثر اختصارا. حياة بيلاثكيث العامة معروفة للجميع: وُلد وترعرع في أشبيلية، جاء إلى مدريد وعُيّن رسام بلاط فيليب الرابع. توفي بصورة طبيعية عن واحد وستين عاما. لم يشترك مطلقا في مكائد القصور، كما لم يتعرض لأية مواقف مع محاكم التفتيش. هذا، وكما أخبرتك، فيما يتعلق بحياته المهنية. أما حياته الخاصة فلا يعرف عنها سوى القليل، على الرغم أنه فيما يبدو لا يوجد الكثير لنعرفه. تزوج في إشبيلية في التاسعة عشرة من ابنة أستاذه، رزق بابتين؛ حظي بزواج مثالي، لم تعرف له نزوات. إذا كانت هناك أية انحرافات من هذا النوع أو من نوع آخر، فإن خصوم بيلاثكيث، ومن كانوا يحسدون نجاحه وامتيازاته، لم يكونوا ليتورعوا عن نشرها لإيذائه. من ناحية أخرى، بيلاثكيث، على عكس كثير من مشاهير الفنانين، لم يرسم مطلقا بورتريه لزوجته، كما لم يستخدمها كموديل، ولا حتى في بدايات مشواره، عندما كان يرسم المشاهد اليومية مستعينا بأشخاص من بيئته. زار إيطاليا في مناسبتين؛ في الأولى ظل مختفيا لمدة عام، وفي الثانية قرابة ثلاثة أعوام. لم يصطحب زوجته معه كما لم يعثر على رسائل متبادلة بين الزوجين. كان بيلاثكيث رجلا وسيما وكان يتمتع بمميزات عظيمة؛ ومن الواضح أنه كان حساسا تجاه الجمال الأنثوي،

مما يلاحظ من تأمل لوحة فينوس أمام المرأة في الناشيونال جاليري بلندن.

توقف ليتأكد من أن مستمعه يتابع إيضاحاته باهتمام، إلا أن الدبلوماسي الشاب كان قد أسدل جفونه وبدا كما لو كان نائما.

- باركر (هتف أنتوني وايتلاندرز مرتبكا) ألا يهكم ما أقصه عليك؟

- أوه، نعم، نعم، معذرة. تذكرت الآن أمرا ما، أمر معلق، في الغد، في الغد صباحا، كما تعلم، روتين العمل...، لكنني منصت إليك، منصت. ماذا كنت تقول عن الناشيونال جاليري؟

- كف عن الهراء، باركر. أنا أحدثك عن الحياة الخاصة لدييجو دي سيلبا دي بيلاثكيث.

- اسمع، وايتلاندرز، هل حقا جعلتني أخرج للشارع في ساعة غير ملائمة في عز الشتاء، وفي منتهى الإلحاح، للتلميح أنه من المحتمل أن بيلاثكيث لم يكن زوجا صالحا كما يقول كُتّاب السيرة الذاتية؟ يجب الاعتراف بأننا نحن الدبلوماسيين لا نحترق مطلقا أيّا من أسرار غرف النوم، ولكن بكل صراحة، لا أرى أين الأهمية في شخص تافه رحل عن دنيانا منذ ثلاثة قرون.

وضع أنتوني وايتلاندرز كأس الويسكي على المنضدة وظل في مقعده.

- يبدو لي موقفك مؤسفا، باركر (قال بنبرة جافة) أنا لن أسمح لك أن تستهين بمعارفي، أو أن تشكك في قناعاتي وأقل من ذلك أن تدعو بيلاثكيث بالتافه.

- أية قناعات؟

- قناعاتي بمدى أهمية اللوحة. اسمع: ما رأيته منذ بضع ساعات ليس عملا أصليا لبيلاثكيث على أعلى مستوى من الجودة فحسب، وهذا سيكون

في حد ذاته اكتشافا مدويا، بل إضافة استثنائية لتاريخ الفن العالمي. سأضرب لك مثلا لكي تفهم. تخيل في يوم من الأيام وقع في يدك مخطوط لشكسبير، عمل بجودة تضارع عطيل أو روميو جوليت، وأنه بالإضافة إلى ذلك يتضمن عناصر من السيرة الشخصية كفيلا بتوضيح الغموض المحيط بحياة الشاعر الشهير. فهل يبدو لك هذا شيقا، سيد باركر؟

الدبلوماسي الشاب الذي ظل يستمع للخطبة اللاذعة بعيون مسبلة، رفع بصره وحملق في الصالون وأجاب بدون النظر إلى محدثه:

- سيد وايتلاندرز، ما يهمني أو لا يهمني لا قيمة له. لم أترك منزلي المريح لأحظى باهتمامات جديدة. وإذا كنت متواجدا هنا فمن أجل بحث ما يهمني حضرتك. ولا تكن حساسا أو مندفعا إذا لم تكن ترغب في أن تقصص على كل الناس ما لا يجب أن يسمعه. محبة في الله، حتى طفل صغير كان سيدرك أنني كنت اختبرك. إذا فقدت رباطة جأشك فستضيع. والآن إن كان بوسعك تحويل تفكيرك لدقائق معدودات عن هزل فنائك الأثير وتخبيري عن الدور الذي أقوم به في هذه الورطة.

توقف أنتوني لبرهة ليعيد ترتيب أفكاره. كان الصالون يدور على إيقاع الموسيقى وكان يود لو استسلم عن طيب خاطر لذلك الشعور اللذيذ؛ إلا أنه كان يريد توضيح موقفه بدقة من قضية بالغة الحساسية.

- انظر، هناك شخص، محافظ من ناشيونال غاليري، اسمه إدوين جاريجو؛ من عائلة، في غاية الاحترام، كان أستاذا في كمبريدج، يجب أن يكون طاعنا في السن الآن. في كمبريدج كانوا يسمونه «فيوليت» أو ما شابه؛ إذا كررتها فسأنفي أي قلتها... هذا المحترم، إدوين أو فيوليت، لا فرق، خبير في فن التصوير الإسباني: بيلانكيث، موريو، ريبيرا، كما تعلم؛ تشاجرنا لهذا السبب في عدة مناسبات، ليس بشكل شخصي بطبيعة الحال؛ مقالات في

مجلات متخصصة وذات مرة رسائل إلى «التايمز»، بدقة ولكن بحدّة، وبسخرية من جانبه؛ إنه لا يقدرني؛ أعتقد أنه يشك في أنني أود شغل منصبه، ولا أنكر أن الفكرة طرأت على بالي منذ عدة سنوات مضت... ولكن الأمر الآن لا يتعلق بهذا. في النهاية، أنا أيضا لا أقدره أبداً، اعتبره ببغاء مغرور، إذا كنت تريد معرفة رأيي؛ لكن أقر له بدرجة عالية من الكفاءة في المجال، ولهذا أنا... أنا كتبت له رسالة...

أخرج ظرفاً منتفخاً من الجيب الداخلي للجاكيت وقدمه بإيماءة لرفيقه، إلا أنه في اللحظة الأخيرة سحب يده وظل يحدق في الظرف بقوة بعينين مغرورتين بالدموع.

- محبة في الله تماسك، وايتلاندرز، (غمغم المستشار عند ملاحظة اضطراب محدثه) تصرفك محرج. هل تريد كأساً أخرى من الويسكي؟

أوماً للنادل، الذي فسرها بدوره على الوجه الصحيح، حيث أسرع ليحضر على عجل كأس الويسكي. أثناء ذلك كان أنتوني قد استعاد السيطرة على انفعاله المفاجئ وشرع في تنظيف زجاج نظارته بالمنديل.

- معذرة، باركر (قال بصوت متهدج) مررت بلحظة ضعف... لكن أنا بخير الآن. الرسالة، (تابع مرتشفا جرعات صغيرة من كأسه) الرسالة موجهة إلى إدوين جاريجو ويجب أن تقدم له وحده في حالة ما إذا أصابني مكروه. تفهمني طبعاً. أعهد إليك بها على هذا الشرط. إذا أنا... إذا حدث لي أي شيء، إذا منعتني أمر غير متوقع... من الأهمية بمكان أن تصل الرسالة إلى يد جاريجو. أخبره هنا بكل شيء... أعني لوحة بيلاثكيث التي ذكرتها لك منذ قليل. تحت أي ذريعة ولأي سبب من الأسباب لا يجب أن تظل اللوحة مخبوءة لأكثر من هذا؛ يجب أن يعرف العالم بوجودها، وفي كل الأحوال يجب أن تؤول إلى إنجلترا. إدوين سيعرف كيف يقوم بذلك. وإذا لم يكن هو،

فلتخرجوا لورد نلسون⁽¹⁾ من قبره أو سير فرنسيس دريك⁽²⁾، ولكن يجب أن نحصل على اللوحة اللعينة، بأي ثمن، باركر، هل تفهمني؟ بأي ثمن. هذه اللوحة تساوي أكثر من مناجم ريوتيتو⁽³⁾، هل استوعبت، باركر؟ هل فهمت طبيعة والغرض من مهمتك؟

- نعم، يا رجل. ليست صعبة. تسليم هذه الرسالة إلى شخص في لندن.
- في حالة ما إذا حدث لي شيء فحسب، إيه؟ وإذا لم يحدث، فلا، بأي حال من الأحوال. وإذا اضطرت لتسليم الرسالة إلى فيوليت، لأي سبب من الأسباب فلا تنس أن تخبره بأي من اكتشاف اللوحة وأكد أصالتها. لا تسمح أن يستحوذ على اللوحة وينال المجد. إذا حدث لي شيء... فعلى الأقل، باركر، على الأقل فليذكروني بشرف...

- لا تحمل همًا، وايتلاندر (سارع الدبلوماسي الشاب بالرد، عندما لاحظ الدموع تترقق مجددًا في عيني محدثه) الرسالة بين أيدي أمينة، ولتثق أنه لن تكون هناك حاجة لإيصالها إلى المرسل إليه. والآن أخبرني ماذا تعزم أن تفعل؟

- الرسالة...

- نعم، نعم، الرسالة في حالة وقع لك أمر لا تحمد عقباه؛ لقد فهمت ذلك. لكنك في الوقت الراهن، مازلت على قيد الحياة ولن يحدث لك شيء،

1. هوراشيو نلسون (1758 - 1805) قائد بحري شهير انتصر في معارك كثيرة أشهرها الطرف الأغر والنيل. (المترجم)
2. فرنسيس دريك (1540 - 1596) نائب قائد الأسطول الإنجليزي الذي هزم الأرمادا الإسبانية عام 1588. (المترجم)
3. بلدة في مدينة ويلبا بإقليم الأندلس تشتهر بمناجم تاريخية غنية بالنحاس والحديد والذهب، بدأ استغلالها منذ أكثر من 3000 سنة. (المترجم)

إذا لم تدس أنفك فيما لا يعينك. ولهذا أسألك، ماذا تعتزم أن تفعل؟ أقصد، بشأن موضوع اللوحة.

ظل أنتوني ينظر للمستشار بتعبير ذاهل، كما لو كان سؤالاً عبثياً. بعد برهة، مر بيده على وجهه ثم قال:

- أفعّل؟ لا... لا أدري. لم أفكر في الأمر بعد.

- أفهم، أفهم. ما ستفعله حضرتك ليس من شأني. ولكن بما أنك اتصلت بي لكي تضع ثقتك بي، أعتقد أن من واجبي أن أرد على هذه الثقة بنصيحة من صديق.

- آه، أعلم مقدما ما ستقوله لي. ولكن أفضل عدم الاستماع إلى نصيحتك. بدون إساءة، باركر. أنت إنسان طيب وأنا ممتن لاستجابتك. في الواقع... في الواقع أنت الصديق الوحيد الذي لديّ في هذا العالم...

عندما رأى أن رفيقه المضطرب أخذ يكرر نههته، تناول الدبلوماسي الشاب الرسالة بهدوء ووضعها في جيبه، ثم وقف وقال:

- في هذه الحالة، وايتلاندرز، سوف أعطيك أيضا النصيحة التي كنت أعتزم أن أقدمها لك: اذهب إلى الفندق ونم خالي البال. غدا سوف ترى كل شيء أكثر وضوحا، ومن الأفضل ألا تتحدث الليلة مع أي شخص آخر.

بخطى السكارى المرتبكة والثقيلة، سار أنتوني نحو الفندق عبر شوارع مدريد الشتوية الباردة والخالية، عندما سمع صوتا يتحدث وشخصاً له هيئة شحاذ يعتمر قبعة عتيقة ذات حواف عريضة، حاذاه وضبط إيقاع خطوته على خطوته. ولأنه كان يبدو كشخصية خرجت من إحدى اللوحات، أرجع أنتوني وجوده إلى الهلوسة وواصل السير دون أن يكلمه أو ينظر إليه، حتى قام رفيقه التلقائي بجذبه من مرفقه بلطف، أجبره على التوقف أسفل دائرة ضوء أحد أعمدة الإنارة وقال له بنبرة أسي:

- هكذا إذن، ألم تتعرف عليّ؟ انظر إليّ جيداً: أنا إنجينيو تامورا تامورانو، الذي حفظ لك حافظتك الليلة الماضية.

رفع حافة القبعة أثناء الحديث، لكي يسمح لضوء عامود الإنارة بأن يضيء ملامح وجهه البائسة. عندما رآها الإنجليزي أجفل وصاح:

- بحق جميع الشياطين، دون إنجينيو، يجب أن تتقبل اعتذاري. الضوء الخارجي ضعيف ويبدو أنني نسيت نظارتي في الريتز.

- لا يا سيدي، أنت ترتدي نظارتك. ولا تناديني دون إنجينيو. يرضيني أن تناديني إنجينيو فقط. هل أنت على ما يرام؟

- أوه، نعم، في خير حال، في خير حال. وأسعدني كثيرا لقاءنا العابر

هذا، والذي يتيح لي التعبير لحضرتك عن امتناني. عبثاً حاولت العثور على مكانك، لكي أكافئك على حمل متعلقاتي إلى السفارة.

قام إيجينيو ثامورا ثامورانو بحركة مسرحية بالقبعة قبل أن يعود لارتدائها مرة أخرى.

- لا يمكن. ليس هناك داع. لكن، أخبرني إلى أين أنت ذاهب في هذه الساعة، مترنحا إلى هذا الحد؟ إذا كان متاحاً أن أعرف بالتأكيد.

أشار أنتوني إلى الأمام في الشارع وقال بصوت متهدج:

- إلى الفندق لأنام نوم العازب⁽¹⁾.

- آه، هل هو بعيد؟

- لا. إذا لم يخذلني الإحساس بالاتجاهات، فإنه يقع هناك.

عاد إيجينيو ثامورا للإمساك به مرة أخرى بقوة أكثر وقال:

- حسناً، لا يجب أن تذهب من هذا الاتجاه. أنا جئت من هناك وسمعت صراخاً وعدوا. أنصار لجنة العمال الوطنية والفلانخي مشتبهون في معركة ضارية. ومن ثم فمن الأفضل لنا أن ننتظر حتى تهدأ العاصفة. اسمع، لماذا لا نذهب قليلاً حيث تركتك المرة الماضية؟ لا خوستا ماتزال مستيقظة وبالنسبة للصبيّة، فستوقظها، إذا لزم الأمر. على الأقل، هناك سنكون بمأمن من البرد ومن الشغب كما يمكننا تناول بعض كؤوس الشراب لكي نتدفأ. ما رأيك، إيه؟ الليلة مازالت في أولها.

ضم الإنجليزي كتفيه.

1. تعبير إسباني ساخر من طريقة نوم السكرارى يشبههم بقرد الحاروي حين يقلد نوم العازب والسكران (المترجم)

- حسنا (قال) في الحقيقة لم تكن بي رغبة قوية في الذهاب إلى الفندق.
هل قالوا لك من قبل إنك تشبه منيو الذي رسمه بيلاثكيث؟

- ولا مرة (أجاب الآخر) هيا، سنلتف ونتحاشى الشوارع الواسعة:
إنه هناك حيث تدور المواجهات.

بالرغم من إصاخة السمع لم تصله حدة المعركة التي حذرته رفيقه منها.
وترك أنتوني لنفسه الانقياد برضوخ محجما عن وضع نهاية ليوم غير عادي.
مسكان بذراعي بعضهما، اجتازا ميدان لا باكييا، الذي يعج بالحياة في
الصيف مع مظلات باعة الروبابكيا، ولكنها الآن خاوية، وتوغلا في متاهة
من الحارات المتعرجة والمظلمة. بعد فترة قليلة، لم يعد الإنجليزي يعلم أين
هو. جعله هذا يدرك أنه لا يعرف مدريد جيدا، بالرغم من أنه مكث فيها
لفترات طويلة نسبيا. شعر الآن بغربة مزدوجة، ولّد لديه هذا الشعور حزنا
عميقا مع إثارة من المجهول. انتقل من الحماس الطفولي إلى حزن أقرب إلى
اليأس. في كلتا الحالتين كان متربكا وعلى استعداد للذهاب إلى أي مكان.
لكن إينينيو ثامورا ثامورانو كان ينوي اصطحابه إلى مكان محدد، وبعد
الكثير من اللف والدوران، وجدا نفسيهما مجددا أمام البوابة العتيقة، طرقا
بعنف حتى ظهر شخص هادئ متلحف بعباءة، يجر جر قدميه ويرتجف من
البرد. أطلت من أسفل غطاء الرأس عينان محمرتان بينما تدحرجت قطرة
متجمدة على طرف الأنف.

صعدا حتى الطابق الثاني وقرعا الجرس. عقب انقضاء برهة سُمع
صدى خطوات وفتحت المرأة البدينة الباب مرتدية روبا من القטיפه، خف
وقفازات. عندما رأت الإنجليزي، وضعت يديها في خاصرتها وصاحت
بصوت أجش:

- ولكن، حسنا، أليس هناك مكان آخر لتذهب إليه في كل مدريد. هذه ليست ساعة مناسبة! وإذا لم يكن معك ثمن لقمته، فارجع إلى بلدك. أو إلى جبل طارق⁽¹⁾، الذي احتالوا علينا وسلبوه منا.

انحنى أنتوني فاصطدمت جبهته بأكرة الباب.

- حضرتك أسأت فهمي، دونيا خوستا (غمغم متذكرا الاسم الذي أشار به إليها قبل قليل إينغينيو ثامورا) لم أعد معدما مثل الليلة الماضية، كما لم آت لتسول حساء الفقراء. عثرت على الحافظة والنقود لم تمس، بفضل أمانة هذا الصديق الطيب الذي جاء معي بصفته مدعواً.

حينئذٍ فقط تنبعت لا خوستا لوجود إينغينيو ثامورا فلانت ملامحها.

- كنت قلت هذا من البداية. أصدقاء إينغينيو لديهم دائما مكان في هذا البيت. لكن تفضلوا، لا تبقوا في الخارج وإلا ستصابون بالتهاب رئوي. الليلة حالها لا يوصف. حسنا، نحن ندبر حالنا بالمجمر.

دخل الرجلان حجرة الجلوس الصغيرة التي كان أنتوني يعرفها من زيارات سابقة. فوق الأريكة كان هناك مصباح نفط يضيء، زجاجة شراب مملوءة لمتصفها، كأسان وطبق مغطى بالفتات. كانت هناك سيدة مسنة جالسة إلى المنضدة بوجه متغضن، ضئيلة الحجم للغاية ومتدثرة لدرجة أنه كان يصعب تمييزها من بين الوسائد والمفارش، الملقاة بشكل غير مرتب في الحجرة لإخفاء حالة الأثاث المزرية. في سكون الليل كان يسمع صوت تساقط قطرات ماء من صنوبر، ومواء قط في حوش الجيران. علق إينغينيو المعطف والقبعة على المشجب وساعد الإنجليزي على التحرر من ثيابه. ثم

1. سخرية شديدة من الإنجليزية بسبب الوضع السياسي للأرخبيل كجزء من محميات التاجر البريطاني (المترجم)

اتجهها للاستدفاء عند طرف الأريكة، بينما كانت السيدة خوستا تخرج كأسين آخرين من الخزانة وتقدم الشراب للوافدين الجدد.

- الآن سأذهب لإيقاظ الصبية. (أوضحت).

- أوه، لا، إذا كانت نائمة فلا تزعجها، (غمغم أنتوني بصوت خافت) بالنسبة لي لا...، لم آت من أجل...

تدخل إيجينيو مؤازرا صديقه:

- دعي الأمر، خوستا. جئنا لتمضية الوقت فحسب: كانت هناك طلقات في الشارع مرة أخرى.

- اللعنة على السياسة! (زجرت المرأة البدينة، مخاطبة الإنجليزي، بينما استعادت مكانها على الأريكة). فيها مضي كان الطلبة يأتون إلى هنا. يتحدثون جلبة كبيرة، ولم يكن لديهم إلا نقود قليلة، ولكنه كان شيئا. أما الآن، فعلى العكس من ذلك، يفضلون الذهاب ليتعاركوا ويضربوا، إن لم يكن الأمر أسوأ. باختصار، بين البرد والاضطرابات المستمرة لا يحضر لنا بني آدم واحد. البلد تنهار فلتنزل صاعقة على دون نثيو وأورتيجا إي جاسيت.

- ليس ذنب هؤلاء، يا امرأة (قاطعها إيجينيو، ولكي يغير الموضوع خاطب السيدة المسنة رافعا صوته عاليا، سائلا عن صحتها. بدا كما لو أن السيدة عادت للحياة، وفتحت فمها أدرد كما لو أنها تريد أن تقول شيئا، لكن سرعان ما أغلقتة وعادت لما كانت عليه).

- أعذرهما، (قالت لا خوستا) تعيش دونيا جاييتا وحدها في المنزل المجاور، وبسبب سننها تحرف قليلا. صباء كالحجر، نصف عمياء، ومعدمة بلا أي نقود، وليس لها أحد يعتني بها. حينها يشتد البرد أدعوها لتبقى لأن منزلها ليس به حتى مجمرة.

تابع أنتوني بشفقة العجوز التي لا حول لها ولا قوة، بينما هي وقد أدركت للحظة أنها صارت محور الاهتمام، صاحت بصوت ناعق:

- تشوروس، أجواردينتي⁽¹⁾ وليمونا!

- وهذه الطلقات؟ (سألت لا خوستا متجاهلة جارتهما).

- من يدري! (قال إينينيو، ومخاطبا الإنجليزي) الأمور سيئة منذ قرون في إسبانيا، ولكن في الشهور الأخيرة أصبحت تعاني من نزاعات كثيرة وسوء الإدارة والفوضى⁽²⁾. الفلانخي على خلاف عنيف مع الاشتراكيين؛ والاشتراكيون مع الفلانخي والأناركيين، وأحيانا فيما بينهم. وفي أثناء ذلك يتحدث الجميع عن القيام بالثورة. هُراء غالبا. للقيام بثورة سواء لليمينيين أو اليساريين، يجب أولا أخذ الأمور على محمل الجد: وحدة والتزام.

تناول أنتوني رشفة من كأس الشراب المحلي القوي وشعر به يحرق حلقة. سعل وقال:

- من الأفضل ألا تندلع ثورة، حتى لو كان بسبب الإهمال.

- الثورة لن تقوم، (أجاب إينينيو)، ولكن انقلاباً سيحدث. وسيقوم به العسكريون. هذا أمر معروف. يتبقى معرفة التوقيت: هذه الليلة، غدا، من الآن ولثلاثة أشهر؛ الزمن سيقول كلمته.

- حسنا (قالت لا خوستا) ربما تنصلح الأحوال قليلا مع العسكريين. لا يمكن الاستمرار على ما نحن فيه.

1. شراب كحولي شعبي إسباني. (المترجم)

2. وفقا لتعريف الأكاديمية الملكية الإسبانية للغة لمصطلح: (esto es la casa de tocame) (roque). (المترجم)

- لا تتفوهي بحماقات، خوستا (أجاب إينخينو بجدية شديدة). إذا وقع انقلاب عسكري، فستكون الطامة الكبرى هنا. الشعب عن بكرة أبيه سيحمل السلاح دفاعاً عما هو له.

شملت المرأة البدينة الحجره وشاغلها بإيماءة واسعة وقالت:

- للدفاع عن ماذا؟ هذا الخراب؟

تجرع إينخينو كأسه على عجل ثم وضعه بعنف على المنضدة.

- للدفاع عن الحرية، يا بلهاء.

- تشوروس، أجواردينتي وليمونا! (صاحت دونيا أجابيتا لتضم صوتها إلى الجدل).

انفجرت لا خوستا في الضحك وأعدت ملاً الكؤوس. دقت أجراس دير قريب مرتين.

- لا تعرها اهتماماً (قالت المرأة البدينة للإنجليزي). من يسمعك تتكلم يعتقد أمراً؛ لكن في الحقيقة أنت حمل وديع. وأنقى من خبز القربان.

- دعينا لا نبدأ، خوستا. هذه القصص لا تعني الأعراب.

- لكن تعنيني أنا (أجابت لا خوستا)، ونحن في بيتي.

ويدون أن يجدي الزجر، الذي كانت تقطعه القرقره غير المتوقعة والهرمة للجارة، أخذت لا خوستا تحكي لانتوني قصة طويلة ومشوشة، فهم بالكاد بعضاً من مضمونها. في شبابها، ارتكبت على غرار كثير من الفتيات الريفيات الضائعات في فوضى المدينة الكبيرة، خطأ صغيراً وانتهى بها الحال فتاة شارع، حتى التقت في طريقها بعامل وسيم، كامل وواع، قام، في تحدٍ للأخلاقيات البرجوازية بانتشالها من الحياة السيئة وحملها إلى المذبح. بعد

بضعة سنوات من السعادة و(أخرى من الأحزان)، توفي العامل، لأسباب طبيعية، أو لا... (هذا لم يتمكن أنتوني من استيعابه جيدا)، تُركت لاخوستا والطفلة المولودة نتاج هذا الزواج في قمة العوز. وعندما بدا أن العالم على وشك الانهيار فوق رأسيهما البائسين، ظهر إينغينو ثامورا فجأة في بيتهما، ولم تكونا قد سمعنا عنه شيئا من قبل، وقال لهما إنه كان رفيق سلاح المرحوم في حرب المغرب، التي ذهبا إليها بالقرعة مثل كثير من الشباب، حيث أنفذ هذا حياة ذاك أو العكس، وحين عرف إينغينو ظروف الأرملة وابنة رفيقه القديم، هرع لسداد الدين أو للوفاء بعهد قطعه في ميدان المعركة أو عشية القتال أو خلال مناسبات عديدة على مدار الحملة التعيسة.

بينما كانت لاخوستا تقص حكايتها، كان إينغينو يبتسم ويهز رأسه من جانب لآخر للتقليل من جدارته والتهوين من شأن دوره. هو أولا وأخيرا لم يقم بأكثر مما كان ليقوم به أي شخص آخر في مكانه، خاصة لأنه في تلك الفترة كان يكسب جيدا من عمله كمساعد سباك، ولم يكن يحمل مسؤولية أحد، فوالداه قد توفيا وشقيقه هاجرا إلى فنزويلا ولم تكن لديه رقيقة، ولم تكن لتعوزه خطيبات، بحقيبة ثيابه الشخصية ودخله. أكد أنه لا ينتمي لأية نقابة ولا حتى حربية، ولا أي تنظيم سياسي، بالرغم من ذلك كان يؤمن بقوة بأن أبناء البروليتاريا يجب أن يساعد بعضهم بعضا. أضافت لاخوستا سريعا، مقابل مساعدته، لم يطلب إينغينو شيئا على الإطلاق، كما لم يقبل مطلقا أية مكافأة من أي نوع. في تلك اللحظة، هتفت دونيا أجابيتا، كما لو أن الاستماع إلى القصة أو جزء منها ردها للحياة، بأنه ليس هناك عاشق أفضل من الجندي، كان رفيقها العاطفي منذ زمن مضى.

- مازلت أتصور أني أراه، (قالت بطلاقة مفاجئة) بشواربه وقلنسوته

العسكرية الزرقاء بشرائط ملونة. عندما عرفته كان يخدم إيزابيل الثانية⁽¹⁾، لا أعرف إن كان في الفراش الملكي، كما أنه لم يخبرني. لكن عن خدمة الملكة، نعم خدمها. جندي من حرس الملكة! عندما أعانقه كان القصب الموشي بزته العسكرية ينغرس في لحمي، والسيف...، والسيف...، تشوروس، أجوادريتتي وليمونا!

وضعت لاخوستا سبابتها على خدها في ابتسامة شفقة أكثر منها سخرية وقالت:

- لا تعرفها اهتماما. إنها في قمة العجز. كانت تعاني من داء الكلى فأدمنت المورفين. بالأجاييتا المسكينة، من رآها في الماضي لا يراها الآن! وهذا الخطيب الذي تقول إنها ارتبطت به، نعم ارتبطت به، نعم؛ أما خدمة الملكة، فليس حقيقياً أبداً. طروده من الخدمة لأنه كان مشاكسا وسكيرا.

كان الشراب والإرهاق قد فعلا فعلهما في الإنجليزي، فلم يفهم شيئا. بجهد عظيم انتصب واقفا واستأذن في الذهاب إلى المرحاض. بعد أن تبول ملاً الحوض من ماء الإبريق المثلج ورش وجهه بها. صقّى هذا ذهنه قليلا دون أن يخفف من إرهاقه الجسدي. بينما كان يمسح الماء بخرقه قدرة، خيل إليه سماع بكاء طفل حديث الميلاد خلف أحد الجدران. لم يدهشه، ولكن عند عودته إلى الصالة وجد لا تنوينا هناك، قد انضمت للباقيين فيما أخذت تهدد الطفل البكاء. كانت هيئة تونينا أكثر هزالا من المرات السابقة، ربما لأنها كانت ماتزال شبه نائمة. كان قميص نوم من الصوف المشغول يغطيها من العنق إلى القدمين اللتين دستهما في جورب رجالي ثقيل ملىء بالثقوب عند أطراف الأصابع والكاحل. لم يحاول أحد أن يوضح له من أين جاء

1. تعرف باسم ذات القدر الحزين، حكمت بين (1833 - 1868) توفيت عام 1904 (المترجم)

الطفل، كما لم يكن لدى أنتوني أدنى اهتمام للاستفسار عن ذلك. لتفادي عدم السقوط استند بكلتا يديه إلى المنضدة متسببا في اهتزاز الزجاجات ومصباح النفط بصورة خطيرة، ليعلن أنه سيرحل. عند سماع صوته كف الطفل الرضيع عن البكاء وبدلا من ذلك ارتفعت وصلة أصوات احتجاجية منغمة:

- كيف ترحل في هذه الساعة! إنه تهور! ولا في أحلامك! هذا غير مسموح به! علاوة على أنك لست في حالة تسمح لك بالسير بمفردك في الشارع. مررت لا تونينا لفة الطفل إلى لا خوستا ثم عقدت ذراعيها حول كتف الإنجليزي.

- ابق واسترح، (همست في أذنيه) لم أنت في عجلة من أمرك؟ لا أحد ينتظرك في الفندق.

- الصبية معها حق، (قال إيجينيو) هنا أنت بين أصدقاء.

عبثا حاول أنتوني التملص من ذراعي الصبية النحيلتين.

- أشكركم بصدق على كرم الضيافة وإشارات الاهتمام، كما لا أود أن أبدو فظا، ولكن يتعين عليّ في الصباح الباكر ألا أتخلف عن موعد في مكان، ومن ثم يجب أن أنام قبلها لبضع ساعات وأن أتهيا كما ينبغي (قال).

- هذا ليس أمرا معقدا (قالت لا خوستا) نم حضرتك هنا، وسنوقظك في الساعة التي تحددها؛ تناول فنجان قهوة بالحليب مع لقمة ثم تذهب لتفعل ما يجب عليك أن تقوم به.

- لا، لا، (أصر الإنجليزي بحسم) حضراتكم لم تفهموني. يجب أن أذهب الآن. ما يشغلني... ما يشغلني في غاية الأهمية. عمل على أقصى درجة من الخطورة. حضراتكم أناس بسطاء ولن تستوعبوا. الأمر يتعلق بلوحة...

لوحة لا مثيل لها، لتفردھا ولمضمونها. يجب إخراجھا من إسبانيا بأسرع ما يمكن... وبأي ثمن. حضراتكم لا...، حضراتكم لن تستوعبوا الأمر...

فقد الوعي واستعاده وسط ظلام حالك تماما، ممددا على فراش صلب ومغطى بمفرش ملبد وسبيّ الرائحة. شعر إلى جواره بتنفس عميق لشخص آخر. وإذ يتلمّس شعر بارتياح لتعرفه على جسد تونينا الشاب. وبمواصلة التلمّس شعر بدهشة كبيرة عندما عثر على الطفل بين الأغطية. إيجينيو على حق: إسبانيا تستعصي على الحل، فكر قبل أن يسقط في سبات عميق.

ساعدته صدمة هواء الصباح البارد على العثور على طريق العودة إلى الفندق وقطع الطريق بخطى مرتبكة، ولكن مستقيمة. بمعدة مقلوبة، وفم جاف، وحلق ملتهب، جسد متيبس وذاكرة مشوشة، أدهشه أنه لم يفقد أنا من متعلقاته، بما في ذلك المعطف، القبعة والقفازات. كانت السماء ملبدة بالغيوم والجو ينذر بسقوط الجليد.

رأى حين دخل الفندق، شخصا يقرأ الجريدة مستندا للحائط، في سلوك مفضوح تماما حيث كان يقرأ مرتديا نظارات شمس ومايزال مرتديا معطف المطر والقبعة. بمجرد أن رأى الإنجليزي تخلى عن كل تحف، طوى الجريدة، وقف إلى جواره وسأله بنبرة جافة وملحة:

- بالمناسبة، هل أنت السيد أنطونيو بيتيلاس؟

لم يعجبه تحريف اسمه بهذه الصورة الخاطئة، إلا أن شيئا ما في سلوك رجل معطف المطر، أثار قلقه. نظر بطرف عينه إلى موظف الاستقبال، الذي اكتفى بدوره برفع حاجبيه تقليص حدقة عينيه وإظهار راحة يديه، معلنا بذلك أنه يتحاشى تماما كل ما ليس له علاقة بمهام وظيفته الصارمة كموظف استقبال. أثناء ذلك، وبدون انتظار تأكيد على سؤاله، كان رجل معطف المطر قد جذب ذراع أنتوني وأخذ يدفعه نحو الشارع فيما يغمغم:

- تعال معي لو تكرمت. نقيب كوسكويولا، ضابط سابق بسلاح

المشاة، وملحق الآن على إدارة الأمن العام. إن تعاونت معنا فليس هناك ما تخشاه.

كان يعرج بشكل ظاهر وفي كل مرة يفعل ذلك كان وجهه يتجههم ويتخذ تعبير ألم. بدا واضحا أن العاهة كانت تؤثر في كرامته.

- هل تلقي القبض عليّ؟ (سأل الإنجليزي) بأي تهمة؟

- لا شيء (أجاب العميل دون التوقف عن السير) لست مقبوضا عليك، وبما أنه ليس مقبوضا عليك، فلا توجد قضية. أنا طلبت منك المجيء، وحضرتك جئت في سلام هنا يعقبه المجد.

- على الأقل دعني أصعد إلى غرفتي لكي أغتسل وأبدل ثيابي. لا أستطيع الذهاب إلى مكان على هذا النحو.

- إلى حيث نحن ذاهبون، نعم يمكن (قال بحدة، الرجل ذو المعطف دون أن يترك ذراعه).

كانت هناك سيارة سوداء متوقفة أمام الفندق، يجلس سائق إلى عجلة القيادة وبابها مفتوح. صعدا فانطلقت السيارة للتوقف بعد برهة أمام مبنى إدارة الأمن العام، الكائنة في شارع فيكتور هوجو مع ناصية إنفانتاس. تنفس أنتوني بارتياح، لأنه من اضطرابه نسي أن يطلب من الرجل ذي المعطف أن يثبت له هويته كمخبر التي ظل يتفاخر بها طوال الطريق، هاجمته هواجس أنه تعرض للاختطاف، بالرغم من أنه لم يستطع تخيل من قبل من تبذرت مخاوفه الآن عندما وجد أنها يترجلان من السيارة ويدخلان المبنى دون الالتفات لعساكر الحراسة المتمركزين في المدخل، ودون أن يقوم الحراس باعترضهم.

كانت ظلمة شفيفة تسود البهو، وهدوء تام على عكس كل التوقعات. كانت جمهرة من الرجال يتهايمسون في أحد الأطراف مع امرأة بدينة جدًا،

في ثوب حداد، تحمل دفترا حكوميا. انتشرت في المكان رائحة حامضة لتبغ عطن. قطع أنتوني ومرافقه البهو بدون أن يلتفت إليهما أحد، وقبل أن يصلا إلى السلم الداخلي، دلفا من باب جانبي، صعدا عبر درج ضيق وموحش حتى الدور الأول؛ هناك سارا عبر عدة دهاليز إلى أن وصلا إلى باب أحد المكاتب، دخلاه بدون أن يطرقا الباب. كان المكتب عبارة عن حجرة مربعة ضيقة، حُشر فيها بصعوبة دولا ب أرشيف من الخشب الفاتح وطاولة مكتب ضخمة وبضعة مقاعد، ومشجب ومبولة من الخزف وسلّة مهملات من السلك، ونافذة صغيرة مسيجة بالقضبان تطل على فناء مظلم. على أحد الجدران خريطة لمدرية مثبتة بدبابيس معوجة صدئة، ومجموعة من المنتصف. كانت الطاولة مغطاة بمستندات ملقاة بشكل عشوائي. وهناك أيضا مصباح مكتبي بذراع معدني، طاولة كتابة، هاتف، ومروحة عتيقة. انحنى شخص على هذه الفوضى، مستغرقا في قراءة إحدى تلك الأوراق، أثارت هيئته، ورغم بقاء وجهه في الظل ولا يظهر منه الكثير، لدى أنتوني شعورا غريبا بالألفة. لا يعلم متى ولا أين، ولكن كان لديه يقين بأنه سبق له أن رأى الرجل الذي أصبح رهن تصرفه في تلك اللحظة.

مرت فترة سكون، رفع القارئ الإنطوائي العينين من الورق، تفحص الإنجليزي بتمعن وقال:

- تفضل بالجلوس.

ثم خاطب رجل المعطف الذي كان يستعد لمغادرة المكتب.

- لا تنصرف، كوسكويويولا. بالأحرى، أسدني صنيعا: اذهب للبحث عن بيلار وأخبرها لكي تعود بالملف الذي أعطيته لها توا. ولو تكلمت بإحضار قهوة بالحليب وبعض التشوروس فسأكون في غاية الامتنان لك.

بإيحاءة مقتضبة تدلّ على الموافقة، خرج رجل المعطف وأغلق الباب.

عندما أصبحت بمفردهما، ولما كان الآخر مصرا على تفحصه دون أن ينبس
بنت شفة، قال أنتوني:

- هل بوسعي الاستفسار عن سبب وجودي في هذا المكان، سيد...؟

- مارانون. كولونيل جومير سيندو مارانون، في خدمتك. تصورت أن
حضرتك ستتذكرني على الأرجح كما أتذكرك. لكن لم أحظر عليك النسيان:
تذكر الوجوه جزء من عملي، وليس عملك. إذا كان ذلك سيسعفك، تعارفنا
منذ بضعة أيام، في القطار. حضرتك كنت قادما من الحدود، من بلدك
إنجلترا، بحسب ما أخبرتني به. التقينا في محطة بنتا دي بانوس، ودارت
بيننا محادثة قصيرة ولكن ودية. ولهذا تحديدا، حين عرفت مكانك بالصدفة،
ذهبت ليلة أمس إلى الفندق بغرض تحيتك وأضع نفسي رهن تصرفك. ظلت
أنتظر، وفي النهاية، لما لم تعد ولم يكن بوسعي التحرك مجددا، هذا الصباح
آثرت إرسال أحد مساعديّ لكي يرجوك أن تأتي. أنا، وكما ترى، غارق في
العمل. وفقا لتقديري، النقيب كوسكويويولا، رجل يقظ ومهذب. حاربنا
سويا في أفريقيا. أعاقته إصابة في الساق عن الخدمة الميدانية. سلوك بطولي؛
كانوا على وشك منحه وسام سان فرناندو، إلا أن أفكاره السياسية... كما
تعرف. أتصور أنه قد عاملك باللياقة الواجبة.

- أوه، نعم، نعم، بالتأكيد (سارع أنتوني بالقول) ومع ذلك، هذه...
الزيارة... بصرف النظر عن كونها لطيفة، تبدو لي غير مناسبة تماما في هذا
التوقيت. تحديدا لدي موعد مع بعض الأشخاص...

- ياللهول، لم أفكر أنا في هذا. حماقة من جانبي، التمس لي العذر.
لحسن الحظ، الأمر يمكن تسويته بسهولة. خذ هاتفي، اتصل بأصدقائك،
وأخبرهم بأنك سوف تتأخر لبضع دقائق. سيتفهمون، للأسف، في إسبانيا
لسنا متشددين فيما يخص دقة المواعيد مثلكم. وإذا كنت لا تعرف رقم

الهاتف، أخبرني باسم الشخص أو الأشخاص المعنيين وسوف أتحرى عنه في غمضة عين.

- لا، شكرا جزيلاً (سارع أنتوني بالقول) في الواقع، لم يكن موعداً مؤكداً. لا يستحق الأمر أن تكلف نفسك العناء.

دق جرس الهاتف. رفع الكولونيل السماعه ثم وضعها مرة أخرى، بدون أن يرد على المكالمه، وبدون أن يرفع عينيه عن محدثه.

- كما تحب (قال الكولونيل مارانون بمرح) ها هي بيلار قد حضرت. بيلار، أقدم لك السيد بيتولاس. إنه إنجليزي، ولكنه يتكلم الإسبانية أفضل منا نحن الاثنين.

لاحظ أنتوني أن بيلار كانت السيدة البدينة التي رآها عند دخوله وأن حافظة الأوراق التي كانت تتأبطها كانت هي نفسها. استنتج من هذه المصادفة المزدوجة أن العملية التي يخضع لها تم تدبيرها مسبقاً بمنتهى الدقة. بينما كانت بيلار تضع حافظة الأوراق على طاولة رئيسها، فيما يقوم هو بفك الأربطة ويتصفح محتواها، دخل النقيب كوسكويويلا مرة أخرى ومعه صينية معدنية عليها فنجان كبير تتصاعد منه الأبخرة، قرطاس تطل منه أصابع التشوروس مزيتة ومحلاة بالسكر. أزاخوا بعض الأوراق ليفسحوا بينها مكاناً للصينية على الطاولة. بعد ذلك، خلع كوسكويويلا المعطف وعلقه على المشجب. ثم جلس في الحال، وفعلت بيلار مثله. أخرجت من الحقيبة دفتر اختزال وقلم رصاص كما لو كانت تستعد لتدوين المحادثة. بانتهاء هذا الطقس، نظر الكولونيل إلى أنتوني بحدّة وقال:

- لا أدري إن كان النقيب كوسكويويلا قد أخبرك بأن وجودك في هذا المكان ليس له أي صفة رسمية من أي نوع. بل أكثر من ذلك، إن وجودك هنا بشكل إرادي تماماً، أو بعبارة أخرى، بشكل ودي. هذا يجب أن يكون

واضحًا تمامًا. لن تكون هناك محاضر بخصوص ما سنتطرق إليه هنا (أضاف كما لو أنه لم يلاحظ الاستعدادات التي قامت بها بيلار، والتي كانت بدورها لا تزال ممسكة بالقلم مرفوعًا، ولكن بدون تدوين أي شيء) يترتب على ما أخبرتك به توا (تابع المفتش) أنك سيد القرار في الرحيل وقتما شئت. ومع ذلك، أرجوك أن تمنحنا بضع دقائق من وقتك. بين أصدقاء، بكل تأكيد. في الحقيقة، القهوة بالحليب والتشوروس التي تلتطف النقيب كوسكويويلا بإحضارها هي من أجل حضرتك. بمجرد أن رأيتك تدخل قلت لنفسي: هذا الرجل على لحم بطنه. أخبرني إن كنت على خطأ. لا، بالطبع، هذه الأشياء لا تفوت على رجل شرطة. ومن ثم دعك من المجاملات، سيد بيتيلاس وتفضل بتناول هذه الوجبة المتواضعة بالهناء والشفاء.

دعته الكرامة لرفض العرض، إلا أنه كان يشعر بالوهن، وحسب أن القهوة بالحليب والتشوروس سوف يتيحان له مواجهة التحقيق، الذي كانوا بلا أدنى شك يستعدون لإخضاعه إليه، بذهن أكثر صفاء.

- لن أقول شيئًا آخر (هتف المحقق عندما رآه يلتهم الإفطار بنهم شديد) ولكن تشوروس مدريد لا مثيل لها في العالم كله.

بينما كان يقول هذه العبارة الودية، أخرج ورقة منفصلة من الملف وعرضها على الإنجليزي. كانت صورة شخص يستعد لإلقاء خطاب ويبدو عليه الحماس الشديد. وبرغم من أنها لم تكن صورة جيدة أو نسخة متقنة، تعرّف أنتوني على الفور على الرجل الذي كان قد التقى به في منزل دوق إجوالادا. لحسن الحظ كان فمه ممتلئًا ومنحه هذا حجة لإخفاء اضطرابه وتأجيل الرد. متظاهرا بالهدوء، أخرج المنديل، نظف شفثيه وأصابعه من الدهون وقال:

- من هذا؟

- سؤالك يجعل سؤالى لا محل له، حيث أفهم منه أنك لا تعرفه ولم تره مطلقا، (قال رجل الشرطة بدون أن يبعد الصورة عن عيني الإنجليزي) لا بهم، لم أفكر في وجود أية علاقة بينك وبين هذا الشخص. ولكن، أحيانا، ربما في تجمع على أحد المقاهى، في منزل أصدقاء مشتركين...، كما تعلم، لقاء عابر... أما بخصوص هوية الشخص (أضاف بينما يحفظ الصورة في الملف ويغلق الغطاء) فأمر طبيعي ألا تكون قد سمعت به، لكن أؤكد لسيادتك أن قليل من الإسبان الذين لن يستطيعوا تقديم إفادة كاملة عنه.

غمز للنقيب كوسكويويلا ولييلار وبعد ذلك على الفور شرع في استعراض شخصية المذكور.

- الشخص المذكور هو الابن الأكبر لميغيل بريمو دي ريبيرا، جنرال إنقلابي، دكتور على إسبانيا بين 1923 و 1930. اعتاد خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا إي سائنت دي إيريدا استخدام لقب ماركيز دي إستيا في الأوساط الأرستقراطية التي يتنقل بينها؛ يناديه أصدقاؤه خوسيه أنطونيو فحسب، أو ببساطة الرئيس. من مواليد مدريد، يمتهن المحاماة، أعزب؛ يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاما في الوقت الحالي. تم تجريده من رتبة وتسريحه من الجيش لاعتدائه بالضرب على أحد الجنرالات في مكان عام بينما كانا يرتديان ملابس مدنية. أسس الفلانخي الإسباني عام 1933، حزب سياسي ذو توجه فاشي. بعد عام اندمج الحزب مع جماعة راميرو لديسما راموس المعروفة باسم اللجان النقابية للدفاع الوطني أو ببساطة (JONS)، ذات توجه مماثل، أفكارها أكثر راديكالية. وقع الانفصال بعد قليل، ترك لديسما التنظيم، وسواء عن اقتناع أو بسبب الحقد أطلق حملة تشهير ضارية ضد الفلانخي وزعيمه، حيث اهتمهما بالاستيلاء على برنامج ورموز الـ (JONS). إلا أن ذلك لم يغن عنه شيئا، نظرا لأن غالبية نشطاء

هذا الحزب آثروا التخلي عن زعيمهم القديم والبقاء في أحضان الفلانخي، ولكن الانشقاق كان شديد الإيلام، وكشف عن بعض المتناقضات، لم تُحل حتى اللحظة الراهنة. لاحقاً، حين بدا أن خوسيه ماريّا خيل روبلس، مرشح لأن يصبح موسوليني الإسباني، طرح عليه خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا، مغامرة الفلانخي للقيام بانقلاب، إلا أن خيل روبلس تردد في الإقدام على الخطوة الحاسمة ورفض العرض. أقنعت هاتان النكستان خوسيه أنطونيو بضرورة قيادة الفلانخي إلى القتال دون الاعتماد على قوى أخرى سوى قواته. بعد ذلك بقليل، دفعته تلك القناعة لأن يرفض تحالفاً محتملاً مع خوسيه كالبو سوتيلو، وهو ملكي، سلطوي، وخطيب مفوه، ورجل يتمتع بشخصية قوية، كان قد تحول إلى زعيم بين تيار اليمين الأكثر تحفظاً ويعتزم تولي قيادة الحركة الفاشية الإسبانية. كانت العلاقات بين الفلانخي والعسكريين المستعدين للتمرد طيبة ولكنها متذبذبة: فعدم الثقة كانت تغلب على العلاقة بين خوسيه أنطونيو والجيش، فهو يتهم الجيش بالتخلي عن والده، والجيش لا يثق في حزب أيديولوجيته مشوشة وأداؤه عشوائي. كان العنف يشكل جزءاً من برنامج الفلانخي الإسباني منذ نشأته. تكبد الفلانخي خسائر في الأرواح، خلال المصادمات المتعاقبة مع الجماعات اليسارية، وكبدوهم مثلها. حصل بريمو دي ريبيرا على مقعد في الانتخابات التشريعية عام 1933؛ فقدته في انتخابات 1936. لتحتدم منذ ذلك الحين حدة أعمال العنف، وبالتبعية الأعمال الانتقامية. لا نعرف ماذا يدبر في الوقت الراهن (قال الكولونيل على سبيل الختام) ولكنه ظل يوجه نداءات مستمرة للتمرد المسلح، ولا يستبعد قيامه بانقلاب.

فرك كفيه واستعاد الكلمة.

- ستساءل حضرتك، لماذا نحكي لك كل هذه الأشياء، والتي لا تعنيك

نظرا لأنك أجنبي موجود في بلادنا بصفة مؤقتة. قد أضع نفسي في مأزق لو كنت مضطرا للإجابة على هذا السؤال. ومع ذلك، منذ اليوم الأول، حينما تكلمنا في القطار، تكونت لديّ قناعة بأنه بالرغم من أنك إنجليزي، فأنت تشعر بشيء بالغ الخصوصية تجاه إسبانيا ولا ترغب في أن ترى النيران تشتعل فيها. هل أخطأت؟

- لا، (أجاب أنتوني) لقد أصبت. أحمل إسبانيا بالقرب من قلبي، إلا أن هذا لا يعني التدخل في شؤونها، وبالأخص أمور السياسة العليا. ولكن بما أننا تطرقنا إلى هذا الموضوع، أخبرني بشيء واحد: هل تعتقد حقا أن هذا المدعو بريمو دي ريبيرا بوسعه القيام بانقلاب؟

تبادل المفتش نظرة مع النقيب كوسكويويلا، كما لو أن كل واحد منهما ينتظر من الآخر أن يقوم بمبادرة الكشف. في النهاية، قال العميد مارانون:

- من الصعب الإجابة. بوسعه المحاولة، بالطبع. أما إنجازها...؟ فلا أعتقد. إلا إذا اعتمد على مساعدة من الخارج. لن يذهب بعيدا بقواته وحدها. بوضوح، الفلانخي الإسباني والـ(JONS) لا أهمية لهما. المؤسسون أبناء ذوات مرفهون؛ اتباعهم، حفنة من الطلبة، ومؤخرا نصف دسنة من المسلحين المأجورين. يدعمهم قطاع من الرجعيين وتصفق لهم مجموعة من الفتيات البلهاوات والشباب الوسماء المتأنقين المتسكعين في شارع بويرتا دي بيرو. بالرغم من ذلك، لا يمكن إنكار قدرتهم على الفعل. تكلم كوسكويويلا.

نظر النقيب كوسكويويلا إلى رئيسه من طرف عينه، مستعيدا تعبيره من الخاضع للمتمكن، ثم قال:

- الفلانخي من أتباع خوسيه أنتونيو منظمون بشكل هرمي: خلايا، فرق، فلانخي، كتائب، ألوية وفيالق. الخلية هي الوحدة الأصغر وتتكون

من ثلاثة أفراد. أما الأكبر فهي الفيلق، من 4000 آلاف شخص. تمنحهم هذه المنظومة قدرة أكبر على الفعل في كل أحوال الصراع المسلح: سواء أكانت حرب عصابات أو قوات مصدمات، وتتأقلم مع أي ظروف، باستثناء الميدان المفتوح. من الصعب تحديد إجمالي عدد الفلانخي المدرجين في هذه القوات. الجميع يبالغون، البعض تهويلا والبعض الآخر تهوينا، وفق ما يحلو لهم. على أي حال، فهم ليسوا بالكثرة لدرجة الاستيلاء على السلطة بمفردهم. في أكثر من مناسبة عرض بريمو دي ريبيرا التعاون مع الجيش إذا ما قرر -أو حتى جزء منه- القيام بانقلاب. بطبيعة الحال، أغلق العسكريون الباب في وجهه. سيفعلون ما يحلو لهم في الوقت الذي يعتبرونه مناسباً، وليس الآن ولا قبل ولا بعد يريدون أن يسمعوا بفصيل مسلح لا يعترف بالتسلسل الهرمي العسكري، ولا يطيع سوى زعيم واحد، تشاجر في يوم من الأيام مع جنرال، ويعتزم إذا استولى على السلطة فرض أهدافه السياسية على الجيش نفسه. ومع ذلك، لا يجب استبعاد استعانة الجيش بالفلانخي كقوة دعم في حالة اندلاع صراع أو في أعمال محددة غير مرغوب فيها. الفلانخي ليسوا متمتين. في النهاية، لا نعرف ما يمكن أن يحدث. بصرف النظر عن كل الاعتبارات المنطقية، لا يجب أن ننسى أن خوسيه أنطونيو فتى مدلل وغير مسؤول، وأتباعه متعصبون، على استعداد لأن يفعلوا ما يقوله لهم بدون تفكير. غالبيتهم صبية، متحمسون ورومانسيون. في هذه السن لا يهابون الموت، لأنهم لم يعرفوا ماهيته. كما أن الزعيم أهب رؤوسهم بسخافات البطولة والتضحية.

صدرت عن الكولونيل مارانون إيلاء مهذبة.

- يكفي كوسكويويلا. لا يجب أن نضجر ضيفنا. لقد اكتفى من كل ما قيل كما أن لديه ارتباطات أخرى ليقوم بها. نلتمس العذر منك على حماسنا الزائد، سيد بيتيلاس.

أجاب أنتوني بغمغمة غير مفهومة. بعد برهة من الصمت، استعاد الكولونيل طرف الحديث.

- في العمق، (قال برباطة جأشه المعهودة) أنا أفكر مثل حضرتك. أنا أيضا لست مهتما بالسياسة. لا أنتمي لأي حزب، أو نقابة، أو محفل، كما لا أشعر بأي تعاطف أو احترام تجاه أي سياسي. ولكنني موظف في خدمة الدولة؛ لدي التزام أخلاقي نحو حفظ النظام العام، ولفعل ذلك يجب أن أستبق الأحداث. لا أستطيع الانتظار هنا مكتوف اليدين، لأنه إذا وقعت الطامة الكبرى، كما هو متوقع أن يحدث في أية لحظة، حينئذ سيد بيتيلاس، فلا الشرطة ولا الحرس المدني ولا الجيش ذاته سيكون بوسعهم تفادي الكارثة. أنا أستطيع. ولكن من أجل هذا يجب أن أعرف. ماذا، من، كيف ومتى. والتحرك بدون تأخير أو استغراق في الأمر. كشف مثيري الفتنة واعتقالهم قبل، وليس بعد. وعلى المواطنين معهم. والمتسترين عليهم. معرفة خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا ليست جريمة. أما الكذب على الشرطة فهو كذلك. أنا على قناعة بأن حضرتك لن تفعل مثل ذلك الأمر. وبقول هذا، لن أعطلك أكثر من ذلك. فقط أود أن أرجوك رجاء. بعبارة أخرى رجاءين. الأول أن تحيطني علما بأي أمر تعتقد بأهميته بالنسبة لي. حضرتك على قدر كاف من الذكاء لتفهم كلامي. الرجاء الثاني أن يكون الوصول إليك ممكنا طوال فترة إقامتك في إسبانيا. لا تغير محل إقامتك، وإن فعلت فأعلمنا. النقيب كوسكويويلا سيزروك من آن لآخر. أما إذا أردت الاتصال بنا فكما تعلم: نفتح على مدار الأربع والعشرين ساعة.

مكتبة
t.me/t_pdf

فوجئ أنتوني وايتلاندر عند خروجه من إدارة الأمن العام، حين وجد نفسه في مكان معروف، مرح ويضحج ببشر يمضون في كل اتجاه كما لو كانوا في سباق، يدفعهم البرد. اكتسبت السماء الملبدة بالغيوم انعكاسا معدنيا، فيما جعل الهواء الساكن الذي يسبق الظواهر الطبيعية العنيفة، أصوات المدينة الصاخبة تبدو بعيدة. بالكاد استوعب أنتوني، الذي كان مازال تحت تأثير المقابلة التي أجراها توا، النذر اليسير من كل هذا. كان مستوعبا أنه مقبل على أزمة أخلاقية، إلا أنه كان شديد الذهول، لدرجة أن اختلط عليه الأمر حتى أنه لم يكن يدرك ماهيتها. أخذ يسأل نفسه بينما كان يفسح لنفسه مجالا ليسير بين الجموع، عن السبب الذي جعلهم يقبضون عليه بهذه الطريقة الفجة. كانوا بدون شك يعرفون شيئا ما عن تحركاته وصلاته في مدريد، ولكن من الحديث كان يصعب تخمين قدر ذلك. من المحتمل أن يكون القليل للغاية، وإلا لما كانوا تعاملوا به بهذا القدر من اللطف. وربما لا يعرفون شيئا محددًا ويحاولون فقط اختراقه. أو تخويفه. أو تحذيره، ولكن من ماذا؟ من الخطر الذي يترتب على الاقتراب من خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا. إذا كان الأمر كذلك، فإنهم على علم باتصالاته القليلة بمنزل الدوق. ترى من يكون قد أخبرهم؟ بالنسبة لخوسيه أنطونيو، فالطالما ارتاب في ذلك الشخص الغامض، بالرغم من أن التعامل المباشر ترك لديه انطباعا جيدا للغاية. المهم على أية حال، ليس تقييمه الشخصي، وإنما الدور الذي يلعبه في الأمر.

هل يعلم خوسيه أنطونيو بمخططات الدوق؟ هل هو متواطئ معه؟ واهتمامه الظاهر بباكيثا، هل كان حقيقيا أم يخفي اهتمامات ذات طبيعة أخرى؟ وفي نهاية المطاف، ما شأن إنجليزي خبير في فن التصوير الإسباني بتلك الورطة؟ أسئلة بلا أجوبة، إلا أنها تغير تصوره عن الواقع: لا يمكن أن يستمر في سلوكه كما لو كان لا علم له بشيء؛ كان عليه قبل الإقدام على الخطوة التالية استيضاح بعض النقاط، وأن يعرف بالتحديد في أي أمر أقحم نفسه. كان المنطق السليم يحتم بوضوح اتخاذ تدبير أكثر تعقلا: أن يترك كل شيء ويعود إلى إنجلترا بدون تأخير. إلا أن هذا كان يعني إهدار فرصة نادرة لا تتكرر على الصعيد المهني. في الوقت الراهن، لم يكن هناك أي شيء يشير لوجود علاقة مباشرة بين إيضاحات وتلميحات الشرطة ومسألة بيع اللوحة، واحتمالية مخالفتها للقانون، إن وُجِدَت، ستكون ذات طابع إداري وليس لها أي مغزى سياسي أو أي مغزى آخر. وما عدا ذلك فلا توجد مخالفة قانونية بالنسبة لشخص اقتصر دوره على التحقق من أصالة عمل فني. ما قد يحدث بعد ذلك ليس من شأنه، وكلما تعمق في البحث، كلما زاد تورطه في أمر لا يعنيه. فلم يكن لديه علم أن جريمة سترتكب. كان أجنيا في بلد تسوده الفوضى، علاوة على أن مبدأ سرية المهنة كان في صفه. كان من الأجدر ألا يجري أية تحريات.

من ناحية أخرى كانت هناك أمور أخرى جانبية تستدعي اهتمامه: كان يتعين عليه أن يهرع بدون أدنى تأخير لحضور موعد الدوق، وتبرير التأخير لئلا يُفسر على أنه عدم تقدير، تحديدا بعد أن وصلت الصفقة لنقطة بالغة الحسم، ولكن قبل ذلك كان عليه حلاقة ذقنه والاعتسال وتغيير ثيابه. لسوء الحظ، بدأت تتساقط أولى كتل الجليد، التي كانت تتحول إلى بقع سوداء بمجرد استقرارها على الإسفلت.

أسرع الخطى حتى وصل الفندق. مسح حذاءه بعناية في ممسحة الأقدام تحاشياً لتأنيب موظف الاستقبال، والذي بمجرد أن لاحظ وجوده، اتخذ هيئة تليق بمن شهد توا مفتش مباحث يلقي القبض على أحد زبائن المكان. يبال شاردي طلب المفتاح، واستفسر إن كان أحد قد سأل عنه خلال فترة غيابه القصيرة.

- حسناً فلنر (أجاب موظف الاستقبال بجفاء) حضرتك ترهقنا أكثر من كل نزلاء الفندق مجتمعين.

- بعد انصرافك بقليل، اتصل شخص بالهاتف ليسأل إن كان السيد الإنجليزي مازال هنا أم أنه خرج. عندما أخبره موظف الاستقبال بخروجك، أراد معرفة متى، وإلى أين. أفاد موظف الاستقبال بأنه لا يعرف شيئاً؛ لم يكن يريد توريط نزيل أو الزوج بنفسه في مشاكل. على أية حال، كان يبدو على الشخص الآخر أنه مصدوم أو متوتر أو كلاهما معاً. لم يشأ أن يترك اسمه أو رقم الهاتف الذي يمكن الاتصال به عليه، كما طلب منه موظف الاستقبال. بعد نصف ساعة مقتضبة، أحضرت فتاة صغيرة رسالة.

عندما قال ذلك، قطب موظف الاستقبال جبينه: لم يكن يعجبه تردد صبية صغيرة على الفندق برسائل لمتسكع، فضلاً عن توسطه في حمل الرسالة. لم يخطر على بال أنتوني أي تفسير مريح فلاذ بالصمت. وبدون أن يبسط موظف الاستقبال تقطيب جبينه، قدم له الرسالة.

بمجرد أن دخل الحجر، فتح الظرف وقرأ ورقة من مفكرة هذه الرسالة الموجزة: «أين اختفيت؟ محبة في الله اتصل برقم 36126».

ولما لم يكن في الحجر هاتف؛ هبط مرة أخرى إلى حجر الاستقبال، وطلب استخدام هاتف الفندق العمومي. أشار موظف الاستقبال إلى الهاتف الموجود على مكتب الاستقبال. كان أنتوني يفضل شيئاً أقل

استعراضاً، ولكنه قبل الاقتراح حتى لا يثير الشبهات، وطلب الرقم. أجابت باكيثا في الحال. عرّف الإنجليزي نفسه بينما ردت هي بصوت خافت، كما لو كانت تخشى أن يُسمع:

- من أين تتصل؟

- أنا في الاستقبال بفندققي.

- أقلقنا تأخر ككثيرا. هل حدث شيء؟

- نعم يا سيدي. سوف أطلعك على الأمر في اللقاء القادم (قال أنتوني بتلقائية متكلفة لتاجر يمارس مهنته).

صمتا، ثم قالت هي:

- لا تأت إلى المنزل. هل تعرف خيسوس مدينائيلي⁽¹⁾؟

- إنها لوحة جصية تنتمي لمدرسة إشبيلية من القرن السابع عشر.

- أقصد الإبراشية.

- أعرف مكانها.

- حسنا اذهب إلى هناك بدون تضييع لحظة واجلس في أحد مقاعد الصفوف الأخيرة على اليمين. سأوافيك بمجرد أن يتسنى لي ذلك.

- امتحنيني نصف ساعة لأغتسل وأغير ثيابي. هيئتي كمتسول.

- أفضل، هكذا لن تثير الشبهات. ولا تضيع الوقت في أمور صبيانية (قالت الفتاة الشابة، بعد استعادة جرأتها المعتادة).

1. يسوع مدينة سالم أو خيسوس مدينائيلي، إبراشية كاثوليكية بقلب مدريد، مبنية حول دير رهبانية الثالث المقدس الحافيين، وقد باشرت عملها رسميا منذ عام 1930 (المترجم)

تظاهر بعدم ملاحظة التعبير الخيىث من موظف الاستقبال، وضع
ساعة التليفون، شكره، صعد إلى غرفته مجددا، ارتدى ملابس ثقيلة، أخذ
المظلة، نزل مرة أخرى، ترك المفتاح على مكتب الاستقبال وخرج.

وصل بسرعة من شارع ويرتاس إلى مكان اللقاء. كان الجليد يواصل
الانهيار، وبدأ يتراكم هناك حيث لم تعد خطى أقدام المارة تعوقه عن ذلك.
توقف لبرهة أمام الواجهة الفخمة بلا تناغم لكي يلتقط أنفاسه ويستعيد
هدوءه. كان قلبه ينبض بشكل متسارع بسبب المشوار، والمجازفة، واقتراب
موعد المرأة الغامضة ماركيزة كورنيليا. تأمل من الرصيف المقابل طاوور
المؤمنين الضخم الذين لم يشهم الطقس القاسي عن الحضور للصلاة وطلب
المغفرة. اختلطت بين أفواج الأتقياء كل الأعمار والطبقات الاجتماعية.
أشاد أنتوني بمدى صواب باكيثا في مواعدهته هناك، حيث لم يكن أي شيء
أو أي شخص ليجذب الانتباه. عبر الشارع وبشكل غريزي وقف بآخر
الصف منتظرا دوره بصبر، ولكنه أدرك على الفور مدى عدم ملاءمة سلوكه
المتحضر، فأثر التسلل عبر باب جانبي، على ثقة في أن هيئته كأجنبي ستبرر
تجاوزه الطفيف. لكي يقوم بذلك، كان عليه عبور ساحة الكنيسة حيث
تجمع عميان، ومقعدون وبائعة زهور متلحفة ببطانية سوداء لتحتمي من
البرد والجليد. شكّل نحيب وتوسلات المتسولين جوقة نشاز بائسة. تجاوز
الإنجليزي هذه المعوقات بدون مشاكل وبشعور بالارتياح وجد نفسه في
الداخل. كانت آلاف الشموع المضاءة تعكس نورها المرتعش على ألوان
الجدران المتوهجة. كان الهواء المعبق برائحة العرق، والدخان، والبخور
والشموع المنصهرة ينبض بهمهمات الصلوات التي لا تنقطع. لم يجد مشقة
في العثور على مكان في أحد المقاعد المتفق عليها، لأن غالبية المؤمنين
كانوا يرغبون في الاقتراب من المذبح فحسب ليقدموا نذورهم أو الهمس

بتوسلاتهم للأيقونة المباركة من مسافة أكثر قربا. عكس الازدحام القلق المسيطر على المدينة.

بحكم اهتمامه بالفن الإسباني في هذه الحقبة، كان أنتوني قد درس هذه اللوحة الجصية في مناسبات عديدة، ولطالما تركت لديه شعورا قويا بالنفور يرقى إلى الاشتمزاز. بدون التقليل من القيمة الفنية للنحت. سلوك الشخصية، عباءته الفخمة وبصفة خاصة شعره الطبيعي الذي أضفى عليه هيئة دون جوان محتمل. كان قد فكر آنذاك، أنه ربما كان هذا هو السبب الذي بث الثقة في العامة: القداسة المتجسدة في صعلوك فظ. كان قد سمع حينها كان طالبا يدرس في كمبريدج، خبيرا في الموضوع يقول إن كاثوليكية حركة الإصلاح المضاد، كانت ثورة لمسيحية الحواس في الجنوب ضد مسيحية العقل التي كان يروج لها في الشمال. أما في إسبانيا فقد تم فرض مسيحية العذراوات الحسنات، ذوات العيون السود والشفاه الحمراء المنفرجة في تعبير شهواني دراماتيكي. كان يسوع المؤمنين هو يسوع الأناجيل: رجل من البحر المتوسط يعيش حياته يأكل، ويشرب، ويتحدث مع الأصدقاء ويتواصل مع النساء ويموت من معاناة جسدية؛ وتتراوح أفكاره من الخير للشر، ومن المتعة للعذاب، ومن الحياة للموت، بدون ظل من شك ميتافيزيقي أو منطق غامض. كانت تلك ديانة من ألوان وروائح، ثياب مزركشة، حجيج وشراب، زهور وأناشيد. ولما كان أنتوني في شبابه، غير مؤمن بالفطرة وعن قناعة، ومن أنصار المذهب الوضعي بحكم نشأته، شكاك في أدنى لمحة تصوف أو دروشة، فقد بداله تفسيراً مرضياً ولكن غير ذي أهمية.

غارقا في هذه التأملات، جعلته لمسة رقيقة من يد مرتدية قفازاً على ساعده، يجفل: لوهلة ظن أن الشرطة عادت لتقبض عليه. لكن لم تكن الشرطة التي لامسته، بل سيدة ترتدي ثوب الحداد وجهها مغطى بوشاح

ثقل من الدانتيل. كانت تمسك بيدها الأخرى مسبحة من الكهرمان. عرف أنتوني قبل أن يسمع صوتها أنها كانت باكيئا.

- يا للذعر الذي أصبتهني به (همس) لن يتعرف عليك أحد هكذا.

- هذا هو المقصود، (أجابت باكيئا برنة مكر في صوتها) وحضرتك على وشك الانفجار من التوتر.

- هذا واضح (قال الإنجليزي).

- اركع حتى نستطيع تقريب رؤوسنا أكثر (قالت).

انحنيا في مكان الركوع، تكاد جبهتيهما تلامسان ظهر المقعد، فبدوا روحين تقيتين تبتلان بالسلام عليك يا مريم بورع شديد. حينما شعر إلى جانبه بملمس جسد الفتاة الشابة، أطلع أنتوني الماركيزة على تجربته الأخيرة مع إدارة الأمن العام. استمعت باكيئا في صمت، فيما تومئ بحذر ورأسها إلى أسفل.

- لقد كذبت على الشرطة بدون سبب محدد (قال الإنجليزي في نهاية قصته) خرقت القانون لمجرد حدس عابر. قولي إني لم أتصرف بشكل خاطئ.

- لا، حضرتك فعلت الصواب، (أجابت عقب برهة) وأنا ممتنة لك على ذلك. والآن، (أردفت ببطء متعمد، كما لو كانت تجد صعوبة في العثور على الكلمات المناسبة) الآن مضطرة أن أطلب منك معروفا كبيرا.

- أخبريني عن ماهيته وإن كان بوسعي القيام به...

- بوسعك. إلا أنه يتطلب منك تضحية كبيرة (قالت هي) الشيء الذي عرضناه عليك أمس...

- لوحة بيلاثكيث؟

- نعم، تلك اللوحة. هل أنت مقتنع بأنها أصلية؟

- أوه، بالتأكيد، يجب أن أقوم بفحص أكثر دقة... ولكنني على استعداد أن ألقى بنفسني في النار⁽¹⁾...

- وإن قلت لك إنها مزيفة؟ (قاطعتها الفتاة الشابة).

كتم الإنجليزي صرخة بصعوبة.

- مزيفة؟ كيف! (صاح محاولاً السيطرة على صوته والمباغثة) هل تيقنت؟

بدون التخلي عن حسها الدرامي، رنت في إجابة الفتاة الشابة نبرة سخريّة.

- لا. أنا أعتقد أنها أصلية. هذا تحديداً المعروف الذي أطلبه منك: أن تقول بصورة قاطعة إنها مزيفة.

عجز أنتوني عن الكلام. استعادت هي حس الجدية وقالت:

- أتفهم اندهاشك وعنادك. سبق أن قلت لك إن الأمر يتعلق بتضحية كبيرة. لم أفقد صوابي وهناك دوافع قوية تعزز رجائي. ومن الطبيعي أن حضرتك ستود معرفة هذه الدوافع وأنا بنفسني سأوضحها لك في حينه. لكنني حتى الآن لا أستطيع. يجب عليك أن تتصرف واثقا في كلمتي فحسب. لا يمكنني إرغامك بالطبع، سواء على هذا أو على أي شيء. أنا أترجاك، وأقسم لك أمام الرب القدير، الذي نحن في بيته، أن امتناني لك سيكون بلا حدود، لكن لن يكون بوسعي أن أجازيك على كرمك. سجل هذا في رأسك، أنتوني وإيتلاندر، لن يعوقني أي شيء عن تعويضك عن تضحيتك. أخبرتك بالأمس في حديقة المنزل، إن حياتي بين يديك. أكرر لك

1. التعبير الإسباني حرفياً أضع يدي في النار (المترجم)

ذلك اليوم بيقين متجدد. لا تقل شيئا واستمع إليّ جيدا. هذا ما يجب عليك القيام به: اذهب هذا المساء إلى منزلي وأخبر والدي أنك لم تتمكن لأي سبب من حضور الموعد هذا الصباح. ولا تخبره بأي حال من الأحوال عما حكيته لي الآن. لا تذكر إدارة الأمن العام أو حتى خوسيه أنطونيو. فلتقتصر على التأكيد أن لوحة بيلاثكيث مزيفة ومن ثم لا تساوي شيئا. كن مقنعا: والدي سريع التصديق ولكنه ليس أحمق. وهو لا يشك في حضرتك سواء كشخص أو كخبير، وسيصدقك إذا تصرفت برصانة. والآن، معذرة، لكن يجب أن أنصرف. لا أحد من عائلتي يعرف بقدمي، ولا أريد أن يُلحظ غيابي. إبق لبضع دقائق. يوجد هنا كثير من الناس، من الممكن أن يتعرف أحد عليك ولا يجب أن يرونا معا. إذا التقينا هذا المساء في منزلنا، كما سيحدث بالتأكيد، تصرف كما لو كنا لم نتقابل منذ الأمس. وتذكر: أنا بين يديك.

رشمت علامة الصليب، قبلت صليب المسبحة، ثم حفظتها في حقيبة اليد، نهضت وخرجت بخطى واهنة، تاركة أنتوني غارقا في بحر من التشويش.

عاد أنتوني وايتلاندر إلى الشارع محبطا وبتعبير معاناة مماثل لمعاناة يسوع الذي يتوسط حرم الإبراشية، متخبطا ومتعثرا في تدفق المؤمنين الذي لا ينقطع. في الخارج كان هطول الجليد قد اشتد وبمجرد أن غادر ساحة الإبراشية غمرته دوامة من كتل الجليد الضخمة بدت من شدة انهارها وبياضها كما لو كانت ستغرق العالم كله في ظلمة سحيقة. بدت له هذه الظاهرة ملائمة مع حالته المعنوية، حيث احتدمت بداخله معركة حامية الوطيس. كلما زاد خضوع إرادته لطلب باكيثا المقلق، كلما زاد تمرد على هذا العبء. أجمت بكل تأكيد، الجرأة التي طرحت بها عليه الأمر بصورة ضمنية ولكن بدون تحفظات، رغباته، لكن الثمن بدا له مبالغ فيه. هل كان يتعين عليه التنازل عن الاعتراف الدولي تحديدا عندما أصبح في متناول يديه؟ وعلاوة على ذلك، بدون أن تقدم له أية إيضاحات، معولة على ضعفه فحسب! مستحيل!

صفا ذهنه بفعل البرد والجليد، على الأقل لكي يدرك أنه لا يستطيع الاستمرار تحت وطأة العاصفة، محدثا نفسه كالمجنون. لم يكن قد استعاد رباطة جأشه تماما حين دخل حانة قريبة، جلس على أحد المقاعد وطلب كأسا من النبيذ لكي يتدفأ. سأله صاحب الحانة إذا كان يريد أن يأكل شيئا.

- حماتي تعد وجبة كرشة... كيف أصف لك؟ رائعة، بيني وبينك، لا

توجد أشياء طيبة كثيرة يمكن أن تُقال عن هذه المشعوذة، لكن الطهي؟ كما أنزل! كرشة تحمي الميت، وحضرتك، بدون إساءة، يبدو أنك قد رأيت توا واحدا منهم.

- لا أنت على خطأ (قال أنتوني، سعيدا لأن المحادثة مع صاحب الحانة قد ألهته عن قلقه) فلنر هذه الكرشة وضع لي أيضا طبقا من لحم الخنزير، وبعض الكالماري المقلي وكأسا أخرى من النبيذ.

شعر بتحسن بعد الانتهاء من الغداء. لم يكن قد اتخذ أي قرار، إلا أن الشك كان قد كف عن تعذيبه. انحسرت العاصفة، وهدأت الريح واكتست الشوارع بجليد كان يتحطم تحت خطى الإنجليزي المتعثرة. عاد إلى الفندق يلفه الصمت، صعد إلى الحجرة، خلع المعطف والحذاء، وترك نفسه ليسقط على الفراش وراح في سبات عميق.

على عكس كل التوقعات، نام لفترة طويلة بدون كوابيس أو مباحثات. عندما استيقظ كان الليل قد حل. عبر النافذة كانت السماء تعكس لمعان الجليد. حين أطل من النافذة رأى أسطح المباني مغطاة بطبقة بيضاء. في الشوارع تركت الأتوموبيلات والعربات الكارو أخاديد سوداء، بينما تكونت بركا على جانبي الرصيف. اغتسل أنتوني، وارتدى ثيابا نظيفة، وخرج إلى الشارع وتوجه نحو قصر دوق إجوالادا دون أن يفكر في عذر ودون أن يتوصل إلى حل للمعضلة الرهيبة، مستعدًا لأن يواصل ما يمليه عليه حدسه وأن يترك قراراته وأفعاله رهن اندفاع الأحداث.

سلك الطريق حتى جادة لاكاستيانا، متفاديا الشوارع المأهولة حيث أعاق تتابع انهار الجليد مرور السيارات والمشاة. لم تحمل الاحتياطات دون وصوله إلى مقصده بحذاء متسخ وذيل بنطال مبتل ومكرمش.

أدخله كبير الخدم، تناول المعطف وانصرف ليعلم رب البيت بوصوله. وحيدا في البهو، في مواجهة نسخة لوحة مصرع أكتيون، شعر أنتوني بتلاشي جرأته الحماسية. حاول تصور تبرير منطقي لعدم حضوره في الصباح ولم يخطر على باله أي شيء. في النهاية قرر أن يقول إنه لم يكن مستعدا، معولا على أن تبرهن هيئته، بعد أهوال الليلة الماضية وأحداث اليوم المثيرة على ذلك. بالرغم من ذلك، كان الكذب يزعجه بشدة. خلال نزوته خارج إطار الزواج مع كاثارين، كان مضطرا لاستعمال هذا النوع من الكذب بصورة اعتيادية، وفي النهاية تسممت العلاقة بهذه الوسيلة وتحولت إلى أمر بغیض. حين انتهى منها، تصور أنتوني أنه قد ترك وراءه هذه النقيصة المؤسفة إلا أنها كانت ضرورية، والآن ما كادت تمر بضعة أيام، وجد نفسه يقوم مجددا بتدبير كذبة غير مبررة، لن يترتب عليها سوى عواقب وخيمة ستقع عليه. عند هذه النقطة عاد كبير الخدم ليعطيه هدنة.

- فخامته لديه ضيوف وباقي الأسرة خرجوا. إذا كنت تود الانتظار فيمكنك التوجه إلى القاعة الصغيرة.

وجد أنتوني نفسه بمفرده في الحجرة حيث تناول في مرات سابقة القهوة مع الأسرة، وحيث أمتعته باكيثا بأغانيها. كان البيانو مغلقا الآن ولم تكن هناك أية نوتة موسيقية على غطاء البيانو. أخذ يدور في الحجرة من القلق، كما لو كان إنسانا حبيسا. كان الحذاء قد ابتل من أثر الرطوبة، وأحس بشعور مزعج في القدمين والكاحلين. دق ناقوس ساعة الركوكو السادسة. عندما دق نفس الناقوس بعد ربع ساعة أخرى بدون أن يأتي أحد لمقابلته، تحول توتره إلى قلق. على ما يبدو هناك شيء خطير يجري، لكي يؤخر الدوق استقباله بعد الحماس الذي استحثه به ليلدي برأيه بشأن اللوحة. عندما رفض الإنجليزي بحكمة الإدلاء برأيه مباشرة في مسألة بالغة الحساسية واقترح

العودة صباح اليوم التالي ليشرح في دراسة اللوحة بمزيد من الهدوء، بعد أن أثر الانطباع الأول عنها في قدرته على الحكم على الأشياء، تفهم الدوق دوافعه ووافق على التأجيل، إلا أنه لم يخف نفاد صبره بشأن الانتهاء من العملية بدون المزيد من التأخير. ماذا حدث في هذه الأثناء يستدعي تغييرا جذريا إلى هذا الحد؟ مهما يكن من أمر، لن يظل محبوسا طيلة المساء.

فتح باب الصلاة خلصة وأطل على قاعة الاستقبال. ولما لم يكن هناك أحد، دلف إلى الممر المؤدي إلى مكتب الدوق. أمام الباب، سمع أصوات. فكر بأنه من حسن الحظ أن الأسباب يصرخون وهم يتكلمون. تعرف على صوت الدوق وابنه جييرمو، ولكن لم يتعرف على صوت المتحدث الثالث، كما لم يفهم ما يقولون. ولما لم يكن هناك ما يستوضحه، وخشية أن يفاجئه أحد، عاد إلى الصلاة، عازما على طلب معطفه والرحيل. عند الباب استوقفه صوت أنثوي.

- أنتوني! لم يخبرني أحد أنك هنا. ماذا تفعل؟

كانت ليلي، ابنة الدوق الصغرى. تنحنح الإنجليزي.

- لا شيء. كنت في انتظار والدك، ولما لم يأت، كنت خارجا للبحث عن المرحاض.

- لا تتحلق الأكاذيب. توجد آثار أقدام في كل المنزل. لقد كنت تتلصص.

كان الاثنان قد دخلا القاعة وأغلقت ليلي الباب وجلست بمنتهى الاحتشام على أحد المقاعد، أعادت بسط ثنيات تنورتها ثم قالت:

- أعتذر بشدة لأن أبي جعلك تنتظر. يبدو أن هناك أمرا خطيرا يعوقه لكي يتصرف بهذا الحمق. حين مررت من أمام المكتب سمعت شجارا. لا أجرؤ على السؤال، لكن يمكنني أن أوّسك.

- كم يسعدني (أجاب الإنجليزي بسخرية من لم تبد له مغرية فكرة قضاء فترة من الوقت حببسا مع تلك الطفلة الماكرة، التي من الواضح أنها ورثت عن عائلتها القدرة على إرباكه).

- أرى أنه ليس كذلك (قالت هي) لكن لا يهمني، سأرافك لأنك تروقني، توني. ألا يدعونك توني في بلادك؟
- لا أنتوني⁽¹⁾.

- أحد أبناء عموتي في برشلونة يدعونه Toni. أنت يناسبك Tony: يجعلك أكثر ظرفا. وهذا لا يعني أنك لا تكون كذلك حين يدعونك أنتوني، لا تُسئ فهمي (قالت ليلى بمرح. ثم تحولت إلى الجذب دون فاصل وأضافت) هذا الصباح ذهبت إلى فندقك لكي أوصل رسالة لك. موظف الاستقبال شخص فظ.

- اتفق معك في هذا. وأشكرك على المهمة.

صمتت الطفلة وثبتت بصرها على الأرضية وقالت بصوت خافت:

- هل أنت على علاقة بشقيقتي؟

- لا! يالها من أشياء تخطر على بالك! كما تعرفين فأنا بصدد اتفاقيات جادة مع أسرتك. كان هذا هو الغرض من الرسالة وليس أي شيء آخر. رفعت ليلى عينيها ورمت الإنجليزي بنظرة يملؤها الأسى.

- لا تعاملني كما لو كنت ساذجة، توني. شقيقتي أعطتني الرسالة يدا بيد ومن وجهها وكلماتها فهمت أنها لم تكن تكلفني بمراسلات تجارية.

أدرك أنتوني أنه ليس أمام طفلة، بل امرأة يافعة، ذكية وحساسة وذات

1. وردت بالإنجليزية (Anthony) في النص الأصلي (المترجم)

جمال مريك. احمر خجلا وقال على مضض:

- لا تغضبي. لم اعتبرك ساذجة مطلقا. على العكس تماما. الأمر وما فيه أن الموضوع الذي يربطني بأسرتك في الوقت الراهن ليس بسيطا. بل له جوانب مادية وأخرى تتجاوز بكثير الشأن التجاري البحت. كما تفهمين، لا أستطيع أن أكشف لك التفاصيل التي لم يخبرك والدك نفسه بها. ولكن يمكنني أن أؤكد لك أنه لا يوجد أي شيء بيني وبين شقيقتك. بالإضافة إلى ذلك، ما شأنك أنت؟

بدلا من الإجابة، اقتربت ليلى من البيانو ببطء، رفعت الغطاء وعزفت بإصبع واحد نوتتين. بدون أن ترفع نظرها عن مفاتيح البيانو أجابت:

- قريبا جدا سأحصل أنا أيضا على لقب من ألقاب النبالة. كما سيكون بمقدوري الحصول على حصتي من ميراث جدتي. حينئذ سأكون قد أصبحت امرأة ناضجة، بينما ستكون باكيثا عجوزًا.

أغلقت غطاء البيانو وانفجرت في الضحك حين لاحظت ارتباك الإنجليزي.

- لكن لا يجب عليك أن تقلق: فما أزال طفلة شقية سليطة اللسان.

أنقذه دخول كبير الخدم من هذا الموقف العصيب.

- فخامته أمرني أن أسلمك هذا (قال مادا يده بورقة مطوية).

بسطها أنتوني وقرأ: «تمنعي أسباب قوية عن رؤيتك اليوم حسب اتفاقنا وكما كنت أتمنى. سأتصل حضرتك قريبا. معذرة على الإزعاج ولك أرق تحياتي». كان التوقيع إمضاء أنيق. ثنى أنتوني الرسالة مرة أخرى، ووضعها في جيبه وطلب المعطف والقبعة.

- توني، هل أنت راحل؟ (سألت ليلى).

- نعم. الصحبة طيبة، لكن هنا، من الواضح أي زائد عن الحاجة.

فتحت الفتاة فمها لتقول شيئاً، ولكنها عادت وأغلقت على الفور لتغادر القاعة مسرعة عبر الباب المؤدي إلى حجرة الطعام. في البهو ارتدى أنتوني الثياب التي أحضرها له كبير الخدم، الذي تخلص منه بإنحناءة رأس جافة وخرج إلى الشارع. أغلق الباب من خلفه في عجلة بدت له مفرطة. كانت رياح ثلجية قد كسحت السحب وتلألأت النجوم صافية في السماء. وكان الجليد قد اكتسب صلابة وأصبح الإسفلت زلقاً. رفع أنتوني ياقات معطفه وسار بخطى قصيرة، باحثاً بعينه عن تاكسي. حين وصل إلى ناصية الزقاق تسمر في مكانه فجأة، تسيطر عليه فكرة رهيبة. محاولاً العثور على توضيح لسلوك الدوق المفاجئ، طرأ على ذهنه احتمالية أن يكون قد استدعي خبيراً آخر لاستشارته. ربما يكون أنتوني قد خيب توقعاته، لمجرد أنه لم يتوصل لمعرفة الخطأ الذي ارتكبه، سواء على الصعيد المهني أو في التعامل الشخصي. بطبيعة الحال، لم يستبعد فرضيات أخرى بعيدة: ربما يكون الدوق المتشدد قد علم بلقائه مع باكيثا في الكنيسة وهو حدث غير ضار، لا تقع عليه تهمة المبادرة به، ولكن الحكم من منطلق سؤال ليلى يفتح الباب أمام التفسيرات الخاطئة. ليلى نفسها، والتي لم تتورع عن التعبير عن انجذابها لأنتوني، من الممكن أن تكون قد وشت بهما لاستثارة غضب والدها ولكي تضع حداً لعلاقة غرامية ليس لها وجود سوى في مخيلتها. كانت الفكرة منافية للمنطق، وتفترض سلفاً شراً من جانب ليلى، لا شيء حتى الآن يسمح بإثباته عليها. ولكن من المعروف أن الأطفال أنانيون بالفطرة، وفي كثير من الأحيان بسبب انعدام الخبرة لا يقدرّون عواقب أفعالهم. بطبيعة الحال، وحتى مع هذه الفرضية، كان أمراً عبثياً التفكير في أن يكون الدوق توافر لديه الوقت

للاستعاضة عن خدمات أنتوني بخدمات خبير آخر لديه نفس الكفاءة. وإن كان قد فعل، فإنه يكون قد أقدم على عمل متسرع ومتهور: كان يجب إنجاز العملية بأقصى درجات السرية كما أن عالمًا حائقًا يعد بمثابة حيوان خطير.

كان أنتوني يدرك أن غضبه لا أساس له، طفولي وعلاوة على ذلك، ضار بالصحة: إذا ظل ساكنًا في هذا الطقس لفترة طويلة فيمكن أن يصاب بمرض خطير. إلا أن أيا من هذه الأسباب المنطقية لم يبدد مخاوفه. «أنا لن أتحرك من هنا حتى أعرف ماذا يحدث في ذلك المنزل». قال لنفسه.

لحسن الحظ لم يكن عليه الانتظار لفترة طويلة. فما إن مرت بضعة دقائق حتى فتح باب القصر الرئيسي وتقاطع في مستطيل مضاء خيال رجلين يتودعان بحرارة. كان من الصعب عليه وهو في مواجهة الضوء ومع نور المصابيح الكابي، التعرف على الرجلين، على الرغم من تيقنه من أن أحدهما كان رب المنزل. أما الثاني فقد شرع في السير. تركه أنتوني المختبئ في الزقاق، يمر وحين وجد نفسه على مسافة معقولة، شرع في المطاردة.

كان المَطَارَد والمُطَارِد يتقدمان ببطء بسبب وعورة الطريق. وما كادا يقطعان مسافة عشرين مترا حتى ظهر شخصان من خلف أشجار الطريق ورصدا أنتوني. توقف هو، وبدون سابق إنذار، ضربه أحدهما لكمة في فكه. خفت ياقة المعطف من قوة الضربة، ألا أن الصدمة والمباغته جعلاه يترنح، فقد التوازن وسقط على ظهره على الجليد. رأى من على الأرض، كيف أخرج الشخص الآخر مسدسا وأعدده للإطلاق، سحب الأجزاء، وصوب نحوه. بكل تأكيد، كانت أحوال الإنجليزي تسير من سيئ إلى أسوأ.

يقطع إدوين جاريجو، الشهير بـ فيوليت، نطاق سلطاته بخطى واسعة وملامح عنيدة. تلقى مكالمته هاتفية بالغة الأهمية في آخر ساعات الظهر، ويحاول الآن تهدئة انفعاله بالتأمل في كل هذا الجمال. تبقى القليل على حلول ساعة الإغلاق ولم يعد هناك زوار في قاعات الناشيونال جاليري، التي من ناحية أخرى يتراجع كثيرا عدد المترددين عليها في هذا الوقت من العام. تبدو تدفئة المبنى غير كافية بدون جمهور ويكون الجو باردا في المساحات الكبيرة. ترن في عقود السقف العالية خطى المرمم العجوز الصارمة. اختتمت المكالمته بصورة مبتورة: أعد كل شيء إلى أن تحين اللحظة. لم يكن ضروريا توضيح أية لحظة المقصودة. كان إدوين جاريجو يتمنى ويخشى هذه اللحظة منذ سنوات عديدة. والآن يبدو أنها قد حانت أو أوشكت، وتضاءلت فترة الانتظار. في مثل عمره يعتبر أي تغيير مجهودا زائدا. شاردا في أفكاره، قاده قدماه بصورة تلقائية إلى قسم فن التصوير الإسباني، الذي يعد خبيرا فيه بلا منازع: لا أحد يمكنه التشكيك في مكانته في المؤسسة العريقة. بطبيعة الحال، لم يعد انتقادات في الداخل والخارج. يعتقد الشباب أنهم اكتشفوا القمر ويشككون في كل شيء. في المجلد، لا شيء جدي: عواصف في مستنقع الأكاديميين الضيق الهائج. يشعر خبير الترميم العجوز أنه بمأمن من هذا الجانب: فبالرغم من سنه، لا يتعرض منصبه أو مكانته لأي تهديد.

توقف أمام إحدى اللوحات: تقول البطاقة: بورترية فيليب الرابع بالكستنائي والفضي⁽¹⁾؛ Silver Philip بالنسبة للخبراء. يصور البورترية رجلاً شاباً، ذا ملامح نبيلة، ولكنه غير جذاب، تحيط بالوجه خصل شعر ذهبية، نظرة متفحصة وقلقة لشخص يحاول إظهار العظمة، بينما يشعر بالخوف. وضع القدر عبثاً ثقيلًا فوق أكتاف ضعيفة عديمة الخبرة. يرتدي فيليب الرابع طقمًا من صدرية وبنطال ضيقين باللون البني المطرز بفضة وفيرة. ومن هنا جاء الاسم واللقب الذي عرفت به اللوحة. في لفحة فروسية، يرتكز بإحدى يديه داخل قفاز على مقبض السيف، ويمسك باليد الأخرى ورقة مطوية يظهر فيها اسم رسام البورترية: دييجو سيلبا. كان بيلاثكيث قد وصل إلى مدريد عام 1622 في أعقاب موطنه الكونت دوق أوليباريس، بعد عام من اعتلاء فيليب الرابع العرش. كان بيلاثكيث في الرابعة والعشرين، أكبر من الملك ستة أشهر، وكان يحظى بتقنية فنية جدية بالتقدير، لكن ماتزال في عمله بقايا تأثيرات ريفية. عندما رأى فيلبي الرابع أعمال الشخص المتطلع لأن يصبح فنان البلاط، وكان بطيء الفهم فيما يختص بأمور الدولة، ولكنه ليس كذلك بالنسبة للفنون، أدرك أنه أمام عبقرى، وبدون الالتفات إلى معارضة الخبراء، قرر أن يعهد بصورته وصورة أسرته إلى ذلك الشاب الكسول والجريء، المسيء للحدائث. حين فعل ذلك، دخل التاريخ من أوسع الأبواب. ربما كان هناك اتفاق بين الرجلين، محكوم بإطار القصر فقط. ولكن في عالم مكائد البلاط بالغ التعقيد، لم يتردد الملك في دعم رسامه المفضل. تقاسما معا عقودا من العزلة، والأقدار المشتركة. أنعمت الآلهة على فيليب الرابع بكل السلطة التي يمكن تخيلها، إلا أنه لم يكن يهتم سوى بالفنون. أما بيلاثكيث فقد حظي بنعمة أن يكون واحدا من

1. من أعمال بيلاثكيث موجود حاليا في الناشيونال جاليري بلندن (المترجم)

أعظم الفنانين عبر العصور، إلا أنه كان يتطلع لقليل من السلطة. في النهاية رأيا أحلامهما تتحول إلى حقيقة.

ترك فيليب الرابع عند وفاته، بلدا محطما، إمبراطورية في وضع تفكك، ووريث مريض، محكوم عليه بالإجهاز على أسرة هابسبورج⁽¹⁾، إلا أنه أورث إسبانيا أعظم مقتنيات فنية في العالم. أخضع بيلاثكيث الفن لطموحه في الترقى في البلاط، بدون أي أوراق اعتماد أخرى سوى موهبته. رسم قليلا وبلا رغبة، من أجل طاعة وإرضاء الملك، بدون أي غرض آخر سوى استحقاق الترقى الاجتماعي. وفي نهاية حياته حصل على المجد المنشود. في نفس القاعة وعلى نفس الجدار، على مسافة أمتار قليلة من اللوحة العظيمة، يوجد بورتريه آخر لفيليب الرابع لبيلاثكيث أيضا، يفصل بين اللوحة والأخرى ثلاثون عاما. اللوحة الأولى مقاسها مترا ارتفاع تقريبا وعرضها أكبر من المتر بقليل وتمثل الملك بالحجم الطبيعي؛ أما الثانية فيبلغ طولها بالكاد نصف متر ويصور الرأس فقط على خلفية سوداء، والصدورية تكاد تظهر. بطبيعة الحال الملامح هي نفسها في اللوحتين، لكن في الثانية البشرة شاحبة ومطفأة، وهناك ترهل ظاهر في الوجنتين وأسفل الذقن، وانتفاخات أسفل عينين حزينتين لهما نظرة منكسة.

قام بيلاثكيث الذي كان يرسم على فترات متباعدة فحسب ولم يكن يشعر بأدنى رغبة في العمل برسم بورتريه لنفسه في مناسبات قليلة للغاية. في شبابه، ربما ليكون شاهدا متشككا على الصيت الزائل لاستسلام بريدا⁽²⁾؛ وبعد ذلك في نهاية مساره، مصورا شخصيته ذاتها في لوحة الوصيفات. في

1. حكمت هذه الأسرة عدة دول أوروبية ومن بينها إسبانيا منذ 1516 إلى 1700 (المترجم)

2. لوحة شهيرة لبيلاثكيث ترجع لعام 1634، موجودة حاليا ضمن المجموعة الملكية بمتحف البرادو (المترجم)

اللوحة الأخيرة يتباهى بوسام صليب سانتياجو الذي اعتمده كسيد نبيل، إلا أن هيئته أيضا تبدو لرجل منهك شهد تحقيق حلمه بعد مشوار حياة من الطموحات والتنازلات ويتساءل إن كان الأمر يستحق. يطرح اليوم إدوين جاريجو على نفسه السؤال ذاته. ربما حانت اللحظة، ولكن عندما ينظر إلى نفسه في المرآة، وهو يفعل ذلك يوميا، بتكرار مهووس، لا يرى وجه الشاب الذي راوده الحلم وبدأ مشوار الصبر. حين ذاك كان جلده ناعما ورديا، العينان تشعان بريقا، غزير الشعر والملامح بين الطفولية والأثوية. أستاذ فخري، يُرسل دون الكشف عن هويته سوناتات باللاتينية وباقات من زهور البنفسج، في إشارة إلى اسمه. كانت كمبريدج مسرحا لانتصاراته الأكاديمية وبعض المغامرات العاطفية، لم يكن فيها من المغامرة سوى الخيانة المتكررة. أهدر شبابه في هذا العبث؛ مثلما أضاع نضجه في الصراعات المهنية. الآن له كذلك وجنات مترهلة، تجعيدات في الجلد، شيب في الفودين وبداية صلح سريعة ومأسوية، لن يفلح أي علاج في كبحه. تساءل كثيرا في السنوات الأخيرة إن كان عليه البحث عن رفيقة دائمة لتجنب شيخوخة من الوحدة والرعاية بالأجر، إلا أن السؤال بدا بلاغيا. وبالرغم من وضوح أنه سيتحتم عليه ترك منصبه قريبا لشخص أكثر شبابا، لم تكن الفكرة تؤرقه: عمله لم يعد سوى مجرد وظيفة. في المجمل، إضافة بعض الإشارات المكملة لسجله الضخم، ستكون مبالغة على الأرجح، وسرعان ما سيتم انتقادها، إن لم تتعرض للسخرية، من جانب جيل الشباب. على أي حال، هذا أيضا لم يكن يهيم كثيرا: في الماضي كان يخشى عدم التقدير، أما الآن ترعبه الشيخوخة. على أية حال، لا يريد العودة للتورط في معركة شرسة طويلة الأمد، ما لم يكن هناك أمر غير عادي، ويشك أنه عند هذا الحد يمكن أن يطرأ عليه أمر غير عادي أو حتى مثير للفضول. الجمال الذي كرس له حياته خانة حين لم تصبه الشيخوخة معه. مايزال سيلفر فيليب، برغم الثلاثمائة عام على كاهله، شابا

كما رآه لأول مرة، وسيظل هكذا عندما لن يعود هو موجودا، ماذا سيرتك من تجواله عبر هذه القاعات الفخمة والخواوية. إذا حصل على الأقل على أي شكل من أشكال التقدير، ربما لقب نبالة: سير إدوين، لا يوجد شيء أكثر تعارضا مع أفكاره. ربما إذا كان، سير فيوليت...

دق الجرس الذي يعلن عن إغلاق المتحف. عاد المرمم العجوز إلى مكتبه، سأل السكرتيرات إذا كان أحد قد اتصل به أثناء غيابه. إزاء الإجابة بالنفي، ارتدى المعطف، تناول المظلة، حافظه الأوراق والقبعة، ودع الموظفين وخرج هازا خاصرته. ولاعتياده على الجولة، لم تفزعه الممرات الكثيرة أو السلام ذات الإضاءة الكافية. عند خروجه وجد المدينة مغارة بالضباب. لم يفاجئه هذا أيضا أو يزعجه. في طريقه إلى محطة المترو خيل إليه أنه رأى شخصا يعرفه فتوقف. حال الضباب دون التعرف عليه بدقة، لكنه تحاشى أيضا أن يتعرف الآخر عليه. استدار المرمم العجوز. لا يريد لقاء ذلك الشخص الذي يبغضه لأي سبب على الإطلاق. سرعان ما يغيب عن نظره فيستعيد طريقه الصحيح ببطء، غارقا في أفكاره. كان متأكدا من أن هذا الشخص كان متجها إلى المتحف، بالتأكيد ليلتقي به. لحسن الحظ، خرج قبل المعتاد والمقابلة لن تتم. أسعده هذا، ولكنه مازال يجهل أي شياطين يريد منه بدرو تيتشر ولماذا لجأ إليه بالتحديد اليوم، تزامنا مع المكالمات التليفونية.

في نفس الوقت، بعيدا جدا عن هناك، كان تلميذه السابق، زميله، وغريمه في الكثير من المعارك، مُلقى على إسفلت شارع لاكاستيانا أسقطته لكمة ويواجه فوهة مسدس نحيف. كان الموقف عبثي للغاية لدرجة أنه كان يشعر بالغضب أكثر من الخوف.

- أنا إنجليزي! صاح بصوت متصنع.

قبل أن يتفاعل مهاجموه مع هذه المعلومة، سُمع أمر بين العسكري والمرح:

- اتركوه في سلام. ليس خطرا.

ظل مهاجموه بلا حراك، ثم تراجعوا باحترام بينما اقترب الرجل الذي كان يتبعه منه ومد له يدا قوية لمساعدته على النهوض. على ضوء عامود النور تعرف أنتوني وايتلاندرز على الهيئة الرياضية، السلوك الراقى، الملامح الذكورية والابتسامة الصادقة. نهض بإيحاء غاضبة نفخ أطراف معطفه من ندف الجليد والأوحال التي التصقت به. حين قام بذلك لاحظ أن نبضه يرتجف بشكل واضح.

- أطلب بتوضيح (غمغم لكي يخفي ضعفه ولاستعادة جزء من كرامته المهذرة).

- ستحصل عليه، سيد وايتلاندرز (قال محدثه بنبرة ساخرة. ثم نظر إليه بإمعان وأضاف بنبرة أكثر ودا) لا أدري إن كنت تتذكرني. تعرفنا منذ يومين في منزل صديقنا المشترك...

- نعم، بالتأكيد، ليست ذاكرتي بهذا السوء (قاطعته الإنجليزي) ماركيز دي إستيبيا.

- خوسيه أنطونيو بالنسبة للأصدقاء. وللأسف، بالنسبة للإعداد أيضا. وهذا هو سبب هذا الحادث المؤسف. لقد تعرضت لعدة محاولات اغتيال ومضطر لمرافقة حراسة. أرجو المعذرة عن تسرع هؤلاء الرفاق. دفعهم القلق للوقوع في الخطأ من فرط الحماس. الواقع البائس لم يترك مجالا للمجاملات. عانينا من فقد الكثير من الأرواح والعنف يتفاقم. هل تأذيت؟ - لا. أنا بخير. أتعلم الاعتذار. والآن، إذا سمحت لي...

- على الإطلاق (رد خوسيه أنطونيو بود تلقائي) أدين لك بترضية ولا يتبادر على ذهني شيء أفضل من دعوتك على العشاء. لقد رأيتك تتناول

الطعام وأعلم أنك لن تثير الاشمئزاز على المآذب الراقية. في الطريق ستتاح لنا فرصة تعارف أفضل. أعلم أن لدينا بعض الاهتمامات المشتركة.

- بكل سرور (أجاب أنتوني، من ناحية لاعتبار أنه ليس من الحكمة معارضة أشخاص مسلحين ومتحفزين ومن ناحية لأن مغزى العبارة الأخيرة أثار فضوله).

- في هذه الحالة، لا مزيد من الكلام (قال خوسيه أنطونيو) بالرغم من ذلك، قبل هذا، يجب عليّ المرور لوهلة بمركز عملياتنا لأرى إن كان هناك جديد، ولإعطاء بعض التعليقات. ليس بعيدا ومازال الوقت مبكرا. إذا لم يكن لديك مانع في مرافقتي، ستتاح لك فرصة التعرف على أشخاص مهمين، ورؤية أسلوب عمل حزبنا، إن كان لم يزل مسموحا لنا أن نسميه كذلك. هيا، أيها الصديق وايتلاندرز، سيارتي على مقربة من هنا.

بغطرسة لامبالية جديرة بمن جعل من الخطر محورا لحياته، ضغط خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا بقوة على دواسة الوقود لسيارته الشيفروليه الصفراء الصغيرة والقوية، متجاهلا حفر الإسفلت المملوءة بالجليد. من شارع لاكاستيانا سلكوا شارع ثورباران حتى نيكاسيو جاييجو، حيث توقفت السيارة أمام رقم 21. ترجل الحراس الأوفياء أولا ومسدساتهم في أيديهم للتأكد من أن الطريق خالية من الأعداء ثم تبعهم خوسيه أنطونيو وأنتوني وايتلاندرز. كان ثمة رجلان يقفان للحراسة على بوابة المبنى بسترات جلدية والبيريهات، أفسحا لهما الطريق للمرور بعد سماع كلمة السر، والتحية بيد مرفوعة لأعلى وصيحة «إلى الأمام يا إسبانيا!».

المركز كما كانوا يطلقون على المقر الرئيسي لحزب الفلانخي الإسباني والـ(JONS) يحتل منزلا مستقلا وفسیحا. حتى وقت قريب، كانوا في شقة متواضعة في جادة سانتو دومينجو، ولكن مما أثار ارتياح السكان أن مالك العقار طردهم بسبب عدم السداد: لم تكن خزينة الحركة متعشة. في النهاية عثروا على مأوى في هذا المكان بضربة حظ وبفضل تدخلات الوسطاء وعقود الباطن. ومع ذلك، كان وضعهم حرجا. لم يكن بالإمكان عمل شيء نظرا لأن المستحوزين على السلطة لم يكونوا يألون جهدا لإسكات صوتهم، قال خوسيه أنطونيو خلال الطريق. استمع الإنجليزي لهذه التفسيرات دون أن يعلق، لانشغاله بوقوع حادث مروري محتمل أكثر من المؤامرة التي تحاك

ضد قائد السيارة المجنون ومرافقيه. انزلقوا عدة مرات ولم ينقدهما سوى المهارة والحظ من الاصطدام بأحد أعمدة الإنارة. كان أنتوني يخشى أنه وضع سلامته في يد شخص أحمق.

بالرغم من الساعة المتأخرة والطقس السيئ، كان المقر صاخبا يموج بالناس. كان غالبية الموجودين صبيانا لم تنبت لحاهم بعد. يرتدي بعضهم قميص الجينز الأزرق الذي يحمل الشعار الأحمر. ويتكون هذا الشعار من حامل محراث تتقاطع معه حزمة من الأسهم مستقر وسط علم من القماش يكسو أحد الجدران مقسم طوليا لأضلاع حمراء وسوداء.

بالرغم من شدة انهماكهم في مهامهم، بمجرد دخول خوسيه أنطونيو ترك الجميع ما كان بين أيديهم ووقفوا بانتباه ضامين الكعب رافعين الأذرع. اندهش الإنجليزي من بادرة الاحترام والإخلاص نحو الرئيس؛ ورغم اعتراضه على التعصب، لم يكن بوسعته تحاشي ذلك الجو المشحون بالطاقة المتعصبة. نظر إلى رفيقه خلسة فوجد أنه طرأ عليه تحول كبير بمجرد عبوره أعتاب المقر. تحول الارستقراطي الوسيم، النبيل الخجول نوعا ما الذي عرفه وتعامل معه في منزل الدوق، إلى شخص يتسم بالعزم والتصميم قوي الشكيمة وذو صوت جهوري. أخذ خوسيه أنطونيو، منتصب القامة، لامع العينين، متوهج الوجنت، يوزع الأوامر على القيادات التي يتوسم فيهم الطاعة العمياء. حين تأمله أنتوني، تذكر صور موسوليني التي كانت تبث خلال النشرة السينمائية، وتساءل عن كم التقليد وكم التظاهر في هذا الاستعراض؛ كما تساءل أيضا إذا كانت باكيثا قد رأتة متحولا على هذا النحو أم أنها لا تعرف سوى الجانب الأليف من شخصيته. تبادر له أنه، ربما كان يحاول إثارة دهشتي أنا، لا هي، وإن كان يخشى منافستي، فهذه أفضل وسيلة لردعي.

إلا أن هذه الاعتبارات لم تصرفه عن التفكير في وضعه الشخصي. كان تهورا أن يذهب بمفرده إلى ذلك المكان الذي بدا مسيطرا عليه التعطش لعنف بدائي غير مسؤول، والذي علاوة على ذلك يمكن أن ينضم إليه عنف يحمل بصمة خارجية حقيقية. بمنتهى الحرص، ظل ملاصقا لخوسيه أنطونيو، والذي كان حارسه الشخصي حمايته الوحيدة، بينما لم يقرر بعد ما إن كان محاطا بمجموعة من المثاليين، من المجانين أم من المجرمين.

اقترب منهم رجل قوي البنية، متوسط القامة وذو جبهة بارزة، اتجه نحو خوسيه أنطونيو ليخبره بشيء هام، لكن حين لاحظ وجود شخص غريب توقف عابسا.

- إنه معي (قال خوسيه أنطونيو حين لاحظ تحفظ الرفيق) إنه إنجليزي.

- هكذا (قال الآخر ساخرا باسطا يده مصافحا) موسلي أرسل لنا تعزيزات.

- ليس للسيد وإيتلاندر أية علاقة بالسياسة (أوضح خوسيه أنطونيو في الحقيقة، هو خير عظيم في فن التصوير الإسباني. ماذا كنت تريد أن تخبرني به، رايموندو؟

- منذ برهة، اتصل سانشو من إشبيلية. ليس شيئا ملحا، سوف أطلعك عليه لاحقا.

عاد خوسيه أنطونيو للالتفات إلى أنتوني ثم قال:

- سانشو دايبلا هو قائد الفلانخي في إشبيلية. من المهم الإبقاء على الاتصال دائما مع المراكز، وفي هذه اللحظة أكثر من أي وقت مضى. هذا الرفيق هو رايموندو فرناندث كويستا، محام، وصديق ورفيق درب من الأيام الخوالي. الرفيق رايموندو فرناندث كويستا عضو مؤسس للفلانخي الإسباني، ويشغل

الآن منصب الأمين العام. ذلك الشخص الذي يشبهني، ولكن له شوارب، هو شقيقي ميغل. وهذا الذي تراه من حوله هو عرين الوحش. يوجد هنا مقر النقابة الجامعية، ومكتب الصحافة والدعاية للمليشيات.

- إنه أمر شيق للغاية (قال أنتوني) كما أشكرك على ثقتك التي جعلتك تحضرني إلى هنا.

- دعك من هذه الأمور (قال خوسيه أنطونيو) لحسن الحظ أو لسوء الحظ، الوضع يعفينا من الاحتفاظ بأية أسرار، سواء بخصوص هوية رفاقنا أو طبيعة أنشطتنا. أو حتى نوايانا. الشرطة تراقبنا جميعا، ليس هناك أدنى شك في وجود واشٍ يخترق صفوفنا. سيكون من السذاجة تصور شيء آخر. إذا سمحت لي سأناقش بعض الأمور، وبعد ذلك سوف نذهب لتناول العشاء. أنا مستعد للموت من أجل الوطن، ولكن ليس من الجوع.

اقرب العديد من أعضاء الفلانخي للتباحث مع الزعيم. أخذ خوسيه أنطونيو يقدمهم له فيما حاول الإنجليزي عبثا تذكر اسم أي واحد منهم. بالرغم من أنهم جميعا كانوا يتحدثون بعبارات مقتضبة، محاكين بدقة صارمة الأسلوب العسكري، تعبيراتهم، مفرداتهم وتصرفاتهم تعكس جذورا اجتماعية رفيعة ومستوى تعليم عالٍ إلى حد كبير. كان من يشغلون المناصب القيادية مثل خوسيه أنطونيو، يناهزون الثلاثين؛ أما الباقين فكانوا أصغر في السن بكثير، طلبة جامعيين على الأرجح. لهذا السبب حلّ نوع من الارتياح محل توتر الإنجليزي المبدئي، عززته بادرات الود التي تلقاها من قبل الجميع. ربما اعتبروه رفيقا مؤيدا لأيدولوجيتهم، ولما كان الزعيم بنفسه الذي دعاه، مع درايته بموقفه، لم يستشعر أية ضرورة لمخالفتهم. وإذا سألوه عن الاتحاد الفاشي البريطاني، فسوف يكتفي بالقول إنه لم تتح له الفرصة لكي يتعرف على أوزوالد موزلي شخصيا، وترديد عبارات مبهمة ستكون مقنعة بحكم وضعه كأجنبي.

بعد انقضاء فترة، قطع خوسيه أنطونيو سلسلة المناقشات، ولكن بدون أن يفقد أسلوبه الودي المرح، بالرغم من بوادر نفاذ صبر ملموسة، وحث الجميع على عدم التهاون في العمل وعدم التخلي عن الإيمان بمشروعهم، الذي حان آوان تحقيقه، ثم قال وهو يتأبط ذراع أنتوني:

- فلنذهب الآن، وإلا لن نخرج من هنا مطلقا.

رفع صوته سائلا شقيقه إذا كان يريد تناول العشاء معهم. اعتذر ميغل بريمو ريبيرا متعللا بارتباطات سابقة. فكر أنتوني أنه بصورة إراديه أو لا إراديه، ربما كان يتحاشى أن يُرى بصحبة شقيقه الأكبر، حتى لا تطغى شخصية البكري الأكثر طولا ووسامة وذكاء على شخصيته. كان من الطبيعي أن يشعر ميغل بالولاء لخوسيه أنطونيو، كما لم يكن يود إفساح المجال أمام مقارنات، لن تكون بالضرورة في صالحه.

نظرا لأن الدعوة كانت موجهة إلى ميغل، ولكن سلوك خوسيه أنطونيو كان ينم عن دعوة محايدة، انضم إلى المجموعة رايمونديو فرنانديث كويستا وشخص آخر نحيل وانطوائي، محت عنه النظارات السميكة ذات الإطار المستدير أي لمحة أناقة. كان رفائيل شانشيث ماثاس صاحب أفكار، قبل أن يكون رجل أفعال، بالرغم من ذلك، ووفقا لما أوضحه خوسيه أنطونيو للإنجليزي أثناء رحيلهم، كان عضوا مؤسسا لحزب الفلانخي الإسباني، كما كان عضوا في مجلس القيادة. يرجع إليه فضل الشعار الذي يردده الجميع الآن: «إلى الأمام يا إسبانيا!». تعاطف أنتوني معه على الفور. انحسر الأربعة مع الحارسين في سيارة خوسيه أنطونيو الشيفروليه الصفراء وذهبوا إلى مطعم يحمل اسما باسكيا، أمايا⁽¹⁾ يقع على جادة سان خيرونيمو. بمجرد

1. اسم باسكي شائع الاستخدام ويعني (بداية النهاية)، وهو نوع من الإسقاط الساخر من جانب المؤلف على مصير خوسيه أنطونيو. (المترجم)

دخولهم استقبالهم النادل رافعا ذراعه.

- لا تلتفت إليه (قال خوسيه أنطونيو مازحا، متجاوزا بتلقائية المعاملة غير الرسمية) لو دخل لارجو كابايرو⁽¹⁾، لاستقبله ملوحا بقبضة مضمومة. يقدمون طعاما جيدا هنا، وهذا هو المهم.

قدموا لهم عشاء وفيرا وشهيا ونبیذا بدون حساب. كان خوسيه أنطونيو يأكل باستمتاع، وعقب فترة وجيزة كان الجميع في منتهى الحماس بمن فيهم أنتوني، والذي شعر بارتياح أكبر لوجوده على أرض محايدة. ولم يعد مضطرا لإخفاء آرائه. علاوة على ذلك، لم يكف خوسيه أنطونيو عن التعبير له عن حفاوته، ونتيجة لذلك، اتسمت معاملة الاثنین الآخرين له، إن لم يكن بود فعلى الأقل باهتمام. قال الزعيم بعد الانتهاء من نصف طبق بيض مخفوق بالفلفل الأخضر:

- أنتوني، آمل عندما تعود إلى لندن أن تحكي ما رأيته وسمعتة بموضوعية وأمانة. أعلم أن هناك شائعات كثيرة منتشرة عنا وبعض الأحكام أغلبها مغرضة وغير منصفة. في أغلب الأحوال، من يدلون بشهادة زور لا يتصرفون بسوء نية. لا تدخر الحكومة الإسبانية جهدا لكي تخرسنا. بهذه الطريقة، يعرف الناس وجهة نظرها وليس وجهة نظرنا. يحظرون ويصادرون منشوراتنا وإذا طلبنا تصريحاً لتنظيم اجتماع يرفضه النظام تلقائياً. بعد ذلك، وبدعوى القناعات الديمقراطية التي يزعمون ممارستها ليس بوسعهم حرماننا من حق دستوري، لينتهي الأمر بمنحنا التصريح، في اللحظة الأخيرة، لكي لا يتاح لنا الوقت لتنظيم الاجتماع أو

1. فرانسيسكو لارجو كابايرو: (1869-1946) سياسي ماركسي، زعيم نقابي والقيادي التاريخي لحزب العمال الاشتراكي الإسباني، ورئيس اتحاد العمال العام، كان آخر رئيس حكومة في عصر الجمهورية حتى اندلاع انقلاب فرانكو على الشرعية عام 1936. (المترجم)

حتى الإعلان عنه كما ينبغي. بالرغم من ذلك، تأتي جموع حاشدة، ويحقق الاجتماع نجاحا منقطع النظير، وفي اليوم التالي تنشر الصحافة خبرا مقتضبا يعكس رأي الجريدة المعارض وأربع عبارات مجتزئة من سياق الخطاب. إذا وقعت مشاجرة، كما جرت العادة، يلتفتون فقط للإصابات في صفوف الطرف الآخر وليس في صفوفنا. وحتما يلقون باللوم علينا جراء ما حدث، كما لو كنا الوحيدين المحرضين، وكما لو كنا نحض على عنف نحن ضحاياه الأساسيين.

- في الآونة الأخيرة (تدخل سانثيث ماثاس بنبرة حزينة) بعد حظر الحزب، لم يعد بوسعنا حتى أن نأمل في ذلك.

فكر أنتوني لبرهه ثم قال:

- حسنا، إذا كان العداء مستشر إلى هذا الحد فلا بد أن هناك سببًا ما.

أعقب هذه الكلمات برهه من الذهول. اتسعت حدقتا سانثيث ماثاس خلف نظاراته وتأهب رايموندو فرناندث كويستا لإشهار مسدسه. لحسن الحظ، حل خوسيه أنطونيو الموقف بضحكة مدوية.

- آه!، الـ fair play الشهيرة لدى الإنجليز! (صاح مرتبا على كتف أنتوني. ثم أضاف، بعد استعادة جديته) لكن هذا الشيء ليس له وجود يا صديقي. يحاربوننا لأنهم يرهبوننا. ويخشوننا لأن الحق والتاريخ إلى جانبنا. نحن المستقبل، ولن تجدي أسلحة الماضي نفعا في مواجهة المستقبل.

- بالفعل (قال سانثيث ماثاس بقناعة راسخة) إذا كنا الآن، اليوم، وهنا نتعرض للضغط وتكميم الأفواه ومع ذلك نحن في زيادة مستمرة ونشاطنا أكثر قوة، تصور ماذا سيحدث لو تركوا لنا الحرية؟

- سنكتسح جميع الأحزاب في غمضة عين. (أضاف فرناندث كويستا).

- إذن إذا كنتم تريدون القضاء عليهم (قال أنتوني متشجعاً) فمن المنطقي أن تحاول الأحزاب الدفاع عن نفسها.

- النقاش مطروح بشكل مغلوط (أجاب سانشيث ماثاس) نحن نريد القضاء على الأحزاب وليس الأشخاص. التخلص من أكبر قدر من الزيف والتخلف في النظام البرلماني لكي نتيح للمواطن الاندماج في مشروع عظيم وشامل.

- لديكم واحد بالفعل (قال أنتوني).

- لا، (قال خوسيه أنطونيو) ما يوجد في إسبانيا هذه الأيام ليس مشروعاً، بل آلية بلا روح أو عقيدة. الدولة الليبرالية لا تؤمن بشيء، ولا حتى بنفسها. الاشتراكيون مجموعة من شذاذ الأفاق، أما الراديكاليون فهم حفنة صعاليك، يتلاعب بهم (السيدا⁽¹⁾). إزاء هذه العناصر، البرلمان، الذي مهمته التشريع، انحدر إلى أحط المؤامرات والمواءمات المخزية. أصبح البرلمان الإسباني أشبه بعرض مبتذل لا أكثر ولا أقل. في ظل هذه الأجواء، أصبح أي جمهوري هو البديل الأمثل لدى الجماهير المتحفزة للمنظمات العمالية العنيفة. أيامنا ليس فيها هدنة.

ارتفع صوت خوسيه أنطونيو كلما استرسل في الحديث، بينما خيم صمت وقور على المكان. من عند الباب كان الحارسان يتفحصان النُدُل، بلا حراك على مناظرتهم. أدرك خوسيه أنطونيو التأثير الذي أحدثه كلامه الحماسي، فابتسم منتشياً. كان أنتوني منبهاً بمنطق وبلاغة الخطيب المفوه. لم يكن يشعر بأدنى اهتمام بالسياسة. كان قد أدلى بصوته لحزب العمال في الانتخابات الإنجليزية الأخيرة بتأثير من كاثرين، بينما صوت في الانتخابات

1. الاتحاد الإسباني للحق في الحكم الذاتي (1937 - 1933). (CEDA).

السابقة للمحافظين إرضاء لحميه؛ في كلتا الحالتين لم يكن يعلم شيئا على الإطلاق عن المرشحين أو برامج حزبيهما. ولأنه تربى على مبادئ الليبرالية، فكان يستحسنة كنظام طالما لم تثبت عدم كفاءته، ولم يكن يشعر بأي ميل تجاه أنظمة سياسية أخرى. خلال سنوات كمبريدج رفض الأفكار الماركسية بصورة غريزية، برغم انتشارها بين الطلبة. اعتبر موسوليني ثرثارا، على الرغم من اعترافه بقدرته على تحقيق الانضباط بين جموع الشعب الإيطالي. على العكس، شعر بالنفور حيال هتلر، ليس بسبب أيديولوجيته، التي اعتبرها طنانة وغير متسقة، بل لما تمثله عنتريتها من تهديد لأوروبا: وعلى الرغم من أنه بين عامي 1914 و 1918، كان لم يزل صغيرًا جدا على المشاركة في الحرب، فقد أتيح له أن يرى بنفسه فظائع الحرب الكبرى⁽¹⁾، واليوم يرى الأمم أبطال تلك المجزرة تتدافع بحماقة لتكرار نفس الجنون. في الحقيقة، لم يكن أنتوني يريد سوى التفرغ لعمله فقط بدون مزيد من التعقيدات عما يعترى حياته الخاصة المضطربة. بالرغم من ذلك، لم يتمكن من التملص من جاذبية خوسيه أنطونيو، وإذا كانت لديه القدرة على إثارة رد فعل كهذا في شخص أجنبي متصلب الرأي، وأمام طبق خضار باللحم، فما الذي لن يكون بوسعه إثارته أمام جماهير معبأة سلفا في أجواء مهياة للحماس والشحن؟

قبل أن يتمكن من الإجابة على هذا السؤال، أزال خوسيه أنطونيو بنفسه التوتر رافعا كأس النبيذ قائلاً بنبرة مرحة:

- فلنشرب نخب المستقبل، ولكن فلنهتم بالمستقبل. سيكون جرما أن نترك أطايب الطعام هذه لتبرد، وجرما أكبر أن نصيب غريبا بالملل بمشاكلنا الداخلية. فلنأكل ونشرب ولنتطرق لموضوعات ألطف.

1. هكذا كانت تسمى قديما الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

استجاب رفائيل سانشيث مائاس لهذه البادرة، وسأل الإنجليزي إذا كانت معارفه بفنون التصوير الإسباني في العصر الذهبي تشمل أيضا أدب ذلك العصر. سعيدا بالعودة إلى مجال لا يقل غموضا ووعورة، أجاب أنه بالرغم من أن المحور الأساسي لدراساته واهتماماته، كان بالفعل التصوير، وبتحديد أكثر أعمال بيلاثكيث، إلا أنه لا يجيد الحديث عنها ما لم يكن ملما بمظاهر أخرى من الثقافة الإسبانية الرائعة في تلك الفترة العظيمة. بتعبير أكثر دقة، كان بيلاثكيث معاصرا لكالديرون وجراثيان وتوجد أدلة كثيرة على صلاته بالأدب، كما أنه رسم بورتريها لجونجورا، وبالرغم من ذلك لم يكن ينبغي أن يُنسب إليه بورتريه كيبيدو، مثلما يدعي البعض، إلا أن هذا الادعاء الخاطيء يؤكد على أنه ربما يكون قد رسمه. من المؤكد أنه في مدريد في ذلك العصر تقاطعت دروب بيلاثكيث مع ثربانتيث ولوبي دي بيجا وتيرسو دي مولينا، كما كان المناخ الثقافي مفعما بشعر سانتا تيريسا وفراي لويس دي ليون وسان خوان دي لا كروث. ولإثبات براعته في هذا المجال أنشد:

على التل عند سفح الجبل

غرست بيدي بستانا

بتأثير الربيع

كُسي بالزهور البديعة

وأينعت ثمرة تبعث على الأمل⁽¹⁾

لم يقم بالأمر بصورة جيدة، ولكن صدق نواياه، وعشقه الذي لا مرء فيه لكل ما هو إسباني، وخصوصا لهجته الرائعة، استحقوا عن جدارة تصفيق

1. من قصيدة «حياة العزلة» لفراي لويس دي ليون، أحد أبرز شعراء الزهد في العصر الذهبي الإسباني.

رفاق مائدته، التي انضم إليها المزيد من الندماء والعديد من السفرجية. وهكذا انتهى العشاء بين الضحكات وسط أجواء من الصحبة السعيدة.

أحدث هواء الليل تأثيراً منعشاً وحيويًا في المجموعة المتحمسة. أعلن أنتوني انسحابه؛ بدوره لم يكن خوسيه أنطونيو يرغب في معرفة شيء عن هذا الدافعي الصحي، ولما كان الإنجليزي عاجزاً عن الدخول في مواجهة مع حيوية الزعيم، انحسر مرة أخرى في السيارة مع الباقين.

عادوا أدراجهم، حيث انطلقوا من ثيداثيروس ليغادروا ألقلاً؛ عقب تجاوز ثيبيليس أوقفوا السيارة ثم ساروا حتى محل يقع خلف مقهى ليون دور⁽¹⁾. كان خوسيه أنطونيو وأتباعه يترددون على مقر رابطة أدبية في ذلك المكان الصغير، الصاخب، المعبأ بالدخان، بجدرانه المزينة بلوحات عن موضوعات بحرية والمعروف باسم «الحوت السعيد». وزع الوافدون الجدد التحيات، قدموا في عجلة الأجنبي الذي حضر معهم وبدون مقدمات انخرطوا في النقاش. بدا أن خوسيه أنطونيو كان يشعر بالارتياح وسط هذا الصخب، أما أنتوني المعتاد على الصالونات الأدبية المديرية فسرعان ما تألف واندمج مع المكان. كان غالبية المترددين على المكان بالإضافة إلى الشعراء والروائيين والمسرحيين من الفلانخي المتعصبين، إلا أنه في هذا الجو الصاخب لم تكن تُحترم الألقاب عند التعبير عن الآراء وتفنيدها حجج الخصوم. في مفاجأة سارة، لاحظ أنتوني وسط هذه الأجواء الحماسية من الشد والجذب، أن خوسيه أنطونيو كان أكثر مرونة من رفاقه من الناحية الأيديولوجية. في تلك الأوقات كان عرض «ناتاشا الإسبانية»⁽²⁾ لـ

1. مكان حقيقي في قلب مدريد افتتح عام 1898 وأغلق عام 1962، كان أشهر أماكن تجمعات أدباء جيل 27. (المترجم)

2. العنوان الأصلي للرواية: «Nuestra Natacha» وتتناول قصة أول إسبانية تحصل على الدكتوراة في مناهج التدريس. (المترجم)

أليخاندر و كاسونا يحقق نجاحا كبيرا على خشبة المسرح، ووفقا لجمهور المتحاورين في صالون «الحوت السعيد» كانت الدعاية السوفيتية الصريحة، السبب الرئيسي إن لم يكن الوحيد، لاحتفاء الجمهور وإشادة النقاد بالعمل. قال خوسيه أنطونيو إنه لم يرَ العمل موضوع النقاش، ولكنه أثنى على «الحورية المتجمدة»، وهي رواية سابقة لنفس الكاتب المسرحي. بعد برهة، أعرب مجددا، وعلى عكس الرأي السائد، عن إعجابه بفيلم «الأوقات الحديثة» لشارلي شابلن، بالرغم من رسالته الاشتراكية الواضحة.

وهكذا، بين الويسكي والمناقشات الحامية، طارت ساعتان. عند الخروج، وبحسب العادة الإسبانية، ظل رواد الصالون لفترة طويلة في منتصف المدخل يتبادلون العناقات وعبارات طويلة بصوت جهير، كما لو أنهم لم يلتقوا منذ فترة طويلة أو أنهم يودعون بعضهم الوداع الأخير. اقتربت منهم سيدة رثة الثياب ضئيلة الحجم بشكل ملحوظ، تعرض عليهم ورق يانصيب. اشترى منها سانشيث مائاس ورقة من فئة العشر. بعد رحيل البائعة ابتسم الشاري.

- إذا ربحت، سيكون من أجل القضية.

- لا تغتر بالحظ، رفائيل (قال خوسيه أنطونيو مديرا رأسه).

وأخيرا تفرقوا.

منتشيا للغاية، بدأ أنتوني رحلة العودة إلى فندقه. عندما قطع شوطا في شارع الكلا الخالي، سمع خلفه صخب خطوات متسارعة. تلاشى توتره إلى حد ما حين تبين له أن ملاحقه كان رايموندو فرناندث كويستا. كان أنتوني يشعر بالخرج في حضور ذلك الرجل، الذي ظل قليل الكلام طوال الليل وتأكد الآن من جدية تعبيره.

- هل طريقنا واحد؟ (سأل).

- لا (أجاب الآخر بأنفاس لاهثة بسبب السير) تخلصت من زملاء
ولحقت بك لكي أتحدث معك قليلا.
- تفضل.

قبل أن يتحدث نظر أمين عام الحزب في كل الاتجاهات. ثم بعد أن يتقن
أنهما بمفردهما، قال ببطء:

- أعرف خوسيه أنطونيو منذ أن وُلِد. أعرفه جيدا كما أعرف نفسي. لم
ولن يوجد له مثل.

نظرا لأنه بعد أن قال هذه العبارة الإطرائية غرق في صمت طويل،
حسب أنتوني أنه ربما كان هذا هو مضمون الحوار، وكان على وشك الرد
ببراءة حينما أضاف الآخر بنبرة تشي بالسرية:

- من الواضح أنه يكن لك مودة صادقة وأخوية، لم يتضح لي سببها في
البداية. في النهاية أدركت أن خوسيه أنطونيو وأنت تتشاركان قيمة كبيرة
بالنسبة له، شيء عظيم وجوهري. في ظروف أخرى كان من الممكن أن
تكونا خصوما. لكن الظروف أبعد ما تكون عن الطبيعية وروحه النبيلة لا
تعرف العداة أو الأنانية.

لاذ بالصمت، ليضيف بعد برهة بصوت أجش:

- بالنسبة لي لا يسعني سوى احترام مشاعره وتحذيرك: لا تخذل
الصدائة التي شرفك بها. وهذا كل شيء: عمت مساء وإلى الأمام يا إسبانيا!
دار فجأة على عقبه وابتعد بخطى سريعة. ظل أنتوني يتأمل الغرض
من الرسالة الغربية والتهديد الغامض الذي تنطوي عليه. كان محملا نفسيا

سيئا، إلا أنه كان قد أفنى عمره مع كبار أساتذة البورتريه، ويمكنه استنتاج القليل من ملامح وجوه الناس: لم يكن رايموندو فرناندث كويستا يتصرف بالأسلوب المندفع الذي يميز الفلانخي، ولكن من منطلق أيديولوجي محسوب بدقة. أدرك أنتوني أنه في يوم ما إذا وقعت الواقعة، سوف يتصرف الفلانخي بأسلوب لا يمكن التنبؤ به، لكن بالرغم من ذلك فإن بعضهم سيكونون بلا رحمة.

استيقظ مفزوعا على صوت فرقة بعيدة، أشبه بالتي تصدر عن إطلاق قذيفة مدفع من العيار الثقيل. ظن أن شيئا رهيبا وقع بالفعل. بعد ذلك، ولما لم يعقب الانفجار الأول شيء آخر، تراءى لانتوني أن ذلك الانفجار ربما كان جزءا من كابوس. ولكي يتخلص منه، نهض، ذهب إلى النافذة، وفتح مصراعها. كان الوقت مازال ليلا، ولكن السماء كان لونها أورجوانيا، أقرب ما يكون لوقت الشفق. في الميدان لم تكن هناك سيارات أو أشخاص يمرون. قال لنفسه، إذا اشتعلت مدريد فلا بد أن يكون هناك صخب كبير بدلا من هذا الصمت المشؤوم. ولكن المؤكد أن الهدوء يسود في قلب الإعصار، كما يقولون.

عاد إلى الفراش، متعبا متجمدا من البرد؛ لم يمكَّنه القلق من التصالح مع الناس. كان قد ترك مصراعي النافذة مفتوحان، ومن النافذة رأى الصبح ينبج. حينئذ، نهض والتف في روب ثقيل من القטיפه وأطل من النافذة مجددا. كان الميدان مازال خاليا، لم تصل زجاجة عربات النقل من الشوارع المجاورة، ولا صخب احتكاك دواليب العربات بأحجار الشارع، ولا أبواق السيارات، ولا أي نوع من أنواع الضجيج المعتادة.

مخفية خلف الواجهات قبعت العاصمة تنتظر في صمت. مع أول ضوء في الصباح، تطفأ المصابيح التي ظلت تتلأأ طوال الليل في إدارة الأمن

العام، حيث ينتظر الآن دون ألونسو مالول وصول وزير الداخلية بين لحظة وأخرى، والذي ظل مجتمعاً لساعات برئيس مجلس الوزراء.

في توقيت سيئ تقلد السيد مالول إدارة الأمن العام عقب مفاجأة انتخابات السادس عشر من فبراير الماضي. تفاقمت الصراعات، التعليقات الصادرة عن الحكومة مرتبكة ومتضاربة، لدرجة أنه لم يعد يعرف إن كان بوسع الثقة في مرؤوسيه، الذين ورثهم عن الحكومة السابقة، على الرغم من أنها كانت بدورها قد ورثتهم عن سابقتها وهكذا دواليك إلى ما لانهاية. من ثقته بغريزته عين في المناصب الحساسة رجالاً يعرفهم إلى حد ما، بدون أن يستمع لأي نصح أو يقرأ أية تقارير، منحازة على الأرجح؛ يعلم أن أي تقرير في مدريد يحتوي على ربع الحقيقة مقابل ثلاثة أرباع من الأكاذيب. أما بخصوص باقي الموظفين، فإنه يعوّل على جهود الموظفين أكثر من ولائهم.

في تمام الثامنة، أخبره أحد السعاة بوصول المقدم جومر سيندو مارانون. أذن له المدير العام بالدخول على عجل فدخل وبصحبته النقيب الأعرج كوسكويويلا. استغرقت المصافحات الرسمية وقتاً؛ بعد ذلك أدلى الوافدان الجديان بتقريرهما بعبارات موجزة ورتيبة، كما لو كان الإحجام ضماناً للموضوعية. استمع دون ألونسو باهتمام، فهو لم يضع ثقته في المقدم عبثاً.

كانت القصة مملة ولكنها غير مطمئنة: تعرضت العديد من الكنائس للحرق في مدريد وباقي إسبانيا. حتى الآن لم يكن هناك متعبدون في الأماكن المتضررة عند وقوع الأحداث، أما الأضرار المادية فكانت محدودة. في بعض الأحوال اكتفى المتمردون بإحراق ورق وخرق في بهو الكنيسة متسببين في تصاعد الأدخنة أكثر من أي شيء آخر. أفعال رمزية، بدون استبعاد مسؤولية اليمين نفسه بدافع التأجيل. وإذا كان الأمر كذلك فقد حققوا هدفهم، حيث لقي رجل إطفاء مصرعه أثناء محاولة إخماد إحدى الحرائق،

ويجري التحضير لمظاهرة إدانة لن تخلو من حضور عناصر الفلانخي. وكان هذا لم يكن كافيا، فقد دعا حزب الفلانخي الإسباني لمؤتمر في سينا أوروبا السبت المقبل الساعة مساء. وكان الحزب قد عقد قبل شهر، وبسبب الحملة الانتخابية اجتماعا في نفس المكان حظي بحضور جماهيري لافت. لم تشهد تلك المناسبة وقوع أحداث خطيرة. لكن في ذلك الوقت كان كل حزب مشغول بحملته الانتخابية. الأمور مختلفة الآن. سأل دون ألونسو عن سبب المؤتمر. هزّ المقدم كتفيه إشارة على عدم معرفته. لا يعرف؛ نحن أن يكون لتبرير انتكاسة الانتخابات، التي لم يحصد حزب الفلانخي على مقعد واحد فيها، وليطرح سياسة المستقبل على قواعد التنظيم. يبدو أن حزب الفلانخي ليس مستعدا بعد للتواري، وإذا كان يسعى للاحتفاظ بوجوده في الحياة السياسية الإسبانية فعليه استحداث أمر ما. على أية حال، ينذر الاجتماع بأنه سيكون مجالا خصبا للمواجهات.

توقف المقدم لبرهة مستفهما، فأجاب رئيسه بإيماءة موافقة صامتة: التصريح بالمؤتمر والمظاهرة لا يقل خطورة عن منعها؛ أية حماقة قد تشعل الفتيل الذي سيفجر برميل البارود. من الأفضل ترك القرار لوزير الداخلية، الذي سيتباحث فيه مع رئيس مجلس الوزراء. هذه التراتبية في تفويض المسؤوليات ليست علامة على التوقير والاحترام، بل بدافع الصالح العام بصورة بحتة: في جميع أنحاء إسبانيا رئيس مجلس الوزراء مازال هو الشخص الوحيد الذي يعتقد بوجود مخرج سلمي للوضع الراهن.

لم يكن هذا التفاؤل المعتدل مجانيا. يحظى دون مانويل أثانيا بخبرة طويلة في مجال العمل الحكومي، وكما يقولون، عاصرها على كل شكل ولون. عام 1931 ومع بداية إعلان الجمهورية، تقلد مسؤولية وزارة الحرب؛ بعدها بقليل، انتخب رئيسا لمجلس الوزراء. عام 1933 انتقل إلى صفوف المعارضة

وعاد الآن لرئاسة مجلس الوزراء، في توقيتِ المشهد فيه ليس قائما فحسب بل يائس. ولكن ليس بالنسبة إليه: ولأنه مثقف قبل أن يكون سياسيا بلغ دائما أعلى قمم السلطة بسبب تقلبات التاريخ المتلاحقة والتي لا يمكن التنبؤ بها وليس لاجتهاده، ولهذا لا يعرف أو يريد أن يعرف الدهاليز الأكثر وعورة للسياسة الحقيقية، وهو ما يعيبه عليه خصومه وأنصاره على حد سواء. وربما لهذا السبب أيضا يثق في وجود معارضة مخلصه، ليست على استعداد للقيام بأي شيء من أجل انتزاع السلطة من يد من يحوزها في الوقت الحالي، بصرف النظر عن النتائج. وما زال ممكنا بالنسبة له مع بلوغ الوضع هذه المرحلة حل مشاكل إسبانيا الشائكة عبر الحوار والمفاوضات. الحراك العمالي، الإصلاح الزراعي، المواجهات المسلحة، المسألة الكتالونية.

يشاطر هذا الرأي قلة قليلة. على عكس ما حدث في الأيام الأولى من الجمهورية، أدارت المنظمات العمالية ظهرها للسياسيين ولا يحول بينهم وبين الشارع والاستيلاء على السلطة بالقوة سوى التردد والانقسامات الداخلية. لا تنقصهم الدوافع: بذلت حكومة اليمين التي خلفت الحكومة الحالية قصارى جهدها لإبطال الإنجازات العمالية التي تحققت حتى الآن وقمعت الحراك بوحشية غير مسبوقة. تحاول الجبهة الشعبية اليوم إعادة توجيه الموقف ولكنها تصطدم بعقبات هائلة: المعارضة، بزعامة خيل روبلس، وكالو سوتيلو، تصدى في البرلمان لبرنامج الحكومة الجديدة للإصلاح الاجتماعي، بينما الأثرياء التنفيذيين في إسبانيا يتآمرون من خلال البورصات الأوروبية للتسبب في تراجع البيزيتا، زيادة البطالة وانهيار الاقتصاد. الكنيسة والصحافة في الغالب مع اليمين، تعملان على إثارة الرأي العام ونشر الفرع، بينما المثقفون الأكثر تأثيرا (أورتيجا، أونامونو، باروخا، أثورين) يبنذون الجمهورية ويطالبون بتغيير جذري. وتحسبا لانقلاب عسكري أو فاشي،

يعتبرونه وشيكا، تجمع النقابات المال لشراء السلاح، وتنظم المليشيات العمالية نوبات حراسة ليلا ونهارا للتدخل عند أول بادرة خطر.

يدرك دون مانويل أثنانيا هذه العوامل، ولكنه يختلف مع الآخرين في تقدير خطورتها. يرى أن العمال لن يقرروا الاستيلاء على الشارع: الاشتراكيون والفضويون لن يوحدوا قواهم أما الشيوعيون فقد تلقوا أوامر صارمة من (الكومنترن⁽¹⁾) بالتأهب والانتظار، التوقيت ليس ملائما للثورة، ومحاولة فرض دكتاتورية البروليتاريا ستكون بمثابة خطأ في الحسابات. بنفس المنطق، يستبعد قيام اليمين بانقلاب. ذهب أنصار الملكية إلى خيل روبلس ليطلبوا منه إعلان نفسه دكتاتورا ولكنه رفض.

يتبقى الجيش، بالتأكيد. ولكن أثنانيا يعرفه جيدا: فهو لم يتول منصب وزارة الحرب عبثا. يعلم أن العسكريين، تحت مظهرهم المخيف، متشردمون ومتقلبون ويسهل قيادهم؛ فهم من ناحية يهددون وينتقدون ومن ناحية أخرى يتوسلون من أجل الحصول على ترقية، ومناصب وتشريفات؛ يتكالبون على الغنائم ويشعرون بالغيرة تجاه ما في أيدي الآخرين: جميعهم يعتقدون أن غريبا أقل شأنًا منهم تخطاهم؛ إجمالا يسهل خداعهم كالأطفال. ليس بوسعهم الاتفاق على عمل مشترك، نظرا لأنهم جُبلوا على الالتزام الصارم بتسلسل القيادة ولا يفعلون سوى ما يقرره غيرهم. جميع أفرع الأسلحة (المدفعية، المشاة، المهندسون) متناحرون فيما بينهم، ويكفي أن تأتي البحرية بأمر، حتى يقوم الطيران بعكسه. نتيجة لانتصار الجبهة الشعبية مؤخرا، قام

1. الأهمية الشيوعية أو الكومنترن (بالإنجليزية: Communist International، أو Comintern) منظمة دولية شيوعية ظهرت في موسكو خلال شهر مارس 1919. دعا المؤتمر التأسيسي للأهمية إلى المحاربة بكل الوسائل المتاحة، بما في ذلك القوة المسلحة، من أجل إسقاط البرجوازية الدولية وإنشاء الجمهورية السوفياتية الدولية كمرحلة انتقالية إلى الإلغاء الكامل للدولة. (المترجم)

الجنرال فرانكو بزيارة رئيس مجلس الوزراء وحته على وضع حد للفوضى السائدة، بمساعدة الجيش، إذا استدعى الأمر ذلك. فرانيسكو فرانكو جنرال شاب؛ يتحلى بالذكاء والعملية وشجاعة محققة: صعد بسرعة قياسية في أفريقيا واكتسب عن جدارة مكانة بين الضباط. نظرا لمقوماته الشخصية وتأثيره يمكن أن يكون أحد الرؤوس المدبرة للإنقلاب، طالما أن شخصيته المتملقة وطباعه المتحفظة لا تثير شكوك باقي الجنرالات. من المشكوك فيه أن يحظى تهديد فرانكو المبطن لرئيس مجلس الوزراء بدعم الجيش بالكامل، لكن الزيارة بثت الخوف في قلب بوتريلا بايادوريس، فسارع بالاستقالة. تسبب الفراغ الناجم عن هذه الاستقالة في تولى مانويل أثانيا رئاسة مجلس الوزراء مجددا.

طلب أحد السعاة الإذن ودخل حاملا صينية عليها وعاء به شيكولاتة ساخنة تتصاعد منه الأبخرة وبجانبه طبق مخبوزات. أحضر ساع آخر فناجين وأطباقا وأكوابا وأدوات مائدة، ومناديل ودورق مياه باردة وأعد المائدة لتناول هذه الوجبة الخفيفة. عندما شارفوا على الانتهاء من تناول الإفطار، اقتحم المكتب دون أموس سلفادور، وزير الداخلية بصحبته نائب الوزير، دون كارلوس إيسيبيا. ابتسامات وتحيات. نظرا لأن مالول وأسبلا كانا ماسونيان فقد تبادلوا الإشارات بسرعة. في تلك الأثناء أخذ المكتب يعج بالمساعدين، والموظفين، والمفتشين، ونائب بلدي، كان في زيارة عابرة إلى مدريد. تراصت حافظات الأوراق على المناضد بينما اهتز المشجب تحت وطأة المعاطف، بدأ لف السجائر، وأشعلت الغليونات وبعض السيجار، حوّل الدخان هواء الحجرة الثقيل لسحب ضبابية. كما كان متوقعا، قرر رئيس مجلس الوزراء التصريح بالمظاهرة الاحتجاجية على مصرع رجل الإطفاء، ولكنه لم يصرح باجتماع الفلانخي المقرر في سينا أوروبا. سوف

تتخذ الإجراءات المناسبة وليكن ما يكون. وإذا حاول أتباع الفلانخي الإعلان عن أنفسهم وإثارة المشاكل، يمكن انتهاز الفرصة وحظر الحزب والزج بقياداته في السجن. وإذا استدعى الأمر، يُفرض حظر تجول. يعلم المقدم مارانون بآخر تحركات بريمو دي ريبيرا ورفاقه سواء في العاصمة أو في المحافظات من خلال المبالغة المعتادة والتعاون العشوائي من جانب مساعده النقيب كوسكويويلا. يتناقشون بعد ذلك حول شؤون أخرى. وفقا لتقارير موثوق بها، مازال أمين عام الحزب الشيوعي العالمي عاقدا العزم على الدفاع عن الجمهورية بأي ثمن. من هذه الناحية على الأقل لا يوجد خطر. بكل تأكيد، مايزال العسكريون يهيكون المؤامرات؛ بعضهم تربطه صلات وثيقة بالفلانخي أو الحركة الكارلية بزعامة مانويل فال كوندي. كإجراء وقائي، تم إرسال الجنرالات المحافظين إلى المناطق الحدودية بعيدا عن المراكز الاستراتيجية. ستستمر الرقابة على الإعلام، وخصوصا أعمال العنف، بما في ذلك حرق الكنائس والإضرابات الفتوية في جميع أنحاء البلاد. يدرس الحاكم المدني احتمالية اللجوء للجيش لتغطية الخدمات الأساسية وتعويض نقص الإمدادات بسبب الإضرابات. من حيث المبدأ، هذا ليس حلا جيدا، ولكن يجب دراسة الحالة في كل مقاطعة. في الوقت الراهن، كتالونيا هادئة؛ بينما تشهد الأندلس اضطرابات. ماتزال الإجراءات غير المهمة تستقطع ساعة من يوم عمل الموظفين المثقل، ولكنها حيوية لتسيير الإدارة بشكل جيد. بعد ذلك، وبعيون محمرة من كثرة العمل والدخان، بدأوا يخرجون واحدا تلو الآخر ليتوجهوا إلى مكاتبهم. عندما أصبح مدير الأمن العام والمقدم مارانون والنقيب كوسكويويلا بمفردهم مجددا، قاوم السيد مالول تناؤبه، تمطى وغمغم مضجرا:

- وماذا استجد لدينا بشأن الإنجليزي؟

المقدم الذي كان يهم بالوقوف، عاود الجلوس، ورمق مساعده بنظرة جانبية ثم أجاب بصوت مكتوم:

- لا شيء محدد إلى الآن. يبدو شخصا أحمق، ولكن لا ينبغي أن يكون كذلك. كذب متعمدا عندما استجوبناه.

أشار بكلمات موجزة للحوار الذي أجري مع أنتوني وايتلاندر، توقف لبرهة كي يستوعب رئيسه الموضوع المشار إليه ثم أضاف:

- تلقيت أمس في ساعة متأخرة، مكالمة تليفونية من مخبرينا في لندن، الذين كنت قد تحدثت معهم من قبل. وفقا لجميع المؤشرات، رجلنا هو بالفعل كما يقول: خبير لوحات. نشر مقالات ويحظى باحترام في مجاله. وبالرغم من أنه درس في كمبريدج، إلا أنه ليس مخنثا ولا شيوعيا. كما لم تكن له اتصالات بجماعات فاشية أو من أية اتجاهات أخرى. ليس لديه اهتمام بالسياسة حتى الآن. لا يملك مصادر ثروة شخصية. على علاقة بزوجة أحد موظفي الخارجية منذ عدة سنوات. لديه دخل متواضع. أما عائدات عمله فلا تكفي لسد رمقه.

- هذا يمكن أن يفسر مجيئه إلى إسبانيا (أوضح المدير العام) المال يؤخذ في الحساب.

- في الواقع، إنها احتمالية (أوما المقدم) شوهد يدخل ويخرج من منزل دوق إجوالادا.

أفلتت من السيد مالول زجيرة ثم غمغم:

- هل تدبر الرجعية القديمة أمرا؟

- لن أتفاجأ. بريمو دي ريبيرا يتردد بصورة متكررة على منزل الدوق.

ربما من أجل الفتاة.

- لا. هذا لا طائل منه. لكن مع النساء، لن تعرف أبدا... الشيء المؤكد أن الإنجليزي قضى السهرة مساء أمس مع بريمو ورفاقه في الحوت السعيد. صدرت عن دون ألونسو مالول إيبياءة حاسمة: إنه متعب ويريد استيضاح الأمر بدون مزيد من التأخير.

- لا تدعه يغيب عن ناظريك (قالها على سبيل الوداع).

تسللت عبر النافذة شمس شاحبة بينما تصاعدت من الشارع همهمات واهنة من صحب المدينة. في نفس تلك الساعة، لاهيا عن التقرير الذي تمحور حوله، كان أنتوني وايتلاندر يفطر قهوة بالحليب مع مخبوزات التشوروس في بار بميدان سانتا آنا، بينما يتصفح الصحافة المحلية بقلق. أصابته عدوى عدم اليقين الشائعة، ولكن كإنجليزي أصيل، لم يستوعب صمت وسائل الإعلام إزاء الأمور التي تسببت في توتر البلاد. لم يغب عنه الرقابة الصارمة المفروضة من قبل الحكومة، لأن الصحف ذاتها أفردت صفحاتها الأولى وبالخط العريض لحادث التصادم الذي تعرضوا له، ولكنه لا يفهم جدوى إجراء يتنقص من مصداقية الحكومة، ويتسبب في أثر مضاد لما تصبو إليه. بسبب نقص البيانات الرسمية، تنتشر شائعات لا حصر لها، يقوم الخيال الشعبي بتحويلها بصورة مبالغ فيها إلى حد التشويه. الكل يؤكد أنه يتلقى أخبارا مثيرة من مصادر جيدة ويعرف أسراراً خطيرة ولا يتورع عن نشرها بين أرجاء الكون الأربعة. القنوات التي تروج فيها هذه الأخبار شديدة التنوع والتعقيد لأن الطابع الاجتماعي لدى الإسبان لا حدود له. في الحانات والمقاهي، في المكاتب الحكومية والمحلات، في المواصلات العامة وعلى النواصي، الناس يحكون ويعلقون ويتناقشون مع من يعرفون ومن لا يعرفون بثقة كبيرة وصوت مرتفع، حول الواقع الإسباني الحافل بالأحداث. يحدث الشيء ذاته على أعلى المستويات، لكن هنا ثمة عنصر إضافي مربك،

لأن الانتهاء السياسي لكل شخص يتعايش في إطار دائرته الأسرية والمهنية، النادي الرياضي أو الجماعة الثقافية أو الفنية التي ينتمي إليها. اليميني المتعصب واليساري المتعصب يمكن أن يتلاقيا في مصارعة الثيران أو كرة القدم ويتبادلا المستجدات حول هذا الشأن أو ذلك، هذا الشخص أو ذلك، هذه الفضيحة أو تلك؛ والشيء نفسه يتكرر في الصالون الثقافي أو عند الخروج من القديس أو في المحفل الماسوني.

يستقي الإسباني بصفة عامة والمديدي بصفة خاصة المعلومات من كل هذه المصادر، والتي تكون أحيانا صحيحة وأحيانا زائفة، بدون أن يتيح له شيء التمييز بين هذه وتلك. تكونت لدى أنتوني وايتلاندر من كل هذا فكرة مشوشة، إلا أن معرفته بإسبانيا عميقة في بعض الأمور وسطحية للغاية في أخرى، ويضيع بسهولة في متاهة الأحداث، والتكهنات والفتازيا التي وجد نفسه غارقا فيها. بالإضافة إلى ذلك تفرسه وساوسه الشخصية.

هاجمت افتتاحية جريدة (آ بي ثي) تراخي الحكومة في مواجهة أعمال التخريب التي تتعرض لها الكنائس والأديرة. تُرى كم من الخسائر البشرية والتدمير للتراث الفني يجب أن نعاني حتى يتفضل السيد آثانيا باتخاذ إجراء حاسم ضد المخربين؟ هل يجب الانتظار حتى تمتد كراهية الدهماء إلى قطاعات أخرى من المجتمع ويبدأون في إضرار الثيران في المنازل والمدن بساكنيها؟

أفزعته هذه الفرضية. في ظل هذه الأوضاع، لا يستبعد تعرض قصر الدوق لاعتداء، وإن حدث ذلك، ماذا سيحدث للوحة التي تقبع حاليا في القبر في انتظار أن يصدر «السيد وايتلاندر» حكمه؟

بدون أن يمر بالفندق أو يعلن مسبقا عن مجيئه، سار أنتوني وايتلاندر بخفة نحو قصر لا كاستيانا وقرع الجرس. عندما فتح الباب لم يجد كبير الخدم مبررا لحضوره المفاجئ، أو كبح جماح غضبه.

- يجب أن أرى السيد الدوق بصورة عاجلة. (قال).

اعترض كبير الخدم اقتحامه بتهكم ساخر:

- جنابه كان سيستقبلك بدون شك لو كان موجودا بالمنزل؛ (قال) ولكن إن لم يكن كذلك، فلا مجال كما أرى. جنابه خرج مبكرا بدون أن يترك خبرا متى يعتزم الرجوع. في المقابل، السيدة الدوقة نعم موجودة، ولكنها لا تستقبل أحدا إلا بعد انتصاف النهار. إذا شئت سوف أخبر سيدي الصغير جييرمو.

بسبب فتور حماسه من الإحباط، اتخذ أنتوني سلوكا متحفظا.

- لا أريد الحديث مع السيد الصغير جييرمو، (أجاب بجفاء، مخرقا انطبعا بأنه لا يتباحث مع أطفال) والآنسة باكيثا؟

اغتصب كبير الخدم نصف ابتسامة تصدر عن شخص يعرف كيف يتحكم في الموقف، برغم أنه أدنى مقاما.

- سوف أذهب لأرى (قال فيما تنحى جانبا مفسحا الطريق أمام الإنجليزي، ورسم تعبيرا ذليلا يمهد الطريق لوداع مهذب).

لمرة ثانية بقي أنتوني بمفرده في البهو أمام لوحة وداع أكتيون المقلدة. ذلك المشهد العنيف والمربك الذي يصور حدثا فجائيا لا مفر منه، بقدر ما كان يثير إعجابه كان يرفضه. كان تيزيانو قد رسم اللوحة بتكليف من التاج الإسباني، ولكن لأسباب يجهلها أنتوني، لم تصل اللوحة مطلقا ليد مالکها الشرعي. ربما علم فيليبي الثاني بالأمر، ورأى أنها غير ملائمة. فبالرغم من الطابع الحامي التقليدي لدى الإسبان، لا يوجد باللوحة مجال للغضب أو الانتقام. أما بيلاثكث فلم يكن ليرسم مشهدا مماثلا. كان عالمه يتألف من أحداث عادية، تلفها كآبة غامضة، نابعة من إذعان مستكين ومستسلم للفشل المحتوم لأحلام هذا العالم.

لم يكن يستغرب أن يستقر المقام بالنسخة المقلدة من لوحة تيزيانو في مكان شديد التميز من منزل عائلة الدوق الخالي من أي زينة، على الرغم من أن مكانة توقيع الفنان ومضي الزمن يمكن أن يبررا هذا الاختيار. وهناك اختيارات أسوأ: شاهد أنتوني مشاهد ذبح تتصدر صالونات، حيث تقدم المقبلات، ويحلو الرقص والسمر، لمجرد أن اللوحة المعنية اشترت بثمن باهظ أو ورثت عن أحد الأسلاف المشاهير، وهي هنا الآن تعد فقط دليلا إضافيا على مكانة الحسب والنسب. كان أنتوني يستنكر هذا الشذوذ في الفن. بالنسبة إليه، كان مضمون اللوحة جوهريا، والهدف الذي من أجله رسمها الفنان، ليس قائما فحسب رغم مرور القرون، بل إن هذه الروح عندما يتعلق الأمر بعمل فني حقيقي، تعلقو فوق أي اعتبار آخر سواء كان تقنيا، تاريخيا أو طبقيًا.

مستغرقا في هذه الأفكار، اقترب كثيرا من اللوحة ومرر أصابعه على الرسم. ثم تراجع بضع خطوات وتأمل من منتصف البهو، المشهد المهيب بنصف ابتسامة. آي! تعجب من داخله، القصة القديمة لصياد اصطيد.

- بِمَ تغمغم من بين أسنانك، سيد وايتلاندرز؟ (هتف صوت باكيئا من

عاد أنتوني لحاله بدون إسراع أو ارتباك.

- معذرة، (قال) لم أسمعك تدخلين. كنت أتأمل هذه اللوحة

- إنها مجرد نسخة مقلدة.

- أعلم ذلك، ولكن هذا لا يهم. التقليد جيد؛ المُقلد عرف كيف يلتقط ما هو جوهري في العمل الأصلي، وفوق هذا احتفظ بالغموض. أتساءل أين نسخها وكيف وصلت إلى هنا. ربما لديك علم بذلك.

- لا (قالت وأومات متراجعة للخلف، كما لو كانت تشير إلى طريق طويل نحو الماضي) أعتقد أن مصدرها مقتنيات الأسرة. خوليان أخبرني بأنك تريد أن تراني.

- هذا صحيح، (قال الإنجليزي مستشعرا الحرج فجأة) في غياب والدك أنتِ الشخص الأكثر ملاءمة. حسنا، لقد قرأت في الصحافة... كما تعلمين، الحرائق... هذا القصر غير مؤهل... أعمال الشغب تتصاعد.

- نعم، أفهم ما ترمي إليه: هذا المنزل يمكن أن يكون عرضة للهجوم من قبل الدهماء، في هذه الحالة كل ما يهمك هو مصير اللوحة، وليس مصيرنا نحن.

- آنسة باكيثا، (أجاب بنبرة ألم) هذا ليس وقت ألعاب. تعلمين جيدا ما يؤرقني. وأقول ما هو أكثر، ما يعذبني. ويبدو لي أن لا جدوى من أن تنكأي الجرح. كنت أتحدث من الناحية العملية: في حالة نشوب حريق، الأشخاص يمكنهم النجاة بسهولة نسبيًا، أما النسيج فسوف يدمر لا محالة في ثوان معدودة. أنا متيقن من أنك تعرفين قيمة اللوحة وأنتك تستوعبين وتشاركييني قلقي.

وضعت باكيثا يدها على ذراعاه، ونظرت في عينيه بجدية ثم سحبت يدها في الحال.

- معذرة، أنتوني، ما كان يجب أن أسخر منك. قلت لك منذ اليوم الأول إننا جميعا متوترون وهذا يجعلنا طائشين. أما فيما يتعلق باللوحة اللعينة فلا يعنيني أن أراها تتحول لرماد. قلت لك من قبل وأكررها لك اليوم: أصلية أم زائفة، دع اللوحة وشأنها، وكف عن المعاناة بسببها: إنها في مكان آمن. يمكنك أن تذهب مطمئنا.

- هل يمكن أن أراها مرة أخرى؟

- إنك أكثر عنادا من بغل. حسنا، سأرافقك إلى القبو. سوف أذهب لأحضر المفاتيح ودثار: البرد قارص في القبو. انتظري هنا ولا تقل شيئا لأحد. الخدم لا يعرفون ماذا يوجد بالأسفل ولا يجب أن يعرفوا.

لم تكن جدية كلماتها تتماشى مع مرحها، فبدت أقرب للسخرية من القلق. تسللت من البهو بخفة مراهقة وقال أنتوني في نفسه: يالها من شابة جميلة! ما كان يجب أن تتورط في هذه الفوضى. ولكنها تورطت، وأنا أيضا.

عادت باكيثا على الفور. بعد التأكد من أن أحدا لم يرها، قطعنا ممرًا، في نهايته، أسفل سلم يصعد إلى الطابق العلوي بالقصر، كان هناك باب منخفض. اختارت باكيثا مفتاحا ضخما وأسود وقالت بينما تولجه في القفل:

- هذا المفتاح يذكرني بقصة اللحية الزرقاء⁽¹⁾. هل تعرفونها في إنجلترا؟

1. اللحية الزرقاء (بالفرنسية: La Barbe bleue)، هي حكاية خرافية للكاتب الفرنسي شارل بيرو، نشرت لأول مرة عام 1697. وتحكي قصة قاتل متسلسل كان قد قتل زوجته وأخفى جثثهن في غرفة مغلقة، ومجمل الرواية يقول إن اللحية الزرقاء منع زوجته من أن تفتح بابا معنا في غيابها لكنها لم تنفذ أوامره وفتحت الباب لتجد جثث الزوجات السابقات وتحاول الهروب من موت محقق. (المترجم)

- نعم، طبعاً، باستثناء أننا هناك نسميها بلو بيرد. (أجاب بينما كان يقيس بالنظر سُمك الباب).

عند الباب امتد درج يهبط إلى القبو. أدارت باكيثا مقبس النور. حين دخلا وأغلقت الباب من خلفهما، لفهما الظلام. الضوء الوحيد كان مصدره لمبة شفافة متدلّية من سقف القبو، الذي كانت مصاريعه مغلقة. كان تيار الهواء البارد القادم من القبو يحمل رائحة غبار وفتالين. ارتدى أنتوني مجددا المعطف الذي كان يحمل على ذراعه. بينما كانا يهبطان ببطء الدرج الضيق، قالت باكيثا:

- ينتمي القبو للتصميم الأصلي للمبنى. لم يكن ليكون قبو نبيل، بل سكناً للخدم. ولهذا فهو محمي من الرطوبة ومن الفيضانات. كما لا يوجد به فئران أو حشرات ضارة. وإلا ما كنا استخدمناه في تخزين الأثاث. بالرغم من ذلك، ظلت اللوحة دوماً في مكان آخر. نقلوها إلى هنا منذ فترة قصيرة. كانا قد وصلا بهوا فسيحاً مزدحماً بالأثاث. اللوحة المغطاة بالملاء كانت ماتزال في المكان نفسه.

- من أحضرها؟ (سأل أنتوني) يجب أن يكون وزنها ثقيلًا.

- لا أعرف. عمال والدي على ما أتصور مع اتخاذ المحاذير اللازمة، وبدون أن يروا ما يحملون: نقلت اللوحة مغلقة. وبمجرد أن وصلت القبو، قمنا أبي وأنا بفض غلافها وتغطيتها بالملاء. لم يرها أحد سواه وأنا، وأنت الآن.

- ساعدني في رفع الملاء

- (قال هو) لا يوجد سبب في العالم يجعلني أتسبب في إتلاف القماش.

قاما بكشف اللوحة معاً. لم يعلق أنتوني بشيء، كما لم يصدر عنه أي انفعال. تفحص اللوحة بعناية، مقوساً حاجبيه، وبجفون مسبلة، وشفيتين

مزمويتين. كان صوت أنفاسه مسموعا عميقا ومنتظما في سكينه القبور التي كان عليها القبو. كانت باكيئا تتأمله ولم تتمكن من مغالبة الجاذبية المندفعة من شخص، نسي كل ما حوله، وصب كل طاقته على شيء يعرفه، ويقدره ويحترمه. على هذا النحو مرت فترة. وفي النهاية، بدا الإنجليزي كما لو استيقظ من حلم، ابتسم وقال بتلقائية:

- إنها محفوظة بحالة جيدة. لم تتعرض الألوان أو القماش لأضرار لا يمكن إصلاحها. عملية ترميم بعناية يمكن أن تستعيد لها. إنها قطعة رائعة، رائعة حقا.

- هل مازلت تعتقد أنها أصلية؟

- نعم. كيف آلت إلى عائلتك لوحة بهذه الأهمية. هذا تعريفه بالتأكيد.
- ليس تماما. حسبما أخبرتك أول يوم، ليس لدي اهتمام خاص بالتصوير. ربما كان مصدرها إرث من أحد الفروع غير المباشرة في العائلة. مثل كل عائلات الطبقة الرفيعة تربطنا صلات قرابة بكل الأراستقراطية الإسبانية. شجرة عائلتنا معقدة. وهذا يفسر جانبا كبيرا من تراثنا ومعظم عيوبنا.

- ما هي عيوبك؟

- المعتادة: الأنانية، التراخي، التكبر وعدم الاكتراث للصالح العام.

- يا الله... هل يوجد أحد آخر يعلم بوجود هذه اللوحة؟

- لا أحد. برغم غرابة الأمر، تعاقبت عدة أجيال على اللوحة وهي متوارية. بسبب موضوعها بكل تأكيد. بالإضافة لما قلته عائلتنا مدعو احتشام وتدين.

- لكن يجب أن تكون أدرجت على أي قائمة جرد (قال أنتوني).

- بالتأكيد عمليات نقل الملكية الأولى مسجلة. ويبدو أنه مع تعاقب الموارث سجلت بصورة خاصة بدون تدخل رسمي، لأسباب واضحة. إذا كانت الوثائق موجودة فستكون في أي أرشيف في خبيثة أحد البيوتات التي يعلمها ربي. في الوقت المحدد، قد يُعثر عليها، ليس لدي أدنى شك في أنها ستظهر للنور عندما يحين الآوان. للأسف، الآن نعلم فقط على تكهنات حضرتك. ألا تشعر بالبرد؟

- كثيرا. لكن أحتاج للوقت. يمكنك أن تتركيني بمفردي.

- استحالة. لماذا لا تجربني بما تفكر فيه؟

- سأفعل بكل سرور حينما نخرج من هنا. أنا ممتن لك بشدة لأنك سمحت لي بمشاهدة اللوحة وأنت استقطعت هذا الجزء من وقتك لي.

- لا تشكرني، (أجابت الشابة) أنا أيضا سوف أطلب منك معروفا.

- اتفقنا طالما كان ذلك بوسعي (قال أنتوني) ثم وضحي لي أمرا ما. هل شغل أحد أسلافك منصبا مهما في إيطاليا؟

- ذات مرة سمعت أن أحد أسلافي من ناحية الأب كان كاردينالا. هل تفيدك المعلومة؟

- أتصور ذلك. فلنغط اللوحة.

غطيا اللوحة مجددا بالملاءة. عندما هتما بالخروج اهتز مصباح السقف ثم انطفأ ليتركهما في ظلام دامس.

- ياللسخف (قالت باكيثا بصوت هادئ) يبدو أن اللمبة احترقت. أو ربما بدأ إضراب جديد. يمكن أن تمر عدة ساعات قبل أن يعود النور؛ وإذا لم نخرج من هنا، فسنصاب بالتهاب رئوي. لا تتحرك فقد تصاب بأذى. أعطني يدك وسنحاول الوصول إلى باب الحديقة. أعرف القبو أفضل منك.

لم يجد الإنجليزي صعوبة في العثور على يد الشابة. كانت متجمدة فضغط عليها بقوة.

- ألا يخيفك الظلام؟ (سأل).

- مثل كل الناس، (قالت بنبرة حاسمة) وأقل مع صحبة.

بخطى حذرة أخذها يتقدمان ببطء شديد. تزايدت حدة البرودة في الظلام وبدا كما لو أن الوقت قد توقف.

- كل شيء يبدو بعيدا ونحن نتحسس الطريق (قالت باكيثا).

- سيرى بحرص، ولا تختلط عليك الأمور، حتى لا ينتهي بنا الأمر داخل أحد الدواليب.

- يجب أن يضعوا حضرتك هناك، لسذاجتك (قالت هي).

سرعان ما وصلا إلى الباب الذي يوصل بين القبو والحديقة. فتحتة باكيثا بعد أن حررت يد الإنجليزي وقلبت في المفاتيح لبرهة. لاعتيادهما على العتمة، أعشى عيونهما نور الشمس المفاجئ. احتمت باكيثا بالشال، أطلت برأسها وتأكدت من أنه لا يوجد أحد في الخارج. تذكر أنتوني أنها عانقته في نفس المكان قبل يومين. أخذها بين ذراعيه باندفاع. لم تبد باكيثا مقاومة، إلا أنها أشاحت بوجهها وقالت:

- لا تعتد على ذلك.

انفصلا وعبرا الحديقة متلصقين. أمام البوابة الحديدية قالت باكيثا:

- خلفنا تماما، في شارع سيرانو، توجد كافيتريا اسمها ميتشجان. انتظري هناك سأوافيك في لمح البصر.

-20- مكتبة

t.me/t_pdf

- حتى القرن العشرين، (انطلق أنتوني في الحديث بلا توقف، كمن أعد محاضرة سلفا) كان العري نوعا فنيا لا وجود له في فن التصوير الإسباني. تعتبر مايا العارية لجويا استثناء، ولوحة أخرى قبلها وأكثر أهمية منها هي فينوس لبيلاثكيث نفسه. سبب هذه الفجوة واضح: التكاليفات كانت تصدر من الكنيسة، وعلى أقل تقدير من القصر الملكي، بمعنى، خيال ديني، بورتريات أو بعض مشاهد من الحياة اليومية. كان الوضع مختلفا في إيطاليا أو هولندا. هناك كان النبلاء يطلبون لوحات لتزيين صالوناتهم ولأن أخلاقهم كانت أقل تزمنا، فكانوا يستحسنون الموضوعات الأسطورية التي يكثر فيها العري الأنثوي. الفنانون الإسبان في ذلك العصر كانوا يعرفون تقنية العري، إلا أنه في إسبانيا أثناء حقبة الإحياء الكاثوليكي، لم يكن مستخدما سوى التشريح الذكوري: مشاهد استشهاد، والعديد من مشاهد الصلب وإنزال المسيح من على الصليب. في هذا السياق، من بين غيره من الفنانين، كان لبيلاثكيث وضعاً متميزاً: بوصفه نديم بلاط، تلقى طلبات خاصة واستطاع ممارسة فنه بكل أنواعه، بما في ذلك الأسطوري: انتصار باخوس، كور حدادة فولكان وعدة لوحات أخرى. من بينها فينوس وكيوبيد، الموجودة حالياً في الناشيونال جاليري بلندن والتي تعد أول لوحة عارية في فن التصوير الإسباني والوحيدة لفترة طويلة.

لم يكن هناك كثير من الناس في كافيتيريا ميتشيجان: لا أحد عند المشرب، ست موائد فقط كانت مشغولة. انتهى أكثر المتأخرين من تناول إفطارهم ولم يحن بعد ضجيج ساعة تناول وجبة منتصف النهار. كان اثنان من الرواد يقرآن بتؤدة، كل على حدة، صحيفتي الـ(آ بي ثي) والسول، وثالث يكتب تعلقو شفتيه ابتسامة، وضابط مدفعية يدخن بنظرة شاردة في السقف. بجوار النافذة كانت هناك سيدتان متوسطتا العمر تتحدثان منذ فترة بدون توقف؛ على المائدة بجانب فناجين القهوة بالحليب والسكرية المشغولة بزخارف عربية، وضعا كتب الصلوات والشيلان السوداء مطوية بعناية. كان أنتوني معجبا بتنوع المحال التي تقدمها مدريد للناس. ولا حتى مقاهي فيينا الشهيرة، التي قضى فيها الساعات الطوال بين كل زيارة وزيارة إلى متحف ⁽¹⁾ Kunsthistorisches Museum، يمكن مقارنتها مع مقاهي مدريد. كانت مقاهي فيينا تثير لديه شعورا مضجرا بحب الاستعراض والانحطاط؛ على عكسها في مدريد. جدران المقاهي ليست مكسوة بالمرايا، فالإسبان لا يحتاجونها، ينظر الزبائن في مقاهي مدريد إلى بعضهم بعضاً مباشرة، دون مداراة فضولهم، لكن هذا السلوك عديم الحياء لم يكن به ما يسوء، لأنهم -في مقاهي مدريد- ينسون بنفس السرعة التي ينظرون بها. هذا كله جزء من الانسيابية اللذيذة للأمور في تلك المدينة السعيدة، الكريمة والسطحية. مع ذلك، النشوة التي يثيرها الجو لديه، صحبة باكيثا وفرصة الحديث معها عن موضوعه الأثير، لم تنسه أن بين يديه موضوعاً على أقصى قدر من الأهمية بالنسبة لكثيرين، في مقدمتهم أنتوني نفسه، الذي توشك مسيرته المهنية على دخول منعطف غير متوقع إذا تأكدت توقعاته ولم يرتكب خطأ غير قابل للإصلاح.

1. متحف تاريخ الفنون بالعاصمة النمساوية فيينا. (المترجم)

- خلال العقد من 1640 و1650 كان بيلاثكيث قد بلغ ذروة شهرته (تابع، محاولا أن يضيفي على صوته نبرة محايده) وبجانب التزاماته كفنان بلاط، كان يتلقى ويقبل طلبات من شخصيات هامة بين نبلاء ورجال دين. كان أحد هؤلاء الزبائن دون جاسبار جوميث دي آرو، نجل الماركيز ديل كاربيو، الذي خلف الكونت دوق أوليباريس كصديق شخصي لفيليب الرابع. لا أعلم إن كنتِ على دراية بهذه الأحداث التاريخية. وإن لم يكن، فلا يهم. المهم أن دون جاسبار كان رجلا نافذا ومولعا بالمقتنيات الفنية، وقد كلف بيلاثكيث بلوحة ذات موضوع أسطوري: فينوس عارية على طريقة تيزيانو. بالرغم من غرابة الطلب، قام بيلاثكيث بالمهمة باستمتاع واضح إذا حكمنا على النتيجة. عندما أنجزت اللوحة، حفظها دون جاسبار في قصره بمنتهى التكتّم، ولم يرها أحد لسنوات طويلة بعد رحيل جميع أبطال هذه القصة. (توقف قليلا لاستكمال الحكاية بأسلوب دقيق ورقيق: لم يكن يرغب بحال من الأحوال أن يجرح إحساس مستمعيه الرقيقة بتفاصيل رهيبه).

دون جاسبار جوميث دي آرو (قال خافضا صوته وبصره) لم يكن فقط متذوقا للفنون بل كان رجلا منحلا. لوصف الأمر بشكل مهذب، شخصيته كانت أقرب إلى دون خوان تينوريو منه إلى سان خوان دي لا كروث. وربما كان هذا الانحراف هو ما دفعه لأن يكلف بيلاثكيث بلوحة لا تتماشى مع أخلاق عصره. على أية حال، السؤال هو: من هي المرأة في اللوحة؟ هل استعان بيلاثكيث بأي امرأة كموديل، عاهرة على الأرجح، لتصوير فينوس، أم أن الموديل، كانت كما يردد البعض، واحدة من عشيقات دون جاسبار، أراد أن يخلد صورتها في اللوحة؟ وهل كما زعم البعض، لم تكن سيدة اللوحة سوى زوجة دون جاسبار نفسها؟ يزعم المدافعون عن هذه النظرية أن الدليل هو أن ملامح فينوس في اللوحة، المنعكسة في المرأة التي يمسك بها كيويبيد،

حجبها الفنان عن عمد لتفادي التعرف عليها بأي شكل، الأمر الذي لم يكن ضروريا إذا كانت عاهرة عادية.

- وما هي نظرية حضرتك؟ (سألت الشابة).

- أفضل عدم إبداء رأي. تبدو غريبة فكرة وقوف سيدة محترمة ومنتزوجة كموديل عارٍ، وأصعب من ذلك كونها في إسبانيا، في عصر محاكم التفتيش، ولكنها ليست مستحيلة. هناك دائما استثناءات للقاعدة. كانت هناك صلة قرابة بين زوجة دون جاسبار، أنطونيا دي لا ثيردا، ودونيا آنا دي مندوثا، أميرة إيبولي، والتي أصبحت عشيقة فيليب الثاني. كلا المرأتان كانتا على قدر كبير من الجمال، كما تحليان بقوة الشخصية وجرأة الطباع. ومع ذلك لا أرى سببا يجعل زوجها خائنا بطبعه يرغب في عمل بورتريه عارٍ لزوجته، لمجرد أن بيلاثكيث هو الذي سيرسمه. كان من الأيسر أن يرسم لها لوحة بشابها. أيا كان، لن نعرف أبدا الحقيقة بيقين مطلق: تاريخ الفن مليء بالمفاجآت.

- لا يساورني أدنى شك (قالت باكيثا).

- أستشعر نبرة سخريه في صوتك (أجاب الإنجليزي) من المحتمل أني أصبتك بالملل بسبب شطحاتي. لكن أقول لك إنك مخطئة. نظريات ومناقشات الخبراء قد تكون مملة؛ بالتأكيد مقالاتي كذلك، لكن الفن ليس كذلك، لأن اللوحات تعني أشياء، مثل القصائد أو الموسيقى؛ أشياء هامة. أعلم جيدا أنه بالنسبة لكثيرين فإن لوحة جيدة تعني فقط ممتلكات ثمينة أو قطعة من مجموعة مقتنيات أو مبررًا لإظهار المعرفة والترقي في المجال الأكاديمي، ولا أنكر وجود هذه الأسباب، وأنها يجب أن تؤخذ أيضا بعين الاعتبار. ولكن العمل الفني، فوق كل هذا، هو في الوقت ذاته تعبير عن شيء راق ومتجذر بعمق في معتقداتنا ومشاعرنا. أفضل بربرية مسؤول بمحاكم التفتيش مستعد لإحراق لوحة يعتبرها خطيئة، على لا مبالاة من لا يُعنى

سوى بالتوثيق أو الظروف التاريخية أو تثمان ذات اللوحة. بالنسبة لنا رسام وزبون وموديل من القرن السابع عشر هي مجرد بيانات موسوعية. ولكن في عصرهم كانوا أشخاصا مثل حضرتك ومثلي، وصبوا حياتهم في لوحة لأسباب ومشاعر عميقة للغاية، متحدين لمخاطر أحيانا ومنفقين لثروات. ولم يفكروا مطلقا أن كل هذا سينتهي في قاعة متحف أو في ركن بمخزن.

- ياااه! (قالت هي) يتعين عليّ أن أعتذر لك مرة أخرى. من الواضح أن علاقتي بحضرتك سلسلة من الإهانات والاعتذارات.

- لن تكون كذلك إذا توقفت عن التعامل معي باستخفاف، إذا لم يخني التعبير. ولكن ليس حضرتك، من يجب عليه الاعتذار، بل أنا. يغلبني الحماس كلما تحدثت في هذا الموضوع.

- حسنا، هذا ما يجعل الموضوع أكثر جاذبية. استمر في فرضياتك.

- هناك جدل حول التاريخ الذي رسم فيه بيلاثكيث فينوس وكيوبيد. كل الشواهد تشير إلى أنه كان أواخر عقد أربعينيات القرن السابع عشر، نظرا لأن بيلاثكيث سافر إلى إيطاليا عام 1648 ولم يعد حتى عام 1651 حينئذ كانت اللوحة بالفعل في قصر دون جاسبار. من الممكن أن تكون قد أنجزت في إيطاليا، حيث انتشرت لوحات العري، والتي يمكن أن تكون قد ألهمت بيلاثكيث، ولكني لا أعتقد ذلك. كان في مدريد لوحات عري لا حصر لها لكبار الفنانين، مثل تيزيانو وروبينز، وحتى ضمن المقتنيات الملكية، وبالرغم من أنها لم تكن معروضة للجمهور، وبصفته أمينا على التراث الفني الخاص بالتاج، كان بيلاثكيث معتادا عليها. أنا على قناعة بأن لوحة فينوس رُسمت في مدريد، قبل السفر إلى إيطاليا، على الأرجح أوائل عام 1648 وبتكتم شديد.

وكما لو أن هذه العبارة شغلت زمبركا، انتفض ضابط المدفعية فجأة. هرول النادل ليقدم له المعطف الذي كان معلقا على المشجب. أعطى الضابط قطعة معدنية للنادل واتجه صوب الباب. عند مروره بجانب المنضدة، رمى الإنجليزي بنظرة جانبية وبتمعن لباكيئا، التي أسبلت جفونها. بدون أن يتوقف في طريقه صدرت عنه شبه إيحاءة تبجيل ثم خرج للشارع. خيل لأنتوني أنه لاحظ على رفيقته بادرة استياء، ولكن بدا له أن ليس من الحكمة الاستفسار عما حدث.

- في نوفمبر 1648، (تابع حديثه) سافر بيلاثكيث إلى إيطاليا للمرة الثانية بتكليف من فيليبي الرابع بغرض شراء أعمال فنية لزيادة المقتنيات الملكية. بالرغم من ذلك، هذه المرة طال السفر أكثر مما كان متظرا: عامين وثمانية أشهر. نفذ صبر الملك فاستدعى فنانه الأثير، ولكن بيلاثكيث تكاسل. رسم القليل، خلال هذه الفترة الطويلة في إيطاليا: في روما رسم بورترية للبابا إينوسنت العاشر وأصحاب المناصب الرفيعة في الفاتيكان، ولكي يسري عن نفسه بينما يتعافى من حمى أملت به، رسم منظرين صغيرين كئيبين لقصر ميديسيس. أما باقي الوقت فقضاه في التجوال في إيطاليا، الاتصال بالفنانين وجامعي الأعمال الفنية، الدبلوماسيين ورعاة الفنانين، مقتنيا اللوحات والمنحوتات معنيا بأن تصل هذه الأشياء إلى وجهتها. كانت زوجته وابنتاه قد بقين في مدريد. في النهاية عندما عاد إلى إسبانيا، أصبح بيلاثكيث رجلا منهكا مقطوع الأنفاس. لم يرسم خلال السنوات العشرة التي تفصل بين عودته من إيطاليا ووفاته في 6 أغسطس 1660، سوى بورتريات للأسرة المالكة، من بينها، «لاس مينياس» الوصيفات.

- لا بأس، يا رجل. (قالت باكيئا، والتي يبدو أنها قد نسيت واقعة ضابط المدفعية).

- نعم، بالتأكيد، إنها لوحة فريدة، وهذا يثبت أن بيلاثكيث كان متمكنا من كل أدواته وفي أوج إبداعه الفني. وإذا كان الأمر كذلك، ما سبب كل هذا التباعد؟

- هل تعتقد أن لوحة فينوس جلبت له سوء الحظ؟

- أعتقد أنه بعد رسم هذه اللوحة، أو أثناء رسمه لها، تعرض بيلاثكيث لأزمة شخصية، لم يبرأ منها مطلقا، والسبب الحقيقي للأزمة موجود في اللوحة. منذ سنوات وأنا أناقش الأمر مع خبير إنجليزي، بروفيسير قديم في كمبريدج، حاليا مفتش بالناشيونال جاليري. يتمسك بنظرية تناقض نظريتي. إنه لا يحب النساء، وربما لهذا السبب...، دعينا من ذلك. المهم الآن مشاكل بيلاثكيث الشخصية وليس مشاكلي أنا.

- ربما تتقاطعان، (قالت باكيثا) بوسعك أن تحكيها لي إذا شئت. من السهل الحديث عن الهواجس الشخصية من انتظار مجيء بيلاثكيث لكي يرسمها.

- لا، لا، مستحيل. لا يسعنا أن نحيد عن الموضوع.

انظري، سأخبرك بتصوري عما حدث: في 1648 كلف دون جاسبار جوميث دي آرو بيلاثكيث برسم لوحة عارية لسيدة تمثل فينوس. زوجته أو أخرى، هذا لا يهم الآن. يقبل بيلاثكيث الطلب ويرسمها، ولكن ليس مرة واحدة، بل مرتان: الأولى على هيئة فينوس أمام المرأة، بملامح مموهة بعناية لكي لا يتمكن أحد من التعرف عليها، والثانية، عارية أيضا، بملامح محددة بوضوح وبدون اللجوء إلى حيلة الأسطورة. بطبيعة الحال اللوحة الثانية كانت من أجله. لم تظهر مطلقا في كشوف ممتلكات دون جاسبار جوميث دي آرو. عندما رسم اللوحة الثانية، أقدم بيلاثكيث على العديد من المخاطر.

لو كان وجودها قد تجاوز الحد، لكانت الفضيحة مدوية، وربما أدت لتدخل محاكم التفتيش في المسألة، وفي أفضل الأحوال كان بيلاثكيث سيفقد حماية الملك. منذ أن وصل إلى القصر وحل محل رسامي البلاط القدامى بأسلوبه المجدد، لم يعد أعداء يكيدون لتدميره. وهناك أيضا دون جاسبار جوميث دي آرو نفسه: إذا كانت العلاقة بين الرسام والموديل قد تجاوزت الحدود الفنية لتدخل المجال الغرامي، أو ما هو أخطر من ذلك، كما يتصور من اللوحة، سواء أكانت اللوحة لزوجته الشرعية، أو لعشيقتة، فسيقع عليه انتقاما دمويا: نحن في إسبانيا عصر الشرف الكالديروني ودون جاسبار رجل ذو سلطة. وحده حب جارف دفع رجلا هادئ الطباع شبه حامل، مثل بيلاثكيث للإقدام على حماقة كهذه.

مع انفعاله أخذ صوته يرتفع فتوقف ليسيتر على انفعاله. كانت باكيثا تلاحظه مقطبة الجبين تظلل نظرتها سحابة حزن. دون أن يلاحظ ذلك، مسح أنتوني وجهه بكفه وتابع حديثه:

- كان بيلاثكيث يعلم ذلك، ولأنه ذكي، ويدرك أن عشقه لا سبيل أمامه، قرر الفرار. لم يُعِبه إقناع فيليبي الرابع بإرساله في مهمة للقيام بخدمات له، فرحل إلى إيطاليا، بأمر من الملك، حاملا معه اللوحة الثانية.

- بديل بائس (قالت باكيثا).

- أفضل من لا شيء. علاوة على أنه بالنسبة لبيلاثكيث الواقع والرسم كانا متداخلا كثيرا، إلا أن هذا قد يذهب بنا بعيدا جدا. ما في الأمر أنه عقب العودة، وحمود الغرام بعد طول الغياب، ترك اللوحة المذكورة في إيطاليا، في روما على الأرجح. بمرور الزمن حصل عليها أحدهم، وأحضرها إلى إسبانيا، وهي الآن هنا، على مسافة بضعة أمتار من هذه الكافيتيريا، تنتظر...

- أن يقوم أنتوني وإيتلاندر بتعريف العالم بها (قاطعته باكيتا).

نجحت نبرة صوت الشابة هذه المرة في إثارة انتباه الإنجليزي.

- بطبيعة الحال، (قال) ينقصنا تدقيق بعض التفاصيل. هل أنت غاضبة؟

- نعم، ولكن ليس منك. جميع الرجال الذين التقيت بهم في طريقي أصحاب رؤية وأنا نقد صبري. ولكن دعنا من ذلك الآن. المهم ليس أنا، بل بيلاثكث.

تهدج صوتها وأشاحت بوجهها بحركة سريعة من رأسها كما لو أن شيئاً ما أثار انتباهها. مرتبكا إزاء هذا التغير المفاجئ، لم يعرف أنتوني كيف يتصرف. بعد بضع ثوان، أدارت وجهها مجددا نحو محدثها وبعينين مغرورقتين بالدموع ولكن بصوت هادئ قالت:

- بالأمس، أمام يسوع مديناثيلي، طلبت منك ألا تقر بأن تلك اللوحة أصلية، حينئذٍ تصورت أنه مقابل ذلك يمكنني منحك شيئاً قيماً. لكنني أرى الآن أن قيمتي بالنسبة لك أقل من قيمة اللوحة، أو ما تمثله اللوحة. لن يرحل أحد عن طريقك ولا ألومك على هذا. لا أعتبر هزيمتي أمام امرأة ماتت قبل ثلاثة قرون ولا نعرف عنها سوى الوجه وبعض من تفاصيل جسدها، إهانة، ولكنني أتعجب لذلك، افهمني.

- ليس من السهل عليّ فهمك إذا لم توضحي لي سبب سلوكك. (قال الإنجليزي).

- أعطني مندليك.

أعطاه أنتوني المنديل، أو مات تجفف دموعاً غير مرئية وأعادته له.

- منذ برهة (قال هو حينئذٍ رأى أنها ليست على استعداد لإضافة المزيد لما

قالتة) طلبت مني بنفسك أن أطلعك على مخاوفي. سأفعل باختصار. يبدو أن حياتي توقفت منذ سنوات. انتابني الركود، على الصعيد المهني والشخصي، ولا توجد مؤشرات على أن الوضع سيتغير. رأيت كثيرًا من الحالات المماثلة لكي أعلق الآمال: دراسات رائعة، رؤى عظيمة، بضع سنوات من التألق، ثم لا شيء: تدهور تدريجي، تكرار ورداءة. أنا أكرر نفس النهج: تركت الشباب ورائي وانطلقت نحو الانحدار للخلف مثل السلطعون. وفجأة، وبصورة لا أتوقعها على الإطلاق، تلوح لي الفرصة الوحيدة، في حياتي، وفي عالم الفن بصفة عامة. المغامرة تنطوي على مخاطرة، تتجاوز حدود الشرعية، وهذا ليس كل شيء، تتداخل في المسألة عوامل عاطفية قوية. ولكن، إذا انتهى الأمر بصورة جيدة رغم كل شيء، إذا انتهى الأمر على خير ولو لمرة لعينة وحيدة، سأحصل على شيء أكبر من مجرد إشباع غروري الأكاديمي الساذج. سأحصل على المكانة الرفيعة. والمال، نعم، المال لشراء استقلاليتي وكرامتي. أخيرا سيكون بوسعي الكف عن التسول... هل تعلمين ما معنى هذا، أنسة باكيثا؟

- نحن معشر النساء جميعنا نعرفه، سيد وايتلاندرز، (أجابت هي) لكن لا تخف: لن أُلح فأنا شديدة الكبرياء. بالتأكيد أنفهم أسبابك، كما ستفهم أسبابي حينما أعرضها عليك. لكنني حتى الآن لا أستطيع. بالرغم من ذلك سوف أعطيك لمحة. الباقي يجب أن تقوله أنت، ومن ثم سنرى إذا كنت شديد الفطنة لسبر أغوار الحاضر مثلما فعلت مع خبايا القرن السابع عشر.

أثناء الحوار كان رواد الحانة الموجودون في البداية قد غادروا الكافيتريا وأخذ المكان يعج بزبائن جدد وصاخبين. نادى أنتوني على النادل، دفع وخرجا. كانت الريح قد هدأت وارتفعت الشمس في كبد السماء الصافية، وعم دفء يبشر بربيع مبكر. بدأت البراعم الأولى تظهر على فروع الأشجار.

بدون تبادل كلمة واحدة، سارا حتى البوابة الجانبية لحديقة القصر حيث توقفا بينما تبحث هي عن المفاتيح.

- من قبل (قالت باكيثا والباب موارب) قلت لك إني سأطلب منك معروفا. لعلك لم تنس.

- لا، تفضلي.

- هذا المساء، في الساعة، خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا لديه اجتماع حزبي في سينما أوروبا. أريد الذهاب وأن ترافقني. اصطحبنني من عند ناصية شارع سيرانو مع إير موسييا. سنأخذ تاكسي من هناك. هل أستطيع الاعتماد عليك؟

- من دواعي سروري

- سنرى. ولكنني على يقين من أن التجربة ستكون مفيدة بالنسبة لك. في السادسة. منضبط تماما كإنجليزي.

تراكمت على إسبانيا في عام 1936 كل المآسي والانكسارات التي خلفتها نكسات التاريخ وسوء حكم البلاد والضعيفة بين البشر، وبقيت معلقة بصورة مؤقتة بتوافق جماعي بين الأطراف المعنية حتى ساعة الصفر. كانت الكافيتريات الفاخرة بحي سلمنكة تعج بالزبائن المتأنقين، مثلما كانت حانات حي لابابيس القدرة تغص بالصعاليك والعوام، بينما غرق أنتوني وايتلاندر أثناء عودته إلى الفندق، في تأملاته في شتى الموضوعات. لأول مرة منذ مجيئه إلى مدريد كان يشعر بالسعادة من سير الأحداث. المحادثة الأخيرة مع باكيثا في ميتشجان، تطرقت لأمر محببة بالنسبة للإنجليزي، من وجهة نظره: كانت قد تخلت عن سلوكها العنيد والتحفظ الذي ساد اللقاءات السابقة، أما هو فقد تمكن من عرض وجهات نظره بدون ادعاء أو خجل، في الممثل بدون ارتكاب أي خطأ يستوجب الندم عليه الآن، وبدون ارتكاب أية حماقة على غرار المرات السابقة. مستقبل العلاقة بينهما مازال لا يمكن التنبؤ به، ولكنه على الأقل يمضي في مسارات طبيعية. يشهد على هذا التغيير في السلوك، الفرصة التي عرضتها عليه في نفس تلك الليلة: كانت بادرة على الثقة، وربما دعوة للمضي بالعلاقة إلى مستوى آخر، تصريح للدخول في منافسة مباشرة مع غريم، والذي سيكون من السذاجة عدم الاعتراف بتفوقه، ولكن ليس من المستحيل التغلب عليه بالحيلة والصبر. كل هذا،

في العمق، كان يأتي في المرتبة الثانية بالنسبة لاهتمامات أنتوني، نظرا لأهمية ما يشغله بشأن لوحة بيلاثكيث. كان هذا الموضوع يثير حماسه لدرجة أنه لم يكن يردعه عن التصرف كمختل في قلب الشارع سوى طبيعة شخصيته المتحفظة وتربيته الصارمة. كان يسير بخطى واسعة مطوحا بذراعيه، مطلقا بدون أن يدري تعبيرات وجمل أو كلمات متفرقة، تجذب انتباه المارة إليه. كان يتعجل الوصول للفندق، حيث كان يعتزم تدوين عاصفة الأفكار التي تموج برأسه، من ناحية لتنظيمها وبلورتها، ومن ناحية أخرى لتهدئة حماسه الزائد. مدفوعا بهذا الهدف، وبالرغم من أن الجوع كان يقرص أحشاه، فقد تجاهل الضجيج الصادر عن المطاعم والنزل التي كان يمر بها أثناء سيره المتعجل.

عندما لم يتبق أمامه سوى ما يقرب من مئة متر على بلوغ هدفه، سمع من خلفه صوتا يناديه، استددار والتقى وجهها لوجه بـ إينخينو ثامورا ثامورانو.

- ماذا! أنت مرة أخرى! مصادفات كثيرة أليس كذلك؟

انفجر إينخينو ثامورا ضاحكا وقال:

- سيادتك معك حق. لو كان عرضيا لكان أمرا عاديا تماما. ولكنه ليس كذلك، لأنني قادم من فندقك حيث ذهبت للبحث عنك منذ برهه، وقال لي السيد في الرسيبشن إنك غير موجود.

- يبدو ذلك. ولماذا جئت تبحث عني. إذا كان من الممكن أن أعرف؟

- ممكن، ممكن. خصوصا عندما أكون أنا شخصا من جئت أسأل عنك. الموضوع لا يقال في دقيقة على الماشي، لكن مع لقمة شهية وزجاجة بالدينياس⁽¹⁾.

1. نوع من النبيذ تشتهر به بلدة تحمل نفس الاسم بشمال غرب إسبانيا (المترجم)

- آسف، (قال أنتوني) اليوم ليس بوسعي تناول الطعام.

- أوه، يا سيدي، لم أعبّر بأسلوب لائق. الدعوة عندي.

- ليس الأمر كذلك. لدي عمل ويجب أن أعود حالا إلى الفندق.

ابتسم إيجينيو ثامورا بعينه وليس بوجهه.

- إذا كان لديك عمل فعلا، فلا تطأ قدمك الفندق. في المدخل كان

هناك شخص يبدو واضحا من مظهره أنه شرطي، وحينما سألت عنك

تفحصني من أعلى لأسفل. استتجت من ذلك إنه ينتظر سعادتك. ممكن؟

- ممكن.

- في هذه الحالة، دعه ينتظر وهيا بنا إلى الطعام. بمجرد أن ترد سيرته

يسيل لعابك. ومن ناحية الكتمان اطمئن: لن أسألك لماذا يراقبونك.

لم يضع أنتوني وقتا في التفكير: إذا كان من ينتظره في الفندق هو الكابتن

كوسكويويلا أو أي شخص من طرف الكولونيل مارانون، فمن الأفضل

ألا يظهر له أثر، لديه أمور كثيرة يريد إخفائها: إذا أخذوه مرة أخرى إلى

مقر إدارة الأمن العام، فعليه أن يتخلى عن مواعده مع باكيثا لحضور اجتماع

خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا.

- حسنا، فلنذهب إلى هناك، طالما سندفع مناصفة.

- ليست عادة إسبانية (قال الآخر) لكن حسنا.

ابتعدا عن الفندق، وبعد السير لبرهة، دخل إيجينيو ثامورا أحد نزل

الطعام يتبعه الإنجليزي. كان هناك كثير من الناس، بينما ساد صمت رهباني،

لم يكن يعكره سوى جلبة الأطباق. بتوجيه من النادل، صعدا إلى العلية

واحتلا منضدة شاغرة. سرعان ما غطت المائدة صحون ممتلئة بالملفوف،

الحمص، القديد، نقانق الشوريثو، بطاطس، نقانق المورثيا. قدمت لهما الحساء امرأة بدينة بمريلة مطبخ شديدة القذارة في أوعية فخارية بينما أحضر صبي النيذ. اغترف إيجينيو ثامورا من كل شيء، وبدون مقدمات أخذ يلتهم الطعام بشهية طيبة. ولما رأى أنتوني أن مضيفه قد انفصل عنه، فعل مثله. كانت أطيب الطعام لذيدة، أما النيذ فبالرغم من أنه لم يكن جيدا إلا أنه كان وفيرا، لدرجة أنها في منتصف الطعام كان الرجلان قد احمرت وجناتهما ولمعت عيونهما من الشعور بالشبع. تحين إيجينيو ثامورا هذه اللحظة ليترك الملاعق والشوك، ينظف شفثيه بعناية تنم عن تربية معينة وشرع في الكلام:

- في البداية، اسمح لي التأكيد على أي، إن كنت أقوم بذلك لأول مرة، فإن أيا مما سأقوله لك بعد ذلك مباشرة ليس بدافع أي غرض أو مصلحة شخصية.

أبدى أنتوني تفهمه بإيحاءة كسولة بينما تابع الآخر:

- سأحدث إليك بمنتهى الثقة. سيادتك، حسب ما أرى، من الممكن أن تكون لورداً أو ملك إنجلترا، لكنك أكثر عزلة وأكثر بأسا من طائفة استطلاع. لا تتضايق. أقول لك هذا كصديق.

- لم أتضايق، لكني لا أعرف إلى ماذا ترمي. وكيفما أكون، هذا شأن يخلصني.

- ربما في بلادك. أما هنا فكل شيء يعني الجميع. إذا فرح أحد ما نحتفل به، وفي الحزن نشاركه.

- وإن أراد أحد البقاء في حاله، وألا يتدخل أحد في شؤونه؟

- فقد أساء الفهم. انظر، سأوضح لك الأمور على طبيعتها: هذا البلد ليس فقيرا، مهما قالوا. هذا بلد فقراء، لا أدري إن كنت تدرك الفرق. في

البلد الفقير كل واحد يدبر حاله بما تيسر له. لكن ليس هنا. هنا ما معك مهم، لكن الأهم منه ما مع الجار أو ما لم يعد معه. لكن هذا ليس قصدي. ما أقصده وضعك الشخصي، وليس أموالك. وهذا هو ما يضجرك. يمكنك بمظهرك المهندم وسلوكك أن تخدع الجميع، ولكن ليس إنجنيو ثامورا ثامورانو. أنا عرفتك على حقيقتك. أقصد لا تونينا. لا تخف، لا أتحدث عن ابتزاز، سبق وأخبرتك ليس لي في هذه الأمور. علاوة على أنك لم تفعل شيئاً خاطئاً، بالعكس. غرضي هو تلك الأسرة الفقيرة: لا خوستا، لا تونينا، وهذه المخلوقة المسكينة، بلا أب، ثمرة الخطيئة. أنت سمعت ما قالته لا خوستا: وحيدتان في العالم. الآن البنت جاهزة، نظيفة، محتشمة، ولا يوجد من عينتها الكثير، بالإضافة إلى أنها ليست ساذجة. ينتظرها مستقبل مثير، إن لم يصلحه أحد. أما سيادتك، فبالعكس، مستقبلك معروف، لكن الحاضر هو المؤسف. الحظ شاء أن يتلاقى طريقكما. رأيت ما كنت أقصده؟ أنتوني، الذي ظل حتى تلك اللحظة يستمع بشرود وبدون توقف عن الطعام، وضع أدوات المائدة بشكل متقاطع، نظر بحدة لرفيقه وقال:

- هل تعرض الفتاة للبيع عليّ، سيد ثامورا؟

شرب الآخر جرعة نبيذ، ترك الكوب على المائدة ورفع ناظريه إلى السماء وبتعبير يائس صادر عن محاول توضيح شيء بسيط لطفل ساذج.

- آه! (صاح) بيع وشراء! كما لو أنه لم يعد هناك شيء آخر في الكون غير البيع والشراء. أنتم تنظرون لكل شيء بعقلية التجار. تناقشنا من قبل حول من سيدفع الطعام والآن هذا. لا يا سيدي، لا تونينا ليست للبيع. إنها ليست من إياهم. لو كان والدها على قيد الحياة، لكان من المستحيل أن تقرب هذه المهنة. لكانت درست، وأصبحت أنسة، وربما ارتادت الجامعة. ولكن الرجل المسكين، كانت نهايته سيئة بسبب قضية نبيلة، والمجتمع تخلى

عن الاثنتين. اضطرتا لعمل أي شيء حتى لا تموتا من الجوع. هل يجعل هذا الفقيرة المسكينة بضاعة درجة ثانية؟

- أنا لم أقل شيئا كهذا. حضرتك قلت كل شيء.

- وسيادتك لم تفهم شيئا، (أجاب إينجينو تامورا بعدوبة، ترقى إلى التودد) هذه هي المشكلة. ليست مشكلتنا، سيادتك وأنا، بل مشكلة إسبانيا والعالم: إنكم لا تفهمون البروليتاريا. ترونها جاهلة، سليطة اللسان، سيئة الأدب ورثة الثياب، وتفكرون: «يارب عافنا». تفرعون إذا ما طلبت البروليتاريا شيئا، إذا طالبت بحق أو تحسين راتب. «فهؤلاء جاءوا ليجردوني من ثيابي». وهناك بعض الحقيقة في ذلك. لكن البروليتاريا، لا تريد مالا فحسب. تريد العدل والاحترام. وطالما أنكم لا تفهمون ذلك، فلن يكون هناك وفاق أو سلم اجتماعي، وسيتصاعد العنف. وها أنت ترى ما يحدث، في مدريد وباقي أنحاء البلاد: أحرق العمال عدة كنائس. وأنا لا أقبل هذا، ولكن قل لي: من بناها؟

توقف لبرهة ليشرب كأس نبيذ آخر، ثم يواصل بنفس النبرة التربوية:

- لو ثار العامل بدلا من أن يسأل نفسه، لماذا يرسلونه إلى الشرطة؛ وإذا لم يكن ذلك كافيا، إلى الحرس المدني، وإن كان على وجه الدقة، إلى الفيلق؟ مع هذه الحجج لا داعي لوجود أسباب. هل تذكر ما حدث في أستورياس؟ لكن العيب في البروليتاريا، ولكن هذا ليس كل شيء. انظر حولك، استمع لصوت الشعب: تعتقد أن الثمرة نضجت وتدرك أنه لم تعد هناك ثمة فرصة ثانية، وأن الثورة سوف تندلع. حينما جاءت الجمهورية، قال الجميع: أخيرا، انتهى الظلم. كان هذا منذ سنوات، اليوم كل شيء ما يزال على حاله: الأغنياء مايزالون أغنياء، والفقراء مايزالون فقراء، ومن يفتح فمه، فالعصا لمن عصى. إما أن تستولي البروليتاريا على الثروة والسلطة بالقوة، وإلا فلن يجدي أي

تغيير نفعاً. بالتأكيد رأيت ما حدث في روسيا. هل ذلك اللجنة على الأرض؟
لا تعرف ماذا تقول، لكن على الأقل في روسيا انتهى العيب.

سكت مرة أخرى، نظر حوله ليرى إن كان خطابه الحماسي أثار أي رد فعل، وحينما رأى أن النزلاء على الطاولات المجاورة مازالوا يتناولون طعامهم بلا مبالاة، انقضض على ما تبقى من طعامه بالوحشية التي لم يستخدمها في خطبته العصماء. انتهز الإنجليزي الفرصة لكي يتدخل.

- والثورة البلشفية لن تقوم إذا أويت لا تونينا؟

- كم أنت مرح! (رد إينجينيو ثامورا متألماً من تلميحات الإنجليزي، إلا أنه قرر عدم تعكير صفو مزاجه) أرى أن سيادتكم لم تفهمني. ليس فقط حين كلمتك عن الوضع، ولكن عندما حدثتكم عن الأمر الآخر. أنظر يا سيدي، من المؤكد أنه لا شيء سيوقف عجلة التاريخ، وإزاء ذلك لا أنت ولا أنا نستطيع فعل شيء. ما يمكننا فعلاً هو حل مشكلة هذه الفتاة المسكينة. سأكون صريحاً معك: إنها الشيء الوحيد الذي أحمل همه ولا أدري ماذا أفعل. القلق يقتلني. تعهدت برعاية تلك الأسرة ولم أفلح في شيء. في نهاية المطاف، لا خوستا، عاشت حياتها. ولكن هذه المخلوقة، حبا في الله، لم تعرف سوى الذل والحرمان.

ارتعش صوته واغرورقت عيناه بالدموع. بسبب الشبه البعيد بينه وبين لوحة منيبو لبيلاثكيث، نسب إليه أنتوني بصورة تعسفية الصفات الفكرية للفيلسوف الأسطوري القديم، والآن، وأمام هذه الثورة العاطفية المفاجئة، بدأ يشعر بالضيق بسبب ما أعرب عنه منذ قليل، عندما اتهمه الآخر بالاستهانة بانتصار البلاشفة.

- تمالك نفسك (قال بصوت خفيض) قد يسمعك أحد.

- لا يهمني. لا يسجنون أحدا بسبب البكاء. ومعدرة على شطحاتي، ولكن حين أفكر في المسكينة البائسة... الحياة التي تعيشها لا يمكن وصفها. وغني عن القول المستقبل الذي ينتظرها.

- يا رجل، ربما ينصلح الحال إذا قامت الثورة.

- هه... ها أنت قلت تقوم الثورة وليس تنتصر. بالعكس: على الوضع الحالي مع أول إشارة للثورة سيخرجون المدافع للشوارع. وإذا فاز هؤلاء، فسيصير كل شيء أسوأ. وهذا ما يزيد مخاوفي.

نظر أنتوني في ساعته خلسة. كانا قد انتهيا من الطعام، ويجب عليه أن يسرع إذا أراد أن يمر على الفندق ويصل إلى الموعد.

- أنا مقدر إحباطك (قال بنبرة مواساة) ولكن الحل الذي تبحث عنه ليس في يدي. أنا أجنبي، وجودي عابر، وخلال بضعة أيام سأعود إلى بلادي.

كف إنجينيو ثامورا عن التجهم ونظر إلى الإنجليزي باهتمام من جديد.

- (قال بحماس) بالنسبة للتفاصيل سنعتني بها في الوقت المناسب. أعني أن مسألة رحيلك ليست عقبة، بالعكس. إخراجها من البلاد سيكون عملا عظيما. البنت في إنجلترا ستكون مثل سمكة في الماء. عندها مؤهلات آنسة، علاوة على أنها مجدة، أمينة، وممتنة جدا. لا تنسى المعروف أبدا. حسنا أعلم (أضاف بحدة، كما لو أن هذا الجانب يقلقه أكثر من حيرة محدثه) أن هذه الخطة تتناقض مع مبادئ الماركسية. الفرد من البروليتاريا، لا يجب عليه البحث عن الخلاص الفردي، بل إنقاذ طبقته. ولكنني مقتنع بأنه لو كان ماركس قد عرف الفتاة، لعمل استثناء. أما الطفل، فتصور سيادتك، مع نشأته في إنجلترا، ومع الشجاعة الإسبانية الأصيلة، من الممكن أن يصبح ضابطا في الجيش البريطاني في الهند.

كان ذلك حوار طرشان. وكان أنتوني قد تربى على الاحترام التام لأي شخص، مهما كان أصله ووضع الاجتماعي، إلا أن هذه التربية ذاتها كانت تقوم على مفهوم راسخ التراتبية الاجتماعية، ولهذا لم تبد له ادعاءات محدثه عبثية فحسب بل إنها لا تغتفر. من وجهة نظر أنتوني كان خطاب إنجينيو ثامورا مجرد هذيان. ولكن وبما أن الشخص يتحلى بطيبته المعهودة، ولم تنم خططه عن أية مصلحة شخصية، بل عن سخاء متهور، فضل عدم الاكتراث كثيرا لكلامه. ففكر أنه ربما كان ذلك الشخص المسكين يحتاج لينفس عن نفسه. المهم الآن هو إنهاء حديث المائدة، وهذا يمكن تحقيقه فقط من خلال تبني موقف متعاطف وموافقة مبهمة مع موقف الآخر.

- تأكد من أنني سوف أفكر في طريقة فعالة لتحقيق رغباتك دون التأثير على موقعي. (قال) لكنني الآن يجب أن أرحل على الفور. كما أنني أعدت النظر فيما اتفقنا عليه سابقاً: أنا سأدفع.

هذه المناورة الأخيرة، الرامية إلى ترضية إنجينيو ثامورا بصورة إيجابية، جاءت بنتائج عكسية تماماً. رفض الدعوة وأصر على الدفع، بصورة أكبر من جرأته في طلب المعروف بصورة مباشرة والإلحاح في الحصول على رد إيجابي. إدراكاً منه لخطورة المزيد من التعقيدات، قبل أنتوني الدعوة وبدون انتظار؛ نهض وصافحه وانصرف مسرعاً من المكان. وبمجرد أن خرج للشارع توجه إلى الفندق على عجل بقدر ما سمح له الهضم الثقيل. على مسافة معقولة من الهدف، توقف وتابع سيره بحذر تحسباً لأن يكون الشخص الذي وصفه إنجينيو ثامورا بعد لقائهما، مازال يترقب. في النهاية وحين لم يلحظ وجود أي شخص مثير للشبهات حول الفندق، قطع المسافة المتبقية مهرولاً، طلب المفتاح من موظف الاستقبال وأغلق على نفسه الحجره.

ساد جو ملائم للعمل: كانت المدفئة تشع حرارة لذيدة، بينما تسللت

من النافذة أشعة ضعيفة لشمس شاحبة هزيلة. أخرج أنتوني مفكرته وقلم
الحبر، وجلس إلى المنضدة وشرع في تناول الملاحظات المؤجلة بسبب اللقاء
والطعام، ولكن ما إن أسند مرفقيه إلى المنضدة، أراح رأسه وراح في النوم.
بدون أن يدرك أنه نائم، حلم بأصوات جوقة ضخمة تأتي من الشارع مرددة
«نشيد الأمية، لا إنترناسيونال». تبدت من النافذة سماء حمراء تهبط منها
أعمدة كثيفة من الدخان الأسود. كان واضحا أن الثورة قد اندلعت، ومن ثم
أصبحت حياته في خطر جسيم. تماشيا مع منطق الأحلام القاسي، وجد نفسه
منجرفا في دوامة الأحداث. فكر، ليس أمامي سبيل للهرب، سيجبروني على
ارتداء أسمال بالية، إطلاق لحيتي والهتاف: السلطة المطلقة للسوفيات! كانت
هذه الفكرة تصيبه بالاختناق: كان يتصبب عرقا وشعر بأحشائه تشتعل، كان
يريد أن يلوذ بالفرار، ولكن عضلاته كانت تأبى الاستجابة للأوامر التي
يصدرها العقل. استيقظ بالبقية الباقية من القلق ومن الرعب لأن يكون قد
غرق في النوم وفاته موعد اللقاء. هدأته الساعة لوهلة بالنسبة للأمر الثاني.
مرة أخرى قام بحفظ المفكرة والقلم الحبر، رش وجهه وشعره بالماء، ليستعيد
قليلا مظهره الخارجي، ارتدى المعطف والقبعة وخرج على وجه السرعة من
حجرة الفندق. كان المشاعلي ينير مصابيح الميدان.

بينما كان يعدو صوب مكان اللقاء، تذكر تفاصيل الكابوس وفكر في
النبوءات التي أطلقها إنجينييو ثامورا أثناء الغداء، أدهشته أكثر من حينها،
حينها كان مشغول البال بالعرض الجنوني، أتاحت له الفرصة لكي يعترف.
ربما أسير على حافة الهاوية، قال لنفسه.

كانت نذر الشر ماتزال تثقل كاهل أنتوني عندما وصل لاهثا إلى الناصية المتفق عليها. كانت باكيثا في انتظاره عند شارع إيرموسيا واقفة إلى جوار تاكسي. رفعت ياقات المعطف واعتمرت قبعة بنفسجية أنيقة مسدلة حتى حاجبيها، لا لتحتمي من البرد بل كي لا يتعرف عليها أحد. حين رأت الإنجليزي أخرجت يدها من كم معطف الفيزون، أومأت إليه، وبدون أن تنتظره، ركبت التاكسي. تبعها وأغلق باب السيارة. انطلق التاكسي وتجولوا لبرهة وسط صمت مريب يليق بمن يعتزمون ارتكاب جريمة.

في الضوء الكابي للمساء الشتوي الكئيب، قطعوا شارع برابو موريو من شارع كواترو كامينوس. مع اقترابهم من وجهتهم أخذوا يلتقون بمجموعات من المارة أكثر عددا، متجهة أيضا إلى مكان الاجتماع، كانوا يحتلون الرصيف وبدأوا يغزون جادة الطريق. أخذ التاكسي يتقدم ببطء متزايد، وكثيرا ما كان يضطر لضغط مكابح السيارة لأن هيئة المارة لا تنصح باستعمال آلة التنبيه. في النهاية قال سائق التاكسي إنه لا يجرؤ على الاستمرار. قال بكل أسلوب إنه ليس من هؤلاء. دفع أنتوني وترجل هو وباكيثا ليكملا على الأقدام. بسبب تزايد حجم الحشود، تشبث باكيثا بقوة بذراع الإنجليزي.

- لن نزع بأنفسنا في مصيدة فئران؟ (تساءل أنتوني).

- لا تكن جبانا، (قالت باكيثا) فات أوان الندم. هل أنت مفزوع؟

- أنا خائف على حضرتك.

- بوسعي الدفاع عن نفسي بنفسي.

- هذه كلام بلا معنى، هذا مكان عام، (أجاب أنتوني، مستشعرا من داخله بالإهانة لمعاملته كجبان) علاوة على أي في كل الاحتمالات بأمان: أنا رعية بريطاني.

ضحكت باكيئا بصوت خفيض.

- الشرطة حظرت الاجتماع، (قالت) نحن نخرق القانون.

- أزعم أي خدعت.

- هل تستطيع؟ (قالت هي، نصف جادة نصف مازحة).

برغم الدلال، لم يستوعب أنتوني الأمر برمته. نظر خلصة يمينا ويسارا مفتشا عن الشرطة، ولكن حتى مع قامته الفارعة، لم يلمح أي شرطي. فكر أنه ربما وجود قوات حفظ النظام قد يكون له أثر عكسي، وربما ينتظرون أن يتمكنوا من محاصرتنا جميعا ليطحنوننا بالهراوات. لكن، إذا لم تأت الشرطة وهاجمتنا مجموعات أخرى، من سيعيد حفظ النظام؟ بعد طول تفكير خمن أنه يجب أن تكون هناك قوة متخفية في الجوار ومتأهبة للتدخل مع أدنى بادرة على العنف. طمأنته هذه الاحتمالية وأقلقته سواء بسواء.

كانت السينما تشغل مبنى من ثلاثة طوابق بالكامل. اكتست اللوحات الإعلانية الضخمة في الواجهة بستائر سوداء، ظهرت عليها أسماء الفلانخي القتلى في مواجهات الشوارع أو في كمان. قرأ أنتوني بقلق القائمة الجنازوية وتخلّى عنه ما تبقى له من روح الدعابة. كانت أبواب السينما مفتوحة على مصاريعها واحتشد الناس في طوابير طويلة للدخول تحت حراسة مشددة من جانب بعض الشباب بقمصان زرقاء، كانوا يحاولون اكتشاف عملاء

معرضين محتملين اندسوا بين الحضور. سار كل شيء بنظام شديد وهدوء. وقف أنتوني وباكيثا في الصف ودخلا البهو. هناك كان يتم توزيع الجمهور على المداخل أو السلالم المؤدية إلى الأدوار العليا. حين كانا متحيرين بسبب التدافع من عدة اتجاهات، اقترب منهما رجل ضخم، أسمر، بشعر مرجل وشوارب رفيعة. شيثان منحاه تميزا لا يقبل الجدل، قميصه الجينز الأزرق الذي كان مشغولا عليه باللون الأحمر العصبة والأسهم⁽¹⁾، ومسدس معلق في حزامه. ومع ذلك، لم يتمكن سلوكه المتسلط من إخفاء توتر مرضي. بدون حتى أن ينظر إلى الإنجليزي، توجه إلى باكيثا بتعبير قلق.

- لم نجبرنا أحد بقدمك. (قال).

- أعلم ذلك. أنا متخفية (أجابت هي) جئت مرافقة لمراقب دولي.

تفحص الضخم أنتوني بارتياح. بدلا من اندهاشه من كذبة باكيثا، اتخذ أنتوني هيئة صارمة، تكاد تكون متغطرة. أشاح الآخر بنظره وقال:

- هيا معي. سأخذكما إلى بلكون.

- لا، (قالت باكيثا بتسرع) لا يجب أن يعرف أنني هنا. سنجلس حيثما اتفق. لا تقل له على وجه الخصوص شيئا.

- حسنا. كما يجلو لكما. هناك مقاعد خالية على جانبي الصالة. لكن لا تضيعا الوقت، لأن المكان سيزدحم.

عثرا على مقعدين متجاورين في نهاية أحد الصفوف، ليسا بعيدين عن أحد مخارج الطوارئ. أرضى أنتوني الذي كان يبحث بقلق عن سبيل للخروج بسرعة من هناك عندما يبدأ الهرج والمرج، بدون أن يخسر كرامته في

1. شعار الفلانخي. (المترجم)

عيون مرافقته. في هذا السياق، كان الموقف يتأزم في لحظات: حجم الجمهور يفوق القدرة الاستيعابية للمكان؛ كان هناك أناس واقفون في الممرات وجميع المساحات الخالية، أما البلكونات والمقصورات فكانت ممتلئة عن آخرها.

وسط المسرح كانت هناك طاولة طويلة مغطاة بمفرش أسود. شكّل بهو المقاعد، المواجه للمسرح، صفا من القمصان الزرقاء بأعلام الفلانخي. بمرور الوقت كانت سخونة الجو تتزايد. في النهاية، وبعد عشرين دقيقة تأخير عن الموعد المعلن، تعالى صياح من مدخل المسرح صدر عن ثلاثة متحدثين. تعرف أنتوني على رايموندو فرناندث كويستا ورفائيل سانثيث ماثاس، ولكن لم يتعرف على الثالث، شخص طويل، رياضي وأصلع، وعندما سأل الإنجليزي باكيثا تعرفت فيه على خوليو رويث آلادا، الطيار الأسطوري الذي عبر الأطلنطي قبل عشر سنوات بطائرة برمائية، وأحد مؤسسي الفلانخي. في تلك الأثناء، جلس المتحدثون الثلاثة إلى الطاولة وانتظروا أن يحل الصمت. بعد برهة، نهض فرناندث كويستا، تناول الميكروفون وهتف: صمت! توقف الصياح على الفور وشرع فرناندث كويستا نفسه في الكلام.

- كما تعلمون جميعا (استهل حديثه) سبب هذه الدعوة هو تقييم ما حدث في الانتخابات العامة الأخيرة. فازت الجبهة الشعبية: خطوة أخرى لدفع إسبانيا نحو أحضان الماركسية. ولكن (أضاف بلفتة حاسمة أسكتت احتجاجات الجماهير) لو فاز تحالف اليمين بدلا من تحالف اليسار، لكانت المحصلة النهائية واحدة، لأن الانتخابات تمثيلية مؤسفة الغرض منها شرعة البقاء في السلطة لحفنة من الكسالى الفاسدين والخونة للوطن.

- هذا الرجل سيتسبب في اعتقالنا جميعا (همس أنتوني في أذن باكيثا).

- لا تفقد أعصابك، (أجابت هي) لقد بدأ للتو ليس أكثر.

- لهذا السبب، (تابع المتحدث) الفلانخي لم تشارك في الانتخابات مع أي تكتل أو آخر. بل دخلت منفردة، مع علمها بأنها ستخسر، لأنه لا يعنيه أن تخسر في لعبة لم تؤمن بها مطلقا. دخلنا الانتخابات من أجل الدعاية، ليس أكثر. (قام بوقفه دراماتيكية ثم أضاف خافضا صوته) ولكن هذا الجهد أيضا لم يكن مشمرا، لأن من يفهموننا يبغضوننا، ومن يجب أن يحبونا لا يفهموننا. لأننا لسنا من اليسار أو من اليمين. من اليسار لدينا زخم التحولات، ومن اليمين الحس القومي، ولكن ليس لدينا كراهية أحدهما وأناية الآخر.

هذه المتناقضات جعلت غالبية المستمعين بمن فيهم الخطيب نفسه يفقدون خيط الحديث، الذي تابع بنفس النبرة الانفعالية، ولكن بمحتوى ملتبس. لم يكن الجمهور يريد أن يفقد حماسه، ولكن مظاهر الحماس فقدت تلقائياتها بالتدرج. لبرهة ظل فرناندث كويستا يخطب، يغلب على صوته وحركاته الحماس الشديد، وانتهى صارخا «إلى الأمام يا إسبانيا!» وتفاعل الجمهور باحتفاء بالغ مع هذه الصيحة.

ثم أخذ الكلمة رفائيل سانثيث ماثاس. على عكس الخطيب السابق، كان صوته ضعيفا ويتحدث بنبرة مملّة لواعظ محبط من عدم جدوى موعظته، مع ذلك كانت أفكاره أكثر ترابطا. فكر أنتوني أنه لا يسعى لإشعال حماس الجماهير، بل إقناعهم، ومن ثم نال تعاطفه، على الرغم من أن الغاية بدت له مضللة، نظرا لأن الجميع هنا، باستثناءه، كانوا مقتنعين بشدة بالأيدولوجية التي يشرحها لهم.

- عندما أعلنت الفلانخي أنها ستدخل الانتخابات منفردة؛ (قال سانثيث ماثاس) قال البعض إننا قلة قليلة ولا نملك مليما، ولا حتى شجرة نشق أنفسنا عليها. لم يقل أحد، هذا لم يحدث، إنه ليس لدينا مكان نسقط فيه قتلى، لأن الفلانخي يتساقطون قتلى في كل مكان. إننا فقراء، بالعكس، هذه

حقيقة. الفقر هو سر قوة الفلانخي، ولأنها فقيرة، تتفهم الفلانخي وتدافع عن حقوق الفقير، الفلاح الصغير، عامل المناجم، الجندي، وقس الضيعة. نريد أن نكون المدافعين عن حقوق الشعب، وليس حرسا امبراطوريا لكبار مضاربي البنوك والشركات الكبرى. يقول الاشتراكيون إنهم سيرفعون الأجور، وإن معهم ستكون المعيشة أفضل. ربما نعم وربما لا. الأمر الوحيد المؤكد هو أنهم لا يكثرثون لإسبانيا على الإطلاق. حسنا، إزاء هذه الأغراض الدنيئة، تدعو لأمر مغاير، وحدة المصير وأفكار عظيمة تحررية. عدالة لا تخضع لتأثيرات، عدالة محضة، هذا هو ما نريد من أجل الوصول إلى نهضة إسبانيا!

حظي سانثيث ماثاس بتصفيق حاد عندما كف عن الحديث، لكن الحماس الأولي بدأ يجبو. بكل تأكيد كانوا قد سمعوا نفس الرسالة مرات عديدة طوال الحملة الانتخابية.

بفضل ما عُرف عنه من حيوية خالية من أي تكلف، ونبل شجاعته كعسكري من نافارا؛ نجح خوليو رويث آlada الذي تحدث بعد ذلك في انتزاع التصفيق والتهنئات. لا يمكن تصور، قال: «أن تبرح إسبانيا ما اعتراها من وهن بالوسائل الديمقراطية. لهذا فإن الفلانخي على استعداد لاقتحام السلطة بكل السبل، الشرعية وغير الشرعية. بهذه الطريقة وحدها، (أكد بكل حسم) في غضون بضع سنوات، اثنين، ثلاثة، أربعة، على الأكثر سيحصل لإسبانيا على الاتحادية الوطنية⁽¹⁾ التي ستجعل وطننا عظيما».

ترددت بعض التصفيقات والتهنئات. نظر أنتوني في ساعته: كانت قد تجاوزت الثامنة والنصف وبدون أدنى شك شارف الاجتماع على نهايته. ولما كان الجميع يرتدون ملابس ثقيلة بسبب البرد في الشارع والمكان ممتلئ عن

1. المرجعية الأساسية هيكل منظومة الفلانخي عن شكل الدولة وأساس الحكم، وقد تم اعتماد الفكرة خلال الدكتوراة الفرنكوية. (1939 - 1975) (المترجم)

آخره، كان الحر خانقا. أصيب أنتوني بالإحباط إلى حد ما، إلا أنه من داخله كان يشعر بالرضا: فلم يكن حتى ذلك الوقت قد حضر أيا من فعاليات الفاشيين، والآن يرى، بصرف النظر عن المبالغاة الشكلية، أن خطابهم لم يكن مضللا إلى هذا الحد كما اعتاد أن يسمع حتى الآن. كان يُقال، لو لم تتغير الأمور، لسار كل شيء على ما يرام. جعلته حركة بين الجماهير يعتقد أن الحاضرين يستعدون لمغادرة المكان بشكل منظم. لكن في تلك اللحظة، تناول رايموندو فرناندث كويستا الميكروفون مرة أخرى وقال بصوت جهوري:

- انتباه! الزعيم الوطني!

وكان زلزالا هزّ أركان سينما أوروبا عندما صعد خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا المسرح. وقف الجمهور بالكامل وأدوا التحية رافعين سواعدهم. مأخوذا بالنبض الجماهيري وقف أنتوني أيضا، لكنه امتنع عن رفع ذراعه. جلده صوت جهوري من الصف الخلفي:

- ماذا هناك، أَلن تؤدي التحية؟

- ليس مسموحا لي (أجاب أنتوني مستديرا إلى الخلف فيما شدد على لكنته الإنجليزية).

يبدو أن هذا التفسير أرضى محدثه. استدار أنتوني مرة أخرى ونظر إلى باكيثا، لكن في تلك اللحظة كانت جميع الأذرع قد أخفضت، وجلست الجماهير في صمت متحفز، ومن ثم لم يتمكن من التأكد إذا كانت هي أيضا قد خالفت السلوك العام. في تلك الأثناء وصل خوسيه أنطونيو إلى الطاولة وأخذ يوزع الأعناق والمصافحات على الخطباء، ثم تصدر الطاولة، وبدون أن يجلس وبلا أية مقدمات دخل في صلب الموضوع قائلا:

- الذين سبقوني بالكلام أخبروكم، حسبما يقتضي الأمر، عن أسباب

اجتماعنا. الأمر ليس به أية تعقيدات. الجبهة الشعبية فازت بالانتخابات. إسبانيا ماتت. تحيا روسيا!

قوبل هذا التصريح المقتضب بهدير حاد. في لحظة استعاد الجمهور حالة الفوران. وعلى الرغم من عدم تعاطف أنتوني مع المسار غير المتوقع للأحداث، لم يتخل عن تقديره البارد للظروف الاستثنائية التي قادته لها ضربات القدر. الأسبوع الماضي لم تكن لديه معلومات عن وضع إسبانيا الحالي، الذي كان حريا بالصحف البريطانية أن تمد قراءها بها؛ لدرجة أنه لم يكن قد سمع بالفلانخي أو خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا. على العكس الآن، لا يعرف الحزب، وأيديولوجيته وكبار قياداته فحسب، لم يحظ بمعرفة بل وصداقة مؤسسه والزعيم الوطني فقط، ولم يجلب على نفسه بسبب قضيته ملاحقة إدارة الأمن العام فحسب، بل دخل بالفعل، في منافسة مع خوسيه أنطونيو لنيل عاطفة فتاة شابة وأرستقراطية مدريدية فاتنة، تجلس في نفس تلك اللحظة إلى جواره، مشدودة الظهر تتابع بأنفاس مبهورة كلمات الرجل الفريد، المهيب والذي لا نظير له، يعلن بكل وضوح وعلى الملأ ضرورة وحمية القيام بانقلاب. بطبيعة الحال، على النقيض من اللحظات الحماسية التي يعيشها، كان أنتوني الأسبوع الماضي ينعم بعيشة هانئة في لندن، أما الآن فإنه يقامر بحياته في مؤتمر فاشي.

- وهل يعتقد أحد بحسن نية (تابع خوسيه أنطونيو بعد استعادة الهدوء) أن مشكلات مجتمعنا يمكن تسويتها بدعوة المواطنين كل عامين لإيداع بضع بطاقات في صناديق الاقتراع؟ فلنتوقف عن لعب دور البلهاء! في الرابع عشر من أبريل 1931، بفوز الجمهورية على الملكية، لم تنهر فقط صيغة الحكم، بل القاعدة الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية التي كانت ترسخ تلك الصيغة للحكم. هذا الأمر يعرفه جيدا آثانيا وأتباعه. مشروعه لا يكمن في إحلال

الجمهورية البرجوازية محل الملكية الليبرالية، بل إحلال دولة محطمة بأخرى. ما هي الدولة الجديدة التي تنتظرنا؟ واحدة من اثنين: إما دولة اشتراكية تفرض الثورة التي لا تزال متفوقة إلى الآن، أو دولة شمولية تنجز السلم الداخلي من خلال تبني مصالح الآخرين...

فكر أنتوني بينما التصفيق والتهنئات لخوسيه أنطونيو والفلانخي وللجنرال بريمو دي ريبيرا تقاطع الخطاب بشكل متلاحق، ربما يود الآن أن يحل محلي؛ يترك المنصة ليكون مكاني، جالسا إلى جوار باكيثا، ليستمع إلى هراء أحق مهووس بالبلاغة. ماذا يريد هذا الرجل؟ هل يعتقد حقا أن ما يقوله ويفعله يبهرها؟ وهي؟ ماذا تعتقد؟ ولماذا جعلتني أحضر؟ لتظهر يا أفضل ما لدى خوسيه أنطونيو أم أسوأ ما فيه؟ وما أهمية حكمي؟

- فلنكف عن خداع أنفسنا ونتوقف عن تأجيل عمل اليوم إلى الغد (تابع خوسيه أنطونيو بحماس أكبر) ليس أمامنا واجب آخر سوى المضي قدما نحو الحرب الأهلية وما لها من تبعات. لا توجد حلول وسط: إسبانيا يجب أن تكون إما حمراء أو زرقاء! وتأكدوا من أنه إزاء هذه الشائبة فريقنا سيخرج فائزا. حينئذ سنرى كم المهرولين لارتداء القمصان الزرقاء. لكن في البداية، الأوقات الأكثر صعوبة، سيكون لها رائحة البارود ودوي الرصاص... ولكن ستنتب لهم في ظهورهم أجنحة إمبراطورية!

لم يعد بوسعه قول المزيد: وقف الجمع عن بكرة أبيهم مجددا، رفعوا أذرعهم وعلت حناجرهم بنشيد «لنواجه الشمس»⁽¹⁾.

- هيا بنا (قالت باكيثا جاذبة أنتوني من ذراعه).

1. نشيد الفلانخي، كتب عام 1935 لتمجيد زعيم الحركة خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا، وظل معتمدا طوال عهد فرانكو كنشيد للفاشية. لحنه كلا من خوان تيريرا و خوان ر. بوينديا (المترجم)

- وإلا فلا. الجميع واقفون ووسط هذا الهرج لن يلحظوا شيئا.

كانت باكيثا على حق: خرجا تحت غابة الأذرع المشرعة من باب جانبي إلى الممر، ثم وصلا إلى البهو، ارتديا معاطفهما وقطعا الشارع دون أن يعترضهما أحد. كان المساء قد هبط وبات الشارع خاليا على نحو غير معتاد، كما أن المواصلات مقطوعة. أخذت رياح باردة تطوح بالمنشورات التي تستخدم في الاجتماعات. بينما تخيل الإنجليزي أن كل ظل هو عدو متربص.

- يتتابني شعور سيئ حيال هذا الهدوء (قال) فلنبحث عن تاكسي ونرحل من هنا بأسرع ما يمكن.

من المبنى الذي غادره توا كانت آخر مقاطع النشيد تصل متواترة تتبعها صيحات قتالية. أثناء مرورهما بشارع برابو موريو رأوا مجموعة كبيرة من العمال بوجوه مكفهرة وتعبير عدائي قادمة من الاتجاه المعاكس. التصقت باكيثا برفيقها وأراحت رأسها على كتف الإنجليزي. فهم هو المناورة ومضى الاثنان في طريقهما كزوج من العشاق اللاهين. ابتلعها طوفان البشر، وتركها خلفه بدون حتى أن يمسهما. عندما تحررا من الخطر انفصلا وأسرع الخطى. عند كواترو كامينوس، كانت هناك قوة من مكافحة الشغب تقوم بتحويل مسار السيارات. وبما أنه لم يكن هناك أية سيارة أجرة على مرمى البصر، دلفا إلى محطة تطوان واستقلا المترو إلى ريوس روساس؛ وخرجا من هناك حيث ركبا تاكسي. أعطاه أنتوني عنوان قصر لا كاستيانا. عندما انطلقت السيارة، استرخت باكيثا في المقعد الخلفي وتنهدت ثم قالت:

- حسنا، ها قد رأيت. أخبرني رأيك بصراحة.

- بصراحة؟ إن صديق حضرتك مجنون (أجاب الإنجليزي).

ابتسمت باكيता بأسى وانطوت لوهلة على نفسها قبل أن تجيب بصوت
واهن:

- لستُ أنا من سيحمله على تغيير رأيه، وبالرغم من ذلك، تربطني به
مشاعر أقوى من المنطق لا فكاك منها. مصائرنا مرتبطة في السراء والضراء.
لا تأخذ كلامي بمعناه الحرفي: هذا التصريح لم يكن له مردود عملي ولن
يكون. القدر المأسوي أراد لمصائرنا أن تسير بشكل متوازٍ بدون أن تلتقي
مطلقاً. فيما عدا ذلك، المشاعر لم تعمني. أدرك تماماً أن أيديولوجية خوسيه
أنطونيو غير متماسكة، الحزب ليس له برنامج أو قاعدة اجتماعية، أما فصاحته
الشهيرة فتكمن في الحديث بعذوبة دون أن يقول شيئاً محمداً. بخصوص
الآخرين، رويث دي آلادا، مجرد رمز؛ رايمونديو فرناندث كويستا، كاتب
عدل بدون أية كفاءة سياسية، أما رفائيل سانثيث ماثاس فهو مثقف، وليس
رجل أفعال. لا يملك أي منهم القدرة على التأثير أو الحس الاستراتيجي
الضروريين لقيادة حركة ثورية. خوسيه أنطونيو يمتلك هذه المقومات، إلا
أنه يأبى استخدامها. كان ليرحل لو لم يكن الوقت قد تأخر بالفعل: لقد
أريقته بالفعل الكثير من الدماء وفات أوان التراجع. والمضي قدما ضرب
من الجنون. إذا تمكنت الفلانخي، في أبعد الاحتمالات من الوصول إلى
السلطة التي تتطلع إليها، فإن مصير خوسيه أنطونيو لن يتغير: في أفضل
الأحوال، سيتم استخدامه، أما في أسوأها، فسيقضي عليه أعوانه شخصياً.

أدرك أتتوني أنه لو قال شيئاً فستصمت هي، ولكنه إن صمت، فلن
يكون بوسعه إيقاف تدفق شلال الأسرار، فلزم الصمت، وبدورها أضافت
باكيता بدون توقف:

- ستسأل نفسك لماذا أحكي لك هذه الأمور، لماذا جعلتك تحضر
الاجتماع، لماذا أتق في حضرتك. في المقام الأول، أفعل ذلك لأنك سرعان

ما متصل إلى لحظة اتخاذ قرار حاسم، وأود أن تحصل على العناصر اللازمة للحكم. ثانياً، لأنني أقدرك وأحترمك، وبالرغم من أنني لن أتورع عن استخدامك، كما تبين لك، لا أجد أن تعتبرني امرأة مستغلة. أخبرتك في مناسبتين بأني على استعداد لرد معروفك، وأنا لا أحنث بعهد قطعه قط.

توقف التاكسي عند بوابة القصر، ففرح أنتوني لأنه لم يضطر للإجابة فوراً على العرض غير المحدد. صدرت عنه إيحاءة مبهمة أما هي فأخرجت يدها من كم المعطف ومدتها له.

- عمت مساءً، أنتوني. (همست) شكراً على كل شيء.

- عفواً، (أجاب الإنجليزي، مضيفاً بجديّة) لوهلة اعتقدت أنك ستخرجين مسدساً من الكم.

- لا أحمل أي سلاح (قالت باكيثا مبتسمة) ولا اعتقد أنني بحاجة إليه في وجود حضرتك. لا تجعلني أغير رأيي.

مدت له يدها، فتحت باب السيارة وترجلت من التاكسي. قبل أن يتمكن أنتوني من القيام بالمثل لتوديعها على الرصيف، كانت هي قد عبرت البوابة واختفت في ظلام الحديقة. أدرك أنتوني أنه ليس لديه هنا ما يفعله، فأعطى سائق التاكسي عنوان الفندق واستغرق المسافة المتبقية في التفكير في كلمات باكيثا. دفعته خبرته الشخصية حتى الآن لاعتبار الفاشية الإسبانية حركة قوية لا تعاني تصدعات. أما الآن فقد تحطمت هذه الصورة بسبب حجج شخص لا مجال للشك في مصداقيته. بالرغم من غطرسة وجنون العظمة لدى ممثليها، إلا أن الفلانخي الإسبانية كانت جماعة صغيرة ومنعزلة، متماسكة فقط بفضل فصاحة مؤسسها وبسبب حالة الخطر البدني الدائمة التي تحول دون قيام أعضائها بتقييم بارد للوضع. وعلى الرغم من

أن كل ذلك لا يؤثر عليه بصورة شخصية، تسبب هذا الاستنتاج في شعور عميق بالانهيار لدى الإنجليزي.

- معذرة على الإزعاج في مثل هذه الساعة، دون ألونسو، ولكني لم أשאألا يُحاط علم سيادتك بأن الشخص المذكور تم العثور عليه في النهاية. واعتقاله ويتم اقتياده في هذه اللحظة إلى مقر الشرطة.

على الطرف الآخر من الخط، استقبل دون ألونسو مالول، مدير إدارة الأمن العام، بتهيدة مكاملة الكولونيل مارانون: أسعده الخبر، ولكنه بكل تأكيد سيمنعه من تناول العشاء بهدوء في منزله، كما كان يخطط له. أجب:

- سأوافيك هناك خلال عشرين دقيقة.

وضع الكولونيل مارانون ساعة الهاتف، ومقطب الجين لف سيجارة بمبسم. هو أيضا لم يكن يروقه طلب شطيرة سمك ماكريل من الحانة. المتسبب في كل هذه المشاكل يجب أن يدفع ثمن تكديرهما، فكر الكولونيل وهو يشعل السيجارة وبدأ في ترتيب طاولة العمل لكي يترك تأثيرا طيبا في رئيسه. ثم نادى السكرتيرة وأطلعها على الوضع. أجات البدينة خبيرة الاختزال برفع ذراعيها المتكتنزين علامة على الاستسلام. لا يبدو عليها الغضب. على الرغم من أن زوجها يشكو من مرض مزمن منذ سنوات ولا يستطيع العمل، ومن ثم فهي تحمل بمفردها على عاتقها عبء إعالة الاثنين، تدبير شؤون المنزل ورعاية شخص عاجز. كما أن العمل لساعات إضافية يصيبها باضطرابات فظيعة: إذ يتعين عليها الطلب من إحدى جاراتها

إعداد العشاء والاعتناء بالمريض لحين مجيئها. لكن البدينة خبيرة الاختزال لا تشكو مطلقا، ولا تتخلى عن وداعتها. أما النقيب كوسكويويلا فليس كذلك، طباعه تزداد سوءا يوما بعد يوم، فكر الكولونيل ضجرا. النقيب رجل أفعال؛ كان معتادا على القتال وعلى الحياة العسكرية؛ أما الآن وبسبب الإصابة، فإن عليه التدريب على الصبر لساعات طويلة من الانتظار وإهدار طاقته في أعمال مكتبية مرهقة.

حضر دون ألونسو مالول قبل مواعده المنتظر إلى المكتب، مرتديا معطفا أنيقا أزرق اللون بياقات من القطيفة السوداء، تعلق رأسه قبعة رمادية بحواف عريضة. حينما تلقى المكالمة كان يحضر حفلا في الأتنيو ففضل قطع المسافة التي تفصله عن إدارة الأمن العام سيرا على الأقدام تفاديا للازدحام المروري بوسط المدينة. في المساء تظاهر الطلبة الكاثوليك في بويرتا ديل سول ضد إلغاء التعليم الديني وماتزال مجموعات منهم متبقية تعقد الأمور، علق وهو يضع المعطف والقبعة على المشجب بمساعدة الكولونيل.

- وأنا أقول لنفسي: إذا كانوا كاثوليكين، فلماذا يريدون المنهج الديني؟
- الأمر وما فيه هو عدم المذاكرة، وعمل اضطرابات. (أكد الكولونيل).
- جلس السيد مالول ومرؤوسه، جذب الأول سيجارة من علبة سجائر، قدم لمرؤوسه أخرى، ولكن لم يقدم لبيلا، زج طرف سيجارته في مبسم طويل، أشعله وقدم الشعلة للكولونيل. صمت الاثنان ودخنا.
- بحق الجحيم أين كان رجلنا مختفيا؟ (سأل في النهاية السيد مالول).
- لن تصدق هذا، دون ألونسو. في سينيا أوروبا ليستمع إلى بريمو وحفنة الفاشيين! عند القبض عليه نفى التهمة، ولكن أحد عملائنا رآه يدخل المكان برفقة ابنة دوق إجو الادا.

- فلترحمي السماوات، تلك الحمقاء ستصيب الجميع بالجنون! ماذا ستقدم لهم؟

- ما تقدمه النساء دوما، دون ألونسو: وعود زائفة.

أمن السيد مالول على كلامه بنصف ابتسامة ثم سأل إن لم يُحظر الاجتماع. فأجابه: نعم بالفعل رُفض التصريح له، ولكنهم تجاهلوا الأمر. وزعم صاحب المكان أنه تم تهديده. في اللحظة الأخيرة، اختار السيد نائب وزير الداخلية عدم السماح بتدخل قوات الشرطة لتفادي أضرارا أكبر. في نهاية المطاف، كان الدواء أسوأ من الداء: عند المغادرة وقعت مشاجرات مع الشبيبة الاشتراكية. حدثت عدة إصابات وقتيل واحد بطلقة رصاص: شاب من الفلانخي في الثامنة عشرة من عمره، من بلدة سيمبوثويلو، عامل بمحل عطارة بنفس البلدة.

قاطعت التقرير طرقات غاضبة على الباب. دخل النقيب كوسكويويلا وأنتوني وايتلانديز بين حارسين بالزي الرسمي. حين رأتهم بيلا، أعدت مدونة الاختزال واختبرت سن القلم الكويبة: اعتبارا من هذه اللحظة، كل ما سيقال بعد ذلك يمكن أن يأخذ طابعا رسميا. جاء الإنجليزي متهيبا ولكن متحليا ببقايا كبرياء إمبراطوري. قبل أن يتمكن من التلفظ بشيء، سحق دون ألونسو مالول السيجارة في المطفأة الممتلئة بأعقاب السجائر، نفخ المبسم، وحفظه في جيب سترته ثم نهض واقفا.

- سيد وايتلانديز؟ (قال باسطا يده له، وتلقائيا مد هذا يده له) أتصور أننا لم نتعارف. ألونسو مالول، مدير الأمن العام. أعرب عن أسفي للتعرف عليك في هذه الظروف.

- هل من الممكن أن أسأل...؟ تلعثم الإنجليزي.

- لا تزد الأمر سوءاً، بيتيلاس (تكلم الكولونيل بجفاء) نحن الذين نوجه الأسئلة. الآن، إذا أردت معرفة سبب الاعتقال يمكنني أن أعددتها لك.
- أريد فقط الاتصال هاتفياً بالسفارة البريطانية (قال أنتوني).

- لن يكون هناك أحد في مثل هذه الساعة، سيد وايتلاندرز (قال السيد مالول) سيكون هناك متسع من الوقت. سنتكلم أولاً. هلا تفضلت بالجلوس.

تحت نظرة الحراس المترصدة، علق أنتوني المعطف على المشجب، إلى جوار معطف السيد مالول، وجلس على نفس مقعد الخيزران الذي احتله في زيارته السابقة. جذبت عاملة الاختزال البدينة مقعدها لتجلس قريباً ممن سيشاركون في الحوار واستراح النقيب كوسكويويلا على مقعد آخر بصورة بعيدة عن الرسميات، كما تآهنة ساقه المبتورة المحتجة من طول الانتظار. أدرك أنتوني أنه لم يتبق له أصدقاء في ذلك المكتب. صدرت عن الكولونيل إشارة على إثرها أدى الحارسان التحية العسكرية بصرامة، استدارا على عقبيهما وانصرفا. سُمع عبر الدهليز صوت كعوب أحذيتهم الثقيلة تبتعد. ثم عم صمت مشحون كسره مدير الأمن العام بصوت محايد، لا يخلو من توتر.

- سيد وايتلاندرز، نظراً لأنك حضرت اليوم اجتماع الفلانخي في سينما أوروبا، بوسعك أن تستنتج أننا بصدد أمور أكثر خطورة من مراقبة سيادتكم. إذا كنا جميع الحاضرين هنا نضيع وقتاً ثميناً من أجل قضيتك، فيجب أن يكون هناك سبب آخر. هل شرحت لك الأمر بوضوح؟ حسناً، إذا كان الأمر كذلك، سأدخل في صلب الموضوع. حضرتك سمعت الكلام الذي أذيع في السينما، ليس مرة واحدة بل بصورة متكررة. عاينت رد فعل الحضور. تعلم بوجود الحركة الفاشية في أوروبا وتعلم نواياهم: تحريض على الانقلاب، الاستيلاء على السلطة بالعنف، حرب أهلية إذا لم يكن هناك

سبيل آخر، وفي النهاية، فرض نظام شمولي. إنهم لا يخفون هذه النوايا كما لا يتحدثون عنها: لديهم إيطاليا، ألمانيا وبلاد أخرى على استعداد لمحاكاة نموذجهم. بالرغم من ذلك، وبصرف النظر عن خطورتهم، هذا الأمر يخص الحكومة الإسبانية، وليس حضرتك، أو أنا، نوعا ما. الفاشية سياسة واختصاصي النظام العام. هل تدخن؟

نفى أنتوني بإيماءة من رأسه. أخرج مدير الأمن العام سيجارة من العلبة، كرر طقس المبسم نفث الدخان وتابع.

- خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا أحق، (قال) ولكنه لا يدرك ذلك، وهنا تكمن المشكلة. لأنه ابن دكتاتور، نشأ كأمر، محاط بالإطراء. بعد ذلك، حين هَوّن الذين رفعوا أباه من شأنه، لم يستطع استيعاب الأمر. دفع به هذا إلى السياسة. يتمتع بمظهر وسيم، وخطيب مفوه، يعيش محاطاً بحاشية من أبناء الطبقة العليا البُلهاء مثله، يضحكون على كل دعاباته. في الظروف العادية، كان سيصبح محاميا ناجحا، ويحظى بزيجة طيبة، ولزال عنه جنونه. توقف لبرهة، تنهد ثم تابع.

- ولكنه وقع في غرام تلك الفتاة، ولم تسر الأمور على ما يرام، وأدى هذا في النهاية لاضطراب مفاهيمه. للتوصل لتسوية، وجد الوضع السياسي والاجتماعي في إسبانيا يلائم جنونه. هذا المساء ذاته، عقب انتهاء الاجتماع في سينا أوروبا، وقعت مواجهات في الشارع، بالنتيجة المعتادة: مصرع أحد الفلانخي، شاب يافع في الثامنة عشرة. يملأ خوسيه أنطونيو رؤوسهم بأوهام، ويرسلهم للموت بينما يبقى قرير العين. رأيت بنفسك قائمة قتلى الفلانخي؛ ربما تود أن تعرف بالإضافة إلى الاسم، عُمر هؤلاء الشهداء: غالبيتهم كانوا أطفالا لا يفهمون حتى الأفكار التي يضحون من أجلها بمستقبلهم. بالنسبة لبريمو دي ريبيرا يبدو هذا شاعريا. أما بالنسبة لي فيبدو كارثيا.

استمع أنتوني باهتمام، لكن تركيزه تشتت عند ذكر غراميات خوسيه أنطونيو الفاشلة مع باكتا، وبناء عليه من تلميحات المدير العام يستشف أنه لا توجد بطلة للقصة سواها «ماذا يمكن أن يكون قد ساء في العلاقة بينهما؟» أقلقته الموضوع، ولكنها ليست ساعة الغرق في التكهّنات: هو نفسه واقع في موقف خطير ويجب عليه إطلاق العنان لمخيلته بقدر المستطاع للإفلات بدون الإفصاح عن الكثير.

أخذت الغرفة تعبق بالدخان. وأجبر السعال بيلار على إيقاف العمل. نهض الكولونيل وفتح النافذة. اندفعت من الفناء الداخلي المعتم لفحة من الهواء البارد وتكتكة بعيدة لآله كاتبة. بعد انقضاء دقيقة، قرر الكولونيل أن الجو تجدد وعاود الإغلاق. تابع السيد مالول إفادته.

- علاوة على كونه غير مسؤول وأحمق. بريمو دي ريبيرا مغفل وهذا واضح للعيان. زار موسوليني وهتلر طالبا مباركتهم ودعمهم؛ استقبله الاثنان بأحضان مفتوحة، ولكنها سرعان ما قدرا حجمه وأزاحاه من طريقهما بمعسول الكلام. خصص له موسوليني إعانة شهرية تكفي بالكاد لتغطية مصاريف المنظمة. أما هتلر فلم يرسل له مليها. وكانت النتيجة نفسها حين عرض خدماته على اليمين المتطرف واليسار الراديكالي. استقبله الاشتراكيون بتسديدة نظيفة؛ استمع له الفوضويون كمن يستمع إلى مجنون وعندما ملّوه أوصدوا الأبواب في وجهه. كذلك خيل روبلس نفص يديه منه، وبالرغم من انجذاب العديد من العسكريين للفاشية، فإنهم حتى في الأحلام لن يعتمدوا على الفلانخي حين يقررون القيام بالانقلاب، فهم ليسوا بحاجة لمساعدة بائسة من مجموعة أطفال عديمي الخبرة، كما أنهم ليسوا مستعدين لأن يملي عليهم معتوه ما يفعلوه. وكما لو أن هذا ليس كافيا، فهم سيتذكرون أن خوسيه أنطونيو طُرد من الجيش بسبب كيل اللكمات للجنرال كيبو دي يانو. ليس بهذه الطريقة يكتسب المرء ود كبار القادة.

بدوره، يحترق خوسيه أنطونيو الجنرالات: يعتقد أنهم في حينه لم يدافعوا عن والده إما بدافع الجبن أو الخيانة بكل بساطة ووضوح. تعتبر البرجوازية بريمو دي ريبيرا واحدا منها وتنظر إليه بعين الحنان، ولكنهم وقت الجد لن يدعموه ولن يدافعوا عنه. أولا وأخيرا، تعهد خوسيه أنطونيو بالقضاء على امتيازات الطبقة وتأميم القطاع المصرفي. وهكذا فالأمر أنه، لم يعد أمام الفلانخي مخرج سوى الخروج للشارع بمفردهم، لغزو السلطة وانتظار أن تحظى المبادرة بتأييد الجيش. بالتأكيد، لو فعلوا ذلك فلن يحصلوا على شيء. إذا قام العسكريون بالانقلاب؛ فسيقومون بذلك عندما يقررون هم، وليس عندما يجلو للفلانخي، أما أعضاء الفلانخي، فليس لديهم قوات: أو سلاح أو أموال لشرائه.

لاذ مدير الأمن العام بالصمت لكي يستوعب محادثه المعلومات ويستخلص استنتاجاته الخاصة قبل المرور من العام إلى الخاص.

- منذ البداية، حاول الفلانخي بنفاد صبر الحصول على السلاح، وتكثفت هذه المحاولات بسبب الانتخابات الأخيرة. بالإضافة إلى مساعدات موسوليني، جزء من الأموال يوفره بعض الأثرياء الحمقى. بطبيعة الحال، يتعين الحصول على السلاح من الخارج وسداده بالعملة الصعبة. لدى الكثيرون أموال مودعة في الخارج، ولكنهم يجدون في المحافظة عليها. إذا حدث شيء، فستضمن لهم تلك الأموال معيشة ميسورة. هناك قلة قليلة آخرون، على استعداد لبذل أي تضحية من أجل القضية. أبرز هؤلاء، صديق سيادتك، دوق إجو الادا.

صدم الكشف أنتوني، ليس بسبب أيديولوجية السيد الدوق، بل بسبب إخفائها عنه بصورة متعمدة. لم يخف هذا التأثير على الآخرين: تبادل المدير العام مع الكولونيل نظرات ذات مغزى. وبينما أشعل السيد مالول سيجارة

أخرى بكثير من الاستعراضية، حل الكولونيل محله في الشرح.

- فيما مضى، كان دوق إجوالادا من أشد أنصار نظام بريمو دي ريبيرا الدكتاتوري، حيث كان صديقه الحميم، وبسقوطه نقل ولاءه إلى نجل الدكتاتور. لطالما حمى ودعم خوسيه أنطونيو، ماليا وكذلك بتأثيره: أثناء سنوات النفي الاختياري احتضنه كفرد من العائلة. ثم تعقدت الأمور...
- لكن هذه قضية أخرى، (قاطعها السيد مالول) المهم الآن هو القضية الأخرى.

حسب كل المؤشرات، يستعد دوق إجوالادا لكي يخرج من إسبانيا قدرًا كبيرًا من المال بغرض شراء سلاح. نجله الأكبر مسافر منذ شهر إلى فرنسا وإيطاليا. سبب السفر المعلن دراسات مزعومة حول الفنون؛ الهدف الحقيقي، الاتصال بمجموعات فاشية لتنظيم شراء وإرسال السلاح بمجرد وصول المال. ليس للدوق حسابات في مصارف أوروبية، وبحسب تقارير موثوق بها، لم يجر أي صفقات ولم يحول أية أرصدة من إسبانيا. ولكنه بدون شك يدبر أمرًا.

- وفي هذه اللحظة تحديدًا تظهر سيادتكم، الشخص الأكثر براءة في العالم، (قال الكولونيل متهكمًا) تزور الدوق، تخرج للاجتماع وتناول الطعام مع خوسيه أنطونيو وتغازل الابنة، ولكن بدون أن تعرف شيئًا عما نحكيه.

- نعلم أن تاجرًا من لندن يدعى بدرو تيتشر اتصل بك. (قال المدير العام) هل ذهب لمقابلتك بطلب من دوق إجوالادا؟

- من أخبركم بأمر بدرو تيتشر؟ (سأل أنتوني) هذه أمور خاصة، تتعلق بعملتي.

أجاب هذه المرة النقيب كوسكويويلا من ركنه:

- يعمل بدرو تيتشر منذ سنوات كهمزة وصل بين جماعات فاشية إسبانية وإنجليزية. ألم تكن تعلم؟

- وكيف لي أن أعلم بذلك؟ إنه لم يخبرني بشيء. بدرو تيتشر شخص معروف في عالم الفنون في بريطانيا العظمى، وأنا لا أدخل لي بالسياسة. ليس لديكم أي دافع للشك في أنه كان يخفي خلف زيارته مؤامرة دولية.

- إذن، أنت لا تنفي لقاءك مع بدرو تيتشر في لندن منذ سبعة أيام (سأل الكولونيل، فيما أصاحت بيلار السمع وشدت ظهرها لكي لا يفوتها حرف من الإجابة).

- حضراتكم تعرفون جيدا مثلي. دعنا لا نضيع المزيد من الوقت، يا سادة. جاء بدرو تيتشر لرؤيتي بطلب من عائلة إسبانية ليعرض عليّ تميم مجموعة من اللوحات تخص تلك العائلة لم يخف عني بدرو تيتشر أو المعنيين لاحقا الغرض من التقييم: إزاء عدم الاستقرار السائد في إسبانيا كانوا يفكرون في تصفية جزء من ممتلكاتهم بغرض نقل إقامتهم للخارج. هذا الغرض، بكل تأكيد، لم يكن ولن يكون من شأنى. بالنسبة لي طُلب مني عرض تقييم؛ تميم لوحات يعد جزءا من مهنتي.

- تعترف بقبول المهمة (قال الكولونيل).

- نعم بالطبع. فأنا متخصص في الرسم الإسباني وأغرنتني احتمالية إثراء معارفى بمجموعة افترضت أنها ستكون هامة. علاوة على أنه لم تكن لدي ارتباطات من أي نوع في إنجلترا فرحبت بسعادة بوجود سبب للعودة إلى مدريد.

- كان هذا منذ سبعة أيام، حسبي قلت سيادتك. أليس كثيرا لإجراء علمية تميمين؟

- على الإطلاق. لا يمكن تامين لوحة باستخفاف. هناك عدة عوامل يجب أخذها في الاعتبار، بعضها فني والآخر ذو طبيعة مادية. كيميائية على سبيل المثال. أو وثائقية. علاوة على ذلك تحمل كل لوحة قصة صغيرة وكل هذا يسهم في تحديد أصالتها، وفي النهاية، قيمتها. لا يتعلق الأمر مطلقاً بالإفادة إذا كانت اللوحة أصلية أم مزيفة، فبالإضافة إلى التزوير والاحتيال هناك أيضاً التشويه الناجم عن ترميمات غير دقيقة، انتساب خاطئ، نسخ رسمها الفنان نفسه، لوحات مشتركة، إلخ، إلخ. المجموعة التي لدى السيد الدوق ضخمة والأعمال تنتمي إلى حقبة مختلفة. وإحقاقا للحق، لإجراء تقييم دقيق وحصري، يتطلب الأمر شهورا، وربما عام كامل. أمل القيام بذلك في وقت أقل، ولكن ليس في غمضة عين.

قوبل هذا العرض المتوازن ببوادر إذعان وتم تحييده على الفور من جانب مستجوبيه، على قدر كبير من المهارة لكي لا ينساقوا وراء مجال بعيد عن تخصصهم وعن القضية التي بين أيديهم.

- بصورة إجمالية، بكم تثن مجموعة لوحات الدوق؟ (سأل المدير العام).

- من المستحيل تحديد ذلك (أجاب الإنجليزي) كما هو واضح، قيمتها الاقتصادية تتوقف على عدة متغيرات. على أية حال، لا يختلط عليكم الأمر: التقييم المادي لا يدخل ضمن اختصاصاتي، ولا حتى في القضية الراهنة طُلب مني شيء كهذا. بصفتي خبيراً يقتصر عملي على تحديد أصالة نسب عمل لصاحبه، أو إذا كان رسامها مجهولاً، نسبها إلى رسام معين أو إلى مدرسة فنية أو إلى حقبة بعينها أو إلى بلد المنشأ. هذا، بطبيعة الحال، يترتب عليه أمور مادية، ولكنها لاحقة.

- هل نصحت الدوق ببيع أي من لوحاته؟ في أوروبا. حضرتك على

اتصال بأصحاب قاعات عرض إنجليز وفي بلاد أخرى.

- سبق وأخبرتكم بأنني لست تاجر لوحات. بمعرض حديثنا، تطرقنا إلى موضوع صفقة محتملة، أنا لا أنفيها. في هذه المناسبات كان رأيي ضد العملية. سيقوم السيد الدوق بالتحقق مما أخبرتكم به توا.

- سيد وايتلاندر (شدد المدير العام) ألا تخفي عنا شيئاً يجب أن نعرفه في ضوء ما كنا نقوله؟ هل لديك مؤشرات على أن الدوق بصدد إتمام صفقة بقيمة معينة في الخارج؟ السؤال لا يمكن أن يكون أوضح من ذلك. أرجوك أجب بنفس القدر من الوضوح. نعم أم لا؟

كان قد أنتوني قد حزم أمره مسبقاً ولم يتردد في الإجابة:

- لا.

تلا هذا التصريح القاطع صمت تام. لم تبدر عن أحد إشارة على الحيرة أو نفاد الصبر، كما لو كانوا ينتظرون هذه الإجابة وليس أي شيء آخر. نهض السيد مالول، تمشى لبرهة في حيز محدود، ثم اتجه نحو عاملة الاختزال البدينة.

- يمكنك الذهاب إلى المنزل، بيلار، وشكراً على تواجذك.

- تحت أمرك دوما، سيد ألونسو، (أجابت بينما تطوي الدفتر، تحفظه في الحقيبة، تخرج من الحقيبة جراب الأقلام، تحفظ القلم الكوبية) سوف أسلم المستند صباح الغد.

- هوني عليك. لا داعي للعجلة (قال السيد مالول برقة).

بانحناءة خفيفة حيث بيلار الجميع، بما فيهم أنتوني، ثم خرجت. واجه السيد مالول الإنجليزي.

- أشكر سيادتك أيضا على تعاونك، سيد ولايتلاندرز. (مد له يده بينما يتحدث مع الكولونيل مارانون) جورميسندو، أترك القضية بين يديك.
- لا تشغل بال سيادتك، دون ألونسو.
- حين رأى الجميع يقفون، فعل أنتوني نفس الشيء واتجه نحو المشجب.
- هل يمكنني الانصراف الآن؟ (سأل قبل ارتداء المعطف).
- لا. حضرتك رهن الاعتقال بسبب حضور فعاليات جماهيرية غير مصرح بها. ستذهب إلى حجز الإدارة وسيقرر في حينه إن كنت ستحال للقضاء، أم سترحل، نظرا لوضعك كأجنبي. النقيب كوسكويويلا سيصطحبك. لا أرى ضرورة من وجود الحرس. سنعتني غدا باستمارة البيانات. في مثل هذه الساعة لا أحد هناك ليلتقط صورًا لك.
- كيف! هلى ستحبسونني؟ (تساءل أنتوني) ولكني لم أتناول عشائي بعد!
- ولا نحن، سيد بيتيلاس (أجابه الكولونيل).

حينما استيقظ ميّز ضوءًا خفيفًا من طاقة الزنزانة الضيقة، وقدّر أنها السادسة صباحًا. ولأنه استحال عليه رؤية قرص الساعة طوال الليل، لم يكن بوسعه حساب الوقت الذي استغرقه في النوم. من المحتمل أنه قليل للغاية. منذ لحظة احتجازه وعقب سماع الضوضاء المعدنية الكثيرة لإغلاق الأبواب بعد مرور النقيب كوسكويويلا، مر أنتوني وايتلاندر بحالة من الارتباك، وأخرى من الفزع، وأخيرًا مرحلة طويلة من التفكير. بطبيعة الحال، لم يكن في وضع يحسد عليه: القانون في صف من أوقفوه وبكل تأكيد عدم تعاونه لن يجعلهم على استعداد للتنازل عن أي من مميزات القانون. بدا مستقبله، بالنظر من هذه الزاوية، مظلمًا. ولكن كان يؤرقه الشك حيال سلوكه وإن كان صائبًا من وجهة النظر العملية والأخلاقية.

بعد كثير من الموازنة بين إيجابيات وسلبيات قراره الكذب بشكل صريح، توصل إلى قناعة مفادها أنه تصرف على نحو جيد، أو على الأقل، لم يتصرف على نحو سيئ. في المقام الأول، المسألة التي تورط نفسه فيها، تخصه بصورة غير مباشرة فقط: فليس لديه أي دافع للانحياز لأي من الجانبين في اللعبة المعقدة للقوى المتصارعة في إسبانيا: فلم تكن بلده وليس لديه معلومات أكثر من التي زودته بها الأطراف بصورة مجتزئة ومتحيزة بشكل واضح. من حيث المبدأ، كان مع من يمثلون الحفاظ على الشرعية السياسية والنظام القائم، إلا

أن الحجج التي يسوقها الفلانخي لم تبد بالنسبة له لا أساس لها. لا تجتذبه كثيرا فظاظة الموظفين الحكوميين، الذين يرتكنون إلى قوة الدولة؛ على العكس من ذلك، الفلانخي بتهورهم وإقدامهم الشبابي، كانوا مفعمين برومانسية الخاسرين. ناهيك عن باكيثا، بطبيعة الحال: هل كانت ستغفر له خيانة خوسيه أنطونيو وعائلتها مبديا خلاصه على الإخلاص؟ وأخيرا، إذا قال الحقيقة، ماذا سيكون مصير اللوحة؟ من المحتمل أن تجد الحكومة حيلة قانونية لمصادرتها وتعليقها في متحف البرادو. سيكون حدثا دوليا مدويا لم يجد أنتوني لنفسه مكانا فيه. كانت هذه هي الطامة الكبرى من بين جميع المصائب.

إلا أن كل هذا التفكير لم يكن يؤدي إلى شيء. إنكار الدليل أمام مدير الأمن العام، كان بدافع كسب الوقت فحسب لكي يفكر، والآن التفكير بدلا من أن يوفر له حلا محتملا، أكد مخاوفه. لن يدعوه يخرج من هنا، ما لم يكن مقابل إطلاق سراحه الإفشاء بسر كبير. لكن ماذا بوسعه الكشف عنه؟ أي كذبة ستكتشف في الحال وستسوء الأمور: خصومه ليسوا سذجا. من ناحية أخرى، لن يفيد كثيرا قول الحقيقة. لم يكن في وضع يسمح له بالمساومة. مهما كانت خطط الدوق، فإن مردود إفسادها سيكون ضئيلا بالنسبة له؛ في المجمل، الطرد من البلاد بصورة مهذبة بدلا من المحاكمة وقضاء فترة طويلة في السجن. داهمه رعب مبرر من فكرة دخول مؤسسة عقابية إسبانية: حتى لو نجا من التجربة، فإن حياته الشخصية والمهنية ستتعرضان لدمار لا براء منه.

لم يساعد الجوع على رفع حالته المعنوية، أو الإرهاق الناجم عن يوم طويل مليء بالأحداث، أو البرد المخيم على الزنزانة، الصمت الكئيب، الظلام المطبق أو هجوم البق والبراغيث الذي لا يعرف الرحمة. كان المكان ذا رائحة عطنة، وليس فيه إلا كتلة إسمنتية للاستلقاء. في النهاية عندما غرق في النوم بعد أن هذه التعب، رأى على النقيض من ذلك، حلما لطيفا: وجد

نفسه في لندن، يتجول بمتنزه سان جيمس متأبطاً ذراع امرأة جميلة، كانت أحياناً باكيثا وأحياناً كاثرين، عشيقته التي هجرها. كان صباحاً ربيعياً جميلاً والمتنزه مزدحماً. عند المرور بهم، كان جميع الزائرين، رجالاً ونساءً من الطبقة الراقية، يحيونهم بحرارة على غير عادة الإنجليز. بعضهم يتوقف ليربت على كتفه، أو يضرب مرفقه بمودة تنم عن تواطؤ. وسط هذه الأجواء العائلية، استشعر أنتوني رغبة عارمة في الإفصاح عن المودة والقبول: المجتمع اللندني الراقى يبارك علاقاته العاطفية الشاذة ويظهر رضاه بلا مواربة. حين استيقظ ضاعفت ذكرى هذه النزهة السعيدة حزنه: خيال منحرف صور له على أنها حقيقة شيء لن يستطيع أن يكون عليه أبداً. مع طلوع النهار أخذت أقبية إدارة الأمن العام تعج تدريجياً بالأصوات، الخطوات وضوضاء الأبواب. أما هو فلم يكثر له أحد، كما لو أن المسؤولين عن حبسه نسوا وجوده. أثقل عليه هذا الشعور أكثر من أي تهديد. كان الجوع والعطش قد بلغا منه حداً لا يحتمل. في العاشرة صباحاً خارت قواه تماماً وقرر أن ينهار. كان ثمة طاقة مربعة موصدة بقضيبين من الصلب، في القسم العلوي من باب الزنزانة الخشبي الصلب. أطل أنتوني من هذه الطاقة وأصدر أصواتاً لجذب انتباه الحراس. يئس عندما لم يجب أحد نداءه. بعد برهة أعاد المحاولة. في المحاولة الثالثة باغته سؤال بأسلوب غير مهذب عما يجري.

- رجاء الاتصال بالكولونيل مارانون أو النقيب كوسكويويلا وإخبارهما بأن السيد الإنجليزي الذي وضعاه أمس في الحبس مستعد للكلام. هما سيفهما. محبة في الله، لا تتأخروا.

- حسناً. انتظر حضرتك هنا (قال الحارس، كما لو أن للمسجون أمامه سبيل آخر).

مضت أكثر من ساعة، هوى خلالها أنتوني إلى أعمق درجات اليأس.

لم يعد يهمه رأي باكيثا أو أي أحد، بدا له الترحيل أو أية إهانة أهون من الوسواس. في النهاية تحرك القفل وفتُح الباب وعلى العتبة تخايل ظل قوي لأحد حراس قوات مكافحة الشغب معلق على كتفه بندقية بحزام رصاص. - هيا.

سار أنطوني بصعوبة في حراسة الجندي، عائدا أدراجه عبر طريق الأمس المعقد. حينما وصل إلى باب أحد المكاتب، توقف الحارس والسجين؛ فتح الجندي الباب وتنحى جانبا. كانت رأس الإنجليزي تلف وتدور بسبب المعاناة التي قاساها وبسبب الخجل من الإثم الذي يستعد لارتكابه. دخل بدون أن يجروء على رفع عينيه من الأرض وظل على حاله إلى أن أخرجه من موقفه الانهزامي صوت معروف.

- بحق السماء، وايتلاندرز! في أية متاعب ورّطت نفسك؟

- باركر! هاري باركر! (صاح أنتوني) المجد للرب! كيف توصلت إلى؟

- بدون أدنى مشقة (أجاب الدبلوماسي الشاب) هذا الصباح ذهبت للبحث عنك في الفندق وأخبرني موظف الاستقبال بأنهم أحضروك إلى هنا. بحق كل شياطين الكون، وايتلاندرز، لقد تورطت حقيقة في سابقة دولية لكي يطلقوا سراحك. ماذا فعلت هذه المرة؟ أصبحت عدو الشعب رقم واحد.

- إنها قصة طويلة.

- إذن لا تحكها لي. علينا أن نسرع. هناك من ينتظرنا.

- أنا؟ من؟ أين؟

- أين سيكون؟ في بلاثا دي توروس؟ في السفارة، يا رجل، في السفارة. فلنستقل تاكسي.

- ولكن لا يمكنني الذهاب إلى السفارة بهذه الحالة، باركر. انظر لهيئتي:

لقد قضيت الليل في الحبس، أنا ملىء بالبراعيث.

- لكن على الأقل أنت هادئ. أفضل من لا شيء: آخر مرة التقينا كنت شديد التحفظ. هيا، ليس لدينا وقت لنضيعه (أضاف قاطعا الطريق أمام اعتراضات الآخر) إما أن تأتي معي إلى السفارة على هذه الحالة، وإما أن أتركك هنا. هناك المدعو «كابتن كوكويوكو» ينتظرك بالمرصاد. إنه رجل صارم، أعرج، وذو سلوك عسكري، القرار لحضرتك.

- حسنا (قال أنتوني فيما انتابته رجفة لمجرد ذكر النقيب كوسكويولا) ولكن بشرط أن نتوقف عند حانة: يجب أن أشرب بعض الماء وأناول شيئا.

كانا قد وصلا إلى الشارع، وبدون أن يلتفت لتوسلات مواطنه، شرع الدبلوماسي الشاب في توقيف تاكسي بحماس شديد. سرعان ما توقف تاكسي بجوار الرصيف، وبصورة عفوية أدخل هاري باركر أنتوني السيارة.

- بدون تضييع دقيقة واحدة (كّرر) سنجد شيئا تأكله في السفارة: ما رأيك بشاي وعصيدة؟

شعر أنتوني بالانهار، ولكن بعد الليلة الفاتئة في الحبس، والأفكار المأسوية التي روادته، الشعور بأنه نجا، عوضه عن أي منغصات.

- باركر، آآ...، حتى الآن لم... حتى الآن لم أعرب لك عن شكري... (تمكن من نطق العبارة بينما اتكأ في مقعد التاكسي وغرق في النوم في الحال). أيقظته عدة هزات.

- استيقظ، وايتلاندرز. لقد وصلنا السفارة. هل أنت متأكد من أنك لم تشرب؟

ترجلا من التاكسي، دخلا السفارة، صعدا الدرج الرخامي ودلفا إلى

حجرة بعد أن طرقا الباب وتلقيا التصريح المنشود بالدخول. فوجئ أنتوني وايتلاندر وصدم، حينما وجد نفسه في غرفة صالون أنيقة، متوسطة المساحة، بها ستائر ثقيلة وجدران مكسوة بقماش أخضر اللون، يتصدرها بورتريه ضخمة لصاحب الجلالة الملك إدوارد الخامس. على أريكة بجوار المدفئة يجلس سيدان مهذبان متوسطا العمر، يرتديان زيا دبلوماسياً رسمياً. كان هناك سيد آخر بملابس عادية، يقطع السجادة السمكية بخطوات قصيرة بينما يدخن غليوناً بشرود.

لم تصدر عن أحد منهم أية بادرة ترحيب بالوافدين الجدد. وبدون أن يتوقف عن التدخين، رمق السيد صاحب الغليون أنتوني وهيئته الرثة بنظرة اشمئزاز، عقد حاجبيه، وتابع خطواته. حاول أنتوني تقمص هيئة لائقة، كابحا رغبة عارمة في هرش قرص البراغيث التي جلبها معه. متناسيا الوجبة الخفيفة الموعودة، قام هاري باركر بواجب التعريف على الرغم من لا مبالاة الحاضرين. كان أحد الدبلوماسيين ديفيد روس، سكرتير أول السفارة، الذي نقل للجميع اعتذار السيد السفير لعدم استطاعته حضور الاجتماع، لانشغاله بأمر أخرى. أما الدبلوماسي الآخر فكان بيتر أتكينز، الملحق الثقافي بالسفارة، الذي استدعاه السكرتير الأول ديفيد روس، نظرا لأهمية الاجتماع. أما السيد صاحب الغليون فكان اللورد بومبلييه. بصوت خفيض، أوضح هاري باركر لأنتوني أن لورد بومبلييه يعمل في جهاز الاستخبارات البريطاني وقد جاء من لندن بالطائرة، صباح اليوم. على ما يبدو فإنه مر بوقت صعب عند تحليقه فوق المجال الجوي للقناة. ونظرا لعدم التعريف به، فقد تخمن أنتوني أن الحاضرين يعرفون هويته وظروفه بكل تأكيد. لم يكن أي شيء آخر ليبرر سبب وجوده في ذلك الصالون. بعد فترة من المراسم البروتوكولية المضجرة، أو ما السكرتير الأول لأنتوني بالجلوس.

- كأس أوبورتو؟

- لا، شكرا.

- ويسكي، ممكن.

- لا أيضا أنا على لحم بطني.

- أوووو!

مرت برهة أخرى. إلى أن أوضح هاري باركر، الذي ظل واقفا إلى جوار المقعد الجالس عليه أنتوني، أنه من الملائم، إذا تراءى للحاضرين ذلك، إطلاع وايتلاندرز على مجريات الأمور. مع إدراك جدية الموقف، تنهد السكرتير الأول بضجر لا يضطراره للرجوع لأمر معروف سلفا.

- منذ بضعة أيام (قال) اتصلت بمستشارنا، السيد باركر، وحددت معه موعدا في فندق ريتز مدريد. قدمت له خطابا كان يتعين على السيد باركر إرساله إلى شخص محدد حال وقوع أحداث بعينها. في تلك المرة، لاحظ السيد باركر مؤشرات على وقوع حضرتك تحت تأثير الكحوليات أو مادة أخرى ذات طبيعة سامة، ومن ثم أرجع سلوكك إلى اعتلال عرضي. ومع ذلك، في اليوم التالي أحاطني علما بما حدث، فقررنا فض الخطاب وقراءة الرسالة. عندما استمع أنتوني لهذا انتفض ملتفتا إلى الدبلوماسي الشاب، والذي كان يتأمل المشهد تعلو محياه ابتسامة هادئة.

- باركر! كيف جرؤت على أن تفعل هذا بي؟ لقد توسلت إليك التحلي بأقصى درجات التكتم، وأنت أقسمت لي...!

- لم أقسم لك على شيء، وايتلاندرز. أما بالنسبة للسرية فلا تقلق بشأنها. لقد احتفظنا بالسر قدر المستطاع، وأكد لك (أجاب باركر) حاول أن تفهم، لم يكن بوسعي فعل أي شيء آخر. فأنا دبلوماسي وكل ما قد يؤثر على مصالح التاج، أنت تعرف...

- السيد باركر (قاطع السكرتير الأول) لا يدين لك بأية تفسيرات، سيد وايتلاندر. لقد فعل الشيء الوحيد الصائب، هكذا إذن، أحاط علم رؤسائه بسلوك أحد الرعايا البريطانيين في إسبانيا، إزاء شكوك في أن يؤدي هذا السلوك للإضرار بالعلاقات الدولية لكلا البلدين. وإذا لزم الأمر، أود أن أذكرك بأننا أخرجناك للتو من إدارة الأمن العام، حيث كنت محبوسا. (سعل وواصل قائلا) انطباعي الشخصي حول محتوى الرسالة لم يكن إيجابيا، أقصد أني أميل إلى عدم تصديق أي شيء من محتواها. ومع ذلك، ونظرا للأوضاع في إسبانيا، أرى أنه من الأفضل توخي أقصى درجات الحذر. الخلاصة، تواصلت مع الخارجية. والآن سيخبرك السيد بيتر أتكينز، الملحق الثقافي بالباقي.

أخذ الملحق الثقافي الكلمة بقليل من الحماس على غرار سلفه، وأشار إلى أنه، بينما كان السكرتير الأول يخطر الخارجية بوجود عملية احتيال وما يترتب على ذلك من عواقب دبلوماسية، هو بوصفه ملحقا ثقافيا، شرع في الاتصال هاتفيا بالشخص المرسل إليه الرسالة، المدعو إدوين جاريجو، أمين الناثيونال جاليري بلندن، شخص لا غبار عليه، وصاحب مكانة مرموقة في مجاله، وقرأ له محتوى الرسالة. بعد أن جعلني أعيد عليه نص الرسالة، أعلن السيد إدوين أن اللوحة المذكورة في رسالة السيد وايتلاندر عمل مزور لا محالة. وبدون التشكيك في معارف أو نزاهة السيد وايتلاندر، كان السيد إدوين جاريجو مقتنعا بأن حكم السيد وايتلاندر جانبه الصواب لأسباب يستحيل تحديدها بمعزل عن التعرف بدقة على أفعاله. وعلى ضوء ذلك...

عندما وصل إلى هذه النقطة، لم يتمكن أنتوني من كبح جماح غضب تفجر - وللمفارقة - بسبب الإرهاق والجوع.

- هذا لا يغتفر (صاح واقفا من مقعده، وهو يلوح بإصبعه مهددا

الجميع) حضراتكم تصرفتم بصورة لا تتفق مع مناصبكم أو أوضاعكم كسادة مهذبين! لم تخونوا فقط الثقة التي وضعتها في حضراتكم، بل وضعتم بين يدي غريمي شيئا يخصني، متسبين لي في ضرر مادي ومعنوي لا يوصف! إدوين جاريجو... مرجعية جريئة! هذا الشخص جاهل مغرور. يطلقون عليه في كمبريدج السيد فيوليت! وسأخبركم بشيء سيبعث فيكم حمرة الخجل: منذ عشر سنوات تجاسر على تحدي أدولفو فنتوري وروبرتو لونجي على نسب لوحة مزعومة لكارافاجيو، هل تتخيلون هذا؟ يتحدى فنتوري ولونجي! لا داعي لذكر أنهم لقنوه درسا. لكن فيما يبدو هذا النوع لا يتعلم من أخطائه. لقد رأيت اللوحة يا سادة، بعيني رأسي! أنا...

خمدت الصحوة فجأة مثلما بدأت وسقط أنتوني مجددا في مقعده، غطى وجهه براحتي يديه وانفجر في النحيب بصوت عال وشكل متقطع. أسقط في يد الدبلوماسيين، تبادلوا النظرات فيما بينهم لا يدرون كيف يتعاملون مع هذا الموقف المحرج، إلى أن توقف لورد بومبلييه فجأة عن السير، واجه أنتوني وبصوت هادئ وحازم قال:

- سيد وايتلاندرز، هلا تركت التهادي في هذا الانهيار العاطفي لوقت آخر. فلا محل له هنا، وكذلك اتهاماتك. هؤلاء السادة المهذبون أدوا واجبه كدبلوماسيين وكإنجليز. على العكس من ذلك، حضرتك قدمت مصالحك الشخصية على مصالح بلادك. أنا أيضا قرأت الرسالة الشهيرة وإليك استنتاجي: إذا كان ما ورد فيها غير حقيقي، فحضرتك إمانصاب أو معتوه؛ وإذا كان حقيقا، فحضرتك شريك في جريمة دولية. ومن ثم توقف عن التصرف كأبله وأنصت جيدا لما سأقوله لك. بسبب قضيتك قطعت رحلة بغیضة. لا تجعلها أكثر بغیضا.

عندما استعاد أنتوني السيطرة على نوبة حزنه، قرب لورد بومبلييه مقعدا

من المقعد الذي يشغله أنتوني، وجلس مباعدا بين ساقيه والتقط الغليون من جراب التبغ ولوح بالمبسم تجاه أنف أنتوني، بينما رمقه بنظرة متشككة.

- هل سمعت باسم شخص يدعى كوليا؟ هل سمعت الاسم يتردد مؤخرا؟

- لا، (أجاب أنتوني) لا مؤخرا ولا في أي وقت على الإطلاق. من هو؟
- لا ندرى، (قال لورد بومبلييه رافعا صوته لكي يكون مسموعا من قبل جميع الحاضرين) أيها السادة، هذا هو بيت القصيد. كوليا هو الاسم الحركي لعميل سوفيتي يعمل في إسبانيا، ولا نعرف أكثر من ذلك. قد يكون إسبانيا أو أجنيا، رجلاً أو امرأة، أي شيء. ليس لدينا أية معلومة بشأن هويته أو أنشطته. مصدرنا تمكن فقط من إبلاغنا برسالة مشفرة، تفيد بأن سفير الاتحاد السوفيتي في إسبانيا قد تم استدعائه من قبل لجنة الكومنترن، للتشاور بصورة عاجلة وقام برحلة طارئة إلى موسكو. إلى الكرملين، جهاز الكي جي بي وإلى القيادة العامة للشرطة السرية (NKVD). كنتيجة لهذه الزيارة، أصدرت الـ (NKVD) أوامرا صارمة لكوليا...

توقف لورد بومبلييه ولاذ بصمت مشحون بالتهديد. بعد برهة، طال فيها زمن السكوت لما لا نهاية، تجاسر السكرتير الأول على قول:

- والآن، ماذا؟

- الآن لا شيء (أجاب لورد بومبلييه بنبرة قاطعة، كما لو كان السؤال غير مبرر).

أعلنت دقائق ساعة الحائط الواحدة. باستثناء أنتوني، تحقق جميع الحاضرين من دقة عمل ساعاتهم. عقب ذلك، فرك لورد بومبلييه راحتي يديه.

- حانت ساعة الغداء، أليس كذلك؟

- وقتها يروق لك، لورد بومبلييه.

إزاء المنعطف الجديد الذي وصل إليه الاجتماع، سألت أنتوني نفسه إذا كان من الأفضل له أن يطويه النسيان أم توضيح موقفه. في النهاية قرر لفت الانتباه بسعلة مكتومة. هز لورد بومبلييه رأسه وصاح:

- بحق كل شياطين الأرض، وايتلاندرز، كدت أنساك. أخيراً، نظراً لضيق الوقت، سأخبرك بالطريقة التي ستتصرف بها. الخلاصة، لا سيبل آخر أمامك سوى التوسط في بيع اللوحة المزيفة... لا تقاطعني، بحق جميع شياطين الكون. بيع لوحة منسوبة بالزور للمدعو بيلاثكيث.

- معذرة، لورد بومبلييه، ولكن...

- أغلق فمك، وايتلاندرز، رأيك لا يعنيني: أنا أعمل لصالح جهاز الاستخبارات، وليس لصالح صالة سوثيرز للمزادات، أقصد أن حكومة صاحب الجلالة (أضف مشيراً بالغليون إلى البورترية المعلق) تستهدف من وراء العملية مصلحة ذات طبيعة فنية. هل هذا واضح؟ تابع: على ما يبدو فإن عائد بيع اللوحة سيستثمر في شراء أسلحة لصالح جماعات فاشية ناشطة في إسبانيا. جهاز الاستخبارات الإسباني على علم أيضاً بذلك، إذا كان هناك بالفعل جهاز يستحق هذا المسمى. أما الآن، انتبهوا أيها السادة. ما سأقوله يجب أن يظل بين هذه الجدران الأربعة. أمرك باسم صاحبة الجلالة، وايتلاندرز، بالاستمرار في عملية البيع، مؤكداً أصالة اللوحة، سواء كانت كذلك أم لا، لكي تحقق اللوحة أعلى سعر ممكن. مفهوم؟ رسمياً، لا علاقة لنا بهذه الصفقة. وإذا كشفت السلطات الإسبانية العملية وجرمتها، مثلما هي بالفعل كذلك. ستحمل حضرتك التبعات. نحن لن نتدخل لصالحك، سننفي أي علم لنا بالأحداث أو أي اتصال تم بيننا. لا يمكننا التصرف بأسلوب آخر: إنجلترا لا تدس أنفها في الأمور الداخلية لإسبانيا. من ناحية

أخرى، إنجلترا لا تقيم علاقات صداقة أو تعاون مع حكومات أو جماعات تبني الأيديولوجية الفاشية، كما لن تبني سلوكا عدوانيا ضدها. شعار سياستها الخارجية هو فليفعل كل من كان ما يحلوه.

سحب عدة أنفاس حانقة من الغليون، ثم نفص تجويفه فوق مطفاة سجائر حتى خرجت منه كتلة من الرماد والتبغ، حفظ الغليون في جيبه وأضاف:

- الآن حسنا، كل المؤشرات تؤكد قرب اندلاع ثورة بلشفية في إسبانيا، ومهما كان هذا الأمر شائنا داخليًا، فإن إنجلترا لن تسمح به. دولة شيوعية على مسافة بضعة أميال من شواطئنا، ولديها القدرة على التحكم في مضيق جبل طارق أمر غير وارد، للحفاظ على توازن القوى سواء في القارة أو في حوض البحر المتوسط. حافظنا حتى الآن علاقة ثقة مع الفاشيين، ولا يوجد ما يوحي بأن هتلر سوف يغير سلوكه. أما موسيليني فهو مجرد دمية ويتلهى الآن بحربه العبثية ضد الأحباش.

الاتحاد السوفيتي هو العدو الحقيقي. شننا أم أبيننا، في إسبانيا علينا دعم الفاشيين ضد الماركسيين. اعتقد أنني أتحدث بأسلوب لا مواربة فيه. أي سؤال؟

لما كان الموضوع خارج عن إرادتهم والأوامر صدرت من السلطة العليا، أعرب الدبلوماسيون عن توافقه التام مع حديث لورد بومبلييه، مؤكدين أنه في منتهى الوضوح. بدوره أنتوني لم يعلق بشيء. بالنسبة له كان التباين جليًا: إما الانصياع إلى لورد بومبلييه أو فقدان حماية السفارة والوقوع مباشرة في يد الكولونيل مارانون. ولأنه، من ناحية أخرى، كان مقتنعا بأن اللوحة عمل أصلي لبيلاثيكيث، كان متوائما مع أي شيء يفيد في الكشف عن العمل مقترنا باسمه، مهما كان الهدف النهائي من صفقة البيع. في الصميم،

الأحداث أخذت منعطفًا إيجابيًا بالنسبة له: لأنه سيعمل اعتبارًا من تلك اللحظة وفقًا للأغراض الصريحة للحكومة البريطانية، فسيكون بوسعه الاعتماد على دعمها، مهما كانت ملتوية وغير متسقة مع شخصيته وخططه.

- ما هو موقفني الحالي بالنسبة للبوليس الإسباني؟ (سأل).

- اسألهم هم عن هذا. (أجاب السكرتير الأول) يكفي ما فعلناه لإطلاق سراحك. في رأيي، سيتركزونك لحالك. احتجزوك ليروا إن كنت ستبوح بشيء، لكن استمرار حبسك لن يفيدهم بشيء. يفضلون أن تكون مطلق السراح لتقودهم إلى ضالتهم. فليبق هذا في اعتبارك. إنهم لا يعرفون شيئًا عن اللوحة، وهذه ميزة في صالحك.

بينما يردد هذا الكلام، كان السكرتير الأول يتأهب للخروج مع باقي المشاركين في الاجتماع. كان الجميع في عجلة للذهاب للغداء، لكن أنتوني كان أكثرهم تعجلًا، ولما لم يكن أحد يكثرث لتوديعه، نهض واتجه نحو الباب. اصطحبه هاري باركر حتى الباب، ليتأكد بنفسه من أنه سيغادر السفارة في سلام ومع ذلك، عند الباب، رواد أنطوني شك ما، فتوقف وعاد أدراجه عند لورد بومبلييه.

- معذرة لورد بومبلييه، هناك شيء لم يتضح بالنسبة لي. ما هو دور كوليا في هذا الموضوع؟

- كوليا؟ سبق وأخبرتكم، لا نعرف. ولكننا متأكدون من شيء واحد: كوليا هو غريمك. إذا كنا نحن قد عرفنا بموضوع صفقة اللوحة والسلطات الإسبانية لديها شكوك، فمن البديهي أن يكون الروس على علم بالأمر. بطبيعة الحال، لا يصب في مصلحتهم أن يحصل الفاشيون على أية مساعدة سواء مال أو سلاح، وسيفعلون المستحيل للحيلولة دون ذلك. لهذا الغرض

دفعوا بكوليا.

- الآن فهمت (قال أنتوني) وما هو سبيل كوليا لعرقلة العملية؟

- يا له من سؤال ساذج، وايتلاندر (صاح لورد بومبلييه) بالطريقة المعتادة: بالتخلص من حضرتك.

لم يتمكن طبق مترع بالعدس ونقانق التشوريسو، مع نصف رغيف من الخبز الأبيض وإبريق نبيذ؛ من تبيد الانهيار الذي حل بعزمته بسبب كلمات لورد بومبلييه المشؤومة. في حين كان يُشبع الجوع الذي لازمه منذ اليوم السابق، لم يستطع أنتوني وإيتلاندر أن يزيح عن مخيلته شعوره بأنه مطارذ من قبل قاتل مجهول. من الممكن أن يقوم أي شخص في أي مكان أو في أية لحظة بطعنه أو إطلاق الرصاص عليه عن قرب، أو خنقه بربطة عنقه أو وضع السم في طبقه أو كوبه أثناء تناول طعامه وشرابه. روادته للمرة الألف احتمالية ركوب أول قطار والعودة إلى إنجلترا. لم يمنعه سوى قناعة غامضة بأنه متورط في مؤامرة دولية، ولهذا السبب، لم يكن هناك مكان على ظهر الكوكب يمكن أن يكون فيه بمأمن من المتآمرين إذا فكروا في القضاء عليه على سبيل الانتقام أو لضمان سكوته، أو لمجرد العدا. حدث نفسه بأن السبيل الوحيد لكي ينجو بجلده من هذه العقدة هو الانتهاء بأسرع وقت من الصفقة التي بسببها جاء إلى مدريد. وحينها لا يصبح وجوده عائقاً أمام مخططات أعدائه، فسوف يتركونه وشأنه.

بهذه الترضية المبهمة أنهى طعامه، وشرع في الرجوع. سار بخطى سريعة في الشوارع المأهولة، متلفتاً يمينا ويسارا، ومن آن لآخر يستدير فجأة ليضبط في الوقت المناسب أي اعتداء غادر. أدرك بنفسه مدى سخافة سلوكه، نظراً لأنه يجهل ملامح المعتدي المحتمل. بسبب نزوة من خياله الجامح، قرر أن

القاتل يشبه الممثل الأمريكي جورج رافت، فأخذ يتفرس في وجوه المارة محاولاً أن يعثر فيها على ملامح الممثل والثياب المميزة شخصياته الشهيرة. هذا الجنون أنساه الخوف ودفعته الحكة لمواصلة السير لبلوغ الفندق كي يغتسل، يخلق ذقنه، ويغير ثيابه: إذا كان يجب أن يلقي ميتة مأسوية، فليمت على الأقل بمظهر لائق.

توقف عند مروره بواجهة محل بقالة يعرض تشكيلة متنوعة من الأطعمة، دخل واشترى أطعمة مختلفة، لم يشأ أن يبقى في الشارع بعد حلول الليل فتزود بالمؤن لكي يظل حبيسا بغرفته ويقاوم الحصار. اشترى خبزا من طابونة، ونيبداً من حانة. وهكذا وصل بكل سهولة محملاً بالمؤن إلى باب الفندق.

كالعادة، رمقه موظف الاستقبال بنظرة عتاب مستحقة لهيئته المزرية. لكن في تلك اللحظة لم يكن رأي الآخر يعني الإنجليزي على الإطلاق. فحيا موظف الاستقبال ببرود ومد له يده لتناول مفتاح الغرفة. أعطاه موظف الاستقبال المفتاح مشيراً إلى شيء ما خلف ظهر أنتوني، الذي استدار صارخاً فجأة. لكن ما رآه لم يكن يستدعي أي تحذير. كانت صبية بائسة تنام على مقعد في البهو. سأل أنتوني موظف الاستقبال ما شأنه بتلك الصبية.

- أنت أدري (قال موظف الاستقبال) جاءت أمس في وقت متأخر تسأل عن حضرتك، ولم تتحرك من هنا. كنت على وشك استدعاء الأمن، لكنني فكرت أن لديك الكثير من المشاكل معهم ولا داعي لسكب مزيد من الزيت على النار.

جلس أنتوني القرفصاء أمام الصبية لكي يرى وجهها، وهالته المفاجأة حين عرف أنها لا تونينية. وكما لو أن الصبية أدركت رد الفعل في أحلامها، بمجرد أن فتحت عينيها تطلعت للإنجليزي بعينين يملؤهما الامتنان، بدوره ارتد واقفاً كمن رأى عنكبوت الرتيلاء.

- ماذا تفعلين هنا؟

فركت لاتونينا عينيها وابتسمت.

- جاءني إيجينيو ثامورا وطلب مني أن آتي إلى هذا الفندق، وأنتك على علم بالأمر. وأخبرني إن لم أجدك، أن أنتظرك لحين عودتك. أنا هنا منذ أمس. ظننت أنك رحلت عائدا إلى بلدك.

- هل طلب منك إيجينيو ثامورا المجيء؟ (سأل أنتوني) وهل أخبرك بالسبب؟

- قال لي إنك ستأخذني معك إلى أوروبا.

عندما قالت ذلك أشارت إلى أسفل المقعد. مصدوما، رأى أنتوني بقجة منتفخة ملفوفة في منديل كاروهات.

- اسمعي تونينا (قال محاولا الحفاظ على هدوئه والتحدث بعبارات بسيطة وواضحة) لا أعرف بماذا أخبرك إيجينيو ثامورا، لكن أيا كان، فليس له أي أساس من الصحة. صحيح أننا تناولنا الغداء سويا، عند منتصف النهار أمس، بناء على طلبه. كان شديد التوتر، وأثناء الغداء تكلم بالكثير من السخافات، ورأيت عدم مقاطعته لثلا تتفاقم حالته. لاحقا تعرضت لأحداث أكثر خطورة أنستي. مما سبق لم يكن هناك ما يستدعي إزالة أي سوء تفاهم. وإذا كان إيجينيو ثامورا قد توصل لاستنتاجات خاطئة بشأن تحفظي، فهذه مشكلته، وليس مشكلتي. أنتِ تفهميني، أليس كذلك؟

أومات لا تونينا بالإيجاب. هدا أنتوني واتجه إلى السلم المؤدي إلى الغرف. وعندما وصل إلى الدرجة الأولى، التفت ليري إن كانت لا تونينا قد غادرت الفندق فوجدها ملتصقة بعقبه، ممسكة بالبقجة في يدها. إما أنها لم تسمع التوضيح أو أنها لم تفهمه؛ أو أنها فهمت ولا تنوي إظهار أنها المقصودة

بالكلام. أدرك أنتوني أنه يجب أن يتصرف بأسلوب عنيف لا لبس فيه: الحل الوحيد هو أن يجبر الصبية من رقبتها وطردها في الشارع بركلة في مؤخرتها البائسة. هذه هي اللغة الوحيدة المناسبة للأشخاص دنيئي النفس وضياعي الأصل. ربما يرفض موظف الاستقبال مشهد العنف في بهو الفندق، ولكنه بدون شك سيستوعب الموقف ويتضامن معه. متحمسا لهذه الفكرة، وضع أنتوني إحدى يديه على كتف لا تونينا وتفحصها من أعلى لأسفل.

- لم تتناولي شيئا منذ الأمس، أليس كذلك؟ (سألها. وإزاء إيماءتها الصامتة، أضاف) جلبت تموينا في هذا الكيس اصعدي للغرفة وسأعطيك لقمة. بعد ذلك سنرى.

بعد أن قال ذلك التفت لموظف الاستقبال، الذي كان يتابع المشهد بفضول.

- أنا في حجرتي ولا أريد أن يزعجني أيا من كان تحت أي ظرف من الظروف (قال له).

رفع موظف الاستقبال حاجبيه، وبدرت منه إشارة لحفظ احترام المكان. عندما انتبهت لا تونينا ذلك، صعدت ثلاث درجات لكي تكون في مستوى الإنجليزي وهمست في أذنه - أعطه بقشيشا.

أخرج أنتوني بسرعة ورقة من فئة خمس بيزيتات واتجه نحو موظف الاستقبال وتركها له على طاولة الكونتر. وضعها موظف الاستقبال في جيبه بدون أن ينبس ببنت شفة وسرح ببصره في كرائش السقف بينما صعّد أنتوني ولا تونينا السلم عدوا.

في الغرفة، قدم أنتوني كيس الطعام إلى لا تونينا، ورجاها أن تترك شيئا

من أجل العشاء، ثم استلقى في السرير بثيابه واستغرق في النوم في الحال. عندما استيقظ، كانت الحجرة مظلمة؛ حل الليل وتسرب من النافذة ضوء شاحب من أعمدة الإنارة العمومية. كانت لاتونينا نائمة إلى جواره، متكورة على نفسها. قبل أن تأوي إلى الفراش نزعت عنه ثيابه وحذاه وغطته بالملاءة والبطانية. استدار أنتوني ليغرق مجددا في نوم هانى.

انتزعت من هذه السكينة طرقات لحوحة على الباب. سأل من فأجابه صوت ذكوري.

- صديق، افتح.

- ومن يضمن لي حسن نواياك؟ (قال أنتوني).

- أنا بنفسى (أجاب الصوت) أنا جييرمو ديل بايى، نجل دوق إجوالادا. سبق وتعارفنا في منزل عائلتى، ورأيتك الليلة الماضية في ندوة خوسيه أنطونيو بحانة الحوت السعيد.

أيقظ الحوار لاتونينا أيضا. وإدراكا منها لوضعها ولأنها فيما يبدو معتادة على مواقف مشابهة، قفزت من الفراش سترت نفسها بثيائها المهلهلة، ثم جمعت الثياب المبعثرة على الأرض واختبأت في الدولاب. ارتدى أنتوني ثيابه وفتح الباب. دخل جييرمو ديل البايى الحجرة بدون تردد. وعلى غرار المرات السابقة كان يرتدي ثيابا أنيقة غير متناسقة. وبابتسامة عريضة ودودة مديده لمصافحة أنتوني.

- معذرة على استقبالك وسط هذه الفوضى (قال الإنجليزي) لم أكن اتوقع زيارات. في الحقيقة تركت تعليقات في الاستقبال ألا يسمحوا لأحد بالصعود مهما كانت الأسباب.

- هكذا إذن، (قال الوافد الجديد مغيرا تعبيره من الابتسامة إلى ضحكة

مراهقة) موظف الاستقبال لم يكن يريد السماح لي بالدخول. شهرت في وجهه المسدس فاقتنع. أنا لست بلطجيا (أضاف بسرعة إزاء شحوب وجه محدثه المفاجئ) في الظروف العادية لم أكن لأفاجئك. لكن أحتاج للحديث معك بصورة عاجلة.

أغلق أنتوني الباب، وقدم له المقعد الوحيد، بينما جلس هو على السرير، بعد أن ساوى الفراش لإخفاء أثر استخدامه السابق.

- لا تنزعج (قال جييرموديل بايي) لا أحتاج سوى بضع دقائق من وقتك. هل نحن بمفردنا؟ أرى أننا كذلك. أقصد إنه إذا كان بوسعنا التحدث بمأمن من أن نسمعنا أحد. الموضوع في منتهى الخطورة كما سبق أن أخبرتك.

رأى أنتوني أنه ليس من الملائم الكشف عن وجود العاهرة الصغيرة في الدولاب، داعيا إياه للإفصاح عن سبب مجيئه. التزم جييرموديل بايي الصمت لبرهة، كما لو أنه في اللحظة الأخيرة راوده الشك في مدى صواب قراره. بتردد يكشف بوضوح خجلا أصيلا وشعورا بعدم الأمان جدير بسنه، بادر بالاعتذار عن نبرة الغرور التي صدرت عنه في لقاءاتها السابقة. لطالما شعر بالتوتر في منزل والديه، اللذين يصران على معاملته كما لو كان مازال طفلا. تحت ضغط الأسرة درس القانون، بدون رغبة أو ميل. كان شاعرا بالفطرة، ولكن ليس مثل الرومانسيين أو شعراء الطبيعة، بل من أتباع مدرسة مارينتي. شغل الشعر والنشاط السياسي كل تفكيره. ربما لهذا لم تكن له رفيقة عاطفية. انضم في الجامعة إلى النقابة الجامعية الإسبانية الفاشية (S.E.U) منجذبا في البداية لأفكار الفلانخي وفيما بعد للشخصية الأسرة التي يتمتع بها زعيم الفلانخي. حاليا، في أوقات فراغه، يعمل في المركز، للمعاونة في أعمال التنظيم والدعاية.

- إنه عمل روتيني، أضاف على عجل، لا يحول دون القيام بأعمال عامة، غالباً ما تكون عنيفة.

- أما فيما يتعلق بسبب مجيئي إلى هنا (تابع جيري مو ديل باي) فسأحاول توضيح ذلك بأفضل أسلوب ممكن. لم تستقر أفكارني بعد. لكن إذا استمعت إليّ حتى النهاية، فسوف تستوعب سبب قلقي وكذلك سبب اختياري لك لكي أطلعك عليه.

لاذ بالصمت مجدداً، مسح على وجهه براحة يده، فيما رمق الحجرة بنظرة متفحصة لمحتوياتها الضئيلة.

- سوف أدخل في صلب الموضوع مباشرة. هناك أمر غريب يحدث بين صفوف الفلانخي. لدي شكوك بصدد وجود خائن بيننا. لا أقصد عميلاً من الشرطة. هذا لدينا بالفعل: كنا سنشعر بضالة أكبر لو لم تراقبنا وزارة الداخلية عن كثب. نحن كثيرون ومن المستحيل ضمان ولاء الجميع فرداً فرداً من أنصارنا. كما سبق أن قلت لك هذا أمر لا أهمية له، وأنا لم أت إلى هنا لأجل شيء تافه كهذا. أقصد نوعاً آخر من الخيانة.

ما إن أفصح عن طبيعة المشكلة، حتى هدأ جيري مو ديل باي واكتسب حديثه نبرة أكثر وداً، أقرب للحميمية. وعلى الرغم من رعونته كشاب عديم الخبرة فقد كان يتمتع بوضع فريد، فهو مطلع عن قرب على كواليس الحزب الذي انضم إليه، لدرجة أنه بوسعه التعرف بشكل متزامن على خوسيه أنطونيو وهو يقوم بدور القائد النشط الواثق من نفسه والمعتد بأفكاره واستراتيجيته، وفي الوقت نفسه على الجانب الآخر من شخصيته في الدائرة المحدودة في كنف الأسرة، بصحبة باكيثا، خوسيه أنطونيو الإنسان، بقرارته ومتناقضاته، في أوقات انهياره وفتور حماسه، وهي نقاط ضعف لا يستطيع الإفصاح عنها ولا حتى أمام أكثر أصدقائه حميمية. سمح له هذا بإدراك

مدى فظاعة العزلة التي يقاسيها الزعيم.

عندما استمع إليه أنتوني، تعرف في هذا الفتى الثري، المدلل، ذي المظهر الطفولي مع لمحة من خفة ظل، على بعد النظر والذكاء المتفجر، والتي لمحها في شقيقته. نبه هذا اليقين الإنجليزي إلى: أنه خلال اليومين الماضيين شعر لأكثر من مرة أنه كان ألعوبة بين يدي اثنتين من النساء ومن ثم لم يعد مستعدا لتكرار التجربة مع هذا الصبي الغر.

- أنفهم ما تحكيه (قال) ولكن ما علاقة الخيانة بكل هذا؟

نهض عضو الفلانخي الشاب من مقعده وقطع الغرفة بخطوات عصبية محاولا قدر الإمكان عدم الاقتراب من النافذة.

- ألم تفهم؟ (صاح) هناك من يحاول التخلص من خوسيه أنطونيو للسيطرة على زمام الثورة أو لوأدها في مهدها.

- هذه مجرد تكهنات، جيرمو. هل يوجد أي إثبات عليها؟

- لهذا بالتحديد (قال جيرمو ديل بايي منفعلا) لو كان لدي دليل، معلومة ولو بسيطة، لذهبت إلى الزعيم مباشرة وأخبرته بالأمر، بدون لف أو دوران. ولكن إذا جئت إليه بيدين خاويتين، إلا من مجرد افتراضات، فكيف سيحمل الأمر؟ ستشتعل ثورة غضبه وسيأمر بمعاقبتي. ومع ذلك، أنا على يقين من أن حدسي لا يخدعني. هناك أمر خطير يجري، أمر ستكون له عواقب وخيمة سواء على الحركة أو على إسبانيا كلها.

ترك أنتوني فاصلا زمنيا قصيرا قبل الرد لكي يتأكد من فارق الأداء.

- هذه هي مشكلة الإسبان الأزلية، (قال في النهاية باسطا ذراعيه كما لو كان يحاول أن يحيط بهما كل الشعب الإسباني) لديكم حدث لكن تفتقرون إلى المنهجية. حتى بيلاثكيث عانى من نفس العيب. هل تتصور أنه بالرغم

من كل تأهيله التقني، بالرغم من السنوات العديدة التي قضاها في إيطاليا، لم يستطع مطلقاً إتقان أبسط قوانين المنظور الأساسية؟ أنت نفسك، وكما سبق أن قلت منذ لحظة، درست القانون، ولكن بدلاً من أن تتصرف كرجل قانون يدقق في الأحداث المؤكدة ومدى صحة الأدلة والبراهين، تفكر وتتصرف بمنطق شاعر. هذه الأيام صار شائعاً ادعاء أن الشعر وسيلة معرفية، لكني لا أتفق مع هذا، على الأقل فيما يتعلق بمثل هذه القضايا. على العكس، أنا أعتقد أننا يجب أن نقدم المنطق على ما سواه، إذا لم نكن نريد الإنجراف نحو الفوضى. علينا أن نتعايش مع عالم يقوم على المصالح المتضاربة، وتقوم هذه المعيشة على أساس الالتزام الجماعي بقواعد واضحة ومتساوية للجميع.

توقف لبرهة ثم أضاف بابتسامة وادعة، ليخفف من وقع النبذة التلقينية لكلامه:

- أخشى أنني مع هذه الأفكار لن يكون بوسعي الانضمام لصفوفكم مطلقاً.

- أنا لا أطلب منك الكثير (أجاب جيرومو ديل بايي) جئت فقط لأطلب منك شيئاً محدداً. وسوف تسألني، ولماذا أنا بالتحديد؟ الأمر في منتهى البساطة: لأنك أجنبي، وصلت تواء، وهذا يعفك من أي رابط له علاقة بأسباب قلقي. ليس لديك أية صلة بالفلانخي، أو أية حركات سياسية. في الوقت نفسه أعتبرك ذكياً وشريفاً، إنساناً طيباً، علاوة على أنني أدركت أن بينك وبين خوسيه أنطونيو، ذلك النوع من المودة والتناغم الذي لا يوصف والذي يرسخ الصداقة بين الأشخاص ذوي الأفكار والطباع المختلفة إلى حد التعارض.

- حسناً، فلندخل في الموضوع. ماذا تريدني أن أفعل؟

- تحدث معه. بدون أن تذكرني بالتأكيد. أطلعه على التحذير. الزعيم

حاد الذكاء وسيتفهم على الفور خطورة الأمر.

- أو سيأمر بأن ينتقموا مني (قال الإنجليزي) تخميناتك بشأن علاقتي بخوسيه أنطونيو شديدة الاعتبار بقدر تخميناتك عن كل ما عدا ذلك. الوضع السياسي بالغ التعقيد؛ وليس من المستغرب انتشار التوتر والشكوك بين من يتعين عليهم تقرير مستقبل إسبانيا. إذا تدخل أجنبي وسط كل هذه البلبلة لبث المخاوف والشكوك، فإما أن لا يكثرث خوسيه أنطونيو بي أو يعتبرني مخبولا. أو عميل محرض. ومع ذلك (أضف حينما رأى الإحباط يرتسم على وجه مستمعه الطفولي) سأحاول التحدث معه إذا سنحت فرصة مناسبة. لا أستطيع أن أعدك بأكثر من هذا.

هذا التصريح المبهم كان كافيا لتشرق من جديد ملامح الشاب الفلانخي الجامح، فقفز من مقعده باسطا يده بقوة للإنجليزي.

- كنت أعرف أنه بوسعي الوثوق بك! (صاح) شكرا! باسم الفلانخي الإسباني وبالأصالة عن نفسي، أشكرك يارفيق، وليحفظك الرب!

حاول أنتوني تخفيف من حدة هذا الاندفاع. ولأنه لم تكن لديه نية تنفيذ أي مما وعد، معولا على مغادرة البلاد سريعا، فقد عذب تعبير الامتنان الصادق ضميره. أدرك جييرمو ديل بايي أن الوقت قد حان لإنهاء المقابلة، ملتزما بالطريقة العسكرية المقتضبة التي يتبعها الفلانخي، مضفيا عليها طابعه الشاعر طوال المقابلة، قال:

- لن أزعجك أكثر من هذا. فقط رجاء أخير. لا تخبر والدي بأي شيء مما قلته لك الآن. وداعا.

بمجرد أن رحل، هرول أنتوني نحو الدولاب، مختنقة بسبب نقص الأوكسجين، أغشي على لا تونينا بين الثياب. حملها بين ذراعيه، ومددها

على السرير، فتح النافذة على مصراعها وشفعها بقوة عدة مرات حتى صدرت عنها آهة ضعيفة نهته إلى أن هذه المخلوقة البائسة مازالت تنتمي إلى عالم الأحياء. سعيدا للتحقق من ذلك، دثرها ببطانية ليحميها من برد الليل، ثم ارتدى معطفه وجلس يتمعن في مقعده في المؤامرة الجديدة التي حاول الفلانخي المنذع توريثه فيها، وسواء أكانت حقيقة أم خيال، فإنها ستكون مفصلية بالنسبة لمستقبل الأمة. كان أنتوني قد جاء إلى مدريد لتقدير سعر لوحة دون أن يدري كيف أصبح محور صدام كافة القوى المتصارعة في تاريخ إسبانيا. كان الإنجليزي يتأمل في حال هذا الوضع الذي لا يحسد عليه، عندما فتحت لا تونينا عينيها، نظرت حولها محاولة تذكر أين كانت وكيف انتهى بها الحال إلى هنا. في النهاية اغتصبت ابتسامة وغمغمت قائلة:

- معذرة. غلبنى النعاس دون أن أدري. كم الساعة الآن؟

- التاسعة والنصف.

- لقد تأخر الوقت، ويبدو أنك لم تتناول عشاءك.

أرادت النهوض، إلا أن أنتوني استبقاها في الفراش، طالبا منها أن تستريح. بعد ذلك أغلق النافذة، قرب المقعد من الطاولة والتهم باقي الطعام وكمية كبيرة من النبيذ الذي كان قد اشتراه هذا المساء. عندما انتهى كانت لا تونينا قد غرقت في النوم مجددا. فتح أنتوني مفكرته، وتأهب لتدوين الملاحظات المتأخرة، ولكنه لم يتمكن من كتابة كلمة واحدة. حل به التعب الناجم عن أحداث الأيام الماضية، فحفظ القلم وأغلق المفكرة، خلع ثيابه، أطفأ النور وأوى إلى الفراش مبعدا شاغلته بهدوء. غدا سأتحلص منها بأية طريقة، فكر. لكن في الوقت الراهن، مع وضعه المضطرب، فإن الصحبة الدافئة لهذه الصبية النائمة إلى جواره، جلبت له شعورا براحة زائفة ولكنها حميمة.

مكتبة -26-

t.me/t_pdf

نبه الضوء القوي المتسرب من بين مصراعي النافذة أنتوني وايتلاندر من استغراقه في النعاس لساعة متأخرة. كانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة والنصف، بينما كانت لاتونينا ترقد إلى جواره بطفولة لاهية. فيما كان يحاول ترتيب أحداث أمس في ذهنه وتقييم الموقف، نهض أنتوني، ارتدى ثيابه وخرج متسللا من الحجرة. في بهو الاستقبال استأذن في استخدام الهاتف طلب رقم دوق إجوالادا. رد كبير الخدم وأخبره أن سعادته لا يستطيع الرد على المكالمات. ألقى الإنجليزي بأن الأمر عاجل، متى يمكنني التحدث مع السيد الدوق؟ آه، لم يكن كبير الخدم مخولا للرد على السؤال؛ سعادته لم يسبق له أن أخبر الخدم بمخططاته. الشيء الوحيد الذي يستطيع اقتراحه هو متابعة الإنجليزي الاتصال بين الفينة والفينة. لربما حالفه الحظ.

عاد أنتوني أدراجه إلى الحجرة فوجد لاتونينا قد ارتدت ثيابها وتأهبت للخروج. كانت قد رتبت الفراش بعناية فائقة ونظفت الباقي. تدفقت أشعة الشمس من النافذة المفتوحة.

- سأغيب لبضع ساعات في الخارج، إن لم يكن لديك مانع (قالت الصبية) يجب أن أعتني بابني. لكن قد أرجع قبل ذلك، لو أحببت.

أجاب أنتوني بجفاء، أن تفعل ما يحلو لها، طالما ستركه في سلام، فرحلت لاتونينا مهرولة مطأطئة الرأس. بمجرد أن أصبح بمفرده، أخذ

أنتوني يلف ويدور كوحش حبيس في قفص. جلس أكثر من مرة أمام مفكرة ملاحظاته ونهض مجددا دون كتابة كلمة واحدة. اصطدمت محاولة أخرى للاتصال بالسيد الدوق برد سلبي مقتضب من كبير الخدم. قدح أنتوني زناد فكره محاولا فهم سبب التحول المفاجئ في سلوك الدوق. ربما عرف أن السلطة على علم بمخططاته ويفضل انتظار اللحظة المناسبة لوضعها حيز التنفيذ، لكن لو كان الأمر كذلك، لماذا لم يخبره بدلا من تهميشه؟ إذا كان قد راوده شك في إخلاصه، فمن الأجدى تبديده بأسرع ما يمكن.

حبيسا في غرفته مع هذه الأفكار تصطرع في رأسه، شعر بأن الأمر لم يعد محتملا. بعد نوم ليلة هنيئة والشمس الساطعة وسط سماء زرقاء صافية، بدت له مخاوف الأمس طفولية. دون التقليل من مصداقية كلمات لورد بومبلييه، لم يبد له منطقيا، من وجهة النظر السياسية، أن يهتم عميل بجهاز الاستخبارات الروسي بشخص تافه مثله. وحتى لو تقاطعت سبلهما، لا يمكن أن يحدث شيء في أوج النهار ووسط المارة في قلب شارع بوسط المدينة. لم يتبق شيء من المؤن التي اشتراها مساء أمس. وكأن المشاكل التي يتعين عليه مواجهتها كانت بالهينة، أصبح في رقبته الآن فم آخر يجب أن يطعمه.

عندما وطأت قدمه الرصيف، شعر بالسعادة لاتخاذ ذلك القرار، وراوده شعور بأنه ترك همومه بين زوايا بهو الفندق المظلمة. أدرك فقط عند وصوله إلى ميدان سانتا آنا، التغيير الذي حل بالطقس خلال الساعات الأخيرة. في هذا الجزء من مدريد، الخالي من الأشجار والنباتات، كان قدوم الربيع يتنفس في الهواء والألوان، كما لو أن تغييرا حل بالجو العام. لم يكن ليحدث سوء تحت تلك السماء المتألقة التي تحف بالمدينة وكل المتجولين بين أرجائها.

بعد تناول إفطار مكون من قهوة وشطيرة دجاج، ومأخوذا بالفوران الربيعي، أخذ يتمشى، وبالمصادفة وجد نفسه مرة أخرى أمام متحف

البرادو. إذا كان مضطرا للمغادرة مدريد على وجه السرعة، فلن يفعل بدون توديع لوحاته الحبيبة. بينما كان يصعد السلم المنحدر، طرأت على ذهنه فكرة قاتلة: ربما كانت هذه آخر فرصة لي شاهد أعمالاً فنية عاش بصحبتها لحظات من النشوة. إذا كان الجنون المختمر بين كل قطاعات المجتمع وصل إلى حد المواجهة المسلحة التي يتنبأ بها الجميع، فمن يستطيع ضمان أن كل هذه الكنوز الفنية التي لا حصر لها الموزعة بين جميع أنحاء البلاد لن تجرفها الدوامة؟

محبطاً من هذه الأفكار التشاؤمية تجول بين قاعات المتحف دون أن يلحظ أن شخصا ملتحفا بمعطف مكفرلين ويعتمر قبعة إيطالية صغيرة يتبعه عن بعد، محتبثاً خلف باكية أو عامود حين يتوقف الهدف الذي يطارده أمام إحدى اللوحات المعروضة. كان إجراء احترازيا مبررا، لأنه في تلك الساعة لم يكن هناك أي زائر على الإطلاق في المتحف بالكامل، لكنه من ناحية أخرى لم يكن مبررا، لأن أنتوني لم يكن يعر انتباها ولا حتى للأعمال التي يقع بصره عليها. فبمجرد مشاهدة أول لوحة لبيلاثكيث، تخلص من تأملاته وحصر تركيزه في اللوحات. هذه المرة جذبته بقوة لا تقاوم شخصيتان فريدتان.

دييجو دي أئيدو، الملقب بـ«البريمو» وفرانثيسكو ليثكانو، واللذان كانا ليحصلوا في هذا العالم على مكانة ماثلة أو أقل من الكلاب، لولا أن بيلاثكيث أدخلهما عالم الخلود من أوسع الأبواب. كان أئيدو وليثكانو قزمين التحقا بفريق المهرجين الكبير ببلاط فيليب الرابع. يظهران في لوحات كبيرة طولها متر وعرضها خمسة وثمانون سنتيمتراً، وهو نفس مقاس بورترهبي الأيرتين مارجرينا وماريا تيريسا. كما يحملان نفس نظرة الرسام لموديلاته، سواء أكانوا أميرات أم أقزام، بدون ثناء أو شفقة. بيلاثكيث ليس إلهاً ولا يشعر أنه مختار للحكم على عالم وجدته مخلوقاً كما هو ولا شفاعة فيه؛ ومهمته تقتصر على إعادة انتاجه كما هو، وهذا ما تسري عليه.

من الواضح أن ليثكانو يعاني من تخلف عقلي؛ ومن المحتمل أيدو أيضا. بالرغم من ذكائهما المحدود، أو ربما لإبراز حقيقة أن المهرجين يقومان بأشياء تتطلب حدا أدنى من الذكاء والمهارة، وهما صفتان لا تتوافران فيهما: يمسك البريمو بكتاب ضخّم مفتوح مقارب لحجمه تقريبا؛ يمسك ليثكانو مجموعة من البطاقات كما لو كان سيفرق أوراق لعب. الصفحة المفتوحة من كتاب أيدو تبدو بها مخطوطة ومصورة، إلا أنها خدعة معتادة عند بيلاثكيث: من رؤيتها عن قرب تبدو الحروف والرسومات بقعتين متماثلتين. والأمر عينه مع أوراق اللعب. يحتل المهرجان المساحة الأكبر من اللوحة؛ على يمين كل تكوين ترى الخطوط العريضة لسلسلة جبال جواداراما؛ بعد الجبال، وغياب أية إشارات لمرجعيات أخرى يحيل القزمان إلى الريف؛ الضوء، ساعة متأخرة؛ التشكيل في المجمل يوحي بالتخلي. كما توحى للوهلة الأولى، عظمة الجبال في العمق، بفكرة التضاؤل مع التخلي.

كان أنتوني مبهورا بهاتين الشخصيتين، لدرجة أنه بدون أن ينتبه كان يحرك شفّيته كما لو كان يتحدث معها. في هذا اللحظة بدا له أن أيدو وليثكانو هما الشخصان الوحيدان القادران على تفهمه ومشاركته حزنه إزاء الكارثة المحدقة التي قد تدمر كل ما يعترض طريقها، ابتداء بكل ما هو جميل ونبيل، كما أنها لن ترحم الضعفاء. هذه ليست بلادي، غمغم الإنجليزي، موجهها بصره مرة لأحدهما ومرة للآخر، وسيكون من العبث أن أربط مصيري بمصير أناس لا تعتمد علي، أو حتى تعلم بوجودي. لا يمكن أن يعتبر مجرد تراجع حكيم انسحابا مشينا. لم يجر القزمان جوابا. كانا ينظران إلى الأمام، ولكن ليس إلى المتفرج، بل لشيء آخر، بيلاثكيث نفسه بالتأكيد حين كان يرسمهما، وربما إلى اللانهاية. لم تفاجئ هذه اللامبالاة أنتوني، فلم يكن يتوقع شيئا آخر. يمثل القزمان بالنسبة له، أهل مدريد، صحبة خرساء في رحلة نحو المجهول.

عندما استدار متجها لباب الخروج، وبينما لم يزل غارقا في عالم اللوحات الموازي، انتبه لوجود شخص يرتدي معطف ماكفرلين ويعتمر قبعة تيروال الإيطالية مقبلا نحوه بخطوات ثابتة. جعله هذا يهبط فجأة إلى أرض الواقع: إنه بدون شك الماكر كوليا الذي سينقض عليه بنواياه الإجرامية. مثلما يحدث في الكوايبس، أصاب الرعب ساقيه بالشلل، أراد أن يصرخ فلم تصدر حنجرتة أي صوت؛ دفعته غريزة البقاء لرفع ذراعيه وتحريكهما بلا هدف ليحمي نفسه وصد الاعتداء. إزاء رد فعله توقف الآخر مذعورا، رفع قبعته بلباقة وهتف بإنجليزية مؤثرة:

- محبة في الله، هل جنت، وايتلاندرز؟

حلت الدهشة محل الرعب في نفس أنتوني.

- جاريجو؟ إيدوين جاريجو؟

- لم أعرف كيف أجذك ولم أرغب في اللجوء إلى الجهات الرسمية، ومن ثم جئت إلى المتحف على قناعة بأني سأجذك عاجلا أم آجلا. وقلت لنفسي، على أسوأ الظروف، إن زيارة إلى البرادو بمثابة تعويض عن عناء الرحلة.

زالت الدهشة، واستحوذت على أنتوني ثورة غضب أعمى.

- لم تكن تتوقع ترحيبا حارا (تتم).

هز المرمم العجوز رأسه نافيا.

- من جانبك أنت، لا أتوقع أي شيء. ومع ذلك يجب أن تكون ممتنالي (وأضاف مشيرا إلى المهرجين الاثنين) أليس بوسعنا الحديث بدون حضور هذين التعيسين؟ أقيم على بعد خطوتين من هنا، في البالاس. هناك سنكون على راحتنا بدون إزعاج.

ساور الشك أنتوني. لو كان الأمر بيده لأرسل هذا المغرور المتطفل إلى الجحيم، ولكن مراعاة الذوق العام منعه من استدعاء عداوة أحد المرجعيات الدولية في المجال، بوسعه أن يفيد لأبعد الحدود وبالمثل يسبب له الكثير من المشاكل. بعد تفكير بسيط، صدرت عنه إيحاءة إذعان على مضمض وشرع في السير نحو باب الخروج يتبعه المرمم العجوز. عبرا ميدان باسيو ديل برادو دون أن ينبسا بينت شفة. بحثا في الميدان الصاحب عن ركن منزو، خلعا معطفيهما، انكمشا في مقعديهما ليطيلا الصمت الثقيل، إلى أن قال المرمم العجوز بصوت خافت:

- بحق جوبيتر، وايتلاندرز، تخل مرة في حياتك عن ارتيابك اللعين. هل تعتقد حقا أنني أريد سرقة مجد الاكتشاف؟ تعقل، أنا أمين الناشيونال جاليري، أنا شخصية مرموقة، وإذا سمحت لي بالتبجح، أحظى بسمعة عالمية ولم يعد أمامي سوى القليل لأتقاعد. فهل أجازف بإنجاز حياتي من أجل مغامرة غير مضمونة العواقب، ومشكوك في شرعيتها، إذا سمحت لي أن أخبرك بذلك؟ وإن قررت ارتكاب مثل هذه الحماقة، فهل سأتي خصيصا للبحث عنك لأطلعك على نواياي؟

تمهل أنتوني لثوان لكي يجيب. على الجانب الآخر من الصالون، كانت النغمات العذبة الصادرة من آلة «هارب» تحتوي حنق الحوار.

- لا تكن منافقا، جاريجو (قال في النهاية بهدوء بارد) هل تحاول إقناعي أنك تركت مكتبك بميدان الطرف الأغر، وشايك في السافوي، لتدخل عش الدبابير هذا من أجل هدف وحيد هو الحديث معي حول لوحة لم يتسن لك حتى رؤيتها؟ لا تُضحكني... لقد جئت لتحصل على قطعة من الكعكة، إن لم يكن الكعكة كلها، ولجأت إلى لاني الشخص الوحيد الذي بوسعه أن يقودك إلى محباً لوحة بيلاثكيث. لحسن الحظ بدافع الحذر لم أفصح عن ذلك في رسالتي، وإلا...

اقترب منها النادل لعلهما يرغبان في تناول شيء. طلب إيدوين جاريجو قهوة ولم يرغب أنتوني في شيء. عندما انصرف النادل، اتخذ المرمم العجوز موقف المتضرر.

- لطالما كنت شخصا عدوانيا، وايتلاندرز، (قال بدون ضغينة كمن يستعرض مواصفات قطعة أثاث) كنت كذلك أثناء الدراسة ومع الزمن تجذرت هذه الصفة فيك، بسبب عدم النجاح المهني، إن لم يزعجك أن أخبرك بهذا. أستوعب ذلك جيدا: لا أريد أن تكون لي أية علاقة بهذه اللوحة. لأنها مزيفة، وايتلاندرز، مزيفة. لا أقول إن الأمر يتعلق بعملية تزوير أو غش متعمد: ربما يعتقد الملاك الحاليون أنها أصلية، ربما يتصرفون بحسن نية. ولكن اللوحة ليست من أعمال بيلاثكيث. لم أترك نظام حياتي وآتي لأسرق منك أي شيء، وايتلاندرز. منذ بضعة أيام هاتفي أحد موظفي سفارتنا في مدريد ليطلعني على الموضوع وقرأ على رسالة مكتوبة بخط يدك. فانخرطت على الفور في الأمر من أجل غرض وحيد: تجنب ارتكاب سيادتك أية حماقة لا تحمد عقباها. لأنه بالرغم من عيوبك الشخصية، وسذاجتك، أعتبرك محترفا ذا قيمة كبيرة، ولا أريد أن أرى مستقبلك مدمرا، وأن تصبح أضحوكة العالم الأكاديمي. يمكنك أن تصدقني أو لا، ولكني أقول لك الحقيقة. أنا أعشق مهنتنا، وايتلاندرز، كرست لها كل حياتي، الفن كان وما يزال مصدر سعادتي وسر وجودي. وبالرغم من أنني لم أنا بنفسي عن الجدل، إلا أنني أحب زملاء مهنتي. أنتم أسرتي،...

تحشرج صوته إثر الشحنة العاطفية المتدفقة من كلماته، ومنعته من مواصلة الحديث. ولإخفاء ارتباكها، أخرج من جيبه العلوي منديلا قرمزيا مرره عدة مرات على جبينه وذقنه ووجنتيه. تحقق بعد ذلك من أثر هذه العملية في المنديل.

- مناخ مدريد يفسد التبرج، (أوضح وهو يطوي المنديل ويعيد تثبيته في موضعه) جاف جداً. يفسد اللوحات كذلك. أمل أن تكون قد أخذت هذا المعلومة في اعتبارك.

عاد النادل حاملاً صينية عليها فنجان موكا، إبريق حليب صغير، سكرية، ملعقة صغيرة، مفرش مشغول وكوب زجاجي بشفاط. ابتسم جاريجو برضا، فيما ندم أنتوني على تقشفه، ولكنه انتهز فرصة وجود النادل ليطلب واحد ويسكي بالصودا. بعد ذلك، بينما كان المرمم العجوز يرتشف القهوة بحركات رقيقة، قال:

- حضرتك لم ترها. أعني اللوحة. حضرتك لم ترّ اللوحة، أما أنا فنعم رأيتها.

نظف المرمم العجوز زوايتي فمه بميوعة تليق بمحظية بلاط ملكي قبل أن يجيب.

- لا حاجة لي بذلك. أنا كلب عجوز، وسبق أن مررت بحالات مماثلة. يكمن الشيطان عند مفترق الطرق ويعرض الأعاجيب على المسافرين المستعدين لبيع أرواحهم له. في الأخير كلها تنتهي إلى خداع مؤسف. الخداع جزء من طبيعة الشيطان. لقد شعرت بنفس الإغراءات؛ عرض عليّ شيطان «فاوست» بضاعته البراقة. دخان ورماد، وايتلاندرز، دخان ورماد.

- لكنك لم ترّ اللوحة (ألح أنتوني بدون قناعة كبيرة).

- لهذا تحديداً أعلم أنها مزيفة، ولهذا أنا هنا. ربما لو كنت رأيتها، لأصابني بريقها الزائف بالعمى مثلك. ما أسهل أن يرى الانسان ما يريد رؤيته. لو لم يكن الأمر على هذا النحو لما تزوج الرجال بالنساء ولفנית البشرية منذ آلاف السنين. رأى داروين المسألة بوضوح. آه، وايتلاندرز، وايتلاندرز،

كم مثال يمكن أن نعدده، كم من زملائنا، الأكثر استقامة ونزاهة خسروا تقديرهم بسبب رغبة جامحة؟ كم من نسب متسرع! كم من تأريخ خاطئ! كم من تفسير رمزي، كم من كشف مخفي في تفاصيل منظر طبيعي، في ثنية من ثنيات عباءة العذراء! كم من الإفراط في اللفظة لاكتشاف وتفسير، أمور غامضة ومبهمة بطبيعتها!

مال بجسده إلى الأمام وربّت براحة يده على ركة أنتوني عدة مرات، بإيجاء ساخر وأبوي في نفس الوقت.

- لا تنخدع، وايتلاندرز، عند تقييم عمل فني، فإن 50٪ ترجع للواقع، و50٪ الأخرى ترجع لذائقتنا، أحكامنا المسبقة، تربيتنا، وبصفة خاصة ظروفنا. وإذا لم يكن العمل ماثلا أمامنا وتتدخل الذاكرة، فيترجع ثقل الواقع إلى 10٪ فقط. الذاكرة ضعيفة، مبالغ، مهملة، الذكريات تتبادل البيانات فيما بينها. بالنسبة للهاوي، هذه المتغيرات لا قيمة لها؛ بل أحيانا من الممكن أن يلعب الانطباع الشخصي دورا محوريا في الفنون التشكيلية. لكن نحن محترفون، وايتلاندرز، ويجب أن نكافح خداع العواطف. ليست وظيفتنا التوصل لاكتشافات مثيرة، حتى في التفسير أو التقييم. تقتصر مهمتنا على تحليل النسيج، الألوان، الأطر، التشققات، حُجج البيع والشراء، وفي نهاية المطاف، كل ما يمكن أن يفيد في تثبيت الواقع وتجنب الفوضى.

عاود الاتكاء في مقعده، ثم ضم أطراف أصابعه، وتابع حديثه:

- منذ برهة، في البرادو كنت ألاحظك. كنت بعيدا، والضوء خافت ولم تعد عيناى كسابق عهدهما، ولكن مع ذلك، أنا على قناعة بأني رأيتك تتحدث مع ديجو دي أيدو وفرنيسكو ليثكانو. لست أنا من يلومك على هذا. لقد فتحت قلبي كثيرا للصور المرسومة، بمشاعر أكثر صدقا مما قد يتوقعه مني البشر والملائكة؛ لكم بكيت أمام بعض اللوحات، ليس بسبب التأثير الجمالي،

بل من جيشان الروح، على سبيل الاعتراف، كنوع من العلاج النفسي، أو أيا ما كان. ليس في هذا ما يعيب، طالما أدركنا ماهية هذا الإفراط اللحظي. بعد ذلك، وقت الجد، يجب حبس المشاعر بالمفتاح، الثقة في الوقائع فقط، في الإثباتات المباشرة، في المضاهاة... في أية ظروف شاهدت تلك اللوحة، وايتلاندرز؟ هل كنت بمفردك أم رافقك أحد؟ لعدة ساعات أم بضع دقائق فقط؟ ما هي المستندات التي اعتمدت عليها؟ وهل أخضعتها لأشعة أكس؟ لا يمكن لأحد التنظير في العصر الحديث بدون اللجوء لأشعة إكس. هل قمت حضرتك بذلك؟ لا تقل شيئا، وايتلاندرز، أعرف الإجابة عن هذه الأسئلة. هل مازلت مصرا على معارضتي؟

كان الويسكي قد حضر فشرب أنتوني جرعتين وافرتين. متحمسا من أثر المشروب، قال:

- أنا لا أعارضك، جاريجو. بل حضرتك الذي جئت من لندن لتخضعني لهذه النوعية من عمليات غسيل المخ الأكاديمي المتخفية وراء الدقة والمنهجية. أما بخصوص أسئلتك، فدعني أخبرك بشيء: بوسعي أن أجيبك عنها بالصواب أو الخطأ، أما أنت فلا، لأنك لم تر اللوحة وتتخبط كالأعمى. لا يخرج من فمك كلام عن الحكمة أو الخبرة، ودون ذلك بكثير عن حق الزمالة. ما يخرج من فمك ينم فقط عن الخوف من إحرازي انتصارا، يسخر من مسيرتك الوصلية، دجلك ووسائلك. لهذا جئت حتى هنا، جاريجو، لتعوق مهمتي، وإن لم تستطع، فلكي تقحم نفسك في الاكتشاف وتسرق مني جزءا من شيء لا ينتمي إلا لسواي.

زم المرمم العجوز شفتيه، رفع حاجبيه بحس مرح وصدر عنه صفيرا ناعما.

- هل نفست عما في صدرك، وايتلاندرز؟

- نعم

- حمدا لله. الآن صِف لي اللوحة.

- ولماذا يجب عليّ القيام بذلك؟

- لأنني الشخص الوحيد الذي بمقدوره تفهمك والرغبة تكاد تقتلك من أجل الحديث عن لوحتك الملعونة. في هذا اللحظة أنت بحاجة إلى أكثر مما أنا بحاجة إليك. تصاعد انفعالك حتى الآن. هذا طبيعي. لو كنت مكانك لكنت الآن أسير على الجدران.

سماجة المرمم العجوز أججت الصراع المحتدم داخل العلاقة القديمة بين المعلم وتلميذه.

- متر وثلاثون طولاً، في ثمانين سنتيمتر عرضاً، خلفية غامقة، بدون منظر طبيعي أو أي عناصر أخرى إضافية. تتوسط اللوحة أنثى عارية، مضطجعة بلا مبالاة على جانبها الأيسر. تمسك يدها اليمنى قطعة قماش زرقاء بارتفاع المنطقة المحرمة. يُذكر الوضع إلى حد ما بلوحة ديناي لتيزيانو، التي يحتمل أن يكون بيلاثكيث قد شاهدها في فلورنسا، أثناء أول أسفاره إلى إيطاليا. ملامح المرأة محددة بوضوح، ولا تتفق مع ملامح أيٍّ من الموديلات التي استعان بهن بيلاثكيث. الأسلوب متطابق مع لوحة «فينوس روكبي»، وبدون شك هي المرأة نفسها.

- عشيقة دون جاسبار جوميث دي هارو؟

- أو زوجته.

- هل تمزح، وايتلاندرز؟

- لطالما أشيع أن فينوس اللوحة قد تكون هي زوجة جوميث دي

هارو، دونيا أنطونيا دي لا ثيردا، ولهذا وضع بيلاثكيث غلالة على وجهها المنعكس في المرأة.

- من فضلك! هذه النظرية نتاج عقول مريضة! لا يمكن أن يسمح أي نبيل، وخصوصا لو كان إسبانيا لزوجته الشرعية أن تقف عارية أمام رسام، أو أن يأمر بعمل لوحة كهذه. لا توجد سابقة...

- لا يحتاج أي سلوك إنساني لسابقة لكي يكون ممكنا، مثلما أنه لم يسبق أن وُجد فنان مثل بيلاثكيث.

- أدرك مغزى ما ترمي إليه: الرسام العاشق للموديل، لوحة غير شرعية، غراميات مستحيلة، انتقام، خيال روايات في النهاية. هل أنت على استعداد للنزول إلى هذا المستوى من الانحطاط للحصول على قدر ضئيل من التقدير؟ بيننا كزملاء، وايتلاندرز، لا تحاول أن تبيني أنا هذه التفاهات.

- نظريتي ليست مخالفة للمنطق (أجاب أنتوني، وإن قرر هذه المرة عدم الالتفات إلى الإهانات والاستفادة من معارف محدثه) المجتمع الإسباني في العصر الذهبي كان أكثر تحررا بكثير من المجتمع الإنجليزي؛ لا تنطبق من قريب أو بعيد مع الصورة القائمة التي توارثناها عن فكرة الأسطورة السوداء. كانت إسبانيا أقرب إلى إيطاليا من أي بلد آخر. تظهر لنا كوميديات لوبي دي بيجا أو تيرسو دي مولينا أو رواية الكيخوته نفسها بعض العادات التي تنم عن تراخ، علاوة على أن الفكرة الجبارة عن الشرف في مسرح كالديرون، تعد اعترافا ضمنيا بهشاشة وتهور وجهوج المرأة. إذا كنا نعتقد في أدب تلك الفترة، فإن نساء إسبانيا كن مثقفات ومعتدات بأنفسهن؛ لا يتهيين خوض مغامرات حول العالم متنكرات في زي الرجال. في رأيي، الأحداث وقعت على النحو التالي: سيد نبيل، منحل، متزوج من امرأة ذكية وغير عادية، يأمر برسم لوحة موضوعها أسطوري، ولكن في العمق هي لوحة لأنثى عارية حسية خليعة.

لا يجب أن تغادر اللوحة مخدع دون جاسبار الخاص مطلقا، ومن ثم لا تجد زوجته مانعا من المشاركة في اللعبة. لا يجب علينا استبعاد أنها قد تكون متواطئة مع انحلال زوجها، بدلا من افتراض أنها زوجة ورعة وضحية مغلوبة على أمرها. إنه بيلاثكيث أولا وأخيرا؛ أن يرسم لها بورتريه بنفسه، لا يرضي فقط غرورها، بل يضمن لها مكانة متميزة في تاريخ الفن. إذا كانت فينوس دي روكبي حقيقة هي دونيا أنطونيا دي لا ثيردا، حتى حضرتك يجب أن تقر بأنها امرأة ذات جمال غير عادي، وهذا ليس لأنها محتشمة. دعنا لا نفقد خيط الأحداث. تنشأ بين دونيا أنطونيا دي لا ثيردا والفنان علاقة مشبوبة من الإعجاب المتبادل، تدفع بيلاثكيث لأن يرسم سرا، لوحة أخرى عارية، دون إخفاء وجه الموديل هذه المرة. إنه السبيل الوحيد لكي يمتلك للأبد الأنثى التي عشقها، لكي يطيل أمد علاقة محكوم عليها بالفشل. لتجنب المشاكل، يرحل إلى إيطاليا، ويحمل اللوحة معه. لو تركها في مدريد لكان عرضة لأن يكتشفها أحد. بعد عامين، يستدعي الملك رسامه فيعود بيلاثكيث إلى إسبانيا. تظل اللوحة في إيطاليا. يقتنيها كاردينال إسباني فيما بعد ويعيدها إلى موطنها. تظل اللوحة مخبأة وسط إرث عائلي ضخم، تنتقل من جيل إلى جيل ثم تظهر الآن. ما هو الأمر غير المنطقي في القصة؟

- غير المنطقي، لا شيء؛ ما هو حقيقي ضئيل جدا. كل هذا نتاج مخيلتك. من الممكن أن يكون قد حدث هذا أو شيء آخر على النقيض منه تماما؛ محتمل أن اللوحة يكون قد رسمها فنان آخر، ربما مارتينيث ديل ماثو. أو ما أنطونيو برأسه نافيا: كان قد فكر بالفعل في هذا الاحتمال واستبعده. ولد خوان باوتيستا مارتينيث ديل ماثو في كوينكا 1605، وكان أفضل تلاميذ ومساعد بيلاثكيث، وتزوج من ابنته فرانيسكا، عام 1633. وبعد وفاة بيلاثكيث عُين رسام البلاط. كثيرا ما تنسب أعمال مارتينيث ديل ماثو

إلى بيلاثكيث. كان أنتوني نفسه قد كتب مقالا يحلل فيه الاختلافات بين الرسامين. هز المرمم العجوز كتفيه بلامبالاة.

- لست على استعداد أن أمنحك أكثر من ذلك. أو أن أجادلك: على هذا النحو أرى أنه من غير المجدي إقناعك. فلنترك المسألة معلقة. جئت من أجلك، إلا أن الاستماع لكلامك الفارغ ليس الأمر الوحيد الذي يمكنني فعله في مدريد. سأمكنك لعدة أيام، سأراجع بعض الوثائق، سأزور أصدقاء وزملاء، قد تأخذني قدمي إلى توليدو أو إلى الإسكوريال، كما سأحاول مشاهدة مصارعة الثيران: أعشق حملة الرايات مساعدي مصارعي الثيران. إذا احتجت مني شيئاً، اترك رسالة في استقبال الفندق. أعرف ماذا ستفعل.

عندما خرج من البالاس، لاحظ وايتلاندرز نمو براعم خضراء على أفرع الشجر التي تساقطت أوراقها. استثار مشاعره هذا الإعلان الرقيق عن الربيع: أي سبب كان كافيا لكي يفجر الحزن الذي أغرقه فيه الحديث مع إيدوين جاريجو، وذلك ليس من تأثير الإهانات التي تلقاها أو بسبب حجج المرمم العجوز التي فندت قناعاته بما لا يدع مجالاً للشك. إلا أنه إزاء العضلة التي وجد نفسه فيها لم يكن يسمح لنفسه بالتخاذل أو التراجع. وإذا كان سيتخلى عن مهمته بسبب الخوف من الوقوع في خطأ أخرق، فماذا ينتظر؟ العودة إلى التذمر من الأفق المحدود للحياة الأكاديمية، بتفاصيلها المملة، ونزاعاتها الخسيسة. يحتاج إلى شجاعة كبيرة سواء للمضي قدما أو للتراجع. فضلا عن الخوف من إقدام جاريجو الخبيث على خوض المخاطرة التي نصحه بالإحجام عنها ليحصل هو في النهاية على الجائزة الكبرى. لأنه لا يجب أن يخدع نفسه؛ في الظروف العادية، كان إيدوين جاريجو وليس أنتوني وايتلاندرز، هو الشخص المثالي للحكم على أصالة وقيمة لوحة على هذا القدر من الأهمية. لولا الموقف السياسي المضطرب في إسبانيا، وبصفة خاصة العداء المستحکم بين العجوز النكد جاريجو، والنصاب بدرو تيتشر، لما وقع الاختيار على خبير درجة ثانية.

بدون شك، لهذا السبب، بمجرد أن علم جاريجو بالأمر، هرول إلى مدريد، عارضا مكانته العلمية وخبراته لاستعادة البطولة الضائعة. ولكنه

لن ينجح في الإفلات بفعلته، أقسم أنتوني بينه وبين نفسه. بهذا التصميم على الهدف، وبكيس متفخ بالطعام الذي اشتراه من نفس محل بقالة اليوم السابق، دخل بهو الفندق وطلب مفتاح الغرفة.

- لقد أعطيته إلى الأنسة (قال موظف الاستقبال) إنها تنتظر في الأعلى.

لم يتوقف أنتوني عند نبرة الاحترام من جانب موظف الاستقبال واستخدامه تعبير أنسة ليشير إلى لا تونينا، مفترضا أنها عادت، بعد الانتهاء من التزاماتها الأمومية، وأنها مصممة على ألا تفرق عنه، ولو لدقيقة واحدة أكثر مما ينبغي. لكن عندما طرق الباب بأطراف أصابعه، ممسكا في توازن هس بالكيس، كانت من فتحت له الباب هي باكيثا ديل بايي، ماركيزة كورنيليا.

- عمت صباحا، سنيور وايتلاندرز (قالت بمرح بعد اختبار التأثير الذي تسبب فيه وجودها عليه) فلتعذر جرأتي. أود الحديث مع حضرتك، ووجدت أنه من غير اللائق انتظارك في بهو الاستقبال، عرضة لفضول الناس. تكرم موظف الاستقبال بإعطائي المفتاح. إذا كنت قد تسببت لك في أية مضايقة رجاء أخبرني وسوف أنصرف.

- بالطبع لا، على الإطلاق. (غمغم الإنجليزي منشغلا بوضع المؤون على الطاولة، وتعليق المعطف والقبعة على المشجب) في الحقيقة لم أكن أنتظر... أخبرني موظف الاستقبال بأمر، لكن لم أتصور أن تكوني حضرتك، كما هو بديهي...

وقفت الفتاة الشابة أمام النافذة. في ضوء منتصف النهار الربيعي الصافي، تألقت ملاحظها ولمعت خصلات شعرها المجعدة.

- حسبتني من إذن؟

- أوه، لا أحد. غاية ما هنالك... في الآونة الأخيرة استقبلت زيارات غير متوقعة بصورة غير معتادة. كما تعلمين: الشرطة، موظفين من السفارة... شوستني، إن صح التعبير.

بينما جال ببصره في منظر الحجرة البائسة الوضيعة، تذكر أنتوني صالون فندق البالاس الفخم، متخيلا بحسرة كبيرة، رحابة وأناقة وراحة غرفه، تأكدت له مرة أخرى وضاعة الظروف التي كان يتعين عليه مواجهتها في اللحظات الحاسمة من حياته.

- لكن لا يمكن أن تبقي واقفة (أضف باذلا جهدا لكي يضي على اللقاء نوعا من عزة النفس) تفضلي بالجلوس. ليس لدي سوى مقعد وحيد. كما ترين هذه الحجرة لا تتوافر فيها الشروط...

- اللازمة لغرضي (قاطعته بدون أن تترك موقعها بجوار النافذة).

- آه.

- ألا ينتابك الفضول لمعرفة غرضي؟

- نعم، نعم، بالتأكيد... إنه...، معذرة، إنها المفاجأة. انظري لقد أحضرت طعاما... بهذه الطريقة يمكنني العمل بدون توقف... صدرت عن الماركيزة الشابة إيحاءة تنم عن نفاد صبر.

- أنتوني، لست مضطرا لأن تقدم لي تفسيرات حول عاداتك. (قالت بصوت خافت، متدرجة بجرأة للتعامل بدون ألقاب) ولا تغير الحديث. جئت لأني منذ عدة أيام طلبت منك معروفا، وعرضت عليك المقابل. أنا هنا لكي أوفي بنصبي من الاتفاق.

- أو...، ولكنني لم أفعل شيئا.

- ترتيب العناصر لا يغير الناتج (قالت باكيثا بعبثية شخص غير مستعد أن يجعل المنطق يحول بينه وبين ما عقد عزمه عليه) أنا سأوفي، وأنت يتعين عليك أن تقوم بنفس الشيء، هل تبدو لك صفقة سيئة إلى هذا الحد؟

- أوه، لا (قال الإنجليزي مذهولا) في الحقيقة لم أتعامل معك مطلقا على محمل الجد.

- ولماذا؟ ألا تأخذ كلام النساء على محمل الجد، أم لا تأخذني أنا على محمل الجد؟

- لا هذا ولا ذاك...، ولكن لأن الأمر يتعلق بشخص مثلك، امرأة أرستقراطية...

- دعك من هذه الترهات! (قالت ماركيزة كورنيليا الشابة) الأرستقراطية رمز للرجعية والتيار المحافظ، لكن نحن الأرستقراطيين نحدد التزامنا كما يحلو لنا. البورجوازيون لديهم المال؛ الأرستقراطيون يتمتعون بالجاه.

فكر أنتوني أن الأحمق جاريجو ربما قد استمع إلى ذلك الطرح البسيط والمباشر، المنطبق حرفيا على دونيا أنطونيا دي لا ثيردا. إلا إنه لم يكن بوسعه على الإطلاق التعليق على هذا أو على أي شيء مما كان قد حدث هناك.

- ثم ماذا...؟ (شرع في القول).

- هو؟ (قالت هي بابتسامة ساخرة تلاشى مع بريقها وجود الإنجليزي) لن تعرف أبدا ما لم تقل ذلك بنفسك. أثق في شهامتك، علاوة على أن جزءا أساسيا من اتفاقنا، أن إقامتك في إسبانيا لن تطول لدقيقة واحدة أكثر مما ينبغي. دعنا لا نضع مزيدا من الوقت. كررت مرة أخرى أني ذاهبة إلى القديس، وسينتهي الأمر بشك أحدهم في اللوثة الدينية المفاجئة التي اعترتني.

مزاح باكيثا البارد لم يكن العنصر الأكثر ملاءمة لإثارة حماس الإنجليزي، الذي بدوره، لم تغب عنه عبثية الموقف أو عواقبه الوخيمة على كل من وجدوا أنفسهم متورطين رغما عنهم في هذه المغامرة. إلا أن كل هذه الاعتبارات ما كانت لتجدي نفعا أمام حضور باكيثا الحي داخل حيز الحجر الضيق، والتي يبدو أن جوها قد أصبح مشحونا بتيار كهربى. فكر أنتوني، إنه نفس الشعور الذي عاينه بيلاثكيث مع زوجة دون جاسبار جوميث ديل هارو، مع شعور بالخطر على مكانته الاجتماعية على مستقبله الفني وعلى حياته، فيما اندفع متخليا عن كل تعقل نحو أحضان الشابة الحسنة.

بعد ذلك بنصف ساعة، التقطت حقيبة يدها من على الأرض وأخرجت علبة سجائر وقداحة وأشعلت سيجارة.
- لم أرك تدخين من قبل. (قال أنتوني).

- لا أدخن إلا في مناسبات خاصة. هل أضايقك؟ (كان صوتها يشي بنبرة عتاب، خُيل لأنتوني أنه يشوبها مسحة حنان. حينها بدرت عنه لمحة لعناقها، رفضت مبادرته برقة).

- سوف أنهي السيجارة وأرحل. (غمغمت فيما غابت نظراتها في بقع السقف) سبق وأخبرتك بأني لا أستطيع الغياب لفترة طويلة. بدون ذكر الشرطة: إذا كانت تراقبك، فقد رأوني أدخل وسوف يروني أخرج وسيربطون بين الأحداث. بالطبع، عند هذا الحد، لم يعد هذا يهم كثيرا.

أدرك أنتوني مغزى العبارة الأخيرة ونبرة الحزن التي قالتها بها: نظرا لعلاقتها بخوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا، بدون شك كانت كافة الاحتياطات للتحايل على رقابة الشرطة بلا جدوى. خاصة وأنه في تلك اللحظة كانت أفكار الماركيزة الشابة سارحة في رجل آخر، تسببت في جرحه، إلا أنها لم تشتق إليه.

- هل سنلتقي مرة أخرى؟ (تساءل بلا أمل).

- من الممكن. (أجابت باكيثا مؤكدة على كل كلمة) نلتقي، نعم، ربما نلتقي مرة أخرى.

بالسيجارة بين شفيتها نهضت وشرعت في ارتداء ثيابها. في تلك اللحظة تحديدا انهالت على الباب عدة طرقات عنيفة. قفز قلب أنتوني من بين ضلوعه. قائمة طويلة من الأشخاص المخيفين الذين كان يخمن وجودهم بانتظاره في المر: كوليا الرهيب، خوسيه أنطونيو نفسه، النقيب كوسكويويلا أو جييرمو ديل بايي. بلا مبالاة مصطنعة سأل من فأجابه صوت لا تونينا. تنفس أنتوني الصعداء: كان حضورها مزعجا أكثر منه خطرا، وكان واثقا من قدرته على معالجة الموقف ببراعة.

- إنها عاملة النظافة (قال بصوت خفيض موجهها حديثه نحو باكيثا؛ وبصوت مرتفع) أنا مشغول، عودي لاحقا!

- لا أستطيع الانتظار، أنطونيو (أجاب من الخارج صوت الفتاة اليائسة) لقد أحضرت الطفل وقد غيرت له القماط.

مرتبكا، التفت الإنجليزي بصورة غريزية إلى باكيثا، التي كانت قد انتهت من ارتداء ثيابها وجلست على المقعد لترتدي جواربها.

امتعضت الماركييزة الشابة، فيما واصلت ارتداء الجوارب والحذاء بمنتهى الهدوء. عندما انتهت، نهضت، واستدارت لتطل من النافذة. ستر أنتوني نفسه بالملاءة ملفوفة حتى وسطه واتجه نحو الباب. توقف ممسكا بمقبض الباب، تردد للحظات ثم قال:

- انتظري.

قطع الحجرة الضيقة، وقف أمام باكيثا وغمغم قائلا:

- إنها قصة طويلة وسخيفة، وبلا أية أهمية...

بدون أن تنظر إليه، ألقت باكيثا بالسيجارة على الأرض، وسحقتها
بنعل حذائها، وكما لو كانت تتحدث إلى نفسها، تمتت:

- يا إلهي، ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟

وضع أنتوني راحة يده على كم ثوبها. فعاجلته بدفعة قوية من يدها.

- لا تلمسني، سيد وايتلاندرز! (صاحت بينما اتجهت نحو الباب).

في الخارج كان الرضيع قد بدأ في الصراخ. فتحت الماركييزة الشابة الباب
وأخذت تتطلع إلى لا تونينا وهي تهدد طفلها مدندنة بأغنية أطفال. قررت
باكيثا الرحيل وابتعدت بخطوات متعطرة. كانت لا تونينا قد أفاقت من
هول المفاجأة واستوقفت الإنجليزي، الذي خرج مهرولا خلف باكيثا.

- أنطونيو، أنت تسير عاريا!

ألقي بالملاءة بحنق على أرضية الممر وعاد إلى الحجرة مغمغما بوعود
وأيمان بلغته. كان الطفل مازال يواصل صراخه. التقطت لا تونينا الملاءة،
دخلت الحجرة وأغلقت الباب خلفها لتجنب الفضيحة. بينما كان الإنجليزي
يرتدي ثيابه على عجل قاطع العملية لينفجر صائحا في وجه لا تونينا:

- اللعنة عليك وعلى هذا المخلوق القذر!

- لا تؤاخذني أنطونيو، لا تؤاخذني! السنيور تحت لم يبنهني...

فيما واصلت اعتذاراتها حاولت حماية الرضيع، تحسبا لأن يتبع
الإنجليزي موجة السباب بالصفع والركل. ردع رد فعلها أنتوني. فارتدى
سترته والحذاء، وخرج هابطا السلم عدوا حتى وصل إلى البهو وهو يلهث.
لم ير باكيثا هناك أو في الشارع. دخل مجددا واستفهم من موظف الاستقبال

بالإشارة. متصنعا جهله بالمشهد الهزلي الذي تسبب فيه، أجاب موظف الاستقبال أن الأنسة خرجت للشارع وأوقفت سيارة أجرة. ومن غير أن يعود ليأخذ المعطف والقبعة وبحذاء محلول الرباط، أوقف أنتوني سيارة أجرة أخرى، ركبها وأعطى السائق عنوان قصر لا كاستييانا.

في مكان ليس ببعيد عن هنا، وبينما تقع هذه الأحداث المأساوية، كان إيجينيو تامورا تامورانو، المسؤول الأكبر عنها - أكثر من موظف الاستقبال الخبيث، ولكنه أكثر جهلا منه - قد ذهب إلى منزل لا خوستا لتقصي الأحوال بشأن نتائج مبادرته. لم يكن بوسع أحد أن يزوده بنبا جيد عن المرأة، أو بسلسلة الانتكاسات التي ألت بها، ومع ذلك لم تفقد لا هي ولا هو الإيمان بالنهاية السعيدة للعملية. اعتاد إيجينيو التفاخر بوجهة نظره في الحياة كما يتفاخر بالشعارات السياسية وبدعابات ثارثويلا، وقد كان هو ولا خوستا يعرفان تماماً أن محاولته إقحام الطفلة هناك لا يرتجى منها الكثير، ورغم ذلك فهذا أكثر كثيراً من اللاشيء. لقد تعلمنا بسبب اجتماع عدد من العقبات الاجتماعية والأخطاء الشخصية، أن القيم العظيمة والمشاعر النبيلة مألها عالم السينما والروايات. لقد بقيا على قيد الحياة حتى هذا العمر بطرق أقرب للمعجزة، ولهذا وضعا كل ثقتهم في الالتزامات العرضية التي لا مفر منها، تلك التي تنشأ عن الأخطاء الصغيرة أو عن نقاط الضعف البشرية التي لا يمكن التحكم فيها.

- لا تخافي على الطفلة يا خوستا (قال إيجينيو تامورا للمرأة، حينما أحاط علمها بالحوار الذي دار بينه وبين أنتوني وايتلاندرز) الإنجليزي رجل طيب، وإذا ضربها أو أساء معاملتها، فسرعان ما سيكون ذلك سببا لاعتنائها بها.

أذعنت لاخوستا لمنطقه بدون تحفظ، مدفوعة بإيمانها بحكمة إيجينيو تامورا تامورانو، الذي كان يصعد الآن السلم الكئيب، ويملؤه شعور

بالفخر، ويطرق الباب بنقرات مرحة من أطراف أصابع يده، بينما أمسك باليد الأخرى باقة صغيرة من زهور البنفسج اشتراها من بائعة زهور متجولة. سرعان ما فتحت لا خوستا الباب، إلا أن هذه العجلة وسلوكها أكثر من وجهه المتوارى في ظلمة عتبة السلم، حفزت لديه الشعور بالخطر بصورة غريزية.

- لديك ضيف، إيجينيو (قالت المرأة الضخمة مائلة برأسها فيما دست يديها بين ثنيات الروب القطني المهلهل).

دخل إيجينيو ونظر متوجسا إلى الشخص، الذي ابتعد عن انبعاثات المدفئة غير الصحية، بينما ظل يتفحصه بدقة من طرف الصالة الآخر.

- أنا كوليا. (قال الضيف).

تبادل إيجينيو ولا خوستا نظرات حذرة.

على الجانب الآخر من القوس الذي لا يمكن إدراك أبعاده، والذي يفصلها عن عامة الشعب، بل وأكثر من ذلك عن الطبقة الأدنى من البروليتاريا بالمناطق الحضرية، عدوتها التقليدية، تسود سلوك الأرستقراطية المتعفة فلسفة تقوم على التكيف، لا هي أكثر عمقا أو حتى أفضل صياغة؛ إلا أنها شديدة الفاعلية بنفس درجة الأخلاق الفظة المهيمنة على سلوك خصمها. موسومة مثلها بظروف نشأتها، تثقل كاهل طبقة النبلاء عبودية لا فكاك منها، تمنعها من التأمل في سلوكها، في أحوالها وفي أحوال العالم، ما لم تكن الأمور الثلاثة شأنا واحدا. وحتى لو كان بوسعها التفكير، فلن يكون بمقدورها تغيير سواء الأفكار الموروثة أو أسلوب معيشتها. يتعين عليها التضحية بتفان بأفضل سماتها على مذبح اللاعقلانية والجمود والإهمال، التي بوأتها مكائنها وتحفظها لها، لتغرس بانضباط صارم عيوباً ترسخ مكائنها لدرجة أن تصبح مكائنها هي التي تتيح لها غرستها. طغمة منفلته ومنحرفة بلا اختيار، انعدام المسؤولية المسيطر على أفعالها، يجعلها تعيش حياتها غارقة في الحيرة: لا تفضي مبادراتها إلى أي شيء، أفكارها لا مفر من أن تصب في التفاهة، أما شغفها المبرأ من تحمل التبعات، فيقتصر على الرذيلة.

يشعر دون ألبارو ديل بايي، دوق إ جولادا، ماركيز وهران، فالديفيا و كارافاكا، وعظيم إسبانيا، بالقهر تحت وطأة هذا الإرث الذي يثقل كاهله،

نظرا لأنه يتعين عليه مواجهة هذا المنعطف التاريخي، ونظرا لأنه يفتقر إلى الذكاء والخيال والروية، مع أنه تتوافر فيه رجاحة العقل لكي يحيك المؤامرات ويدبر المكائد، إلا أنه في النهاية، حتمية مكانته الاجتماعية تعيده إلى موقعه وتجبره على أن يتخذ أمام نفسه وأمام العالم الهيئة الساذجة لمن فقد كل صلة تجمععه بعصره وواقعه. بهذه المشاعر أطل من نافذة المكتب، وكما لو أن الحديقة أرادت أن تواسيه في المحنة، فكشفت له عن براعم أوراقها الرقيقة. وبدون أن يحول بصره عن النافذة، غمغم الدوق قائلا:

- ما تطلبونه مني يتنافى مع ضميري.

قوبلت هذه العبارة بالصمت من جانب الرجال الثلاثة القابعين خلفه. أحدهم، وكأنه كان على علم مسبق بعدم جدوى مهمته، شعر بالإحباط. تطلع آخر في ترقب إلى محدثهم الذي ظل حتى الآن ممسكا بطرف الحديث. كان هذا يقول بلهجته المتعاطفة التي استخدمها منذ بداية الاجتماع:

- أحيانا يطلب الوطن مثل هذه التضحيات، أبارو.

كان المتحدث يناهز الخمسين، طويل القامة، له إطلالة مميزة، ملامح فظة لكن تتسم بالذكاء. أضفت عليه النظرة العميقة والنظارة ذات الإطار المعدني جو المثقفين، وكان كذلك في واقع الأمر. ذو خلفية عسكرية، ومنذ أن استبعدته حكومة الجمهورية من الجيش بلا سبب حقيقي، كان يكسب عيشه من الكتابة لعدة صحف وأعد كتبيا عن قواعد لعبة الشطرنج نال ثناء الخبراء ورضا الهواة. بعد ذلك تم رد اعتباره ليتقلد عدة مناصب هامة في إسبانيا ومحمياتها. وعلى الرغم من أنه ليس لديه ماضي انقلابي، إلا أنه لا يحظى بثقة رئيس الحكومة، الذي عينه في بمبلونة، لكي يبقيه بعيدا عن مدريد. تجمععه صداقة قديمة بدوق إجالادا وكأصدقاء أدارا بقوة واحترام متبادل خلافاتها السياسية. كان هو من اتصل بالدوق منذ بضعة أيام من

بمبلونة، ليسأل عن صحة الشائعات التي بلغته. برغم المفاجأة حرص الدوق على إطلاعها على الرواية الرسمية.

- أحاول عقد بعض الصفقات للحصول على سيولة تمكيني إذا لزم الأمر من إنقاذ عائلتي.

- ليس هذا ما قيل لي، الباريتو.

عقب هذا الحوار القصير، أدرك الدوق أنه في حالة اندلاع أي صراع، سيكون في خصومة مع الفريقين، ومن ثم قرر تأجيل بيع اللوحة، وهو ما أثار حيرة أنتوني وايتلاندر بشدة. الآن، انتهز الجنرال زيارة خاطفة إلى مدريد ليمر على الدوق المحاصر بصحبة جنرالين آخرين ذوي مكانة رفيعة، للتدخل في حياته وإعادةه إلى جادة الصواب. بدا أن الدوق كان يقاوم بدون أن تكون هناك أية معركة. إزاء صمته العنيد، أعاد جنرال آخر صياغة الرجاء بعبارة عسكرية.

- سيعمل ما يجب أن يُعمل. و فقط.

ظل هذا الجنرال متحفظا، وجامدا منذ بداية الاجتماع. لم يخف توتره بالرغم من كل هذا التحفظ. فيما تحمل نبرة صوته الغاضبة تهديدا مستترا. بالرغم من ذلك، عندما يعنّ له، لا أحد يضارعه في أن يضيفي على سلوكه كل هذا القدر من الهدوء. حضر إلى مدريد، مثل الباقيين، ليشارك في محفل الجنرالات السري؛ ولهذا قطع مسافة طويلة، نظرا لأن الحكومة التي يترأسها أثنانيا كانت قد أوفدته منذ فترة ليست ببعيدة إلى جزر الكناري. فيما بعد، طوال الاجتماع، لم يقل شيئا تقريبا، وعندما أدلى بدلوه، كان من أجل تهدئة النفوس، والتوصية بالتحلي بالحذر، مشككا في توقيت القفز من الكلام للأفعال. كان أصغر الموجودين سنا والأقل اندفاعا. كان قصيرا، بارز البطن

مع بوادر صلح ظاهر، ذا ملامح وجه رخوة ونبرة صوت حادة مرتفعة. لا يدخن ولا يشرب، لا يلعب القمار وليس مولعا بالنساء. كان يتمتع، بالرغم من كل شيء، بمكانة كبيرة في الجيش، أما عن باقي قدراته الأخرى فحدث ولا حرج. كان أثانيا يعتمد عليه دائما، نظرا لقدراته الاستثنائية على التنظيم مع الأخذ في الاعتبار كذلك، أنه بالرغم من ميله الشديد للتيار المحافظ، إلا أن حرصه الشديد على الالتزام الشكلي الصارم بالواجب كان يمنعه من العمل ضد الجمهورية. وظل على هذا الحال حتى اليوم: عُرض عليه في أكثر من مناسبة الانضمام إلى مشاريع انقلابات، ولطالما رفضها، أو على الأقل، لم يعلن صراحة توافقه معها. حرصه، الذي يتنافى مع شجاعته وتصميمه في المعارك، يقض مضجع رفاقه في السلاح بنفس قدر حاجتهم إليه. كافة الأطراف ترى أنه يجب الاعتماد عليه؛ المشكلة أنه لا أحد يعلم يقينا إذا كان يمكن الاعتماد عليه وإلى أي مدى. ومهما يكن من أمر، الجميع تفاوضوا ومازالوا يتفاوضون حتى اللحظة الأخيرة من أجل كسبه في صفهم. وحتى الفلانخي، الذين يمتنون ركافة أسلوبه وافتقاره الظاهر للقيم، تقدموا إليه بعروض، من خلال أشخاص موثوق بهم؛ وكانت النتائج غيبية للآمال: لم يرد على الفلانخي وغضب من الوسيط لتدخله فيما لا يعنيه. لا ينصت لأي عروض، ولا يتقدم بها. يصدر أوامر، ينفذ ما يصدر إليه منها، ويقول إن ما عدا ذلك لا يعنيه. إلى حين أن يعدل عن موقفه أرسلوه إلى أبعاد وأهدأ مكان عن دائرة الصراع الجغرافي في إسبانيا. أعرب عن موافقته، بل عن سعادته، ولكن من المحتمل أن يكون في دخيلة نفسه قد أصدر حكما بالفعل على من يسعون لإقصائه من الحياة السياسية.

كان الجنرال الأول يحاول تعقيد الحوار.

- الأمر لا يتعلق بالمال وحده، الباريتو، بل بالمكانة الاجتماعية لأسهمنا

أيضا، في حالة إذا حدث... أنت شخصية قيادية.

عندما استمع لأدلة الخلاف المبالغ فيها، صدر عن الجنرال الثالث الجالس مباعدا بين ساقيه على الأريكة صوت مفاجئ ينم عن سخرية. له هيئة مميزة ومظهر يتسم بالأنافة، يعتبر النقيض لرفيقه البدين: حاد الطباع، جامع، زير نساء، مع سخرية لاذعة. أكبر سنا من رفاقه الاثنين، ومن ثم يستخف بهما، كما خاض معارك في أفريقيا، إلا أنه ترعرع في الظل في أتون حرب كوبا الشرسة. بالنسبة له، حساب أي خسائر مادية أو في الأرواح، يعد من الأمور الصيانية، إن لم يقل بأنها مخنثة. لضمان إبقائه منشغلا، عينته الحكومة السابقة مفتشا عاما لقوات الدرك، وهو منصب ذو راتب محترم، وعمل قليل، يقتضي منه الترحال بين كافة أرجاء إسبانيا، ومن ثم علاوة على طبيعته البسيطة المولعة بالترفيه، جعله حلقة الوصل المثالية بين جميع العسكريين المتشردمين.

والآن عقد الثلاثة اجتماعا خلف الكواليس في مدريد مع جنرالات آخرين من أجل التوصل لقرار، وعلى ضوءه، سيتم تنسيق التحركات وتحديد التواريخ، غير أن الاجتماع لم يسفر إلا عن تعميق خلافاتهم. يتفق غالبيتهم على ضرورة التدخل العسكري لوضع حد للفوضى السائدة، والحيلولة دون تفكك الدولة الإسبانية ومنع المؤامرة الحمراء التي تدبرها موسكو. انطلاقا من هذه النقطة تتشعب الآراء. يؤيد الكثيرون منهم عدم الانتظار لأكثر من هذا؛ كلما تأخر التمرد، كلما زادت جاهزية العدو. بينما تعترض أقلية منهم خشية التسرع. تجثم على صدور الجميع ذكرى الجنرال سانخورخو، الذي ترد قبل عامين وما زال يعيش منفيًا في البرتغال.

الانقلاب ليس أمرا يسيرا. في المقام الأول، لا يمكن التعويل على التماسك الداخلي للجيش: بعض الجنرالات جمهوريون عن اقتناع؛ والبعض

الأخر ليسوا كذلك، لكن ميثاق شرفهم يمنعهم من التمرد ضد حكومة تستمد شرعيتها من الصندوق. كثير من الضباط وكوادر أقل صوتهم مسموع على الأرض محسوبون على اليسار أو متعاطفون مع قطاعات من اليسار. في نهاية المطاف، لا يمكن الاعتماد بصورة عمياء على طاعة قوات الجيش، أو على جاهزية حفنة مجندين بلا خبرة في القتال. بالنسبة للعسكر الأفريكانيستاس⁽¹⁾. الانقلاب العسكري سوف تنفذه قوات الحشد (الفيلق)، وإذا استدعى الأمر، سنجلب قوات الطليعة من المغرب؛ الموروس مخلصون، وسيكون من دواعي سرورهم شن حرب استعمارية معكوسة. ومع ذلك، هذا المخرج لا يوفر حلا للجانب الأكثر خطورة من القضية. الأحكام التي أشيعت عن إسبانيا منذ القرن التاسع عشر أنها بلد زراعي، لكي لا تقول إقطاعي، شعبها منغلق، جاهل ولا يبالي بالسياسة. أما اليوم فالوضع على النقيض تماما. إذا لاقى الانقلاب مقاومة مسلحة، وتحول الأمر إلى حرب أهلية حقيقية، فإن جيشا موحدا ومؤهلا، سوف يفوز بدون أدنى شك في معارك ميدانية مفتوحة، إلا أنه لن يتمكن من السيطرة على المدن أو المراكز الصناعية، خاصة، وكما هو واضح، إذا لم تنضم قوات الحرس المدني وقوات التدخل السريع للحركة. إزاء هذه الفرضية يجب اللجوء إلى قوات الطليعة وإلى الجماعات غير الشرعية من اليمين المتطرف: إنها كثيرة، لديها خبرة في مجال قتال الشوارع، وتتمنى الشروع في القتال. إلا أن المعوقات تتبادر إلى الأذهان على الفور: نظرا لعدم انضمامها إلى وحدات الجيش، فإن أعضاء هذه التنظيمات لا يطيعون أحدا سوى زعمائهم فقط. كان أحد الجنرالات الحاضرين قد شرع في التفاوض مع ميليشيات المحافظين شبه

1. مجموعة الجنرالات الذين دبوا انقلاب 18 تموز/ يوليو يجمعهم سمات مشتركة أبرزها طول مدة خدمتهم في المغرب إبان الاحتلال الإسباني، ومن بينهم فرانكو ولهذا يطلق عليهم الأفريكانيستاس (المترجم)

العسكرية في نابارا، ولكنه وعى الدرس. مقابل دعمهم، طالب (الركيتيس) الحصول على أشياء كثيرة، بعضها منطقي والآخر مبالغ فيه، علاوة على أن الاتفاقيات الصعبة لا جدوى منها ولا تدوم بسبب الانشقاقات المستمرة داخل الجماعة. في النهاية توصل إلى استنتاج مفاده، حتى مع السعي وراء أهداف مشتركة، هذه التنظيمات شبه العسكرية، ذات الأيديولوجية المتطرفة، قليلة الانضباط، على النقيض من الجيش. ومع ذلك توصل إلى اتفاق مبدئي مع (الركيتيس). الأضعف هي العلاقة مع الفلانخي. لا يكن أي من العسكريين الحاضرين أدنى قدر من الاحترام للحزب أو زعيمه، الذي لطالما تعرض بالسبب للعسكريين ورموزهم، لتخاذلهم في الماضي عن تأييد دكتاتورية بريمو دي ريبيرا. يعتبر خوسيه أنطونيو أن الجيش مسؤول بالفعل أو الامتناع عن الفعل عن هزيمة والده ولا يكل ولا يمل من الترويج لهذا قولاً وفعلاً: منذ عدة سنوات، تلقى أحد الجنرالات الحاضرين لكلمة بسبب هذه القضية في مكان عام، وبحضور شهود. طرد المعتدي من الجيش، أما المعتدى عليه فما يزال يحتفظ بذكرى الاعتداء حية على وجهه. بلا سبب لأية ضغينة، يعتبر الجنرالان الآخران خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا، مغرورا تسبب انفلاته في تحويل حفنة من أبناء الذوات الغارقين في الشعر إلى عصاة مسلحة خارجة عن السيطرة. بدون تمويل أو دعم اجتماعي مؤثر، إذا قرروا دفع الفلانخي للخروج إلى الشارع، يجب تزويدهم بالسلاح، وهو ما يعد إهدارا للمال وخطرا مؤكدا، لأنه ليس هناك ضمانات على إقدام الكتائب على التخلي عن السلاح بعد انتهاء مهمتها. لهذا السبب ولعوامل أخرى، يجتمع حاليا الجنرالات الثلاثة في مكتب دون ألبارو ديل بايي، دوق إجوالاتا، يحاولون الحشد لمشاركتهم بعبارات فخمة، إطراء متذلل، وترهيب مستتر.

يتفاوض السيد الدوق بين تأنيب الضمير وحسابات المصلحة. وبعد

تقليب الأمر عدة مرات لم يعد أمامه سوى الدخول في مواجهة مع الطرفين المتنازعين.

- أنا إنسان بسيط، إيميليو، (خاطب صديقه بنبرة باكية، لكسب الوقت) إنسان من الريف. مبدئي في السياسة احترام التقاليد، حب إسبانيا والقلق على أهلي.

- وهذا مبعث شرفك: فأنت صاحب اسم ومكانة. ألقاب نبالتك تظهر منذ قرون في تقويم جوثا⁽¹⁾.

بقدر مراعاته لبريق شعارات النبالة، بقدر مراعاة رؤية فريق أول يتملق مدنيا، رفع الجنرال المنفرج الساقين على اتساعهما حاجبيه وطرق لسانه مجددا. لا يستوعب أن رفيقه لا يذل نفسه عبثا: الزمن تغير في هذه الأصقاع، وإزاء التهديد المتربص من قبل الدول الفاشية، تتابع إنجلترا وفرنسا بقلق الأحداث في إسبانيا وقد يتدخلون فيها بصورة مباشرة أو غير مباشرة. إدانة عصابة الأمم قد تقوض مستقبل الدولة المنبثقة من الانقلاب. من الأهمية بمكان تأكيد الطابع المحافظ للانقلابيين، النأي عن التوجه التوسعي الذي تنتهجه ألمانيا وإيطاليا، التوضيح بما لا يدع مجالا للشك أن دافعهم الوحيد هو الرغبة في استعادة الاستقرار. الحصول على دعم الأسر الأكثر عراقية والكنيسة. ليست مجرد مراسم طقسية، بل مناورة استراتيجية تسبق المعركة. لكن حركة الشطرنج المحسومة لم تؤت ثمارها. عاد الدوق للتطلع عبر النافذة: كانت الريح تهز فروع الأشجار، وتكاثفت في الأفق سحب سوداء: جو مارس المتقلب. ربما كان رفيقه الفظ على حق، فكر الجنرال، وساعة الجد لن تفيد الدبلوماسية في شيء؛ في هذه الحالة سوف يلجأ للتدابير الصارمة

1. تقويم العائلات المالكة والأسر النبيلة في كل أوروبا ظل ينشر بدون توقف منذ 1763 وحتى 1944. (المترجم)

الملائمة للحالة ومواجهة العواقب. وبينما ينتظر الإجابة، كان يجهز في عقله قائمة الاغتيالات. توسل الدوق إلى الله معجزة تنتشله من الورطة، ولو حتى لوهلة، واستجيبت توسلاته على الفور.

انفتح باب حجرة المكتب على مصراعيه واندفعت الدوقة كالعاصفة، اقتحمت الاجتماع، وحينما أدركت خطأها كان الوقت قد فات على التراجع. بالرغم من ذهولها، كانت صاحبة رد الفعل الأول: شرعت في الانسحاب، وغمغمت بعبارات اعتذار، غطت عليها ضربات كعوب الجنرالات. لم يضع الدوق الفرصة.

- ماذا هناك، ماروخا؟ لا بد أنه أمر جليل حملك على الاندفاع، بدون طرق الباب مسبقا. كما ترين (أضاف بدون انتظار التوضيح المطلوب، كما لو أن الأمر لا يعنيه) أنا في اجتماع. إيميليو، تعرفينه. هؤلاء السادة... بصحبته.

بات جليا أنه لا يريد الإفصاح عن أسمائهم، بينما قبل صديق العائلة القديم يد الدوقة. فيما قام أحد الجنرالين تمشيا مع البروتوكول بإنحناء وقورة؛ أما الثالث، المتبجح، الوضيع والمدعي فقد داعب شاربه وقال بصوت أجوف:

- كنا ننصح زوجك بأن يترك أمور الدولة بين أيدي آخرين والتفرغ لغرس زهور حديقته ليقدمها لك، سعادة الدوقة.

كان فهمها بطيئا، وسمعتها ثقيلًا، فلم تفهم الدوقة المجاملة السوقية، إلا أنها استشعرت بحدسها المكيدة والخطر المحدقين فرمقت زوجها بنظرة تحذير فسرهما الدوق على الوجه السليم: «افعل ما يقولون واطلب منهم الرحيل». فيما بعد قالت بصوت مرتفع وابتسامة زائفة:

- معذرة، ألبارو. وحضراتكم أيضا. بدون سوء نية ولأمر تافه جئت

في وقت غير مناسب. استمروا في شأنكم، وتصرفوا كما لو أنكم لم تروني.
خرجت بدون توديع أحد أو سؤالهم إذا كانوا يرغبون في تناول شيء،
أومأت من عند الباب وابتسمت بدلال لتتفني عن نفسها وعن حضورها أية
أهمية وأغلقت الباب. إلا أن تدخلها كان عنصر تحفيز. من بين الجزرالات
الثلاثة، إيميليو مولا وجونثالو كيبو ديل يانو أصبحا بلا حول ولا قوة.
وحده فرانسيسكو فرانكو ظل على موقفه، غارقا في تأملاته.

بلا ود أو احتقار، رفض كوليا كأس عرق كاثايا الذي قدمته له لاختوستا. بعث هذا السلوك الفاتر وغير المألوف من قبل شخص معروف بأنه عميل بلا قلب في الـ (NKVD) في نفس إيجينيو ثامورا ثامورانو مزيدا من الخوف أكثر من أي بادرة عنف.

- لم أفعل سوى ما طلبوه مني (قال بنبرة تصل إلى حد التوسل) نشل حافظة نقود الإنجليزي وتسليمها للبريطانيين لكي يعلموا بوجوده في مدريد. بعد ذلك استمر في التردد على هذا المنزل المتواضع. إنه متعلق بالصيبة.

كان العميل يعبث بغصن البنفسج الذي تركه إيجينيو على المنضدة. قاطع بلا مبالاته سرد القصة الرومانسية التي كان إيجينيو يتأهب لحكيها. - وماذا كان رد فعل السفارة؟ (سأل).

على حد علمي، مثلما يجري في هذه الأمور. المعتاد. أجروا معه أكثر من مقابلة، ووضعوه تحت المراقبة. عندما ألقى القبض عليه في إدارة الأمن العام، استغرق منهم إخراجه من الحبس وقتا.

- ليس من مصلحتهم أن يتكلم أكثر مما ينبغي. مثلنا. وبخصوص سبب مجيئه، ماذا نعرف؟

- خدمة، لا نعرف عنها شيئا على الإطلاق. بحسب ما أخبرني به

بنفسه، جاء لمدة أربع وعشرين ساعة، وما يزال هنا بدون أية نية للرحيل كما هو واضح. لا أستطيع إفادتك إذا كانت العقبات يضعها الإنجليز أو البوليس.

- يمكن أن تكون هناك أطراف أخرى متورطة، (غمغم الجاسوس) ليس هناك فرق. المهم هو الخروج من حالة الجمود. حتى ذلك الحين، ليس بوسعنا عمل شيء. أين هو؟

ابتسم إيجينيو لأنه سيتمكن من العودة لموضوعه المفضل.

- في الفندق نفسه، مع الصبية. إنه متعلق بها.

مرة أخرى، وأدت نظرة العميل الباردة الحكاية في مهدها. ومع ذلك، لكي يثبت مدى نجاح المناورة، حكى إيجينيو عن زيارة الشاب الفلانخي للإنجليزي. اختبأت لا تونينا في خزانة الغرفة، وسمعت الحوار كله وفي صباح اليوم التالي حكى كل شيء بدون إغفال تفصيل واحد. كما تظاهرت بالإغماء لكي لا تثير شكوك الإنجليزي. الصبية في منتهى الذكاء وبقليل من المساعدة قد يكون لها مستقبل في أي مكان في العالم باستثناء إسبانيا. قاطع كوليا مجددا الحديث؛ كان قد أنصت باهتمام إلى حكاية إيجينيو وبعد ذلك غرق في تأمل صامت. بعد برهة نهض وقطع بضع خطوات في الصالة البائسة.

انبعثت من المنور رائحة ثقيلة لكربن مغلي، تسربت من شقوق النافذة. بنفس الفتور السابق طلب من لا خوستا الخروج. ففعلت ولكن بعد أن رمقت إيجينيو بنظرة توجس. عاد نذير الشؤم بحوم مجددا.

- المهم الآن (قال الجاسوس عندما أصبحا بمفرديهما) أن نتركه يتم مهمته. إزالة أية عقبات أمام صفقة بيع هذا الشيء أيا كان.

- لكن كنت أعتقد...

- الأمور تغيرت. أوامر عليا. وعندما يحل الموضوع، ستحصل على نصيبك.

- بالنسبة للإنجليزي؟ هل من الضروري حقا تصفيته؟ هو ليس له ذنب في شيء.

كرر الجاسوس عديم الرحمة الإيحاء الشريرة، وعاد للجلوس.

- بمجرد الانتهاء من المهمة لن يكون مفيدا لنا في شيء؛ إنه يعرف الكثير.

- لن ييوح بشيء، أضمن لك ذلك: إنه متعلق بالصبيّة.

رماه كوليا بنظرة باردة ونافذة.

- وهي؟ (قال) هل هي أهل للثقة؟

- لا تونينا؟ محبة في الله! لا تونينا سوف تفعل ما نأمرها به.

- من الأفضل لها.

كانت أصابع الجاسوس تمزق أوراق غصن البنفسج، فبدت بتلاتها المبعثرة على مفرش المشمع، أمام إيجينيو، ينعكس عليها النور الكاوي للمصباح المتدلي من جبل مشحم، محاكاة لفناء مقبرة.

- ألم يخطر على بالك... (همس مرتعدا كقطعة ورق).

- أنا لا يخطر على بالي شيء. أنا أنفذ فقط ما هو ضروري. وضع شيئا في رأسك: لا نصائح من اللجنة المركزية. التزم بواجبك، وعندما أخبرك، تولّ أمر الإنجليزي. لن يكون الأمر صعبا عليك: إنه يثق بك. أخبرني إذا لم تكن لديك الشجاعة، وسوف أبحث عن شخص يقوم بذلك. ولكن لا تفوه بكلمة.

في نفس الوقت، وبعيدا من هنا، وبدون أدنى شك في الحكم الصادر من العميل لوبيانكا، والذي لا نقض فيه ولا إبرام، كان أنتوني وايتلاندر يوقف سيارة أجرة على مسافة مئة متر من القصر، مصمما على قطع المسافة المتبقية سيرا على الأقدام، محتما بالأشجار والنباتات الوارفة في طريق باسيو دي لا كاستييانا. بدت بالنسبة له كل المحاذير غير كافية، فإذا كانت التجربة قد علمته شيئا، فهو أنه داخل عدة دوائر متداخلة تراقبه وتراقب نفسها. ذات مرة فاجأه حارس خوسيه أنطونيو الشخصي وبفضل التدخل السريع والودي من جانب الزعيم تفادى مأساة مروعة. والآن، علاوة على ذلك، يعلم أن إدارة الأمن العام تضيق الخناق حول دوق إجوالادا وكل من يتصل به أو بأسرته. ولكن كل هذه الاعتبارات لم تؤثر على تصميمه الحديث مع باكيثا وتوضيح سوء الفهم.

ظهر أن الحذر كان ملائما: أمام بوابة القصر كانت هناك سيارتان متوقفتان وكان قائدهما يدخنان ويثرثران على الرصيف. جعلته هيئة السيارتين والشخصين يستبعد انتهاءهما إلى الفلانخي أو قوات الأمن. تصور دخول لاعبين جدد هذه الدراما المربكة بسبب له دوار، لدرجة أنه أجل التفكير لوقت لاحق وتابع التقدم متخفيا. أتاحت له الاستدارة بلوغ الزقاق الجانبي بدون لفت أنظار السائقين. هناك، ظل يتحسس السور حتى وصل إلى الباب الحديدي. حاول فتحه ولكنه وجده موصدا بالمفتاح. حال ارتفاع السور دون أن يرى الحديقة والمنزل، ولكن بالتعلق بالأحجار البارزة نجح في التسلق وأن يطل برأسه من الجزء العلوي. كانت الحديقة خالية من نافذة المكتب ميز خيال الدوق. لكي لا يُرى قفز بسرعة ومع سقوطه جرحت خشونة سطح السور يده اليمنى. ضمد يده بمنديل ليووقف الدم النازف من الخدش، ثم دلف إلى الزقاق بحثا عن نقطة أخرى للمراقبة.

أتاحت له منطقة أكثر عتمة تسلق السور مجددا وتفحص الداخل تحميه عن عيون المتطفلين بعض أشجار السرو. من هناك كان يرى واجهة القصر الخلفية، حيث يؤدي الباب إلى الجزء الأكثر حميمة من الحديقة: درج حجري صاعد حتى مستطيل مرصوف حيث يوجد عريش الغرض منه توفير مكان ظليل خلال شهور الحر وضع أسفله منضدة رخامية ونصف دوزينة من المقاعد من الحديد المشغول. أضفى منظر شجيرات الكروم الجرداء في الشتاء والأثاث الصيفي المهجور جوا كثيبا.

وسط هذا المشهد ظهرت باكيثا فجأة، خرجت مسرعة من المنزل من الباب الأمامي. طير صواب الإنجليزي تزامن هذا الظهور مع غرض اقتحامه، الذي بذل قصارى جهده ليحصل منه على رؤية أفضل بدون الكشف عن وجوده أو فقدان توازنه الحرج.

لم تمنعه المسافة أو المعوقات ولا ارتبাকে الشخصي من ملاحظة التوتر العميق الذي يشي به سلوك الماركيزة الشابة. لم يكن أنتوني مخطئا في إدراكه. فمذ قليل، كان لدى السيدة الدوقة لقاء مماثل وتعرضت مشاعر أمومتها لاختبار عنيف ومؤلم. تعيش دونيا ماريا إلبيرا مارتينث دي الكانتارا، في عزلة منذ طفولتها بحكم وضعها الاجتماعي وتربية صارمة اقتضتها أن تطبق ذكائها الفطري على أي ملمح عملي من مناحي الحياة، بزواجها حصلت على لقب دوقة إجوالادا، تقبلت عن طيب خاطر دورها كربة منزل وكقطعة ديكور كما نمت مهارة لا بأس بها على رصد أكثر ألوان النزوات تقلبا والتجاوب مع كل منها بمتهى الدقة والانضباط. لاحقا، طرأ مع التحول المؤسف للأحداث الجارية في إسبانيا على خلفية إعلان الجمهورية، تغيرا جذريا على سلوكها. الآن أطلقت العنان لفطنتها القديمة لكي تلتقط أدق تفاصيل إشارات أية مأساة في مهدها. قبل قليل، بينما كانت تنزه مللها

عبر أرجاء القصر التقت وجها لوجه بباكيثا، ومن الحكم على هيئتها، كانت عائدة لتوها من الشارع، أدركت الدوقة على الفور الاضطراب الذي كانت الفتاة الشابة تحاول جاهدة إخفاءه خلف سلوك لاهٍ مغلف بعجرفة وسمت العلاقة بين الابنة وأمها. منعته المزوجة بين حدس الأم والتربية الاجتماعية من السؤال مباشرة إذا كان هناك خطب ما، إلا أنها أوقفت باكيثا بسبب ذريعة تافهة. لم يسع الفتاة الشابة سوى التظاهر لبضع ثوان؛ ثم انفجرت في البكاء وهرولت لتحبس نفسها في حجرتها. يا امرأة أخيرا، تصورت الدوقة أنها خمنت سبب القلق، ولعجزها عن الأخذ بزمام المبادرة أو اتخاذ أي قرار على الإطلاق، رأت أنه من المناسب أن تذهب بحثا عن زوجها، وهكذا قاطعت تحاريف الجنرالات. الأصوات وضجيج الأبواب نبها باكيثا. والتي حرصا منها على تجنب مواجهة عائلية قبل أن تهدأ روحها المعذبة، هربت من حجرتها بحثا عن ملاذ آمن في الحديقة.

رأها أنتوني الرابض فوق السور، تغلق الباب، متطلعة يمينا ويسارا لتأكد من أنها بمفردها فسارت بخطى وثيدة نحو الأجمة مطأطئة الرأس، تجتاحها تنهدات عميقة ورعدات مفاجئة. تدلت أرجوحة من أضخم فروع شجرة دردار عتيقة. اتجهت الماركيزة الشابة نحوها وداعبت حبالها برقة، كما لو كانت تلك اللعبة البريئة تستدعي المتع البريئة لطفولة ضائعة إلى غير رجعة. عقب متابعة كل هذا الحزن، انتابته رغبة في القفز إلى الحديقة كي يهرع لمواساة الشابة التعيسة، ولم يمنعه عن ذلك سوى تأكده من أن السبب الحقيقي لهذا الأسى ربما يكون ما جرى من قبل بينه وبين الفتاة في حجرة الفندق. على الرغم من ذلك، كان هذا اليقين يربكه: لم يستوعب النقلة المفاجئة من الشجاعة والتهور في البداية إلى الحزن الراهن، نقله لا يكفي لتبريرها من وجهة نظره، ظهور لا تنوينا غير المتوقع.

بالرغم من ذلك، كان محكوما على الشلل الناجم عن هذه الحيرة ألا يدوم طويلا. أصابه هتاف ملح من خلفه بصدمة لدرجة أنه كان على وشك السقوط مجددا.

- انزل من هنا حالا، أيها الأبله!

بدافع الذعر أكثر من غريزة البقاء أو أية حسابات، دفع بجسمه لتفلت ذراعاها السور هربا من مطارده، فيسقط بسرعة في الحديقة مباشرة. امتصت الأرض المرورية المعشوشبة المعدة لغرس الربيع السقطة. بالرغم من الرضوض كان الإنجليزي سليما، فزحف حتى احتفى بالسياج. حدث كل شيء بمنتهى السرعة، لدرجة أنه حينما نظرت باكيثا في الاتجاه الذي صدرت منه الجلبة والصوت، لم تر سوى شخص مجهول يطل برأسه وكتفيه من فوق السور. كان ظهورا مفاجئا تماما فيما تسبب الوجه المحتقن للرجل المطل من أعلى السور في فزع زاده الاكثاب العميق الذي ألمّ بها. فبدرت عنها صرخة، وبدون الالتفات لنداء الدخيل وتوسلاته ألا تستغيث، هرولت عدوا صوب باب المنزل. انفتح الباب وخرج كبير الخدم حذرا بعد صرخة باكيثا، ممسكا ببندقية صيد. بسرعة ومهارة كلب صيد هبط الدرج، تلفت حوله، اكتشف الدخيل وصوب البندقية نحوه وكاد أن يطلق عليه النار لولا أن باكيثا أوقفته بصرختها.

بدون أن يتخلى عن تصويب السلاح نحوه، أمر كبير الخدم الدخيل بأن يرفع يديه لأعلى، فأجابته أنه ليس بمقدوره ذلك دون السقوط في الشارع. أدلى بهذا التوضيح المنطقي متجها نحو الحديقة، وكررها بعد ذلك مباشرة ملتفتا برأسه، حيث كانت مفيدة للسائقين، الذين بمجرد سماعهم الصرخة تركوا مواقعهم بجوار السيارات وانطلقوا عدوا عبر الزقاق شاهرين مسدساتهم في أيديهم آمرين الدخيل أن يسلم نفسه.

كان من الممكن أن يتطور الموقف لو لم يخرج السيد الدوق بعد قليل بصحبة الجنرالات الثلاثة. ليرد كبير الخدم على الاستفسار الصامت من قبل سيده، مشيراً بما سورة البندقية المزدوجة إلى الدخيل المطل من أعلى السور.

- كارامبا! (هتف الدوق عندما اكتشف الشخص الغريب) من هذا الشخص وماذا يفعل هناك بالأعلى، ونصف جسمه للداخل والنصف الآخر للخارج؟

- لا أدري، يا صاحب السعادة (أجاب كبير الخدم) لكن إذا أذن لي صاحب السعادة، فجرت رأسه ثم نرى بعدها.

- لا، لا، لا فضاءح في منزلي، خوليان! خصوصاً اليوم! (أضاف مشيراً إلى الجنرالات الواقفين خلفه).

وهكذا استعاد الموقف جموده، حتى نفّض الجنرال فرانكو عنه تراخيه الظاهري وأمسك بزمام المبادرة، اقترب من السور، وخاطب الدخيل بنبرة صوته الحادة القاطعة.

- أي كنت، اقفز من على السور إلى الحديقة في الحال!

- لا أستطيع (أجاب المستجوب) أنا مصاب حرب، سيدي الجنرال.

- سيدي الجنرال؟ (هتف فرانكو) هل تدري من أنا؟

- يا ليتني ما عرفت، سيدي الجنرال، ولكنني أعرفك حق المعرفة. تشرفت بالقتال تحت قيادتكم في العرائش. أصبت هناك، ورُقيت وكُرمت وأُحلت للتقاعد من الخدمة الميدانية. في الوقت الراهن أنا ملحق على إدارة الأمن العام. نقيب كوسكويويولا، في خدمتكم دائماً. ورجاء، قل لمن بالخارج ألا يطلقوا علي النار.

لكي لا يتخلى لزميله عن البطولة المطلقة، هتف صوت كيبو ديل يانو بصوته المدوي.

- اخفضوا السلاح، أيها الحمقى! هل تريدون أن يذيع الخبر في كل مدريد؟ وأنت، على الجدار، أين قلت إنك تعمل؟

- إدارة الأمن العام، سيدي الجنرال، تحت قيادة الكولونيل مارانون (أجاب النقيب كوسكويويلا).

- اللعنة على كل هذا! ماذا قلت لكم؟ الوغد أثنانيا يراقبنا؟

- حضراتكم لا، سيدي الجنرال (اعترض كوسكويويلا) بل رجل إنجليزي.

- رجل إنجليزي؟ (قال مولا) رجل إنجليزي في منزل السيد دوق إجوالادا؟ هل تعتبرنا حمقى؟

- على الإطلاق، سيدي الجنرال.

- حسنًا (قال كيبو ديل يانو) ربما تصفيته ليست فكرة سيئة، بعد كل هذا. وسواء كان يتعقبنا أو جاء لغرض آخر، عندما يكتب تقريره سيورد ذكرنا.

فكر مولا بعمق، عاقد الحاجبين مداعبًا ذقنه.

- هل ستفعل ذلك، أيها النقيب؟ (تساءل).

- لا، سيدي الجنرال. أنا لا أدلي بإفادات سوى عن تحركات الإنجليزي.

- ومن هو هذا الإنجليزي المزعوم؟ (سأل فرانكو) جاسوس؟

- لا، سيدي الجنرال: إنه بروفيسور، أو شيء من هذا القبيل.

كشهود على التحقيق، امتنع الدوق وباكيثا، كلا منهما لسبب مختلف،

عن التأمين على صحة تأكيدات النقيب. من مخبئه، كان أنتوني يتابع تطور هذه المسرحية الهزلية التي تسبب فيها واشترك فيها الجميع ما عداه. وبقدر ما كان قرب باكيثا جسديا يشوش تفكيره، أدرك استحالة لقائه بها على انفراد في الوقت الراهن والحاجة الملحة لأن يغادر القصر قبل افتضاح أمره أو نجاح النقيب كوسكويويلا في إقناع الجنرلات بوجوده فعليا.

لو تمكن من من جعل المجموعة تستدير حول السياج، لربما تمكن من استغلال الفوضى السائدة في تلك اللحظة وعبور الأجمة، صعود الدرج والولوج إلى المنزل عبر الباب الذي تركه آخر الخارجين مواربا. وبمجرد وجوده في الداخل، وبقليل من الحظ، قد يعثر على باب القبو، حيث توجد اللوحة، والاختباء هناك انتظارا لهبوط الليل. بعد ذلك يخرج إلى الحديقة ويتسلق الجدار ليصبح في أمان.

كانت خطة غير منطقية، إلا أن الجزء الأول بدا أكثر سهولة وأوفر حظا من المتوقع: كان تركيز جميع الحاضرين منصبا على النقيب كوسكويويلا، الذي كان يتعين عليه في مواجهة الجميع أن يقطع مسافة مكشوفة، إلا أنه لم يكن يهتم بأحد سوى بقائده القديم، والذي كان في نفس اللحظة يلقي على سامعه خطبة حماسية ملتبهة:

- استمع إلي جيدا، أيها النقيب! أيًا ما كان المنصب الإداري الذي تتقلده، حضرتك مازلت ضابطًا. ضابط بالجيش الإسباني! فهمتني؟ أليس كذلك؟ إذن تعرف من تطع ومن لا، وليس فقط بحكم السلطة المخولة لمناصبنا، بل لأن أي أمر يتعارض مع مصالحنا، لا يتعين على ضابط ينتمي إلى جيشنا المظفر تنفيذه، لأنه غير جدير بذلك. إسبانيا في خطر، أيها النقيب! الحركة الشيوعية لا تنتظر سوى أمرا من السوفيت لإشعال الثورة والقضاء على إسبانيا. أيها النقيب كوسكويويلا، أي ضابط إسباني لا يدين بالولاء إلا

إلى إسبانيا، والحاضرون هنا يمثلون إسبانيا.

- حذار من التقليد! (أضاف كيبو ديل يانو بنبرة سخرية خفيفة أخذت حماس صاحب الخطبة العصماء) ولا تنس أن كل جدار من الممكن أن يتحول إلى حائط إعدام.

عند سماع هذه العبارة الساخرة المشؤومة، كان أنتوني قد وصل إلى الباب، وولج من الفتحة ليجد نفسه في بهو متشعب يتفرع منه دهليز.

خائفاً، صامتا، لاهثاً، كان أنتوني وايتلاندرز يقطع ممرات القصر وبيأس متزايد كان يوقن أنه كلما أوغل في المكان، كلما زاد ضياعه، وباتت المسافة أكبر بينه وبين احتمال النجاة. كان يستنفد الوقت الذي كسبه ومن الممكن في أية لحظة أو في أي ركن أن يقع بين يدي كبير الخدم الرهيب أو بين يدي ثلاثي الجنرالات المهول. ظل لبرهة يشعر بالندم لعدم امتثاله لأوامر النقيب كوسكويويلا، الذي أدرك فيه أخيراً مميزات القانون، حتى أجبره صوت خطوات أقدام على البحث يائساً عن مخبأ. لحسن الحظ بين أرجاء الديكورات المتنوعة بالقصر الفخم كانت تنتشر الستائر الثقيلة، ومنحته إحداها من القטיפفة القرمزية، الملاذ وإمكانية الاستماع إلى كل ما يحدث في الردهة، لكن دون أن يرى شيئاً.

خفق قلبه بشدة، عندما ميز تنهدات أنثوية عميقة، لا يمكن أن يكون مصدرها سوى حنجرة باكيثا. كبح رغبته الجامحة في الظهور فجأة أمامها واعتصارها بين أحضانه ليواسيها ويمنحها حبه، ليس فقط لقناعته بأنه سبب بؤسها الشديد، بل بسبب ضوضاء خطوات أخرى، أكثر صرامة، كانت تتجه إلى نفس النقطة من الجهة المقابلة من المنزل. فاجأ اللقاء بطلينا، اللاهيين عن وجود الإنجليزي الذي لم يخطر لأفكارهما على بال.

- آه، الأب رودريجو! (سمع باكيثا تصيح) كم أفرعتني! لم أكن أتوقع

ظهورك...، لكن السماء أرسلتك.

أجاب بجفاء صوت الأب رودريجو.

- لا أستطيع أن أوافقك الآن يا ابنتي. هناك أمور أكثر أهمية تنادينني.

- لن تكون أكثر أهمية من إنقاذ روح، يا أبتِ (قالت الفتاة الشابة)
أتوسل إليك باسم الإحسان: انصت لاعترافي.

- في منتصف الردهة؟ سر الاعتراف يا ابنتي ليس لعبة.

بدا الكاهن الفظ متأهبا للتخلص من الأمر بهذه الطريقة لولا إصرار
باكيئا اللامبالية لأي منطق.

- على الأقل أخبرني شيئا واحدا، يا أبتِ، أليس صحيحا أن الحب يكفر
الخطيئة؟

- الحب الإلهي، ربما؛ ولكن ليس غرام البشر.

من خلف الستار، شحذ الإنجليزي سمعه منتبها عند التطرق لموضوع
الاعتراف.

- لكن إذا كان شخص، فتاة شابة استحوذ عليها حب لا يقاوم تجاه
رجل، فهل تكون قد اقترفت خطيئة، أليس من الأيسر بنظرة عفو من
القدير؟ أليس الرب هو من وضع في قلوبنا القدرة على الحب، التي تجعلنا يا
أبتِ، ننسى حتى أنفسنا؟

عند سماع هذا الاعتراف، اضطر أنتوني لبذل جهد كبير لئلا يتخلى عن
حرصه تماما فيكشف في تلك اللحظة عن وجوده. ولكن رد فعل المتلقي
الفظ كان على النقيض من ذلك تماما.

- ابنتي، إنك تثيرين قلقي. أي حماقة تنوين الإقدام عليها؟

- الحماقة ارتكبت بالفعل، يا أبتِ. أعشق رجلا، ولدي أسباب تدعوني للتفكير أنه يبادلني نفس الشعور. لكن هناك أسباب قوية تحول دون مضي علاقتنا في مسارها الطبيعي. إنه يحترمني، ولأنه نموذج للاستقامة، فلن يسمح مطلقا أن يحدث بيننا شيء يمس شرفي أو أخلاقي.

- أين الخطيئة، إذن، يا ابنتي؟ (تساءل الأب رودريجو).

- حسنا، يا أبتِ، أنا... (أخذت الفتاة الشابة تتلعثم يسيطر عليها الخجل والشعور بالذنب والخوف من التوبيخ) من أجل إزالة الحاجز الذي يمنعه من إتمام حبنا بعيدا عن الأخلاق والعادات، قررت التفريط في عفتي...

- يا لهول ما أسمع!

- أنت تعرفني يا أبتِ منذ كنت طفلة (تابعت باكيًا بصوت واهن ولكن بثبات) منذ أن وعيت على الدنيا، لم تكن معلمي ومرشدي الروحي فحسب: ثمة علاقة مودة بيننا. وهذا ما أعول عليه، يا أبتِ: انس للحظة المبادئ وانصت لألمي وحيرتي بأذن إنسان فإن كصديق ناصح. لن أخفي عنك شيئا: منذ سويغات قليلة، سلمت نفسي لرجل. اخترت بإرادتي شخصا لا أشعر نحوه بأي انجذاب أو احترام، أستطيع محوه من ذكرياتي بلا ألم أو جهد. خدعته ببرود بخصوص دوافعي، ودفعته برعونة مدعاة... عند هذه النقطة قاطع القس روايتها مزجرا.

- باكيًا أنت لا تحتاجين لقس تعترفين له، بل أخصائي صحة عقلية! هل نسيت دينك، واسم عائلتك أيضا؟ ألم تفكري، حين تصرفت كما تقولين، في آخرتك، أو في سمعة عائلتك الطيبة؟ هذا بصرف النظر عن الرجل الذي دفعته للخطيئة. لقد تصرفت بفسوق ومع ذلك، لا تنم كلماتك أو سلوكك عن ذرة ندم. وتطمعين بعد ذلك أن أمنحك الخلاص؟

- لكن، يا أبتِ ...

- لا تناديني بأبتِ. لست أبا لكِ، ولا أنتِ ابنتي. لطالما كنت متمرده، ومتفاخرة، وهذه تحديدًا صفات إبليس. لست متفاجئا من رؤيتك الآن وقد تلبس الشيطان روحك. ابتعدي عني، ارحلي عن هذا البيت. لديك شقيقة صغرى وبراءتها يمكن أن تتدنس لقربك منها. اذهبي إلى مكان لا يعرفك فيه أحد، استغفري لذنبك، واطلبي من الرب أن يمنحك صفحه ورحمته. أنا ذاهب الآن: يجب أن أقوم بأشياء أهم من الإنصات إلى هذيانك.

شرح الكاهن في الرحيل يتبعه صوت باكيًا بنبرة كسيرة:

- تذكر، نيافة الأب، أن ما قيل يقع تحت سر الاعتراف!

كان هذا التحذير غير ذي بال بالنسبة للإنجليزي، الذي شعر بالانكسار أكثر من الغضب، بسبب الاعتراف المهين، وأقل من ذلك بالنسبة للرفيقين إينيو تامورا تامورانو ولاخوستا، حيث كانت تقف أمامهما في تلك اللحظة لا تونينا وبين ذراعيها طفل الخطيئة، وبقعة الثياب على كتفها.

- تونينا! (قالت أمها) أنتِ هنا؟ كيف؟

- ومعها كل متعلقاتها (أضاف إينيو) هيا، تعالي احكي لنا الآن، ما حدث، لأنه لو تجرأ هذا المتغطرس على أن يترك هكذا في منتصف الطريق، فسوف يعرف من هو إينيو تامورا تامورانو.

- لا توتر نفسك، إينيو (أجابت لا تونينا بهدوء بينما تضع البقعة والطفل على الطاولة) وأنتِ يا أمي دعك من هذا الغضب. الإنجليزي ليس رجلا سيئا وأنا عدت بإرادتي. لأنني لا أريد التورط في هذه اللعبة.

فيما بعد، حكّت لا تونينا ما حدث في الفندق. عندما انتهت، أوماً إينيو بارتياح.

- لكن هذا لا شيء، أيتها البلهاء! (قال بنبرة تعليمية ودون أن يفقد رباطة جأش يضرب بها المثل) هذا هو حال الإنجليز: باردون مثل السحالي. يفعلون فعلتهم وانتهينا، وكأن شيئاً لم يكن، وإن رأيتك ولا أتذكرك. والفتيات، حسناً، أكثر من ذلك بثلاث أو أربع مرات: شكل ومنظر، لكن بلا ذرة احتشام. وهذه تحديداً، أكثر من أي واحدة أخرى. ولأن الفاشي تخلى عنها صارت عرضة لإهانة الجميع.

أخذت لاخوستا الطفل بين ذراعيها وظلت تهدده.

- ومع ذلك (قال) البنت معها حق تشعر بالإهانة. وعلى رأي المثل حتى عامة الشعب لديهم قلب.

قطبت لاتونينا جبينها.

- الموضوع ليس كما تتصورون (قالت) الماركيزة بقعت الشراشف.

- ماذا تقولين؟

- بعينيّ هاتين رأيت الدم.

لاذ إيخينيو بالصمت: لم يكن يرغب في أن يقطع أحد حبل تأملاته. أخذ يذرع الحجرة بخطوات قصيرة، مطأطئ الرأس عاقد الحاجبين، وبديه متقاطعتين خلف ظهره. كان يتوقف من حين لآخر، يفك تقطية جبينه، وتنفلت ابتسامة غامضة من شفثيه المزمومتين؛ كان يسمع مغمغماً بنبرة صوت يصعب تفسيرها: «هكذا إذن، هكذا إذن»، وبعد ذلك على الفور: «يمكن أن يكون هذا هو الحل». ثم يستأنف السير، متبوعاً بنظرة إجلال من المرأتين. غير مبالٍ بهذه اللحظة الحاسمة، مزق صراخ طفل الخطيئة أسماع الجيران، بينما في ردهة القصر، كانت الشخص الحاضر الغائب في هذا المجلس، الملعونة من قبل مرشدها الروحي، تنهمر دموعها وتتضرع للسما

بينما تواصل طريقها بمعنويات محطمة ولكن بلا ندم، بدون أن يساورها شك في أن اعترافها قد سمعه ضحية خداعها.

عقب فترة زمنية معقولة، أطل أنتوتي برأسه، معتقدا أن الطريق خال، ثم تابع تقدمه العقيم. فلم يكذب قطع بضعة أمتار، حتى أرغمته خطوات وأصوات على الاختباء مجددا، ولما لم يكن هناك ستارة قريبة، أحتمى بالجدار، واثقا من أن الظل المخيم من زاوية الردهة سيجعله غير مرئي.

سرعان ما أصبحوا على مسافة قريبة للغاية لدرجة أنه كان يستطيع لمس السيد دوق إجولادا والجنرال فرانكو، لو بسط ذراعه. حابسا أنفاسه سمع هذا الأخير يتحدث بصوت معدني قائلا:

- هناك أمر خارج النقاش، صاحب السعادة. الأمر يتعلق بالجيش الإسباني. بصفة خاصة! إذا كان المشمول بحمايتكم وعصابته المسلحة يريدون المشاركة في أي نشاط، فيتعين عليهم القيام بذلك تحت التبعية التامة للجيش وعلى أن يتحركوا متى وكيفما أمروا، بدون معارضة أو نقاش. وفي حال عدم الالتزام بذلك يتعين عليهم تحمل عاقبة سلوكهم. الموقف خطير ولا يسعنا السماح بأية عشوائية. صاحب الفخامة، أحط ربيك علماً، تماما مثلما أخبرتك. أنا متعاطف مع وطنية هؤلاء الشبان، لا أنكر ذلك، وأتفهم نفاذ صبرهم، ولكن الأمر يخص الجيش الإسباني في المقام الأول ولا أحد سواه.

- سأخبره بذلك تماما، سيدي الجنرال، لا تحمل هما (قال الدوق) لكن الجنرال مولا كان قد أوضح لي...، وجهة نظره في هذا الصدد...

- مولا رجل عسكري عظيم، مثال للوطنية، وشخص نبيل (قال فرانكو خافضا صوته) لكنه أحيانا يغلب عليه طبعه العاطفي. أما كيبودي يانو فأحمق. الوضع خطير، ويتعين على أحد التحلي بذهن صافٍ ودم بارد. الحرب قادمة، وسوف يربحها من يجيد الاحتفاظ بتنظيم صفوفه.

كانا قد ابتعدا وتسلسل أنتوني في الاتجاه المعاكس حينما رأى الجنرالين الآخرين، لذا بأقصى سرعة بالركن المظلم. من مكانه ميز نبرة كيبو ديل يانو العنيفة:

- إيميليو، إذا انتظرنا إلى أن يتخذ فرانكيو قراره فسننتظر دهورا. وبسبب التعقل الزائد عن الحد قد يتفوق البلاشفة علينا، وأخبرني عندئذ كيف سنروض هذا الثور. صدقتي، إيميليو: الكف السابق غالب.

- ليس من اليسير التنسيق بين كل هؤلاء البشر. هناك كثير من التردد وكثير من التروي.

- إذن فلندع التنسيق. أخرج المتطوعين إلى الشارع، إيميليو. إذا وقعت مقتلة عظيمة، انتهى التردد. الجميع متفقون من حيث المبدأ. التعويق مصدره الخلافات والأحقاد الشخصية. هذا دون التطرق إلى جبن البعض. أو طموح البعض الآخر: سانخورخو يريد قيادة الانقلاب؛ وجوديد يأمل بلوغ الشيء ذاته، بينما يتحلى فرانكيو بدهاء وإذا لم نتصرف بحرص فسوف يفوز بكل شيء القديس والندور. إذا لم تتول زمام القيادة، فلن نطول شيئا، إيميليو، انصت لما أقوله لك.

- أنا منصت إليك، جونثالو وهنا الأمر له تعقيداته الخاصة.

توقف الجنرال مولا فجأة، فتعثر رفيقه الذي كان متأبطا ذراعه. متخوفا من مكابدة الرفض من جانب من يتفاخر بأنه يملك ضمنيا السلطة على المتآمرين الثلاثة الكبار، استجوب كيبو ديل يانو بنظرة مولا. بدوره لاذ مولا بالصمت واضعا سبابته أمام شفقيه. بعد ذلك، مد ذراعه وأشار إلى شيء ملقى على الأرض، لم يكن واضحا بسبب ضعف إضاءة الردهة.

- اللعنة! ما هذا؟

عدّل مولا وضع نظارته وانحنى.

- تبدو قطعة قماش ملوثة بالدماء (قال دون أن يمسه).

- قد تكون سقطت من أحد الخدم.

- في منزل بهذه الفخامة؟ ولا في أحلامك، جونثالو.

- إذن ما تفسيرك؟

- دعني أفكر (قال خبير الشطرنج).

أيقن أنتوني بفرع من أن الاكتشاف المثير للقلق لم يكن سوى منديله هو: كان قد ربط يده منذ قليل عندما جرح بسبب احتكاكه بجدار السور، فنتج وجوده سهواً من كثرة الأحداث المتلاحقة والمختلفة، ولم ينتبه أنه سقط منه. مازال القادة متحيرين.

- هل يتجسسون علينا؟ (قال كيبو ديل يانو فيما دس يده في جيب سترته وأخرج مسدسا).

- لا أعتقد، وأخفِ هذا الشيء، يا رجل!

- فلتتحر. اذهب للخلف وأنا سأتابع من حيث أتينا. إذا كان هناك أي متسلل فسوف نحاصره ونضيق عليه الخناق. وإذا التقيت بباكو أحطه علماً بالأمر.

على الرغم من أن الخوف شل تفكيره وأعضائه، أدرك أنتوني أنه لو ظل هناك فلن يتأخروا في الإيقاع به، وبناء عليه خرج على أطراف أصابعه خلف مولا. وبعد برهة، ودون أن يدري كيف، وجد نفسه في بهو القصر. كانت بوابة الدخول هناك، لكن تذكر الحراس المرابطين في الخارج أثناءه عن الخروج من هذه الناحية.

مضطرباً من شدة القلق والشك، وقعت عينا المطارد على لوحة «مصرع أكتيون». لطالما كانت تلك اللوحة تصيبه بالاضطراب وفي الظروف الراهنة سببت له توتراً مضاعفاً. حقبة طويلة من الحضارة المسيحية وأخرى من الثقافة البرجوازية، هبطت بالأسطورة اليونانية إلى ساحة الخيال الشعري: حكايات بديعة ذات مغزى استعاري غامض. أما الآن، فعلى العكس من ذلك، فإن مشهد الصياد المتعجرف المحكوم عليه بميتة عنيفة، تمزقه الكلاب، فقط لأنه استمتع دون قصد باللقاء العابر مع إلهة في المتناول ولكنها بلا رحمة، كانت بها الكثير من الأشياء المشتركة مع تجربته الشخصية. كان تيزيانو قد كُلف برسم اللوحة، ولكن بمجرد الانتهاء منها، قرر الاحتفاظ بها لنفسه: ربما كان هناك سبب أقوى من الربح، النزاهة والطاعة، حال دون حرمانه من وجودها الدائم. طوال حياته جعلها نصب عينيه. ربما وجد رسام فينيسيا العظيم نفسه أيضاً في مأزق لا مهرب منه فتلقى السهم الذي لا يرحم، تخيل أنتوني. أخرجته من خيالاته ضوضاء قادمة من الردهة، وبرغم علمه من أنها ستزيد تعقيد موقفه، وبرغم أنه لم يكن يدري كيف يتفادى لقاء مصيرياً مماثلاً، شرع في صعود السلم ركضاً وقبع على بسطة سلم الدور العلوي في القصر.

هبط المساء مبكرا ولف الظلام قصر دوق إجولادا وبينما يقبع أنتوني وايتلاندرز في الركن، سمع نزرا من عبارات مطارديه المقتضبة، بعد أن تجمعوا في البهو، الذي تركه توا ليختبئ في الدور العلوي.

- إذا كان أحد قد دخل بالفعل، وهو أمر أشك فيه؛ (قال بصوت قاطع كبير الخدم الرهيب) فإنه لم يخرج دون أن يشاهده أحد. أقترح أن نشرع في تفتيش المنزل بدقة، غرفة غرفة. فلتفتشوا حضراتكم حجرات الدور الأول. الخدم لديهم علم، في حالة إذا دخل المطبخ، بيت المؤن أو حجرة الغسيل، أما أنا فسوف أتولى حجرات النوم.

قبل الجنرالات الأمر بدون أن ينسوا بنت شفة، مقرين بالسلطة الآنية لمن يعرف أرض المعركة بصورة أفضل. حين شعر أنتوني بأنه محاصر، فكر في جدوى تسليم نفسه مستنجدا بحماية الدوق. وهو بدوره لن يسمح على أية حال بأي شكل من أشكال العنف ضد شخص، كان بصورة ما، يعمل لديه، على الأقل ليس في منزله، هذا طالما أن السيد الدوق لم يدر بعد بما جرى بين الإنجليزي وبين ابنته. ومع ذلك، فإن حماية الدوق لها نطاق محدود. لا يوجد شيء على الإطلاق يضمن حياة الشاهد المباشر على مؤامر عسكرية على أعلى مستوى. من هذا التفكير خرج باستنتاج أنه يتعين عليه الاستمرار في محاولة الهروب بشتى السبل دون أن يراه أحد. تراجع بسرعة دون أن يحول بصره

عن السلم، حيث كان يتوقع ظهور كبير الخدم في أية لحظة ومعه بندقيته، عندما أمسكت يد ذراعَه برقة وصوت مرح ومندهش يقول:

- توني! ماذا تفعل هنا، مرتبصا وفي الظلام؟ وتلك الصرخات؟

- ليلي (همس الإنجليزي بعدما أفاق من الخضة) لا تصرخي. إنهم يبحثون عني لكي يقتلوني.

- في القصر؟ من يبحث عنك؟

- سأحكي لك فيما بعد. ساعديني الآن، بحق أغلى شيء عندك.

بذكائها المتقدم، أنقذت ليلي الموقف، أدخلت أنتوني الحجرة التي خرجت منها ودخلت خلفه وأغلقت الباب. وجد الإنجليزي نفسه في حجرة فسيحة، ذات جدران بيضاء، بها شرفة صغيرة ينفذ منها ضوء الشفق البرتقالي. كان أثاثها البسيط مكونا من مكتب خشبي فاتح اللون، مقعدي أريكة منجدة بقماش عليه زهور، ومكتبة عامرة بالكتب، يشير كعبها إلى أنها تعليمية. فوق المكتب كان هناك دفتر مفتوح، محبرة، ريشة، منشفة، وغيرها من الأدوات المدرسية.

- إنها حجرتي (أوضحت ليلي) كنت أنجز الواجب، سمعت ضوضاء فخرجت لأرى. ماذا يحدث؟

- إنهم يقلبون البيت رأسا على عقب. يفتشون عن دخيل يعتقدون أنه أنا (قال أنتوني على عجل) هل تسمعين ضجة فتح وغلق الأبواب؟ في أقل من ثوان سيصلون إلى هنا.

- لا تخف. تعال.

كان هناك باب جانبي يفضي إلى حجرة نوم صغيرة، مربعة، بها سرير

حديدي منقوش، كومودينو، خزانة ثياب ومتكأ للصلاة. فوق الكومدينو كان هناك شمعدان نحاسي وصندوق ثقاب، أما على الحائط فوق رأس المخدع، فكانت هناك أيقونة قديمة بديعة، قد تكون من بالثيا، للسيدة العذراء مع الطفل يسوع. سمعت طرقات على الباب وصياح كبير الخدم.

- سنيوريتا ليلى! افتحي!

- انزل أسفل السرير (قالت ليلى) أنا سأصرفه.

نفذ أنتوني ما قالته له ومن مكانه استمع إلى الحوار التالي:

- ماذا جرى خوليان؟ ولم البندقية؟

- لا تفزعني، سنيوريتا، إنها على سبيل الاحتياط. هل رأيت أو سمعت

أي شيء غريب؟

- على الإطلاق. وماذا يفترض أن أسمع؟ أستذكر منذ ساعات، يقتلني

السأم. الأب رودريجو سيأتي حالا لكي نأخذ الدرس.

- حسنا. أغلقي الباب جيدا ولا تفتحي لأحد سوى أهل المنزل.

بعد لحظة عادت ليلى مجددا إلى غرفتها.

- الآن يمكنك الخروج. لقد أوصدت الباب كما قال لي، وأسدلت

ستائر الشرفة. أنت هنا في أمان، وعندما تهدأ الأحوال يمكنك الرحيل.

سوف نجد الوسيلة. والأب رودريجو لن يأتي: إنه يخوض معاركه.

خرج أنتوني من أسفل السرير وهندم ثيابه. جلست ليلى على الحافة

وأخذت تأرجح ساقها. براحة يدها أشارت للإنجليزي لكي يجلس إلى

جوارها. ففعل كما طلبت، فنظرت إليه بحدة.

- أنت الدخيل الذي يبحثون عنه. وإلا ما كنت تسعى للاختباء. ماذا

تفعل في المنزل؟ لم يكن أحد يتوقع مجيئك (وبدون انتظار إجابة، أضافت) من أجل باكيثا، أليس كذلك؟ لا تكذب عليّ مثل المرة الماضية. أنت كنت مع شقيقتي. تفوح منك رائحتها، ومنذ برهة كانت رائحتك تفوح منها. لقد سمعتها تبكي. والآن هذه الفوضى... أوه، توني، ماذا تجده فيها ولا أملكه أنا؟ تصور: بسببها يريدون أن يردوك برصاصة. أما أنا، فعلى العكس، أنا أحميك. لا أدري من ماذا، ولكنني سأحميك.

- وأنا في غاية الامتنان لك، ليلي. أما الأمر الآخر، فبوسعي توضيح...

- لا أريد توضيحات، توني. أنا أحبك أنت.

احتضنت يد الإنجليزي اليمنى بين يديها، وبينما تمدق في عينيه بشات،

تابعت بصوت متهدج:

- لا أدري، يقولون إنه في يوم غير متوقع ستندلع ثورة؛ وعندما تقع،

فإن أول ما سيفعلونه هو ذبحنا جميعا، مثلما حدث في روسيا. لست خائفة،

توني. ولكنني لا أريد أن أموت من دون أن أعيش. لقد أصبحت امرأة، وماذا

أعرف عن الحياة؟ بعض العمليات الحسابية، فروع نهر الإيبرو، وقوافي شعر

بيكر. هل هذا عدل؟

- أوه، لا يوجد سبب لأن تسير الأمور على هذا النحو الذي تتحدثين

عنه...

- هذه أمور لا نعرفها، لا أنت ولا أنا. لكن إذا حدث... وهناك أمر

مريع سيحدث، تأكد من أنني لا أريد الموت مثل القديسات الورعات،

بريشة الاستشهاد في يد وإصبع في الفم. لا أريد أن أصبح قديسة، توني، أريد

أن أكون إنسانة عادية، تجربة هذا. ولو كان يعني الخطيئة، فسيان عندي.

أنا لم أبتدع ذلك. كيف يكون خطيئة اشتها ما يطلبه مني الجسد والعقل

والروح؟ كيف يسعني تجاهل شهوة أستشعرها داخلي في كل وقت، بل إن الأب رودريجو لا يحدثني عن شيء آخر سوى غوايات الجسد؟

كان أنتوني ممزقا بين الخوف والوازع. كان قد تعلم من زوجة سابقة، عشيقة، بعض المغازلات الأمام التام بلوحات المدرسة الأسلوبية، ألا يقلل من شأن امرأة غاضبة، وخاصة في مثل موقفه.

- عزيزي ليلي، أنا متفهم للمعضلة (قال مداعبا يدها منتزعا يده برفق) ولكنني لست الشخص المناسب لحلها.

بسلاسة طفولية، تحولت ليلي من الشهوة الأزلية إلى البراءة الساذجة.

- بالعكس توني، (قالت بجدية) لا أحد أكثر ملاءمة منك: بدءا من أنك بروتستانتني، وإذا كان ما سنفعله يعد خطيئة، فإنه لن يضيرك.

نهض أنتوني نحو النافذة. كان مذهولا من مسلك الشقيقتين الأخلاقي المنحل. منذ بضع ساعات لجأت باكيئا إلى سفسطة ماثلة، وعلى الرغم من أنها اعترفت بخطيئتها وندمها، فإن استنادهما لحجة السفسطة الأخلاقية يؤكد على ذكائهما وتربيتها المنحرفة من حيث المنشأ. أحزنه هذا الاستنتاج بدون سبب واضح.

- الحجة سخيفة (قال بعدم اكتراث).

- سخافة لا، توني؛ إنه مجرد مبرر. أفكر منذ فترة في الإقدام على تلك الخطوة. وأنا لا أقوم بذلك عشوائيا: لقد سمعت كلاما كثيرا عن الموضوع من الكبار، ورأيت الحيوانات في ضياع والدي... ولكنني لم أستطع فعلها على أية حال. وفجأة ظهرت أنت. لا أقصد الآن، بل اليوم الأول الذي جئت فيه إلى المنزل. بمجرد أن رأيتك في البهو، تتفحص بانبهار تلك اللوحة البشعة، قلت لنفسني: إنه هو، السماء أرسلته لي. حاولت منذ ذلك الحين أن أجعلك

تفهم مشاعري ونواياي؛ بلا طائل: أنت لا تفهم شيئا. أنت أحق؛ ومع ذلك أحبك، ولكنك أحق. وكنت فقدت الأمل. وهذا المساء، فجأة أتى بك القدر إلى مخدعي بقوة السلاح. فكيف يمكنني تفسير ذلك؟
- محال. (قال الإنجليزي بفضاظة).

سحب الستارة بخفة وأطل بنظرة خاطفة على الحديقة. ربما كان بمقدوره القفز من الشرفة بدون مجازفة كبيرة؛ لم يكن الارتفاع شاهقا، والضوء كابٍ؛ بعد ذلك، سيصل السور عدوا، يتسلقه ويصبح في الشارع؛ من هناك سيركض حتى جادة باسيو دي لا كاستيانا؛ في هذا الوقت يكون هناك كثير من المارة ولن يجرؤوا على قتله أمام شهود. ومن الممكن، إذا ظل هنا آجلا أم عاجلا سيعثرون عليه، وأسوأ من ذلك أن يجده في غرفة ليلى، لن تكون احتمالات خروجه حيا كبيرة. بينما كان يستعرض تلك الأفكار، فتح النافذة بحرص، لحساب الارتفاع. أسفل النافذة بالظبط سمع صوت الأب رودريجو الهادر.

- وعدم الابتعاد عن الطريق المستقيم. الرب كشفه لي وأنت سعادة الدوق قد عقدت العزم. طريق وعر...

كان صوت دوق إجولادا عبارة عن غمغمة حزينة، لا يكاد يفهم.

- إلى أين سيأخذنا هذا الطريق، يا أبت؟ وعر ومليء بالأشواك يعني أنه غير صائب.

- صاحب السعادة، لا يجب الوثوق في العسكريين.

- ألا يسعون أيضا من أجل خلاص إسبانيا؟

- يا صاحب السعادة، إسبانيا، حسب لغتهم تعني شيء، وحسب لغتنا شيئا آخر مختلف.

أغلق النافذة بدون أن يُحدث أية ضوضاء، ترك الستارة تنسدل وعاد إلى ليلى، التي كانت ماتزال جالسة على الفراش.

- ما تريدينه مستحيل. ضعي نفسك مكاني.

- لا أستطيع وضع نفسي مكانك. ولا أنت في مكاني: كل منا يتعين عليه اتخاذ قراره بنفسه.

- لكنك مجرد طفلة، ليلى.

- كم كان عمر ماريانا النمساوية حينما تزوجت من فيليبي الرابع؟ يجب أن تكون على دراية بذلك: بيلاثكيث رسم لها لوحة.

لم يستطع إخفاء ابتسامته.

- في الرابعة عشرة (اعترف) والأميرة مارجريتا في الخامسة عشرة.

- أرايت؟ في هذه السن تصبح الفتاة امرأة.

- إذا كنت تقصدين عمل فضيحة، وتعقيد حياة الرجال، أو افكك على هذا. لكن هذا يعني بدء الأمر من نهايته.

- توني، أخبرني، إذا لم أكن أبدو جذابة بالنسبة لك، ولكن لا تعاملني كطفلة. لست كذلك، وأنت تعلم. لو كنت كذلك، لما قرأت في عينيك ما تفكر به. افعل ما يحلو لك. ولا تخف؛ مهما كان قرارك، لن أفعل شيئاً قد يتسبب لك في أذى. لأنني أحبك يا توني.

كانت ليلة غاب فيها القمر، عندما تدلى الإنجليزي من الشرفة إلى الحديقة، وبدون معوقات وصل إلى السور، بحث عن نتوء في الأحجار، وحينما صعد نجح في ألا يصيب نفسه بأذى مثلما حدث المرة السابقة. قبل القفز إلى الشارع التفت ناظراً إلى القصر. كان يجيم عليه الهدوء التام، وجميع

النوافذ مظلمة أو ستائرهما مسدلة. تخيل أنه لمح على ضوء أعمدة الإنارة الكابي خيال ليلى تطل من الشرفة، لتشهد نهاية الهروب السعيدة.

في الزقاق شرع في الجري على آخر نفس حتى جادة باسيو دي لا كاستيانا، واستمر في العدو حتى بعد أن أصبح هناك بين المارة ولم يوقفه سوى انقطاع أنفاسه. مر تاكسي؛ استوقفه، ركب، وأعطاه عنوان الفندق. كان حدسه الأول، التوجه إلى السفارة وطلب اللجوء، ولكنه رجح أن تكون مغلقة، فرأى أنه من الأفضل الذهاب إلى الفندق، والاتصال من هناك بهاري باركر. بكل تأكيد سوف يأتون بحثا عنه ويوفرون له الحماية مقابل المعلومات القيمة بشأن الأحداث القادمة في إسبانيا، والتي حصل عليها بشكل غير مقصود ولكن بمجازفة كبيرة من جانبه. لا يوجد شيء يمكن أن يثير اهتمام الاستخبارات البريطانية أكثر من معلومات مباشرة وموثوق فيها تتعلق بإنقلاب عسكري محتمل وبهوية رؤوسه المدبرة.

برغم إدراكه لهيئته المزرية، توجه إلى موظف الاستقبال بأسلوب فيه تحدٍ، طلب الهاتف لإجراء مكالمة أو اثنتين، وسأل إن كان أثناء غيابه قد تلقى زيارة أو اتصال هاتفي.

- واحدة فقط؟ منذ أن نزلت حضرتك بالفندق، تحول إلى سيرك لكل من هب ودب!

كانت مغامرات اليوم قد استنفدت طاقة الإنجليزي. شعر بالإغماء فطلب من موظف الاستقبال كوب ماء. قدم له موظف الاستقبال إبريقا تناوله من أسفل الطاولة. الماء البارد معبق بالينسون رد فيه الروح. لا يجب أن تفرط على نفسك (قال موظف الاستقبال بنبرة تجمع بين السخرية ومسحة شفقة. ثم شرع في سرد الوقائع ذهابا وإيابا) أولا البنت رحلت ومعها الرضيع وأخذت أشياءها. إذا كانت أشياءها أم أشياء حضرتك، هذا

ليس من شأني. بعد ذلك جاء ذلك الشاب (ابن الذوات) من المرة السابقة، الظريف حامل المسدس، ولما لم يجده انصرف متذمرا، بدون أن ينبس ببنت شفة. سوف يعود. ومنذ ساعة أو أكثر قليلا ظهر السنيور من اليوم الأول.

- اليوم الأول؟

- لعلك نسيته، من كثرة الإرهاق. في اليوم الأول الذي نزلت به في الفندق جاء شخص يبحث عن حضرتك، أنيق للغاية، أجنبي، لمزيد من الإمارات. يتحدث بإسبانية ممتازة. أبدى اهتماما كبيرا بحضرتك. ولكنه لم يعد بعد ذلك. إلى اليوم. وقد ضايقه غيابك كثيرا وترك رقم هاتف ورجاء بالاتصال بمجرد وصولك.

- ألم يترك لك اسمه؟

- لا. لم يترك سوى رقم الهاتف وعطر نسائي يذكرني قليلا بشيء ما.

تذكر أنتوني الزيارة الغامضة وأنه أطلع هاري باركر عليها خلال واحدة من مقابلاتهما. وأجابه الدبلوماسي بأنه لا يعرف شيئا عن الشخصية. ربما كان يكذب. السبيل الوحيد لقطع الشك باليقين هو الاتصال بالرقم المدون من قبل الزائر المجهول. قرر تأجيل مكالمة هاري باركر لوقت لاحق، لعله يحصل على معلومة جديدة عن الموضوع من المكالمة الأخرى. أما بخصوص جيرمو ديل بايي، فمن الأفضل عدم القيام بشيء. في تلك اللحظة سيطلع به بدون حرص عما قد يجري بين صفوف الفلانخي، وليس لديه أدنى رغبة في إقامة علاقات جديدة مع عائلة دوق إجوالادا. رد على رقم الهاتف الذي أعطاه له موظف الاستقبال صوت مكتوم، مرتجف يصعب التعرف عليه. عندما عرّف وايتلاندر عن نفسه، تحدث الآخر بالإنجليزية.

- يجب أن أراك بصورة عاجلة (قال) ليس من الحكمة الحديث عبر

الهاتف. سوف أنتظرك بعد ساعة في التشيكوتي. لا تخبر أحدا. تعال بمفردك.

- كيف سأتعرف عليك؟

- أنا سأتعرف عليك. وأنت أيضا ستتعرف عليّ. بعد ساعة. التشيكوتي.

يجب أن أضع الساعة.

مكتبة

t.me/t_pdf

لم يكن التشيكوتي بعيدا عن الفندق، ولأنه مازال لديه ساعة على اللقاء، تمكن أنتوني من الاغتسال، تغيير ثيابه وتبقى له فائض من الوقت لكي يلتهم بنهم شطيرة ضخمة من الحبار في حانة جعة بميدان سانتا آنا، حيث لم يكن قد تناول شيئا طوال اليوم. قطع شارع برنثيبي، ثم إشبيلية وبيلر جروس، ووصل إلى المكان المتفق عليه متعمدا التأخير لخمس دقائق عن الساعة المقررة لمراقبة المكان من الباب وتحديد الشخص الذي طلب مقابته. على هذا الحال ناداه شخص من خلفه بالإنجليزية:

- أنا هنا. جئت متأخرا. لا تلتفت. فلندخل.

أصبح التشيكوتي واحدا من أكثر أماكن مدريد البوهيمية ازدحاما في عصر الجمهورية الثانية. تلك الليلة لم تكن استثناء، وكثرة الزبائن جعلت أنتوني يمثل للأمر بدون الخوف من الوقوع في مصيدة. عندما أصبحت في الداخل التفت ليرى وجه رفيقه. على الفور وبدون أية مفاجآت تعرف على بدرو تيتشر.

- لماذا لم تخبرني من البداية أنه أنت؟ (سأل).

- لا تردد اسمي! (صاح خبير الفنون المدعي) أنا متخفي.

- بقبعة بومبيه ومونوكل؟ ولماذا كل هذا الغموض؟

ظل بدرو تيتشر يدفعه بدون الإجابة على أسئلته، إلى أن اجتازوا ازدحام الزبائن ليحتلوا بمعجزة طاولة خالية. علق بدرو تيتشر المعطف والقبعة على مشجب وحفظ المونوكل في جيبه سترته العلوي. كان شديد الانزعاج ولم يكف عن الالتفات في كل اتجاه. عندما حضر النادل طلب منه كأسى دراي مارتيني بدون استشارة أنتوني.

- يعدونه بصورة جيدة هنا. (قال) الأفضل في إسبانيا.

- حسنا. والآن وضح لي هذا الغموض. ماذا تفعل في مدريد؟

- كنت أبحث عنك بشكل يائس، (أجاب الآخر) حسنا. بعد قليل من رحيلك عن لندن، وبعد أن أقنعتك على ما تذكر، حدث أمر غير متوقع، وبناء عليه، العملية، حسبما اقترحتها عليك، اتخذت منعطفًا مختلفًا، وإذا سمحت لي بوصف أكثر وضوحًا، منعطفًا قاتلًا.

- قاتل بالنسبة لي؟ (تساءل أنتوني بدون انزعاج، لأن الأحداث التي عاشها منذ ذلك الحين عاجلته من الفزع).

- قاتل بصفة عامة، لكن بالنسبة لك، يؤسفني أخبرك، أنك في وضع قاتل على نحو مضاعف. في مرمى تبادل النيران بالمعنى المجازي والحرفي للعبارة. ولهذا السبب، كما أخبرتك ونصحتك، بدافع من نزاهة طبعي، أسرع في إثرك. وصلت منذ يوم، وبدون تأخير استعلمت عن مكانك، وبفضل اتصالاتي في مراكز المخ والأعصاب في السلطة، إن جاز تسميتهم على هذا النحو. مدريد لا تحجب عني سرا. بحكم وضعي كمتعهد توريدات لكبار العائلات في البلاد، من النادر وجود مكان أو أوساط لم أنفذ إليها. ومن بين جميع الأماكن التي تفتح أبوابها أمامي، يحتل قصر صديقنا المشترك، صاحب السعادة دوق إجوالادا مكانة مميزة. وبديها أسرته أيضا. إذا كنت،

كما أتصور، قد ترددت على قصر لا كاستيانا، فقد لاحظت مجموعة اللوحات المتنوعة والرائعة، جانب كبير منها عُرض وبيع على يد خادمتكم المؤتمن.

قاطع النادل المونولوج جالبا كأسى المارتيني. عندما مد أنتوني يده لتناول كأسه، استوقفه بدرو تيتشر.

- معذرة، صديقي وايتلاندرز، الاثنان لي. لا أمنعك من طلب ما يحلو لك بحرية، ولكنني أحتاج إلى مشروب كوكتيل قوي ليرفع من روحي المعنوية المحبطة. المجازفة جزء من مهنة خبير الفنون، ولكن ليس هذا النوع من المجازفة. في صحتك.

تجرع كأس المارتيني الأولى في جرعتين، وبينما شرع في ارتشاف الثاني بعيون زجاجية، اعتبر أنتوني أن الوقت قد حان لوضع حد لهذا اللف والدوران ومعرفة السبب الحقيقي لهذه الملاحقة، الموعد واللقاء. ومع حثه على ذلك، مسح بدرو تيتشر شفثيه بظهر يده وتابع قصته.

- ومن ثم، ذهبت للبحث عنك في الفندق، ولم تكن موجودا، عذرا على التورية. عدت في اليوم التالي، ولكن لم أجرؤ على الاقتراب من المبنى بسبب الحراسة المشددة المفروضة عليه. ومنذ ذلك الحين أمضي ساعات يومي أجدّ في أثرك. بلا طائل: عندما لا تعتقلك الشرطة، تقع بين براثن السلك الدبلوماسي، وإن لم يكونوا هم، فالفلانخي. دعنا لا نتحدث عن عصابة القوادين والبغايا الذين تقضي أوقات فراغك بصحبتهم. وهي أمور ليست من شأني بالتأكيد.

- في هذه الحالة، دعنا من أنشطتي ولندخل في صلب الموضوع. لماذا تبحث عني، سيد تيتشر؟

هذا التوبيخ استحضر مجددا شكوك خبير الفنون المدعي: التفت في كل

اتجاه بنظرات مرتابة، جفف بمنديل قطني قطرات العرق الذي ندى جبينه وشفته العليا، فخفض صوته.

- لا أستطيع إخبارك.

- ومن أجل هذا جعلتني آتي؟

- لا أستطيع إخبارك هنا تحديدا. إنهم يسمعوننا.

- لا أحد يسمعنا، تيتشر. كل واحد مشغول بأموره. وفي حال لم يكن هذا كافيا، في هذا البلد لا أحد يعرف الإنجليزية ولا حتى مدير البريتيش كونسل ذات نفسه.

- لا تنخدع. مدريد تعج بالعملاء الأجانب. حشود! وايتلاندرز. وهذا أمر طبيعي. في لمح البصر سوف يحسم على هذه الأرض مصير العالم. المعركة الفاصلة بين الخير والشر. «أرماجيدون».

- محتمل (قال أنتوني عندما لاحظ على محدثه حماسا متزايدا نتيجة تناول المارتيني) ولكنني في غاية التعب، ولن أضيع الوقت في الاستماع لحماقات. إذا كنت لن تخبرني بشيء فسوف أعود إلى الفندق لكي أوي إلى الفراش. يمكن لمعركة أرماجيدون أن تبدأ بدوني. تصبح على خير.

- لا، لا، لا. لا ترحل، (توسل إليه بدرو تيتشر بنبرة باكية) يجب أن أخبرك بأمر في غاية الأهمية. في نهاية المطاف، لقد جئت من أجل هذا من آخر الدنيا. لكن لا يجب أن يسمعنا أحد.

- أسر به إلي في أذني.

- لا يمكن. سوف يقرأون شفاهي. هناك عملاء مدربون على هذا المجال. فلنذهب إلى حانة أخرى. لا، لا ليست فكرة جيدة: هناك سيحدث نفس الشيء. ومن الممكن أن يتبعوننا في وسط الشارع، من يدري لعلهم

التقطوا لنا صورة. طرأت على بالي فكرة أفضل. تعال إلى منزلي. أحتفظ بشقة بسيطة ولكن في وسط المدينة، أأخذ فيها بعض البضاعة الخاصة بعلمي، وأستقبل عملائي في سرية تامة. وايتلاندرز، سوف تروك. وأمنة تماما. علاوة على كونها مستودعا لأعمال فنية قيمة، تتوافر بها أحدث الوسائل الأمنية وأكثرها فاعلية. لا أستطيع إعطاءك العنوان جهرا، لكن سوف أكتبه لك على هذا المنديل الورقي. احفظه في ذاكرتك، ثم أحرق المنديل بعد ذلك. لا، لا تحرقه. سوف تلفت الأنظار. ابتلعه. لا، هذا أيضا سوف يفتح المجال أمام التعليقات. حسنا، أترك بين يديك مسألة تدمير الدليل. سوف أرحل حالا. لا يجب أن يرونا نخرج معا. انتظر لربع ساعة، ثم تعال إلى العنوان المدون على المنديل. هل فهمتني؟

- بالطبع. أنا مطمئن. ولكنني لن أذهب إلى أي مكان. من يدريني أنك لا تدبري مكيدة؟ أنت نفسك ذكرت أمر خطر قاتل.

- تلميحك جارح، وايتلاندرز؛ نحن إنجليز، رجال شرفاء وزملاء.

- هذه ليست عقبة.

- كن منطقيا. أبحث عنك منذ أيام لأحذرك من خطر محقق. لا ترفض يدي الممدودة. قد لا تتاح لنا فرصة ثانية. هل سمعت باسم كوليا؟ أه، أراك ترفع حاجبيك. بوسعي تزويدك بمعلومات إضافية حول هذه الشخصية، وحول طريقة إحباط مخططاته. كما أستطيع أن أكشف لك أمرا خطيرا حول نسب اللوحة محل النزاع والجدل الدائر حول رسامها. حسنا، انتظر بعد خمس عشرة دقيقة. تصرف وفق ما يترأى لك.

وضع عدسة المونوكل، نهض، التقط معطفه، والقبعة وخرج ماشيا بعجرفة. قرأ أنتوني العنوان. كان رقما في بداية شارع سيرانو، غير بعيد من هنا، وبينما كان يرسم المسار في مخيلته مرجحا ملاءمة الذهاب، قدم له النادل

حساب كأسى المارتيني. هدأته علامات الحيرة والوقاحة، بشأن نوايا بدرو تيتشر، لم يكن أي شخص شرير ليفعل شيئا بهذه العجرفة. دفع وغادر المكان.

لم يزل برد الشتاء قارسا، بالرغم من أن درجة الحرارة في الليل كانت أخف حدة مقارنة بالأيام السابقة، وبدا له الطريق أكثر حياة مما ساعده على إعادة ترتيب أفكاره. كانت الساعات الماضية صعبة للغاية من كافة النواحي، والآن يشعر بالانهك التام يستحوذ عليه جسديا وذهنيا، دون أن يترك لعزيمته أية فرصة. كان مدركا أنه استنفد طاقته بالكامل ومن ثم فقد الاهتمام بأي شيء يتعلق بهذه الرحلة. حتى لوحة بيلاثكيث، بدت له الآن أمرا بعيد المنال باهظ التكلفة. دون أن يفقد ولو قيد أنملة من اهتمامه، لم يكن المجد المهني المتخيل، أو الثورات العاطفية المشبوبة والتي احتشدت في نفس الوقت، تستطيع مزاحمة رغبته المحمومة في استعادة سكينه عمله، منزله وروتين حياته المعتادة. مهما كان السر الذي سيكشفه له بدرو تيتشر، فقد عقد العزم بالفعل. سيعود في اليوم التالي إلى إنجلترا، بدون مشاورة أحد، أو إبلاغ أحد، أو وداع أحد.

قطع جادة ثيبيلس، مر من أمام الحانة التي يقبع في قبوها «الحوت السعيد»، المكان الذي يجتمع به خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا ورفاقه ليلا لاحتساء الويسكي ومناقشة أحداث الحياة الثقافية. مازال أنتوني يحتفظ بذكرى طيبة عن الليلة التي دعي فيها للمشاركة في الجلسة الحوارية، بالرغم من أنه لم تعد لديه رغبة قوية في لقاء خوسيه أنطونيو مجددا، بعد استغلال باكيثا له بصورة خادعة وجنونية لا مبررة، كإجراء يسبق ما ترغب في فعله مع الزعيم الوطني. استشاط الإنجليزي غضبا وخجلا من مجرد التفكير في الدور الحقير الذي أُسند إليه القيام به في هذا الثالث الغريب. كان قد وصل شارع سيرانو وطافت بذاكرته محادثته مع باكيثا في كافيتريا ميتشجن منذ عدة أيام. في تلك المناسبة كان قد حدثها عن بيلاثكيث بينما حدثته هي

عن مشاكلها الشخصية. نشأت بينهما علاقة، تحطمت الآن إلى الأبد. هل سيلتقيان مرة أخرى؟ كان احتمالا ضعيفا.

شاردا في هذه الذكريات والتأملات، وصل متأخرا إلى العنوان الذي أعطاه له بدرو تيتشر على المنديل الورقي الخاص بمطعم التشيكوتي. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة تماما، حينما توقف أمام بوابة ضخمة مزينة بأشكال مربعة، يقطع إحدى درفتيها باب أصغر مزود بمقبض نحاسي على شكل رأس أسد. قبل أن يطرقه، دفع الباب الصغير، فاستجاب للضغط. دلف بعد أن تلفت حوله: لم يكن ثمة أحد في الشارع في تلك اللحظة. انتاب أنتوني شعور بأن لا أحد يتبعه أو يراقبه. بعد عدة أيام من خضوعه للمراقبة، بدا تركه وشأنه فجأة فالأ سيئا.. ومع ذلك، دلف إلى الردهة. وعلى الضوء القادم من الشارع، لمح مفتاحا كهربائيا، ضغط عليه فأضاء مصباح متدل من حامل نحاسي مذهب. أغلق باب الشارع وصعد سلما واسعا بحام عريض نحل خشبه من الاستخدام، يحدث صريرا من السير فوقه.

في الدور الثاني كان باب الشقة على اليسار مواربا أيضا، حيث أخبره بدرو تيتشر بمكان شقته السرية. بحذر فطري، اجتاز أنتوني عتبة المدخل. كان بهو الاستقبال مظلمًا، ولكنه لمح إضاءة منتشرة في نهاية الممر. في بهو الاستقبال أو الممر، لم يكن هناك أي أثاث، لا سجاد ولا ستائر ولا لوحات معلقة على الجدران. تقدم بحذر، لكي يأخذ زمام المبادرة بدلا من أن يفاجئه أحد، فوجد نفسه في حجرة فسيحة مضاءة بمصباح بترولي. أكدت الجدران العارية والأثاث المتكشف شكوكه: لم يكن أحد يستخدم تلك الشقة، سواء كمسكن أو مكتب أو قاعة عرض. كانت هذه المعلومة كافية ليدرك خطأه، ما لم تكن هناك صورة أخرى كفيلة بجعله يستوعب الأبعاد الحقيقية لتهوره وحماقته.

بداية كان بدرو تيتشر ميتا، فارق الحياة، دون أدنى شك حيال ذلك. منذ برهة كان قد وصف الوضع بأنه قاتل، وأثبت ذلك الآن بصورة قاطعة كان هو نفسه مثالا واضحا لها. كانت الجثة ملقاة على ظهرها في منتصف الحجر، فوق بركة دم بساقين وذراعين منفرجين على هيئة مروحة، كما لو كان قد سقط من الرعب. كان مازال مرتديا معطفه؛ فيما تدحرجت القبة لمسافة متر من موضع رأس صاحبها السابق، وإلى جوار الوجه كان المونوكل منفصلا دون أن يتحطم.

مدفوعا بغريزة البقاء، وجد أنتوني وايتلاندر نفسه مجددا على بسطة السلم، بدون أن يتوقف لتقييم الموقف. سمع وقع خطوات على السلم. نظر فوجد رجالا مسلحين يصعدون، بينما فتح بعض الجيران أبوابهم، أطلوا برؤوسهم، ثم عاودوا الدخول وأوصدوا الأبواب: لم يكن من المجدي طلب المعونة منهم، علاوة على أن الإنهاك كان يشوش أفكاره. فليكن ما يكون، قال بينه وبين نفسه. بينما كانت تراوده هذه الفكرة، وجد نفسه محاصرا من قبل أربعة أشخاص يطالبونه بعدم المقاومة. الفكرة في حد ذاتها جعلت الإنجليزي يبتسم رغما عنه.

- هل هناك شخص آخر؟ (سألوه).

- هناك قتيل بالداخل. مع من أتشرف بالحديث؟

بدون إجابة، أجبروه على دخول الشقة وأغلقوا الباب. كان أحدهم يصبو نحوه مسدسا، بينما شرع الثلاثة الآخرون في تفتيش سريع شاهرين أسلحتهم في أيديهم. بعد الانتهاء من عملية التعرف، أجرى مكالمة من هاتف معلق على جدار بالطريقة. جاء الرد سريعا، كما لو أن المتلقي كان ينتظر المكالمة على الطرف الآخر من الخط. اقتصرت المكالمة على كلمتين. بعد وضع السماعة، قال المتصل للآخرين:

- لا تلمسوا شيئا. سأكون هنا خلال خمس دقائق.

دون أن يرفعوا أعينهم عنه قاموا بلف سجائر بفلتر ودخنوها. كان أنتوني يحاول تخمين بين أيدي من وقع. مرت برهة كأنها دهر، إلى أن أخرجه من تساؤلاته حضور الكولونيل مارانون برفقة مساعده. كان من المفترض أن يبدد ظهوره قلق الموقوف، لولا أن الواقد الجديد توجه إليه مباشرة وعاجله بلكمة قوية. أسقطت الضربة والمفاجأة الإنجليزي أرضا. من الأرض وجه إلى المعتدي نظرة تنم عن دهشة أكثر من لوم.

- جبان! ابن عاهرة! لولا الشرعية الجمهورية اللعينة لعاجلتك برصاصة على الفور! (صاح الكولونيل).

كان المساعد أكثر هدوءا حيث جلس القرفصاء إلى جوار الجثة، ضامًا أطراف معطفه لكي لا تتلطح بالدم. من مكانه أعلن استنتاجاته الأولية.

- الجثة لا تزال دافئة. أطلقوا عليه النار في الصدر عن قرب، من سلاح ذي عيار ثقيل. مع المعطف والبدلة السوداء من الصعب التحديد بدقة موقع الارتطام، لكن يبدو أنها كانت طلقة حاسمة. ربما يكون الجيران قد سمعوا صوت الطلقة، ولكن في ظروف كهذه سيدعون البلاهة.

ترجيح هذه الفرضية أعاد السكنية إلى الكولونيل.

- هل أنت الفاعل؟ (باغت الإنجليزي بالسؤال).

- لا! كيف يمكن أن يكون أنا؟ (اعترض أنتوني) أنا خبير فنون، لا أستطيع قتل أحد، أو حتى التفكير في الأمر. علاوة على ذلك، أين السلاح؟
- ومن يدريني! من الممكن أن تكون قد ألقيته أو أخفيته. لا يوجد قاتل ينتظر الشرطة مشهرا السلاح في يده. هل تعرف الضحية؟

- نعم، (قال أنتوني) بالفعل، لقد كنت معه قبل أقل من ساعة في التشيكوتي. كان قد أعطاني موعدا هناك، ليطلعني على أمر هام، ولكنه خشي الأذان. تجنبنا لذلك جعلني آتي إلى هنا. وحين حضرت كان قد فارق الحياة.
- لا يوجد شيء منطقي (زجر الكولونيل) أين نحن؟ هذا يبدو منزل آمن، مكان لتجمع الإرهابيين، القتل والعملاء الأجانب.

- لم يكن لدي أي علم، كما يمكنك أن تتصور. لقد صور لي الأمر على نحو آخر. حضرت ماشيا من التشيكوتي. ولو أن النقيب كوسكويويلا قد تتبع خطاي كالمعتاد فإنه يستطيع تأكيد ذلك.

- النقيب كوسكويويلا قُتل هذا المساء (قال الكولونيل بجفاء) وأنا يجب أن أفعل الأمر ذاته معك. أعدمك بموجب قانون الفارين. بسبب فقدت واحدا من أفضل مساعدي. والآن أخذوا منا هذا الوغد، الذي كان بوسعه تزويدنا بالكثير من المعلومات.

- بدرو تيتشر؟

- أو أيا كان اسمه. كنا نتبعه منذ وصوله إلى مدريد، ولكن هذا المزعج كان يجيد الهروب. ولو لم تترك منديلا ورقيا على الطاولة مدونا عليه العنوان، لما عثرنا عليه. بطبيعة الحال، على هذا النحو لن يفيدنا بشيء.

حينما خفت حدة الغضب، لاحظ أنتوني على ملامح الكولونيل الفظة علامات إنهاك كبيرة. كان قد تجاهله وأخذ يتحدث مع مساعديه.

- اثنان هنا لحين وصول قاضي التحقيق لرفع الجثة. والباقي معي. أما هذا التافه فسيأتي معنا إلى إدارة الأمن العام. هناك سيعترف بالتتي هي أحسن أو بالتتي هي أسوأ.

في الطريق إلى إدارة الأمن العام، كان أنتوني يود معرفة تفاصيل مصرع النقيب كوسكويويلا. فأطلعه الكولونيل عليها ببرود شديد، بعد أن تبدد شعوره العدائي نحو الإنجليزي عقب المواجهة الأولى. عثر على جثة النقيب حوالي السادسة مساء في موقع بناء مهجور بالقرب من حديقة الريرو. وفقا للأدلة، لقي النقيب مصرعه نتيجة لتبادل إطلاق نار، وقع في مكان آخر، ثم نقل بعد ذلك إلى الموقع المهجور. بحسب الكولونيل، كان الفاعل معروف تماما: منذ بضعة أيام، في إحدى مواجهات الشارع، قُتل طالب حقوق عضو في الفلانخي، وانتقم له رفاقه، بحسب العرف، على هذا النحو. من ناحية أخرى، يضاف هذا الاعتداء إلى حملة الإرهاب التي يشنها الفلانخي من أجل التمهيد (لانتفاضة) عسكرية محتملة.

- هل لديك دليل على ما تقول؟ (سأل أنتوني في نهاية القصة) شهود عيان؟ هل أعلن الفلانخي مسؤوليتهم؟

- ليس ضروريا.

اتخذ وايتلاندر قرارا.

- عندما نصل إلى مكتبك، سوف أخبرك أين ومتى رأيت لآخر مرة النقيب المسكين كوسكويويلا. وأقترح عليك الاتصال بوزير الداخلية القصة تستحق عناء ذلك.

بينما كان يجري هذا الحوار في السيارة؛ في العقار رقم 21 الكائن بشارع نيكاسيو جايجو، الذي كان الفلانخي يتخذونه مركزا لأنشطتهم، استدعت زيارة الأب رودريجو، أحد معارف ماركيز إستيا القدامى، والأنباء التي كان يحملها، انعقاد جلسة عاجلة للقيادة السياسية.

- لقد سمعت بمنتهى الوضوح كما تسمعونني: في الوقت الراهن لن يفعلوا شيئا.

عابسا، ولكن تصالحيا، قاطعه سكرتير عام الحزب، رايموندو سانثيث كويستا.

- الأمور يمكن أن تنقلب في أية لحظة. وعلى الوضع الحالي لمسرح الأحداث...

- وإذا لم تتغير؟ (قال مانويل هيديا).

قطع خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا المواجهة ضاربا الطاولة براحة يده. شرع يتحدث بقنوط وثناقل.

- الرفيق هيديا معه حق: لن يتغير شيء. مولا وجوديد لا يمتلكون المرأة. وفرانكو جبان.

- يتبقى سانخورخو (علق خوسيه ماريا ألفارو) يتحلى بالشجاعة ويعتمد علينا.

- محتمل (قال خوسيه أنطونيو) لا فرانكو ولا مولا سوف يستدعون سانخورخو من البرتغال لكي يقدموا له عصا القيادة. الجميع يريدونها لأنفسهم. إنها مشاجرة كلاب. وعندما يتفقون فسيكون الوقت قد تأخر كثيرا.

كانت القيادة السياسية منقسمة وعمقت هذه الانقسامات التسريبات السابقة التي جلبها الأب رودريجو من قصر لاكاستيانا مباشرة. يرى المعتدلون أنه من الضروري توحيد صف جميع العسكريين، على الرغم من أن هذا قد يعني إسناد دور ثانوي للفلانخي في الأحداث. أما الأكثر تهورا فيرون أنه يجب الأخذ بزمام المبادرة. البعض أكثر حكمة، رأوا عدم جدوى أي من الرأيين: فمع تدخل الجيش، مهما كان صاحب الخطوة الأولى، القيادة لن تبقى في يد الجنرالات فحسب، بل إن الفلانخي، أيديولوجيتها، روحها، سوف يُسحقون، آجلا أم عاجلا. كان هناك أيضا بين هؤلاء من يفضلون البقاء على هامش الأحداث، تحسبا لفرصة سانحة أكبر في المستقبل. حدوث انقلاب على حكومة الجبهة الشعبية وبقاء الفلانخي مكتوفي الأيدي كانت فكرة شاذة، إلى حد الانحراف؛ لم يكن حتى أنصار هذه الاستراتيجية يجرؤون على طرحها علنا، إدراكا منهم أنها سوف توهم بالجنين والتخاذل. كان أحدهم قد ألمح ذات مرة إلى فرضية الحياد.

كان خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا يقاوم شكوكه. بوصفه الزعيم الوطني لحزب استبدادي، لم يكن يتعين عليه التشاور مع أحد أو تقديم كشف حساب لأحد بشأن قراره، لكنه لم يكن قائدا سياسيا بالأساس، بل مثقفا، فقيها قانونيا تربى على تحليل الأحداث من مختلف الزوايا. كان تعصبه بلاغيا. لأنه كان يعرفهم منذ نعومة أظفاره، يعرف أفضل من أي شخص آخر، أن الجنرالات بخطابهم الوطني الفخم، ليسوا سوى الذراع التنفيذية للإقطاع، البرجوازية المالية والأرستقراطية. الكثير من العسكريين، بما في ذلك أصحاب أعلى المناصب، كانوا معجبين بأسلوب الفلانخي الحماسي؛ إلا أن هذا الإعجاب لم يكن سوى نوع من الحنين لما كانوا عليه أو ما كانوا يرغبون أن يكونوا عليه، قبل أن يجدوا أنفسهم عالقين في مستنقع الكادر

الوظيفي، وفي وحل الانحطاط والتراخي والمنافسات المتدنية. مع بعض الاستثناءات الطفيفة، الجنرالات الانقلابيون متوسطو الشأن، متغطرسون، وبصفة عامة غارقون في الفساد مثل الحكومة التي يستعدون للانقلاب عليها. لكن ما هو السبيل للخروج من هذه المعضلة؟ كان يسأل نفسه. منذ عام مضى، أعد خطة كان من الممكن أن تغير توزيع القوى. خطط خوسيه أنطونيو، مستغلا سخط الجميع على تغيير في الحكومة، لمسيرة زاحفة على مدريد، على غرار ما فعله موسوليني في الـ28 من أكتوبر عام 1922. كان قد انبهر بشدة عندما رأى في ريبورتاج سينمائي حينما كان في الثامنة عشرة من عمره، مشهد دخول الفرق الفاشية روما في تشكيلات حربية مع القمصان السوداء، رموز الإمبراطورية والرايات ترفرف خفاقة في وجه الريح. في ذلك الوقت، أشاد الشعب بقائده الجديد، وأقر له الملك والكنيسة على ذلك، أما الجيش الإيطالي، وكان يحقره في السابق، فلم يجد أمامه سبيل آخر سوى الانصياع له. شارك موسوليني وهتلر في الحرب العالمية الأولى، بدون أن يكون لأي منهما خلفية عسكرية؛ ومع ذلك، على عكس التقاليد الدكتاتورية العلمانية الإسبانية، في البلدين الشموليين بامتياز، المدنيين بهيئاتهم كانوا يضعون الجيش تحت إمرتهم، وليس العكس. بنى خوسيه أنطونيو خطته على هذه النية، عندما استشعر تهديد الجبهة الشعبية، الزحف بمسيرة على مدريد من توليدو، تضم آلاف الفلانخي ومغاوير الكاثار. وعلى طول الطريق كان سيضيف إليهم حشودا ضخمة، وكان يكفي انضمام الحرس المدني. إلا أن المشروع لم يتم: في اللحظة الأخيرة، نسفه بعض العسكريين. يعرف خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا أسماءهم، وخصوصا من كان يتولى منصب رئيس الأركان، وكانت له الكلمة الأخيرة: فرانكو.

- سوف أخبركم ماذا سنفعل (قال في النهاية) سوف نوجه للعسكريين

الإنداز الأخير. إما القيام بالانتفاضة الآن، على أن تكون الفلانخي رأس
الحرية، أو تعلن الفلانخي الحرب بنفسها وعلى مسؤوليتها. وهكذا نكون قد
حذرناهم. وسوف يكونون هم المسؤولين عن العواقب أمام الله والتاريخ.
بعد ذلك طلب من خوسيه ماريا ألفارو استدعاء سيرانو سونير.
وعندما دخل القاعة، قال له:

- رامون، أريد منك أن ترتب لي لقاء مع عدليك بأسرع ما يمكن. من
الأفضل أن يكون غدًا إن أمكن.

عندما انفض الاجتماع، تبع الأب رودريجو خوسيه أنطونيو مثل الكلب
الوفي.

- لا تثق في العسكريين، سيدي الماركيز. إنهم لا يخوضون حرب الرب،
بل حربهم.

على الرغم من سنوات عمره الست والخمسين، كان مظهر دون مانويل أثانيا يبدو أكثر شيخوخة. بدين، أصلع، شاحب، قبيح، كئيب الملامح، تبدو عيناه من أسفل عدسات نظاراته السميكة، شقيتين ناعستين أو خبيثتين، على حسب استعداد من ينظر إليه. لم يكن أنتوني وايتلاندر قد رآه من قبل إلا في الصور، وبالتأكيد في رسوم كاريكاتورية لصحافة اليمين التي كانت تصوره على هيئة شخص تافه، ضفدع أو ثعبان. ها هو الآن أمامه. في مكتب رئيس الحكومة، أعاد مرة أخرى الحكاية التي حكاها أولا للكولونيل مارانون في إدارة الأمن العام، وبعد ذلك إلى دون ألونسو مايول، ثم إلى دون أموس سلفادور، مدير الأمن العام ووزير الداخلية على الترتيب. قام الأخير بالاتصال برئيس الحكومة، وبالرغم من الوقت المتأخر، استقبلهم أثانيا على الفور، أنصت باهتمام، وبعدما انتهى الإنجليزي، ظل ينظر إليه بتمعن شديد.

- متأكد أن اللوحة لبيلاثكيث؟

بدا السؤال محيرا لأنتوني ولمرافقيه. عوج فمه تصنعا، قاصدا أن تكون ابتسامة تواطؤ.

- الغلط مردود. موضوع المؤامرة وأسماء الجنرالات، ستؤخذ على محمل الجد، على الرغم من أنه لم يفاجئني كما تعلمون. على عكس موضوع اللوحة لم يكن في الحسبان. أنا، سيد وايتلاندر، لا أفهم كثيرا في الفن. يستهويني

الأدب. لو كان بيدي، لتمنيت أن أكون تولستوي أو مارسيل بروسست. الآن طبعا. أما في شبابي فكنت أتمنى أن أكون رودلف فالنتينو.

عاود الابتسام بطريقة أقل تصنعا. عندما اتصلوا به كان يتأهب للرحيل إلى المنزل. والآن قرر أن يكون اللقاء ممتدا وتكيف بأريحية مع العارض الجديد.

- أمضيت فترة في باريس (تابع مخاطبا الإنجليزي، لأن الآخرين كانوا على دراية بذلك) قبل حرب سنة أربعة عشر. كانت لجنة الدراسات العليا قد أعطتني منحة للدراسة بعد الفصول في السوربون. حقيقة الأمر لم يكن يستهويني غير الفن وحياة المثقفين في تلك المدينة العظيمة. والفتيات كما لك أن تتصور. كنت أتردد يوميا على متحف اللوفر، أقضي ساعة في إحدى صالات التحف، أو أقف مبهورا أمام إحدى اللوحات. ثم أعود إلى حجرتي محاولا التعبير كتابة عن انطباعاتي. اعذروني إن كنت شردت (قال متوجها بإيحاء إلى الآخرين) الوقت متأخر، ويومي كان طويلا وشديد الملل. ولا بد أنكم مرهقون أيضا. سوف أنتهي حالا. قلت لك إنني كنت أتردد على اللوفر كل يوم. كنت مولعا بفن التصوير الإيطالي، وخصوصا مدرسة فينيسيا. ولهذا السبب حضرت ذات مرة ندوة عن تيزيانو، بناء على نصيحة من أحد مواطنيك، بروفيسور في أوكسفورد أو كمبريدج. رجل متوسط العمر، وسيم، أنيق، دمث الخلق، يعطي انطباع بارتياح زائف، ولكنه منظم جدا وحاد الذكاء، مثقف بشكل مذهل، يختلف تماما عن جهابذتنا التافهين الجهلة. من شدة انبهاره به ما زلت أذكر اسمه: جاريجو. خصص الندوة بالكامل للوحة واحدة: مصرع أكتيون. لم تكن من الأعمال المعروضة في اللوفر أو في أي متحف آخر. من الواضح أنها كانت مملوكة وماتزال لأحد الأثرياء. عرض لنا في الندوة نسخة مقلدة رائعة، شرح لنا البروفيسور عليها مختلف تفاصيل هذه القصة الأسطورية العجيبة. كما يمكنك أن تتخيل،

انبهرت بالحكاية الخيالية وطريقة عرضها. لا أدري إن كنت حضرتك تذكرها. يخرج الشاب أكتيون في رحلة صيد، وبالصدفة يفاجئ ديانا وهي عارية؛ ترميه الربة اللعوب بسهم وتحوله إلى ظبي، وبعد ذلك تفرس أكتيون كلاب صيده، دون أن يتمكن من فعل شيء لتجنب ذلك. لكي يصور هذه الواقعة، اختار تيزيانو نقطة تتوسط تسلسل الحكاية: الجوهرى وقع بالفعل أو أنه على وشك الوقوع. من لا يعرف بداية ونهاية القصة لن يستوعب شيئا. ربما كانت الأسطورة الإغريقية معروفة للجميع عندما رسم تيزيانو اللوحة. أنا أشك في ذلك. هناك سبب آخر دفع الرسام لاختيار هذه اللحظة وليس أخرى. لحظة وقوع الخطأ بالفعل والسهم قد نفذ. أما الباقي فمسألة وقت: النهاية أصبحت محتومة. أرجوكم تحلوا بالصبر مع شطحاتي. أحيانا في عزلتي في هذا المكتب، وفي هذه الساعة المتأخرة، وبعد أن يكون التعب قد غلبني، ولماذا أنكر ذلك، أو بسبب الإحباط، ألوذ بذكرى أيام أخرى، لا أدري إذا كانت أكثر سعادة، ولكنها كانت أقل تعقيدا: الطفولة في ألكالا، مدرسة القديس أجوستين في الإسكوريال، باريس قبل الحرب... وفي هذا الشرود، خطر على بالي منذ فترة ليست كبيرة، ذكرى لوحة تيزيانو.

توقف لبرهة لكي يشعل لفافة تبغ وتفحص العيون المسبلة من جلال الموقف. ثم تابع بنبرة أكثر حيوية.

- يعتقد الكثيرون أننا بلغنا هذا الوضع بالضبط. الخطأ الذي لا يمكن تداركه وقع بالفعل، السهم انطلق وترك القوس وراءه؛ لم يعد متبقيا سوى افتراس كلابنا لنا. يروقني التفكير بأسلوب آخر. وسوف أخبركم بالمزيد. السهم الذي يستطيع قتلنا هو تحديدا هزيمة الجميع. لم تشهد إسبانيا من قبل إجماعا منقطع النظير على شيء مثل اليوم. القناعة بأننا نمضي قدما صوب الهلاك. أسأل نفسي إذا كنت الوحيد غير المتوافق مع ذلك، وأجيب على

نفسى بلا. لقد أثبتت الانتخابات التي أجريت منذ نحو شهر ذلك، وخلال الحملة الانتخابية كانت لدينا الفرصة لاستطلاع الشعور العام.

تجاهل أنتوني الغارق في تأملاته، المعلومة، إلا أن دون مانويل أثنيا كان محقا: في إطار الحملة الانتخابية عقد العديد من اللقاءات الجماهيرية الحاشدة. وبالرغم من افتقاره للكاريزما وسمعته كمتقف؛ وبالرغم من الانحدار على مدار سنوات طوال من الصراع السياسي ارتكب فيها هو وحزبه أخطاء جسيمة؛ وشيطنة اليمين له وتشويه اليسار لسمعته، الشعب منحه صوته وأيدته الجماهير لأنهم رأوا في أثنيا الأمل الأخير في التوافق والمصالحة. خلال الاجتماع الأخير الذي عقد في ضواحي مدريد، في مكان سئ الاتصال وسط برد قارس وبالرغم من مقاطعة الحكومة، حضر نصف مليون شخص. لأن أيديولوجيته كانت بسيطة: تعضيد الجمهورية، وعدم التفريط فيما تم إنجازه حتى الآن، عدم زيادة مشاكل البلاد أو زيادة سوء أوضاع الشعب المعيشية. يعتمد من أجل تحقيق ذلك على التأييد الكبير للأغلبية البرلمانية ومؤازرة جموع الشعب الإسباني، إلا أنه يدرك أن الأغلبية التي تدعمه لن تكون ذات فائدة تذكر أمام المسدسات، ومعدومة الجدوى في مواجهة المدافع. ومع ذلك يتمسك بالأمل في انتصار الصالح العام، في غريزة البقاء لدى الأمة الإسبانية. يؤمن بذلك أيضا، لأنه شهد ميلاد ونمو الجمهورية، ويعرف جوهرها، وأنه في العمق لم يكن أحد يرغب في الوصول إلى النقطة التي وصلوا إليها. بالنسبة للاشراكيين، أدى الاستنزاف المتواصل للتحالفات الانتخابية والإدارة السياسية إلى تطرف مواقفهم ومن ثم الحيلولة دون تخلي العمال عن اتحاد العمال العام (UGT) والانضمام إلى الاتحاد الوطني للشغل (CNT)، حيث مايزال الأناركيون يحتفظون ببقاء المبادئ بفضل التخلي عن أي برامج انتهازية والممارسة الدؤوبة للمسؤولية

المدنية. وعلى هذا النحو، يشعر الاشتراكيون المتمسكون بالخطاب الثوري، وهو مجرد عبث من وجهة نظره، أنهم مضطرون للاستيلاء على السلطة مثلما فعل البلاشفة في روسيا. يرفضون من حيث المبدأ أية صيغة للتوافق متعللين، ولديهم أسبابهم، بالقمع الوحشي الذي تعرضت له الطبقة العمالية، سواء من جانب الملكية أو الجمهورية. إلا أن قرارهم في الوقت الراهن يعد انتحارا. في هذا الصدد، اليمين أكثر تعقلا: يدافع عن مصالح الأقلية، وبناء عليه، لا يتعين عليه كبح جماح كتلة محتقنة تطالب بنتائج ملموسة وفورية. اليمين يمكنه الانتظار، لأنه لا يقاسي الجوع، وسيلجأ للتمرد المسلح، فقط إذا لم يكن أمامه مخرج آخر. الجماعات المتطرفة المحسوبة على اليمين مثل المحافظين أو الفاشيين المزعومين، مجرد قلة، يحكم سادتهم السيطرة عليهم جيدا بقيد التقدير. أما بخصوص الجيش، أثنانيا أكثر دراية بتحركاته؛ ولهذا لم يكن عبثا توليه منصب وزير الحربية في أول حكومة جمهورية. على النقيض من الرأي الأوسع انتشارا، يعتقد أثنانيا أن العسكريين لا يريدون القضاء على الجمهورية، والتي تعتبر في جوهرها أيضا منهم. عندما كان بمقدورهم الدفاع عن الملكية، التي يطالبون اليوم بوقاحة إصلاحها، لم يحركوا ساكنا، ولن يفعلوا الآن لسحق الجمهورية. وإذا نحينا جانبا العسكريين الأفريكانيستاس، مبعث خوفه الحقيقي، الباكون موسومون بانعدام الكفاءة، الخمول ووهم التراتبية. الجيش الإسباني في الوقت الراهن مؤسسة عفا عليها الزمن، مترهلة، غير منظمة، بلا عتاد أو روح معنوية، لدرجة أنه قام بدور مؤسف في كوبا والفلبين عام 1898، وبعد ذلك لكي ينقذ كرامته أمام الدولة وأمام نفسه، نصب نفسه حكما على السياسة الإسبانية. ومع ذلك، التوازن على المحك، وفي وقت التشويش، يترقى الأذكياء.

- أليس من المحتمل أن يكون مارتينيث ديل ماثو؟ (سأل أثنانيا).

أعرب أنتوني وايتلاندر عن امتنانه لمنحه الفرصة وتأهب لعرض أسبابه. بينما أعرب وزير الداخلية عن تدمره نيابة عن رفاقه.

- ألا يجب علينا التركيز على قضايا أكثر إلحاحا وأهمية؟

أجاب رئيس الوزراء بود.

- عزيزي أموس، سيكون هنا متسع من الوقت لكل شيء... أو إلى لا شيء. في الوقت الراهن، تلك اللوحة أسرتني تماما. المنزل الذي توجد به، محل خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا ضيفا مستديما عليه وهناك يجتمع بعض الجنرالات الانقلابيين. تاجر الفنون الذي بدأ صفقة البيع قُتل في شقة مهجورة، مملوكة لشركة استيراد سويسرية، قبل البوح بسر للسيد وايتلاندر، الذي ظل يقتفي أثره من لندن لأسباب مجهولة. الموضوع محل اهتمام بالغ من جانب السفارة البريطانية لدرجة أنها أبلغت إدارة الاستخبارات به، وهي بدورها أرسلت شخصية مهمة. واليوم أيضا قُتل مفتش أمن، بالصدفة شوهد للمرة الأخيرة في منزل دوق إجوالادايوم المؤامرة. ربما تكون مجموعة من المصادفات، هذا حقيقي، ولكن إذا لم تكن كذلك، هذه اللوحة تلازمها لعنة تتضاءل إلى جانبها لعنة توت عنخ آمون.

- في هذه الحالة (ألح أموس سلفادر وزير الداخلية) أليس من الأفضل أن نقطع الشك باليقين؟ الآن أنا بنفسني سوف أصدر أمرا قضائيا وسوف نصادر اللوحة. وبعد ذلك فلنر.

من فرط حماسه لوضوح الطرح، نهض الكولونيل مارانون واقفا لإصدار الأوامر المناسبة. أو ما إليه أثنيا لكي يعاود الجلوس.

- أعترف بأن الفكرة خطرت على بالي وتستهويني لأسباب عديدة (قال) بداية من رغبتني القوية في مشاهدة اللوحة. وإذا كانت حقيقة من أعمال

ببلاثكيث، فإنه سيكون من دواعي سروري إخراجها من القبو وإهداؤها إلى متحف البرادو. ولكن لا يمكننا التصرف خارج إطار الشرعية. في مثل هذه الأوقات يجب أن نتحلى بالحذر الشديد. فليعلم الجميع، أن دون ألبارو ديل بايي لم يرتكب أي جريمة. لا لأنه يمتلك لوحة قيمة أو لأنه اجتمع مع مواطنين ينتمون إلى أي تيار سياسي. سوف نشدد الحراسة وإذا حاولوا إخراج اللوحة من البلاد أو إذا استطعنا اتهامهم بارتكاب أية مخالفة، سوف نوقع بهم. إلى أن يحين ذلك سنظل مكبلي الأيدي والأقدام.

- لكنهم اغتالوا واحدا من رجالي، دولة الرئيس (قال الكولونيل منفعلا).

- هذه المأساة خسارة كبيرة لنا جميعا، (علق أثنانيا) وأنا شخصيا بصورة مضاعفة، بصفتي مواطنا وبصفتي رئيسا للحكومة. كل اغتيال، يعد بمثابة خطوة أخرى نحو الهاوية. إذا لم نوقف العجلة، سرعان ما لن يكون هناك سبيل للتراجع. وما قلته عن الاغتيال يسري على اللوحة. سوف نفتح تحقيقا لكشف الحقيقة وسوف يطبق القانون بكل قوة على المذنبين، وهذا هو كل ما في الأمر. لن تكون مهمة سهلة. وإذا كان النقيب، كما أخبرنا توا السيد وايتلاندرز، قد تعرف على المتآمرين، فهؤلاء هم أول المشتبهين، لكن من الواضح أنهم محوا كل أثر لهم. ظهور الجثة في أرض بناء مهجورة يستبعد أن يكون القتل قد وقع عرضا خلال مواجهات شارع. لكن في الوقت نفسه لا نستطيع التحرك بناء على تكهنات، وخصوصا ضد جنرالات في الخدمة كانوا ساعة وقوع الأحداث على مسافة كيلومترات من مدريد. أيا كان، يبدو أن المؤامرة في المرحلة النهائية. ولكنه أكد على ضرورة عدم إغفال مصرع المدعو بدرو تيتشر. كان هو والنقيب كوسكويويلا يتبعان السيد وايتلاندرز عن قرب. ربما كان هناك رابط بينهما قد غاب عنا.

صمت، أشعل لفافة تبغ، نظر في الساعة. ملاحظة ذلك، جعلته

يستوعب مدى إنهاكه شخصيا. كان الآخرون شاحبون وجفونهم متورمة. تنهد ثم تابع.

- أيها السادة، كما كنت أقول، نحن على حافة الهاوية. وإلى الآن، لم يقرر أحد بعد المضي قدما. لكن تكفي دفعة صغيرة لتعجل بحلول الكارثة بالبلاد. ولدي قناعة بأن هذه الدفعة، إذا حدثت، سوف تكون نتيجة حدث أقل أهمية وفقا لمعايير التاريخ، بسبب شيء سوف تعتبره أجيال المستقبل من النوادر، وسوف يضطرون لتضخيمه لكي يستوعبوا لماذا خاضت البلاد صراعا بين أشقاء كان من الممكن تفاديه. ولا أستطيع نزع هذه اللوحة من رأسي، اللعنة.

صمت لبرهة ثم أضاف:

- كما سبق أن أخبرتكم، في الوقت الراهن ليس بوسعنا فعل شيء. لكن، لا شيء يمنعنا أن نطلب من السيد وايتلاندرز، الموجود هنا، مواصلة البحث بمفرده. هو بنفسه أخبرنا بقراره العودة إلى لندن بأسرع وقت، وعلى ضوء ما حدث، أرى أنه قرار عقلائي. لا أجرؤ، ولا حتى بحكم مناصبي كرئيس للوزراء، أن أقترح عليه تأجيل رحيله لحين إجراء مقابلة أخيرة مع دوق إجوالادا. ولكن إذا قام بذلك، فربما يعرف شيئا جديدا يتيح لنا فك طلاسم كل هذا الغموض.

لم يتمكن الكولونيل مارانون من السيطرة على انفعاله، فقاطعه بنبرة جافة.

- مع كامل احترامي، لا تبدولي فكرة سديدة. هذه المهمة تنطوي على خطر جسيم. هؤلاء القوم لم يتوقفوا بالحانة بحثا عن متطوع. لا يجب أن نتصرف على هذا النحو إزاء التهديد بانقلاب، بلا طائل.

شعر أنتوني بتأثر بسيط، لتعبير الكولونيل عن قلقه، ولو بأسلوب خاطئ، على أمنه. علق دون ألونسو مايول.

- بما أنه إنجليزي، فلن يجرؤوا.

- هؤلاء لا يتورعون عن أي شيء. بدرو تيتشر كان إنجليزيا أيضا. والسفارة لن تتورط بسبب شخص متطفل. على العكس قد يتسبب لنا في مشاكل.

تدخل أثنان.

- كل شيء له مميزات وله عيوب، لكن النقاش بلا جدوى. الكلمة الأخيرة للسيد وايتلاندر.

وفي دهشة من الجميع، وله هو شخصيا، كان السيد وايتلاندر قد اتخذ قرارا.

- سوف أذهب إلى ذلك المنزل (صرح) سواء بدا لكم ذلك مناسبا أم لا. أدركت أنه لا ينبغي أن أرحل تاركا الأمور على ما هي عليه. أعني اللوحة، أنا خبير فنون، ولدي سمعتي، هذا له قيمة أكبر من الحذر. صمت عن باقي الأسباب، لأنها لم تكن من شأن الحاضرين.

- سوف أحيطكم علما قدر استطاعتي، (تابع) ولا تقلقوا بشأن السفارة، لن أخبرهم بشيء، ولن ألقأ إليها. أعلم جيدا أنهم لن يهتموا بي.

انتهى الاجتماع. كانت التوديعات مقتضبة. الجميع ناعسون. نقلت سيارة الإنجليزي بالقرب من ميدان الأنخل، لكي يكمل المسافة المتبقية بمفرده بدون أن يرى أحد من كان يرافقه. كان موظف الاستقبال نائما على مقعده، متكئا برأسه على ذراعه وبذراعه على الطاولة. تناول المفتاح بدون

إيقاظه وصعد إلى الغرفة. من التعب لم يفاجئه وجود لا تونينا في الفراش غارقة في نوم عميق. خلع ملابسه وأوى إلى الفراش. بعيون نصف مفتوحة، وبدون أن تنبس بينت شفة احتوته ومنحته بحنان براءة سنوات عمرها المعدودة. بعد التوتر العاطفي مع باكيثا وليلي، كانت هذه اللمسات البريئة بالنسبة له بمثابة الترياق.

على الرغم من قصر مدة إقامته في مدريد، بدأ أنتوني وايتلاندر اليوم مكررا ما أصبح بالنسبة له طقسا اعتياديا: الإفطار في الكافيتريا المعتادة، قراءة سريعة لجرائد اليوم، مشي غير متعجل حتى قصر لاكاستيانا. فتح له كبير الخدم الباب بنفس الجهامة المعتادة، لم تكن تبدو على ملامحه أية وحشية أو عدائية، كما لو أن سفاح الأمس المتوحش ليس له وجود سوى في خيال الإنجليزي.

- تفضل لو تكرمت، وانتظر في البهو حتى أعطي خبرا لصاحب السعادة.

مرة أخرى بمفرده مع «مصرع أكتيون»، سأل أنتوني نفسه كيف كان سيتصرف ببيلاثكيث مع المشهد المأسوي، إذا كان هو وليس تيزيانو المكلف برسم اللوحة. مفعما بمظاهر الفخامة والأبهة المتجذرة والراسخة في جمهورية فينيسيا العائمة، لجأ تيزيانو إلى الثقافة الكلاسيكية الغزيرة المتركمة منذ عصر النهضة لتصوير العقاب غير المنطقي والمبالغ فيه من قبل إلهة أسيرة لرمزيتها وسلطتها المطلقة. كانت ديانا تستحوذ على المشهد، مثل القوى عديمة الرحمة التي تسلط على البشر: مثل الأمراض، مثل الحروب، مثل العواطف المؤذية. لم يكن ببيلاثكيث يجهل المصائب التي تسيطر على العالم، ولكنه كان يرفض تصويرها في لوحاته. بكل تأكيد كان سيختار شاهدا عرضيا على مصير

أكتيون البائس، وربما عكس على ملامحه الاندهاش، الفزع، أو اللامبالاة
إزاء الحادث المريع الذي كتب عليه أن يشهده وأن يصبح الآن مؤتمنا عليه
بدون أن يستوعبه وبدون أن يعرف كيف ينقل معناه ومغزاه للعالم.

كما لو أن قدرا ساخرا أيضا ينظم تسلسل أفعاله، قطع تأملات أنتوني
صوت مرتجف ومبتهج في آن واحد.

- توني، لقد عدت! المجد للرب! هل زال عنك الخطر الآن؟

- لا أدري يا ليلي. ولكن كان يجب أن آتي مهما كان الثمن.

- من أجلي؟

- لا أريد أن أكذب عليك. لست سبب وجودي هنا. وبما أننا التقينا،
أود انتهاز الفرصة لكي أوضح ما حدث بيننا أمس.

اقتربت ليلي من الإنجليزي ووضعت راحة يدها على فمه.

- لا تقل شيئا. أنتم البروتستانتين تعتقدون أنكم مجبرون على قول
أشياء فظيعة. تفكرون في أن الحقيقة يجب أن تكون بالضرورة أمرا قاسيا أو
جارحا أو بشعا. لكن الأمور ليست على هذا النحو. المعجزات وحكايات
الجنيات ليست خداعا بل خيال. ربما كانت الآخرة أيضا كذلك، مجرد خيال.
ومع ذلك، تعييننا على الحياة. الحقيقة لا يمكن أن تكون خيالا كاذبا. أنا لا
أطالبك بأية توضيحات، لا ألومك على أي شيء، أو أطلبك بأي شيء.
لكن، توني، لا يمكنك أن تحرمني من الأمل. لا اليوم ولا غدا، ولكن ربما في
يوم من الأيام قد تتغير الأحوال. حينئذ، إن تجاوزتها واتصلت بي، فسأذهب
حيثما تريد وأفعل ما تشاء. إلى أن تحين تلك اللحظة، سواء حقيقة أم خيال،
لا أطلب منك سوى الصمت الشفوق. وألا تحكي شيئا لأحد. أتعذني؟

دون أن تمنحه فرصة للرد، اقتحم البهو دون ألبارو ديل بايي، دوق

أجوالادا، يرافقه كبير الخدم. وبدون أن تصدر عن كليهما أية بادرة تحذير، فجأة شعر أنتوني بالانزعاج. كان مصمما حتى تلك اللحظة على قرار الحضور إلى القصر ومواجهة الدوق على أرضه، كما عقد العزم الليلة الماضية في مكتب رئيس الحكومة؛ ومع ذلك، عندما سنحت الفرصة لم يفلح في تفسير سبب مجيئه أو الأسلوب الواجب اتباعه. بدوره لم يكن الدوق متيقنا كيف يتعين عليه أن يتصرف. في النهاية، قرر الدخول في الحوار دون مراوغة.

- ما سبب حضورك، سيد وايتلاندرز؟

وضوح الطرح مهد الطريق.

- سيدي الدوق لقد جئت لأتقاضي حقي عندك.

كانت ليلي ماتزال في البهو. كانت قد شرعت في الانسحاب مع مجيء والدها بصحبة كبير الخدم، ولكنها توقفت مترقبة عند الباب، عاجزة عن التخلي عن الإنجليزي في هذا الموقف الصعب. عندما انتبه الدوق، وجه إليها نظرة مطمئنة، تتم عن استيعاب.

- يبدو منصفًا، (أجاب) فلنذهب إلى المكتب. لن يزعجنا أحد هناك.

حينما شعر كبير الخدم بأنه المعني بالكلام، أو ما بالموافقة.

بمجرد دخول المكتب، تحولت أنظار أنتوني بصورة غريزية نحو النافذة التي رأى منها باكيثا لأول مرة في الحديقة، برفقة الوسيم الغامض. في تلك الحديقة عانقته بشكل مفاجئ، وفي نفس المكان فاجأها هو بعدها بعدة أيام، بينما كانت غارقة في اليأس. والآن بالرغم من شمس الصباح الدافئة التي تغمرها، تبدو الحديقة مهجورة. كانت مجموعة من عصافير الدوري تحوم بين الأرض وفروع الأشجار. جلس الرجلان كعادتهما في المرات السابقة. وعلى الفور، بدأ أنتوني الحديث.

- عندما طلبتم مني المجيء، عرضتم علي أجرا، وأقررتم لاحقا التزامكم بهذا في أكثر من مناسبة. ولقد سعيت منذ الوهلة الأولى للوفاء بالتزاماتي، وأعتقد أنني فعلت ذلك قدر استطاعتي، بإخلاص وتفانٍ وعن جدارة. تقاضي الأجر أمر مستحق قبل أن يكون عدلا. نحن المحترفون من حقنا الحصول على أجرنا، ويتعين علينا الدفاع عنه من أجل مصلحة كل المهن. أنا أرفض ظلم الهواة في هذا الصدد، لأن التنازل عن الأجر يعني بالتبعية التخلي عن المسؤولية كاملة. سيدي الدوق، بحكم مكانتكم، أنتم تفكرون وتتصرفون وفق معايير أخرى، ولكنني على يقين من أنكم تستوعبون وتتفقون مع كل ما أقوله لكم.

- بدون أدنى شك.

- قد يكون، ولكنني رأيت أن هذا التمهيد ضروري، في ضوء ما سأقوله لاحقا. تم الاتفاق معي لتقييم بعض اللوحات. واتضح بعد ذلك أن الأمر ليس كما يبدو. بدون علمي أو رغبتني وجدت نفسي قد تحولت إلى جزء، رئيسي أو ثانوي، هذا ليس هو المهم، من مؤامرة مازالت أجهل هدفها وأبعادها. هذا هو ما كنت أرمي إليه حين تحدثت عن تقاضي حقي. أريد الإيضاحات التي تدينون لي بها. أخبروني بها وسوف أرحل. واحتفظوا بأموالكم؛ فلست مهتما بها.

غرق الدوق في صمت طويل ثم قال:

- أنفهم تماما تساؤللاتك، سيد وايتلاندر. كماؤكد لك إنني أيضا أود أن أطرح عليك بعض الأسئلة... على الرغم من أنني لا أدري إن كان سماع الإجابات سيروقي. من أجل الصداقة، ربما كان من الأجدر، اختيار الإبقاء على جهلنا المشترك. ألا تعتقد ذلك؟

انخلع قلب أنتوني، ولكنه سرعان ما حدّث نفسه أن الدوق لا يعلم شيئاً محدداً عن الأمور التي يرمي إليها، وإلا ما كان ليتحدث بهذا الأسلوب الرقيق الهادئ. لو كانت الدوقة موجودة، لكان الموقف أكثر خطورة. الحديث من رجل لرجل، مازال يتيح للإنجليزي هامشا للمناورة.

- الأحداث التي أقصدها (قال محاولاً ألا يجعل حمرة الخجل تفضح الكذب) تتجاوز حدود الأمور الشخصية. في هذا السياق لم يجر شيء مخجل. ومن ثم، اسمحوالي الرجوع إلى البدايات. من هو بدرو تيتشر وما هو دوره في هذه المسرحية الهزلية؟

شعر الدوق بارتياح عند سماع السؤال. بدون شك كان ينتظر أمراً أكثر توريطاً، فلم يتردد في الإجابة بدون تحفظ بكل ما يعرفه أنتوني بالفعل: بدرو تيتشر كان تاجراً، اقتنى عن طريقه، الدوق وعائلات أخرى من الطبقة الأرستقراطية الإسبانية، أعمالاً فنية، وبصفة خاصة لوحات لمشاهير الفنانين. - كان بوسع بدرو تيتشر الوصول إلى قطع مهمة وبيعها بسعر معقول. كان على صلة بزبائن من النخبة في لندن وفي مدريد أيضاً. اقتنيت عن طريقه بعض الأعمال وبعث واستبدلت أخرى في صفقات جيدة.

من طريقة حديثه، خمن أنتوني أنه إما أن الدوق لا يعلم شيئاً عن مصرع تاجر الفنون المتحذلق أو أنه بارع الحيلة. استقر رأيه على الاحتمال الأول، ثم قال:

- والآن بدرو تيتشر يتعاون في بيع لوحة بيلاثكيث التي تحتفظون بها في القبو.

- أنت على دراية بالأمر مثلي. العملية كانت تحتاج لشخص محل ثقة. أقصد على الصعيد المهني وكذلك على المستويين الشخصي والسياسي أيضاً.

بدر و تيتشر لا تتوافر فيه هذه الخصال. أفكاره السياسية معروفة وكخبير في أعمال بيلاثكيث لا يحظى بالمكانة اللائقة. كان تقييمه ليثير الشبهات. لهذه الأسباب لجأ إليك.

- هل كان بدر و تيتشر على علم بمحتوى الصفيقة؟

- إلى حد ما. بدر و تيتشر كان متضامنا تماما مع قضيتنا. أقصد مع قضيتنا نحن الساعين للقضاء على الفوضى السائدة والتصدي لسيطرة العصابة الماركسية على إسبانيا.

- لم أفهم. بدر و تيتشر إنجليزي، ومهما كانت الأسباب، لديه في لندن تجارة رائجة. عقد صلات تجارية أو حتى عاطفية مع أشخاص من بلد أجنبي، ليس كافيا لكي يتورط في الأحداث السياسية لهذا البلد، لدرجة تعريض نفسه للمخاطر، سواء في إسبانيا أو في إنجلترا.

- أنت فعلت ذلك.

- رغما عني.

- بالأمس، أتصور أنك حاولت تسلق جدار منزلي، وعدت اليوم لتضع نفسك في عرين الأسد. لا تقل لي إنك فعلت ذلك رغما عنك. أحيانا يشعر الإنسان الأكثر عقلانية ومنطقية، بدافع يجعله بدون أن ينتبه لذلك يتخلى عن أمنه الشخصي، عن حقوقه، وفي المجمال عن كل ما يمثل رغد العيش بالنسبة له.

- سيدي الدوق، أنا لست هذا الشخص. أنتم تتحدثون عن ماركيز إستيبيا.

أغمض الدوق عينيه، كما لو أن رد الفعل الصادر عن ذلك الرجل، دفعه للتمهل بضع لحظات لكي يعيد ترتيب أفكاره ومشاعره. عندما فتح

عينيه مرة أخرى، أطل منها بريق يتناقض مع حزنه الفطري.

- آه، خوسيه أنطونيو! (قال بينما رمى الإنجليزي بنظرة تواطؤ) أنا على يقين بأنك أنت وهو متوافقان. ولا أستغرب ذلك. لا يستطيع أحد تجنب جاذبية خوسيه أنطونيو؛ ولا حتى من يتمنون موته. أنت رجل ذكي، شريف، وشديد المثالية بالرغم من محاولة إنكارك لذلك. أدرك هو ذلك، منذ الوهلة الأولى، وأحاطني علما بالأمر. لديه القدرة، كأبي زعيم حقيقي، على الحكم على الأشخاص من النظرة الأولى، الاطلاع على العقول والقلوب، وكل ما يحاول الآخرون إخفاءه عن العالم وحتى عن أنفسهم. آه، لو كنت أمتع بهذه الخصال! لكن وما الفائدة: أنا فاقد للبصيرة لدرجة أنني لا أستطيع الانتباه لنوايا أقرب الناس.

نهض من مقعده وقطع بضع خطوات على السجادة. كانت تتصارع داخله كثير من المتناقضات والأفكار المشوشة، ويحتاج لمناقشتها مع أحد، ولم يكن لديه شخص قريب منه ومحل ثقة على استعداد للاستماع إليه واستيعابه. في تلك الأوقات المضطربة، لم تتوافر لدى أحد الحالة المعنوية اللازمة للإنصات إلى فكرة أو مشكلة شخصية لا تخصه. وبحكم وضعه كأجنبي وسلوكه المرن، تحول أنتوني إلى أنسب وعاء لتلقى اعترافات الكثير من الأشخاص ووسيلة تنفيس عن نوبات غضب البعض الآخر. تأخر كثيرا في إدراك هذه الخاصية، مما جعله يسيء تفسير أفعال وردود أفعال مرتبطة به. والآن، عالقا وسط هذه الحسابات، لم يكن بوسع الدوق التوقف عن الكلام.

- في الماضي دافعت بضراوة عن نظام بريمو دي ريبيرا الدكتاتوري. كنت على معرفة وثيقة بدون ميغيل، وأعلم أنه لم يتول السلطة بدافع الطموح الشخصي، ولكن إدراكا منه أن هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ الملكية وكل ما كانت تمثله الملكية. في ذلك الوقت، كانت المؤامرة الماركسية قد طالت جميع

أجهزة الكيان الاجتماعي، وإزاء تحاذل قوى كانت حيوية، ولكنها آثرت التخاذل، وبمباركة المثقفين أنفسهم، الذين يشقون الجيوب اليوم ويهتفون ضد الجمهورية. لم يحزن أحد مثلي على سقوط بريمو دي ريبيرا، لأنني وسط التهاون الجبان من قبل الجميع، بما في ذلك الجيش، تمكنت من أن أرى بوضوح نُذر ما سوف يأتي. بسقوط ونفي بريمو دي ريبيرا، أصبحت بمثابة الأب الثاني لخوسيه أنطونيو، ليس فقط لأنه نجل صديق في محنة، بل لأنني أنفَس عن غضبي الشخصي بالحماس الذي أَدافع به عن ذكراه. أعوض بالجسارة التي استطاع بها هذا الشاب بمفرده التصدي قولاً وفعلاً لأفراد ومؤسسات أقوى منه بكثير، الشجاعة التي لم أتخلَّ بها أنا على الإطلاق.

عاود الجلوس، مرر راحة يده على وجهه، أشعل سيجارة. ثم تابع بنبرة منهكة، كما لو أن الاعتراف جلب له مزيداً من الألم أكثر من الارتياح.

- بطبيعة الحال لم أكن أنا أو أي أحد يستطيع تجنب ما حدث. أقصد العاطفة بين باكيثا وخوسيه أنطونيو. في ظروف أخرى ما من شيء كان سيسعدني أكثر من أن يصبح زوجاً لابنتي، ولكن نظراً للوضع الراهن، لا يمكنني مباركة هذه العلاقة. منذ البداية، اتسمت حياة خوسيه أنطونيو بالعنف، وكل المؤشرات تنذر بنهاية عنيفة. لا أريد رؤية ابنتي تتحول إلى لاباسيوناريا⁽¹⁾ اليمينية. أنا مرن بطبيعتي ومستوعب للأشياء، ولكن في هذا الشأن اتخذت موقفاً حازماً. وهما على عكس طباعهما المندفعة، امتثلاً لقراري.

1. إشارة إلى شخصية دولوريس إيباروري والملقبة أيضاً لاباسيوناريا وهي مناضلة شيوعية إسبانية من إقليم الباسك. انضمت عام 1917 إلى الحزب الاشتراكي العمالي الإسباني، ثم ما لبثت أن التحقت في 1921 بالحزب الشيوعي الإسباني الذي أسسه عمال ثوريون تأثروا إلى حد كبير بتجربة الحزب الشيوعي السوفيتي. كانت تكتب في الجرائد العمالية المحلية، وتوقع باسم «لاباسيوناريا» والذي يعني: خيوط دائرية من الزهر شبيهة بإكليل الشوك الموضوع على رأس السيد المسيح. فأصبح لقبها «لاباسيوناريا» يعني الدعوة الدائمة إلى العمل والنضال.

أدرك مدى معاناتها بسبب هذه المسألة، ولكنني لست نادما. تطور الأحداث يؤكد مجددا قناعاتي، وسرعان ما ينفد الأمل في تغير الأمور إلى الأفضل.

- وطالما لن تتغير فسوف تزودون خوسيه أنطونيو بالسلاح؛ أو المال من أجل الحصول عليه.

- ليس أمامي سبيل آخر. بدون سلاح للدفاع عن نفسه، لكانوا قتلوه هو ورفاقه منذ زمن. يحمل خوسيه أنطونيو على عاتقه مهمة تاريخية يجب أن يُتمها؛ لا يمكنني إبعاده عن طريقه، ولكن سوف أبذل كل ما بوسعي لحمايته.

- أتعلمون فيم يستخدم الفلانخي هذه الأسلحة.

- لدي فكرة محدودة. لا أحد يجبرني وأنا لا أسأل. في النهاية الأمر سيان: السلاح له استخدام واحد. في هذه الحالة القدرة على الرد على الضربة بضربة كفيل بردع العدو.

- لا تكونوا بهذه السذاجة (قال أنتوني) هدف الفلانخي ليس البقاء على قيد الحياة. هدف الفلانخي هو فرض دولة فاشية على إسبانيا. خوسيه أنطونيو رافض للملكية ويروج لنظام نقابي شديد الشبه بالاشتراكية. سمعته يدافع عن هذا البرنامج، بحماس كبير، علنا وخلف الأبواب المغلقة.

صدرت عن الدوق لفتة تدل على عدم الاهتمام.

- أنا على دراية بذلك. ولديّ اثنان من أشد المتعصبين للفلانخي، ويصدعان رأسي طول الوقت بشعاراتهم. هذا لا يقلقني كثيرا. إذا تمكن الفلانخي في يوم من الأيام من فرض سلطتهم، فلن يتأخر الأمر كثيرا على عودتهم للجحر الذي خرجوا منه. في إيطاليا أيضا الفاشيون كانوا يأكلون الأطفال أحياء، والآن موسوليني يمضي كتفا بكتف مع الملك والبابا. الثورة البلشفية القادمة من القاع، لا راد لها؛ على عكس القادمة من أعلى، القائمة

على الحماس المحض، لأنها لا تتغذى على الصراع بين الطبقات ولا تروج له. أطفالاً السيجارة في منفضة السجائر، أشعل أخرى، استأنف السير على غير هدى هاتفا كما لو كان بمفرده في المكتب.

- هذا هو بالتحديد ما أحاول إقناع الجنرالات به. إنهم قصيرو النظر، شكاكون بشأن كل ما يفهمونه ويحكمون السيطرة عليه، وعنيدون كالبالغال. تم تدريبهم ليكونوا كذلك ومن ثم يكمن في أسلوب تكوينهم مدى كفاءتهم، لا أنكر ذلك، ولكن في الأوقات الحاسمة، تعتبر هذه السمات معوقا. يمقتون خوسيه أنطونيو لأنه بالرغم من عدم انتمائه إلى المؤسسة العسكرية، يحظى بسلطة ومكانة تتجاوز أي جنرال، وكتائبه أكثر انضباطا، أكثر شجاعة ويوثق بهم بصورة أكبر من القوات النظامية. لهذا السبب وليس بدافع الخلافات الإيديولوجية يبغضونه أكثر من العدو الحقيقي. كانوا ليسحقوا جميع عناصر الفلانخي عن طيب خاطر. ولكن لن يفعلوا، لأن خوسيه أنطونيو يحظى بدعم أكبر بكثير مما يبدو. المواطنون الشرفاء وأنصار النظام معه، ولا يمنعهم عن إعلان انضمامهم إليه بصورة أكثر صراحة سوى العنف المحيط به. ولهذا يغض العسكريون الطرف عنه على مضمض، محاولين تهميشه بوسائل غير مباشرة. يضغطون علينا لكي نسحب تأييدنا للفلانخي وبهذا يؤدون الحركة خنقا، أو ينتظرون أن ينفذ منهم السلاح والمال فيتساقطون واحدا تلو الآخر.

كان يخاطب أنتوني بتعبيرات وإيحاءات من يترافع أمام هيئة محكمة.

- إنه خطأ فادح أحاول عبثا تنبيههم إليه. إذا قبلوا التحالف مع الفلانخي، فلن يكسبوا فحسب حليفا جيدا عندما يحين وقت الجد، بل ستوافر لهم صيغة الدولة التي يفتقرون إليها في الوقت الراهن. بدون الدعم المنهجي لخوسيه أنطونيو، فسوف يكون الانقلاب محاولة عسكرية فاشلة،

سوف تجلب من هم أكثر عنفا ولن تصمد أمام نفخة.

- هل أخبرت خوسيه أنطونيو بهذا حرفيا؟

- لا. خوسيه أنطونيو يحقر العسكريين. يتهم الجيش بوصفه المؤسسة العسكرية بخيانة والده، ولكنه لا يتصور أن نفس الجيش الذي تخلى عن الدكتاتور وقت الشدة مستعد لتكرار نفس اللعبة مع نجله. ربما خمن وجود مؤامرة للقضاء على الفلانخي، لا أكثر. لو علم بالضبط حقيقة ما يدبره الجنرالات، لكان بكل تأكيد قد أقدم على ارتكاب عمل جنوني. لهذا أؤثر عدم إخباره.

- عمل جنوني من أي نوع؟

- إعلان الانقلاب منفردا. الفكرة تراوده منذ فترة. يعتقد أنه لو أخذ الفلانخي بزمام المبادرة، فإنه لن يكون أمام الجيش سوى تأييدها بدون مبررات. لا يدرك أن مولا وفرانكو قادران على ارتكاب مذبحه بحق الفلانخي دون أن يطرف لهما رمش، ثم يستخدمونها كمبرر لفرض النظام بالقوة. وهذا هو مصدر حيرتي سيد وايتلانديز: إذا اعتبرت لكلام الجنرالات وتخلت عن دعم الفلانخي، أكون قد ارتكبت جريمة؛ ولكن إذا زودتهم بالسلاح الذي يحتاجونه، ربما أكون بذلك قد ارتكبت جريمة أكبر بإرسالهم إلى موت محقق. لا أدري ماذا أفعل.

- وإلى أن تتخذون قراركم، سيظل بيلاثكيث قابعا في القبو.

- هذا الموضوع ليس له أدنى أهمية الآن.

- لكنه مهم بالنسبة لي.

كان الدوق مازال واقفا. نهض أنتوني بدوره. تقاطعت وتلاقت خطى الرجلين عبر غرفة المكتب الفسيحة. عند مروره أمام النافذ، خيل لأنتوني

أنه رأى بطرف عينه خيالا يتحرك في الحديقة، عندما أمعن النظر لم ير أحدا، وتصور أن يكون قد انخدع في ظل سحابة عابرة أو فرع شجرة هزه الريح.

- سيدي الدوق، (قال بدون التوقف عن السير) سوف أعرض عليك عرضا. لو تمكنت من ثني خوسيه أنطونيو عن بدء الانتفاضة وإقناعه بالانصياع لتعليمات الجيش، فهل تصرح لي بالإعلان عن وجود لوحة بيلاثكيث؟ لا أطلب منكم الكثير: أنا متنازل عن كل مكسب محتمل يدره بيع اللوحة، سواء بصورة قانونية أو غير قانونية، داخل أو خارج إسبانيا. كما قلت من قبل، أنا مثالي، ولكن مثالتي لا علاقة لها بنظام سياسي: لا أتطلع لتغيير العالم. بحكم دراستي لدي إمام كافٍ بالتاريخ لكي أعرف مآل جميع محاولات جعل المجتمع والطبيعة البشرية أفضل حالا. ولكنني أو من بالفن ومن أجل الفن أنا على استعداد لبذل أي شيء: لست بطلا.

أنصت الدوق إلى عرض الإنجليزي بدون التوقف عن السير عاقدا يديه خلف ظهره ومثبنا نظره في السجادة. فجأة توقف، نظر إلى محدثه بتمعن ثم قال:

- لوهلة خشيت أن تضم ابنتي للصفقة.

ابتسم الإنجليزي.

- صراحة، فكرت في الأمر. ولكنني أكن احتراما كبيرا للباكيثا، ولا يمكن أن أجعلها مطلقا جزءا من صفقة. يجب أن تكون هي المستجيبة لمشاعري وأنا لن أعشم في هذا، بلوحة بيلاثكيث أكون قد حصلت على أجر جيد.

فتح الدوق ذراعية علامة على الموافقة.

- أنت رجل محترم، سنيور وايتلاندرز. (هتف بحماس).

لم يستطع أنتوني تحاشي حمرة الخجل عند سماع مديح أب مجهل ما دار

بينه وبين ابتتيه.

- وكيف تفكر في إقناعه؟ (أضاف الدوق على الفور) خوسيه أنطونيو ليس من النوعية التي تستسلم بسهولة.
- دع الأمر لي (أجاب الإنجليزي) معي ورقة رابحة مخبأة في الكم.

كانت دونيا فيكتوريا فرانيسكا إوينجينا ماريا ديل بايي إي مارتينيث دي الكانتارا، ماركيزة كورنيثا، والمعروفة باسم التدليل الأصيل باكيثا⁽¹⁾، تشعر بتزايد قلقها مع انقضاء الساعات التي كانت تفصلها عن اللحظة الحاسمة حينما تخلت عن شرفها وعفتها بين أحضان إنجليزي. حقيقة الأمر إن أيا من الأمور التي جرت بعد ذلك لم تسهم في استعادتها لسكينة روحها المفقودة. وبينما كانت تبحث عن ملاذ في عزلة الحديقة مترامية الأطراف، وجدت نفسها في قلب مشادة حماية الوطيس بين بعض جنرالات بملابس مدنية ومصاب حرب معلق على السور. اصطدمت محاولة الحصول على الغفران والتوجيه الروحي من الأب رودريجو بتعنت متصلب من جانب القس. أعقب هذا الحادث الأليم عملية تفتيش صارم بحثا عن دخيل محتمل، وزاد من هم باكيثا أنها خمنت من يكون. في النهاية بالرغم من عودة الأمور لطبيعتها، كان العشاء العائلي أسوأ من الحوادث السابقة: والدها، ظهر الإنهاك واضحا عليه، تناول على سبيل المجاملة لقييات بالكاد من كل طبق؛ في حين ادعت والدتها التعرض لوعكة خفيفة، وتركت الطعام دون

1. في الكاثوليكية كان يطلق على القديس فرانيسكو (باتر كومونيتاتيس) باللاتينية وتعني راعي المجتمع وكانت تكتب اختصارا (با-كو)، ومع الوقت تحول الاسم إلى (باكو) ويطلق على سبيل التدليل على كل من يحمل اسم فرانيسكو، بالنسبة للذكور أما فرانيسكا بالنسبة للنساء فيطلق عليها باكيثا (الترجم)

أن يمس؛ أما شقيقها جيرمو فقد تناول قدرا كبيرا من طبقه، ولكن بصورة آلية وفي صمت متوحد؛ وأخيرا ليلى، التي كانت بهجة المنزل، فبدت أكثرهم تعاسة، هما وإحباطا. في منتصف العشاء انضم إليهم الأب رودريجو، كان عائدا، حسبما قال، من زيارة مريض بمرض خطير؛ وبدون إخفاء ضيقه، ارتجل بضع صلوات، قضم قطعة خبز، وتناول رشفة نبيذ ثم غادر المائدة وغرفة الطعام، بعد أن رمق باكيئا بنظرة مملوئة باحتقار شديد.

لم تذوق الماركيزة الشابة طعم النوم في تلك الليلة. مؤرقة، حاولت دون جدوى كبح جماح دوامة الأفكار والأحاسيس التي تتصارع في رأسها بلا هوادة. وحتى لو هدها التعب، فإن أحلامها تبدو عرضا لفيلم بذيء وعبثي، من إخراج الشيطان. تخف مع بزوغ الفجر، وطأة اجتماع الساحرات الليلي، ليحل محله حزن بائس، وشعور لا يوصف، يناضل من أجل تحديد ذاته، مثل نور الصباح الذي ينتشل العالم من الظلام. هذا الشعور المبهم هو أسوأ ما في العذاب الذي تقاسيه. قضت قدرا كبيرا من الصباح تحاول التخلص منه. التقت بليلي مرتين عبر ردهات القصر، وبدلا من التعلق برقبته وغمر وجناتها بالقبلات، وإخبارها بآلاف القصص الطفولية التي تدور برأسها، اكتفت بإلقاء نظرة حانقة مغلقة بشيء غير مفهوم أشبه بالحقد.

بحلول منتصف النهار، شعرت بأن البيت سوف ينهد على رأسها، فتأهبت للخروج. كانت حالتها المعنوية تدفعها للبحث عن الوحدة، إلا أنها كانت واثقة من أن الضياع وسط الجموع، التواصل الصامت مع رجال ونساء غرباء منشغلين بشؤونهم، راضين بأفراحهم ومهمومين بمشاكلهم، سوف يهون عليها حالها. كانت قد ارتدت المعطف والقفازات وحقية اليد، حينما دخلت الوصيفة حجرتها. امرأة تسأل عن سيدتي ماركيزة كورنييا. نظرا لهيئتها المزرية، أرسلها كبير الخدم إلى باب الخدم، وهي تنتظر الآن في المطبخ.

رفضت ذكر اسمها أو الكشف عن سبب حضورها إلى القصر؛ ذكرت فقط اسم سيدتي الماركيزة، دون ذكر السبب، باستثناء رغبتها في الحديث معكم بصورة عاجلة. لا تعطي انطباعا بأنها مختلة أو خطيرة، جلبت معها بقجة ضخمة وتحمل بين ذراعيها طفلا رضيعا.

كان أول شيء خطر على بال باكيثا هو التخلص من الزيارة غير المتوقعة، إلا أن ذكر الرضيع، جعلها تغير رأيها. ولأن الحكمة تقتضي عدم السماح بدخول غرباء إلى المنزل، ذهبت إلى مقابلتها في المكان الذي حصرها فيه مظهرها البائس. في حجرة ملحقة بالمطبخ، كانت هناك امرأة بدينة تقوم بكي وتنشية صدر قميص مطرز عليه تاج فوقه الأحرف الأولى لاسم بالرسم القوطي. صرفتها باكيثا، وهناك جرى لقاءها مع لا تونينا.

- يمكن... (شرعت في الحديث بعد الكثير من النحنحة، والكثير من الكلمات الخاصة بمحاولات أخرى لصياغة جمل مقطوعة من منتصفها بصوت شبه مرتفع) يمكن السنيورة تتذكر أمس، حين تقابلنا في غرفة فندق السنيور الأجنبي. أنا...

- أتذكر جيدا. (قاطعتها باكيثا بصلف مبالغ فيه لكي توضح منذ البداية أن اللقاء المشار إليه وكل ما يمكن أن يترتب عليه من استنتاجات، لن يقيم بينهما أية علاقة تواطؤ، أو يقلل من المسافة الشاسعة التي تفصل بينهما. استوعبت لا تونينا ذلك، وقدرت النبل الكامن في الاعتراف. كانت تخشى الاصطدام بإنكار تام، يمكن أن يقوض هدفها.

- شكرا (قالت بصوت خفيض) كنت أقول من أجل... أقصد أن خادمك لم تأت لتوضح لك شيئا، إنها لغرض آخر. أية خادمة، لا تؤاخذيني، عاهرة. أنا أقصد... أنا أعرف مركزي. ساعيني أيضا لإحضار الصغير.

ليس لدي من أتركه له. أمي تعتني به، لكنها لم تستطع اليوم... ليست هي، خادمته... نهايته أنا مجرد خادمة راحلة من مدريد وبدون إزعاج. ولا أدري إن كنت سأعود في يوم من الأيام. لا أحد يعرف بأني فررت: لا أحد غيري أنا، والآن السنيورة.

على ذكر الطفل الرضيع، لم تستطع باكيثا تحاشي النظر إلى المنديل الملفوف فيه. ميزت بين طياته جفونا منتفخة وملامح منبعجة قبيحة. حركت مشاعرها هذه السحنة ذات النزر الضئيل من البراءة الملائكية. شمخت برأسها مرة أخرى حتى لا تفقد رباطة جأشها وقالت بصيغة أمرة: - أخبريني عن سبب مجيئك.

- بسبب السنيور الإنجليزي. لم أعرف من أقصده سوى السنيورة.

- أنا ليس لي أية علاقة بهذا الشخص. بالكاد أعرفه.

تذكرت لا تونيينا الدماء على الملاءة، ولكنها أدركت أنه من غير الملائم ذكر ذلك الموضوع الآن.

- ولا تقول خادمته خلاف ذلك. السنيورة حرة تعرف أو لا تعرف من يحلو لها. لكن إذا لم يتدخل أحد فسوف يقتلونه هذه الليلة، كل شيء أعد، والأمر صدر.

- أمر؟

- نعم يا سنيورة، أمر قتله. وخادمته لا تريد التورط في الموضوع. السنيور الإنجليزي، بعد إذن السنيورة، كان دائما طيبا معي. في المعاملة وفي النقود. ومع الطفل حينما حكمت الظروف. إنه رجل طيب.

- إذن، لماذا يريدون قتله؟

- من أجل ماذا إذن، سنيورة؟ من أجل السياسة.

كانت حجرة الكي غارقة في بخار ساخن، ولما كانت تخلو إلا من الأثاث الضروري لأداء الغرض المخصصة له، فقد ظلت المرأتان واقفتان. كانت باكيثا ترتدي المعطف لتوحي بأن المقابلة يجب أن تكون موجزة، بينما حملت لا تونينا الرضيع نائما بين ذراعيها.

- ما لم توضحي أكثر فلن يكون أمامي الكثير لأقوم به. (قالت باكيثا بنفاد صبر وضجر. كانت تفضل لو لم تعلم شيئا عن ذلك الأمر، ولكن الآن ما من سبيل للتراجع).

- لا أستطيع إفادتك أكثر من ذلك (أجابت لا تونينا). خادمتك لا تعرف أي شيء، ولا تريد توريط أحد. لا أستطيع إخبارك بأسماء. منذ يومين حضر رجل إلى المنزل. أنا لم أره. اسمه السري كوليا. هل تتذكره السنيورة؟
- لا، من يكون؟

- عميل من موسكو. الإيخنيو...، أقصد، إنه صديق، يعاملني كأبي، من الحزب الشيوعي. تصدر إليه أحيانا أوامر ينفذها بحذافيرها بدون مناقشة. جاء كوليا ليقول له أن يقتل أنطونيو. أنطونيو السنيور الإنجليزي.
- أعلم ذلك. وماذا أيضا؟ أخبريني بكل شيء.

- خادمتك لم تكن موجودة، عندما عدت كان كوليا قد رحل. أمي والإيخنيو كانا يتشاجران. أغلقا فميهما أمامي، لكنني سمعتهما من الحجرة. كانا قلقين جدا ويتحدثان بانفعال. الإيخنيو لم يقتل أحدا في حياته. ولم يخطر هذا على باله مطلقا. ليس هناك من هو أطيب منه قلبا.

- لكن هذه المرة سيفعل.

- إذا أمر الحزب، لا يستطيع الرفض. طاعة الحزب أهم شيء. بهذه الطريقة فقط نحقق أهدافنا، كما قال لينين.

عند ذكر هذا الاسم، فتح الطفل عينيه وصدرت عنه بضعة تأوهات.

- الطفل جائع (قالت لا تونينا).

- هل ترضعينه؟ (سألت باكيثا).

- لا سنيورة. لقد كبر. يأكل فتات الخبز بالحليب، إن وجد، وإن لم يوجد يكون فتات الخبز بالماء.

- سوف أمر بتسخين قليل من الحليب له. هل يجب الكاكاو؟

- آي، يا سنيورة، لا يحدث مثل هذا التبذير في بيتنا!

ذهبت باكيثا إلى المطبخ، حيث امتزجت الحرارة برائحة الطهي. شعرت بدوار، إلا أنها قاومت إغراء خلع المعطف، أعطت الأوامر اللازمة ثم عادت إلى حجرة الكي.

- إلى أين وصلنا؟ (سألت).

- هذه الليلة، خادمك سوف تأخذ السنيور الإنجليزي إلى مكان قريب من لا بويرتا دي توليدو، وهناك سيكون الإيخينيو منتظرا، ومن الممكن أن يكون معه رفاق آخرون، لكي يصفوه. لكن خادمك لا تريد أن تتورط، ولهذا سوف تهرب منهم. طبعا لو لم أفعنها، غيري سيفعل، إلا لو منعتهم السنيورة. كما يجب أن تعدي السنيورة أيضا ألا تخبر الشرطة بشيء. لا أريد أن يحدث شيء للإيخينيو. أتعديني؟

شعرت باكيثا باختناق وبرأسها يدور. كانت تحتاج للهواء ولوقت للتفكير.

- هيا بنا، (قالت) سوف نخرج من هنا.

عندما فتحت الباب كادت تصطدم بإحدى الوصيفات، حينما كانت تتأهب لدخول حجرة الكي حاملة صينية. أمرتها باكيثا أن تتبعها. خرجت النساء الثلاث والرضيع إلى ممر جانبي ضيق ظليل في الحديقة، يقطعه تيار هواء بارد. قادت باكيثا الموكب إلى ركن مشمس به مقعد ومنضدة من الحجر، بجوار تمثال رخامي يحوطه قوس على هيئة محراب مصمم من أشجار السرو المشذبة. كان الركن الهادئ مكشوفاً من نوافذ القصر، فسألت باكيثا نفسها كيف ستبرر هذا الموقف إذا شاهدته أحد. اعتادت نساء البيت عمل الخير وباكيثا نفسها تحسن إلى العديد من الأسر المحتاجة، إلا أنه لم يسبق لها إحضار متسولة إلى المنزل أو التسامر معها في الحديقة في ذلك التوقيت. كانت الحياة تزداد تعقيداً على الشابة ماركيزة كورنياً.

وضعت الوصيصة الصينية على الطاولة، عليها قده كبير من الحليب بالكاكاو وطبق به خبز الباجيت الفاخر وقطع من سجق السالتيشتشا. «السجق من أجلك» خاطبت لا تونينا عندما رحلت الوصيصة. «تصورت أنك ربما تكونين جائعة. وإذا لم تكوني كذلك، فيمكنك أخذه معك من أجل السفر».

- أشكرك سنيورة. (قالت لا تونينا بينما تحاول تلقيم الرضيع الحليب بالكاكاو بملعقة صغيرة).

ونظراً لأن صعوبة العملية لم تترك مجالاً للحوار، انتهزت باكيثا الهدنة لتفكر. أولاً، لم تكن هناك أية ضمانات على صحة القصة التي روتها الآن امرأة غريبة لم تشعر بأي خجل من الإعلان عن مهنتها المهينة. فكرت أنه من المحتمل أن يكون كل ذلك جزءاً من خطة ابتزاز. هذه المرأة الحقيرة فاجأتها وهي تغادر غرفة أنتوني وتعتزم استغلال اكتشافها، وبالرغم من أنه ليس

لديها أي دليل سوى كلامها معدوم القيمة، إلا أنها تحاول توريطها في خطة وهمية. الشيء الوحيد المنطقي كان استدعاء الخدم لطرده المرأة والرضيع في الشارع.

- لم أفهم شيئا حتى الآن، (قالت بصوت مرتفع) إرسال عميل من موسكو لهدف محدد هو قتل شخص، هذا الشخص يجب أن يكون قد ارتكب أمرا فظيحا.

- لست أدري ماذا أقول لك سنيورة. خادمك لا تعرف أشياء كثيرة. السنيور الإنجليزي حينما يثقل في الشراب أو حينما يكون، معذرة في التعبير، متهيجا، يتحدث دائما عن لوحة، سواء توجد علاقة أم لا، خادمك لا تعلم، لكن رأيت إخبارك لعل السنيورة تستوضح منها شيئا.

تبددت شكوك باكيثا أمام الدليل القاطع على الثقة الموجودة بين أنتوني والمرأة الواقفة أمامها.

- ألم يكن من الأسهل تحذير ذلك الإنجليزي مباشرة من هذا الخطر، بدلا من مجيئك لتحكي لي الموضوع وأنا بالكاد أعرفه؟ (تساءلت).

- يمكن أن يكون أسهل. (أجابت لا تونينا) لكن بلا فائدة. هناك مرّات أشعر فيها بأن السنيور الإنجليزي أحمق.

لم تستطع باكيثا كتم ابتسامتها. يبدو أن التوافق قلص لوهلة الفجوة القائمة بين المرأتين. ثم عادت الأمور إلى نصابها من جديد.

- علاوة على ذلك، (تابعت لا تونينا) أنا أجازف بنفسني. خيانة الحزب ليست أمرا جيدا للمستقبل البلوريتاريا، لكنه أسوأ على حاضر من يرتكب هذا الفعل. لقد جازفت كثيرا بحياتي حين جئت لمقابلة السنيورة. ولو حدث لي شيء، فمن سيرعى هذا الطفل المسكين؟

على ذكر هذه الرواية المأساوية المبالغ فيها، تقياً طفل الخطيئة كل ما في جوفه وانفجر في البكاء بدون توقف.

- هل فكرت أين ستذهين؟ (سألت باكيثا وهي تشيح بنظرها، لتوحي من خلال السؤال انتهاء المقابلة على الفور).

- إلى برشلونة، مثل كل النساء.

فتحت باكيثا حقيبة يدها وأخرجت بضع أوراق مالية وبطاقة شخصية.

- خذيها (قالت) سوف تحتاجينها. وفي برشلونة، إذا أردت تغيير حياتك، اذهبي إلى قصر البارون فالسيت، قدمي له بطاقتي، وأخبريه أن ابنة عمه باكيثا من مدريد أرسلتك. سوف يساعدك. أما إذا أردت انتظار أن يتحقق ما يقوله لينين، فهذا شأنك أنت.

اصطحبت لا تونينا والطفل إلى باب الحديقة الجانبي. قبل أن تخرج، أرادت لا تونينا تقبيل يدها علامة على الامتنان، إلا أن باكيثا سحبت يدها فجأة وأنهات الوداع على عجل. ثم أغلقت الباب وأخذت تلف وتدور بين الرياحين، محاولة التوصل إلى حل للورطة العاطفية، الفكرية والعملية التي تورطت فيها. ما كانت لتشك ولو قليلاً أن سبب قلقها كان متواجداً في تلك اللحظة ذاتها على مسافة قصيرة من القصر.

بالفعل، بمجرد انتهاء محادثته مع دوق إجو الادا، خرج أنتوني إلى الشارع وبحث على الفور عن هاتف واتصل بالمنزل الذي غادره توا وسأل عن السيد الصغير جييرمو. لحسن الحظ لم يكن قد خرج كعادته. كان قد استغرق بالأمس في العمل حتى ساعة متأخرة والآن كان قد انتهى من الاستحمام، ويستعد لتناول الإفطار. عندما التقط الساعة، عرفه أنتوني بنفسه واتفق معه على موعد في كافيتيريا ميتشجان. ولم يتأخر الشاب جييرمو في الحضور. بينما

كان يلتهم إفطاراً شهياً، سأله الإنجليزي إذا كان قد توصل إلى جديد فيما يتعلق بموضوع الخائن المهندس وسط الفلانخي. ولما لم يكن هناك من جديد في الأمر، سأله أنتوني إذا كان مازال يستحسن فكرة أن يتحدث مع خوسيه أنطونيو في هذا الشأن. فوافقه جييرمو بحماس شديد. كلفه جييرمو بالتوسط من أجل عقد اللقاء.

- ابحث عن مكان غير ملفت للأنظار، في الوقت الذي يراه هو مناسباً، وأعلمني بذلك. وبالرغم من أنني سأتي أعزل، أخبره أن بوسعه جلب أسلحته، ولكن ليس حراسه. يجب أن نلتقي على انفراد.

تأهب جييرمو ديل بايي لتنفيذ المهمة على وجه السرعة، ولكنه اصطدم بعقبات أكثر من المتوقع. لم يكن لديه أية أخبار عن الزعيم منذ أن كان متواجداً بالمركز، في شارع نيكاسيو جايجو، الساعة الثانية بعد منتصف اليوم. كان قد دعا لانعقاد المجلس الوطني في الساعة؛ وحتى الآن لم يستدل على مكان أي مستشار. كان جييرمو ديل بايي قد خرج من المركز ومر بالفندق الذي ينزل به أنتوني ليخبره بنتيجة عمله. ولما أخبره موظف الاستقبال بأن السنيور وايتلاندر غادر الفندق دون أن يترك خبراً عن المكان الذي سيتوجه إليه، ترك جييرمو رسالة تفيد بأنه سيعاود المرور بالفندق بمجرد وصول شيء إلى علمه، بالرغم من إدراكه أنه من غير المحتمل تحديد ذلك في نفس اليوم، حسب رغبة أنتوني. في العادة تستغرق اجتماعات المجلس الوطني ساعات، وبعد الانتهاء، يذهب الأعضاء لتناول العشاء، ثم يحتسون الشراب ويتناقشون في «الحوت السعيد» حتى وقت متأخر.

ضايق تأخر الخطط الإنجليزي. صعد إلى الحجرة متوقفاً وجود لاتونيينا هناك حيث زاد غيابها من ضيقه. عاجزاً عن التركيز على قضية فكرية، أو معرفة كيف يملأ فراغ وقته، استلقى في الفراش، وسرعان ما راح

كان الظلام قد حل حين فتح عينيه. نزل إلى الاستقبال وسأل إن كان أحد قد ترك له أية رسالة. جاءت إجابة موظف الاستقبال بالإيجاب. منذ ما يقرب من ساعة أو نحو ذلك، اتصل شخص وترجى موظف الاستقبال أن يخبر السيد وايتلانديز على لسانه بأن يلتقي به في تمام الساعة الثامنة في مكان محدد. كان الشخص المذكور يتحدث بلكنة إنجليزية وأعطاه اسماً يستحيل فهمه. تصور أنتوتي أن يكون أحد موظفي السفارة. عندما بين له موظف الاستقبال مكان اللقاء، الذي قد أملاه عليه ذلك الشخص، لم يعرفه.

- هل شارع أرجانثويلا بعيد؟ (سأل).

- قليلاً (قال موظف الاستقبال) من الأفضل أن تستقل تاكسي أو تتركب المترو حتى شارع لا بويرتا دي توليدو. هناك ستجد شارع أرجانثويلا.

الرأي المستقل، القدرة على اتخاذ قرار دون خوف والالتزام به بلا تردد، كانت من السمات المميزة لطباعتها منذ نعومة أظفارها، والتي أكسبتها احترام من يعرفونها وأحيانا شكوك المتعاملين معها. لو أنها نشأت في أسرة أقل تشددا، لكانت قد تلقت بلا أدنى شك تأثير مؤسسة التعليم الحر، واعتنقت مبادئ الحركة النسوية الإسبانية الناشئة، ولانضمت إلى نادي الليسيه النسائي مثل الكثيرات من نساء عصرها. لكن وبعدها أغلقت أمامها هذه السبل للتنمية الذاتية، فقد كرس الكم الهائل من سماتها الشخصية غير الاعتيادية لخدمة من حولها. لم يدع ذكاؤها الإحباط بسبب هذا الإهدار يمر مرور الكرام: لطالما شعرت بالإهانة كما ارتكبت في أكثر من مناسبة نزوات غير محسوبة للتححرر من ضغط كان يهدد توازنها العقلي. بالرغم من كونها المولود الأكبر لأربعة أشقاء، وبالرغم من حرمانها من الحقوق والمهام الأصيلة للمولود البكر لكونها أنثى، لكنها كانت تمارسها عمليا، نظرا لإدراك والدها لمميزاتها والذي كان يعتمد عليها أكثر من أبنائه الذكور، إلا أن هذا الاعتراف الواضح من جانب شخص غارق في التقاليد الذكورية الإسبانية البائدة، كان ينظر له من قبل الجميع على أنه ضعف، فيكفي تصرف واحد لكي يسحب منها اللقب الممنوح لها وإغلاق الأبواب التي يفتحها.

كان هذا هو حال المرأة التي كانت تتجول نائرة بين دروب الحديقة

المنسقة بقصر باسيو دي لا كاستيانا، في ظهيرة يوم من أيام شهر مارس عام 1936، باحثة دون جدوى عن حل ناجز لأزمتهما. تخلت عنها الخصال المذكورة آنفا عندما كانت في أمس الحاجة إليها. من شدة حيرتها لم تنتبه لاقتراب شخص آخر بخطى رشيقة وانتفضت عندما بادرها صوت مرح وحنون بالسؤال.

- ما بك، باكيثا؟ أراقبك منذ برهة من شرفة حجرتي وتبدين في غاية الضيق.

شعرت باكيثا بارتياح كبير عندما رأت أن من يستجوبها كان شقيقتها ليلي. على الرغم من أن فرق السن في بعض المراحل العمرية التي تتخللها تغييرات سريعة ومصيرية حال دون نمو صداقة حقيقية بين الاثنتين، إلا أنه فضلا عن الحنان الطبيعي بين الشقيقات، يضاف في هذه الحالة نوع من الألفة منشؤه أوجه التشابه والاختلاف بين شخصيتهما. مثل باكيثا، كانت ليلي تتمتع بذكاء وحيوية ونبوغ، إلا أن طباعها كانت أكثر رصانة، أكثر لا مبالاة وأقل رومانسية. كانت باكيثا تعشق ليلي، من ناحية لأنها كانت ترى فيها انعكاسا لها في كثير من الجوانب ومن ناحية أخرى لأنها لاحظت في شقيقتها سمات تفوقها: كانت تتحلى بقدرة أكبر من الحكمة عند طرح القضايا الأساسية، وقدر أكبر من السيطرة على مشاعرها واستعداد فطري للإيثار تفتقر إليه. وسط هذه الظروف، كان اندفاع أكثر من مناسب: آجلا أم عاجلا، كان سيزول حاجز السن وكانت هذه هي اللحظة الأنسب للتحول، خاصة بعد أن لاحظت باكيثا أن شقيقتها قد أصبحت فجأة أنثى ولديها القدرة على استيعاب قلقها.

- آه، ليلي أنا عالقة في مأزق رهيب. (قالت باكيثا. وبمجرد أن عبرت بالكلام عن أساها أمام توأم روحها، اغرورقت عيناها بالدموع).

عانقت ليلى شقيقتها. اختفى من عينها أي أثر لضغينة وتآلق فيها الآن وميض جديد وغريب، ونظرا للمعاناة المسيطرة على باكيثا فلم تلاحظه. ولو كانت قد انتبهت له لما عرفت له تفسيراً.

- تعالي، (قالت ليلى) فلنجلس على ذلك المقعد ولتحكي لي ما يشغل بالك. ليس لدي خبرة كبيرة بعالم الكبار، ولكنني شقيقتك، أعرفك وأحبك أكثر من أي إنسان، وهذا سيعوض جهلي.

سارتا متعانقتين حتى المقعد الحديدي أسفل العريشة وعلى مبعده من المقعد الآخر الذي كان مازال محتفظاً بآثار حديثة لمرور رضيع متوعك؛ جلستا وفتحت باكيثا قلبها إلى ليلى وأخبرتها بكل ما يعرف القارئ مضمونه بالفعل: حبها لخوسيه أنطونيو، ومعارضة الدوق الصارمة لارتباط يعلم مسبقاً أنه محفوف بالمخاطر والأحزان، والامثال النبيل من جانب خوسيه أنطونيو لهذا الأمر، مكتفياً بالدور الذي اختصه التاريخ به، مدركاً أنه منذور لموت بطولي ومبكر؛ وعلى الرغم من أن هذا التنازل الرجولي كان يستند إلى حد كبير إلى حقيقة أنه حامي الوطن والشهيد المحتمل، إلا أنه رجل خبيث يلهث خلف العاهرات. من ناحية أخرى، وعلى الرغم من أن خوسيه أنطونيو كان حساساً تجاه المطالب العادلة للمرأة العصرية، ولم يجد أية غضاضة في إدراج رد وافٍ على هذه القضية ضمن أيديولوجيته، فقد اقتصر إدراكه للقضية على البعد النظري فحسب. عملياً لم يكن ليقبل على الإطلاق إقامة علاقة مرفوضة اجتماعياً مع المرأة التي يجربها؛ كان ثورياً في كثير من الجوانب، إلا أنه كان أيضاً مدافعاً متعصباً عن الكاثوليكية العتيقة المتجذرة في وجدان إسبانيا. على هذا النحو، وبينما ترقب باكيثا مرور الأيام، والشهور والسنين، تحول خضوعها إلى سخط، والسخط إلى تمرد معلن. وبالصدفة عندما دخل دائرة الأسرة الحميمة، شخص غريب حسن المظهر،

محتشم، مقدر له أن يختفي من حياتهم سريعا وإلى الأبد، فكرت باكيثا في مخطط جنوني.

عندما وصلت إلى هذه النقطة من الحكاية، لم تستطع ليلي وكانت تصغي بأقصى انتباه، منع تنهيدة عميقة. اعتبرتها باكيثا، نوعا من المواساة؛ ابتسمت بأسى، تناولت يدي شقيقتها بين يديها محاولة التهوين من مخاوفها الطفولية. على عكس كل التكهنات، لم تكن التجربة مريعة. تعامل معها الإنجليزي برقة متناهية لا تخلو من حميمية وشوق جياش حقيقي. في النهاية، العملية (ولم تستطع باكيثا أن تمنع حمرة الخجل التي تمكنت منها بمجرد الاعتراف بذلك) بغض النظر عن كونها مؤلمة ومزعجة، كانت لطيفة للغاية.

- فليغفر لي الرب (صاحت) وسامحيني أنتِ أيضا على المثال الذي أقدمه لك. فأنتِ مازلت طفلة وهذه الأمور لم تخطر لك بعد على بال. إذا كنت قد حكيتها لك فذلك لشعوري باليأس وليس لديّ أحد غيرك أثق به. غارقة في ذكرياتها ومهمومة بتبعات تصرفاتها، لم تلاحظ باكيثا التغير الذي طرأ على محدثتها: سحبت ليلي يديها، وتصلب ظهرها وأدارت رأسها بهدوء بينما ارتعشت جفوتها مخفية نظرة باردة.

- لكن الأسوأ (تابعت باكيثا) جاء بعد ذلك.

لجأت إلى الأب رودريجو طلبا للغفران، لإدراكها ارتكاب خطيئة ستجلب عليها اللعنة الأبدية حتى يدركها الموت. جعلها رد فعل الكاهن تدرك أنها ارتكبت فعلا شائنا ليس فقط أمام أعين الرب، بل في نظر البشر. أدركت بعد فوات الأوان أنه ليس لها غفران وأنها لن تستطيع مطلقا تقديم مبرر لخوسيه أنطونيو عن فعلتها الفظيعة.

- منذ لحظات جاءت لتراني امرأة مسكينة من الحضيص، حاملة ثمرة

خطبتها (أضافت مختلصة النظر إلى المقعد حيث ترك ثمرة الخطيئة مخلفاته الحقيرة) وبينما أتحدث إليها من علياء شر في المزعوم، سألت نفسي ما الفرق؟ بعبارة أخرى، ما هو الفارق بين هذه المرأة الوضيعة وبينني؟ ولكن الأسوأ يا ليلي يا أغلى الناس، الأسوأ...

وهنا استوقفت كلمات باكيثا تنهدات متشنجة، أعقبها إجهاش في البكاء. في أعماق ليلي كان يتصارع الاندفاع لمعانقة شقيقتها لتغمرها بدعمها وحنانها، والمنافسة السرية بسبب الإنجليزي. في النهاية ظلت جامدة في حالة ترقب. بعد برهة استعادت باكيثا هدوءها وبذلت جهدا خارقا لمواجهة حقيقة لم تكن لديها الشجاعة لتقبلها أو حتى الإفصاح عنها. كما يحدث في العادة مع الأرواح النبيلة عندما تستحوذ عليها رغبة محمومة في الكمال، كانت تعاني بشدة كلما شعرت بنداء الانحطاط المذل.

- أحبه (همست) إنه أمر عبثي ومثير للشفقة، ولكنني أحببت أنتوني وايتلاندرز.

أغمضت ليلي عينيها وظلت على وضعها. وبعد فترة صمت أجلت صوتها ثم قالت:

- والآن ماذا ستفعلين مع خوسيه أنطونيو؟

كان المذكور منشغلا في ذلك الوقت، بأمر أكثر خطورة.

قبل عامين، كان رامون سيرانو سونير، الصديق الحميم ورفيق درب خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا، قد تزوج من ثيتا بولو، حسناء من أستورياس، تنحدر من أسرة طيبة، بينما تزوجت شقيقتها كارمن، من الجنرال فرانثيسكو فرانكو. عاقدا العزم على استفاد كافة الوسائل المؤدية إلى تحالف مع الجيش يؤمن الاستقلال من قبل الانقلابيين في قوات الفلانخي ويضمن

مستقبلا قبول برنامجه الاشتراكي التقدمي، طلب خوسيه أنطونيو وساطة سيرانو سونير لتدبير مقابلة مع فرانكو، وافق عليها بسرعة كبيرة تناسب مع قدر تشاؤمه من نتائجها. أصغر بعشر سنوات، فارغ القامة، وسيم، أنيق، جذاب وراقص بارع، كان سيرانو سونير الصورة المناقضة لعديله ثقيل الظل، بالرغم من ذلك، كانت العلاقات بينهما ممتازة. كان فرانكو يكن احتراما صارما للروابط الأسرية، وفي حالته على وجه الخصوص، كان يضمن مدى إسهامها، من حيث الترقى الاجتماعي، بالنسبة لعسكري بلا ثروة ولديه من الرتب أكثر من الجاه. لم يكن ليتجاهل الصداقة التي جمعت بين سيرانو سونير وبريمو دي ريبيرا أو التوافق الفكري بينهما، ولكنه كان يتجاوزهما، لأنه كان يقدر الذكاء والبراعة السياسية في الثاني، ويرى أن إخلاصه لشخصه قد يكون مفيدا لكليهما في المستقبل القريب، ولأنه كان على علم باتصالات عديله الدولية، خاصة مع الكونت تشيانو، ذراع موسوليني الأيمن، وأن الانفتاح على هؤلاء الحلفاء الأقوياء يمكن أن يكون حاسما عند تحديد على عاتق من سوف تستقر القيادة الموحدة للانتفاضة. نظرا لأنه بخلاف المتآمرين الآخرين، الذين كانوا يرون أن مهمتهم تنتهي باستعادة النظام العام، وتأمين وحدة إسبانيا والعودة المحتملة للملكية، كان فرانكو يرى أن العسكري الذي سوف يقود الانقلاب سوف تؤول إليه قيادة مقاليد أمور البلاد، سواء بالملك أو من غيره، ولم يكن مستعدا للتنازل عن هذه المهمة سواء لمولا أو سانخورخو أو جوديد أو فانخول أو أي من هؤلاء السكارى الذين يرتعدون فرقا داخل غرف القيادة. لهذه الأسباب وافق على لقاء بريمو دي ريبيرا بالرغم من أن هذا سوف يؤخر عودته إلى جزر الكناري، التي تغيب عنها سرا، وعلى الرغم من عدم استعدادها للتراجع قيد أنملة أمام شخص يحتقره، وأقل من ذلك لانتهاه إلى الفلانخي، التي كان يعتبرها عبثا يجب عليه الشروع في التخلص منه آجلا أم عاجلا.

عقد اللقاء في منزل عائلة سيرانو سونير، صباح ذلك اليوم، ولم يكن غير مجدٍ فحسب بل أصاب خوسيه أنطونيو بالملل الشديد. فبالرغم من سيطرته ظاهريا على الموقف، وبراعته في الخطابة وسط الجماهير، كان خوسيه أنطونيو شديد الخجل بعيدا عن دوائر أصدقائه؛ أما فرانكو فكان على العكس يتحلى برباطة جأش لا تتزعزع، صبورا وداهية، وكان يعرف كيف يستفيد من تأنيه الفطري، مما جعله يربح جميع المنازعات بالملل وإنهاك الخصوم. في تلك المناسبة، استقبل خوسيه أنطونيو مبديا الكثير من أمارات المودة، وحتى قبل أن يقوم بتوضيح الغرض من اللقاء، أخبره أنه بالرغم من الجو الرائع في جزر الكناري والمناظر الطبيعية الخلابة، لكن العساكر العسكري كان محدودا، ومن ثم اتجه بقوة لدراسة اللغة الإنجليزية، وبما أن خوسيه أنطونيو - كما علم من عديله - كان واسع الاطلاع على هذه اللغة، ولهذا لا يريد تفويت الفرصة دون أن يطلب منه أن يساعده في تخطي بعض الصعوبات الخاصة مع لغة شديدة الثراء وشديدة الاختلاف مقارنة بلغتنا. بلباقة، شرح خوسيه أنطونيو، بقدر استطاعته لمحدثه الصعوبات التي كانت تواجهه وحاول عبثا توجيه الحديث إلى الموضوعات الملحة التي جاءت به إلى هنا، إلا أن فرانكو كان يجيد بالنقاش إلى أمور تافهة، جاءت ردوده مراوغة، محاولا بإصرار ربط جميع الجمل بكلمة «nevertheless⁽¹⁾»، سواء تماشت أم لا مع السياق. متحيرا في البداية، وضجرا بعد ذلك، أدرك خوسيه أنطونيو أن الجنرال الخبيث يراوغه. بعد ساعات طوال من المحاولات غير المجدية افترق الزعيم الوطني للفلانخي والجنرال بتحية وداع باردة ولم يلتقيا بعد ذلك مطلقا.

بالرغم من ذلك كان ماركيز إستيبيا الوسيم ليغتم أكثر لو عرف أنه بينها

1. وردت بالإنجليزية في النص الأصلي

كانت جهوده تتحطم على صخرة مراوغة فرانكو، المرأة التي أحبها، والتي تصور أنها تبادلته الحب كانت تصف لشقيقتها دوامة المشاعر التي تعصف بقلبها بعبارات تحط كثيرا من شأنه.

- لا يساورني أدنى شك في أن الرب عاقبني. كنت أعتقد أنني ارتكبت خطيئة الجسد، فإذا بي أقع في خطيئة استغلال الآخرين. أردت استغلال رجل من أجل أغراضى الدنيئة فاستخدمه الرب في إذلالي. وقعت في غرام أنتوني ولن أكون له مطلقا.

- ولم لا؟ (سألت ليلي بصوت واهن).

كانت باكيثا قد أمضت الليل في التفكير حول الموضوع وأعدت تقريرا مفصلا.

- قبل أي شيء، هو إنجليزي، يحب إسبانيا كثيرا، هذا حقيقي، وبدون شك لا يفرق معه البقاء ليعيش في مدريد. ولكن ما من أحد سيفعل ذلك عشية الثورة البلشفية. ولو رحلت أنا معه إلى لندن، فسوف يجرمني أبي من الميراث.

- باكيثا، أشعر وكأنني لا أعرفك! بالأمس كنت على استعداد لربط مصيرك بمصير خوسيه أنطونيو، بالرغم من المخاطر والمرارة التي سوف تنجم عن هذا الارتباط، واليوم تتحمسين لفكرة العيش على راتب بروفيسور. (قالت ليلي بنبرة سخرية لحسن الحظ لم تلحظها شقيقتها).

أحنت باكيثا رأسها ومسحت دمعة انحدرت على وجنتيها.

- أي، ليلي، لو كان الأمر يتعلق بالمال فحسب! لكن هناك أمور أكثر تعقيدا، وقبل كل شيء هناك مسألة الشرف. ثم بداية، هو لا يساوره شك حول طبيعة مشاعري. للتغلب على مقاومته، تظاهرت بأنني امرأة غير متقيدة

بالعادات. والآن هو يتصور أن ما فعلته معه، أفعله مع أول رجل ألتقي به في طريقي. وكيف أقنعه بعكس ذلك بعد ما حدث بيننا؟ ثانياً، عند هذا النقطة، لا أستطيع التخلي عن خوسيه أنطونيو. وعلى الرغم من أن حبنا قد يكون مستحيلاً، فهو يعتمد عليّ؛ علمه بمدى حبي له يعد بمثابة دعم معنوي في الأوقات الصعبة، وسط كل هذه الكراهية، يشد من أزره ويدعم أفكاره. لو تخليت عنه الآن، أي عزاء سيبقى له؟ هذا دون الأخذ في الاعتبار أن علاقتنا سر تلو كه الألسنة؛ إذا سرت إشاعات بأنني خنته مع رجل أجنبي، وعلاوة على ذلك يبدو أحق... أي ليلى، لا أريد أن أتصور مدى استغلال الصحافة للخبر. لا، لا، لقد قلبت الأمر على كافة الأوجه ولا يوجد مخرج آخر: يجب التضحية. سأتصرف كما لو أنه لم يحدث شيء. أما ما حكيتك لك توا، فلن أبوح منه بكلمة، سواء لأنتوني أو لخوسيه أنطونيو أو أي أحد: سيبقى سرا بيني وبينك. لأنك لن تخونيني، أليس كذلك يا ليلى؟

- بحق الله، باكيثا، كيف يمكن أن يساورك الشك حيال ذلك! (أجابت ليلى، وبعد برهة، تغيرت نبرت صوتها، وأضافت) ولكن مقابل صمتي، اكشفي لي عن سر يحيرني.

- تفضلي.

- ما هي حقيقة أنتوني وايتلاندر ولماذا جاء إلى مدريد، وبتحديد أكثر ما الذي جاء به إلى منزلنا؟

إزاء عجزها عن رفض تلبية رغبة شقيقتها المنطقية، كشفت لها باكيثا عن وجود لوحة بيلانكيث في القبو، قرار بيعها في الخارج عن طريق بدرو تيتشر وأنتوني وايتلاندر ومختلف المعوقات التي صادفت العملية. استمعت ليلى للتوضيح بدون أي تعليق وفي النهاية صاحت:

- أهذا هو السر الكبير؟ لوحة لبيلاثكيث؟ ياله من أمر محبط!

ابتسمت باكيثا ثم أجابت:

- قد يبدو الأمر بالنسبة لك تافها، وأنا يتعين عليّ أن أكون صادقة معك، أوافقك الرأي. ولكن هذه اللوحة بصرف النظر عن أنها تساوي ثروة، تمثل أهمية كبرى لفهم حياة وأعمال أهم فنان على مر العصور. أو على الأقل هذا ما يقوله صديقنا العزيز البروفيسور وايتلاندرز. بالنسبة له لا شيء أكثر قيمة منها في العالم ولا حتى أنا. عندما يتحدث عن اللوحة يتحول إلى كائن رائع، كما لو أن بيلاثكيث ذاته تجسد فيه. أو ربما هكذا أراه، بعيون عاشقة. بأمانة، يؤسفني ألا يرى حلم حياته يتحقق: أن يُنسب إليه اكتشاف عمل فريد من نوعه مثل المخبأ على مسافة بضعة أمتار من هنا.

نهضت ليلي من على المقعد، وحرّكت ذراعيها في إشارة قوية على الضيق.

- آسفة باكيثا؟ هذا الرجل سلبك شرفك ودمر حياتك! بدلا من الشعور بالأسف على تعثر مستقبله المهني، يتعين عليك التفكير في طريقة لقتله.

بالرغم من أحزانها، لم تستطع باكيثا كبح ضحكة رنانة.

- ليلي، ماذا جرى لك! أنتِ طفلة!

تحولت فجأة إلى الجد ثم أضافت:

- على العكس أعتقد أنه يتعين علينا الانشغال بعكس ذلك. المرأة المسكينة التي رأيتهَا معي منذ برهة، جاءت خصيصا لتحذيري من أن الماركسيين يدبرون لاغتيال أنتوني. لم تخبرني السبب، ولكن أفادتني بالمكان والزمان المحتملين. في البداية تصورت أنها قصة من رواية رخيصة، ولكنني اقتنعت في النهاية بأنها أخبرتني الحقيقة. على ما يبدو، كانت هي المسؤولة عن خداعه لتسليمه إلى حيث ينتظره جلادوه. ولكن في اللحظة الأخيرة، لم

تستطع القيام بفعل بهذه الخسة. حسبما خمنت كانت هناك علاقة أيضا بينها وبين أنتوني. أمر تافه.

- وماذا ستفعلين؟ (سألت ليلي بنفاد صبر).

- في الحقيقة لا أدري. هذا ما كنت أفكر فيه عندما التقينا. ثم تطرق الحديث لأمر أخرى فنسيت. فكرت في البداية في الاتصال بالشرطة، كما يقتضي المنطق، ولكن تلك المرأة حذرتني من ذلك تماما؛ من أجل أمنها الشخصي وربما أمن أنتوني أيضا. وفي ظل الأوضاع الحالية، من المحتمل أن تستر الشرطة المحلية على الجاني بدلا من حماية الضحية. وإذا استبعدنا الشرطة، فلا يحضرنى سوى شخص واحد لديه إمكانيات ويتحلى بالشجاعة. إلا أنه تعوزني الجرأة لأطلب منه معروفا كهذا؛ أخشى أنه لو تواصل الاثنان لانكشف أمر ما بيننا.

عاودت ليلي الجلوس مرة أخرى ونظرت بتمعن إلى شقيقتها، برأس غير متزن، فيما أسندت وجهها على راحة يدها، كما لو كانت تحاول التعرف على باكيثا الحقيقية في الشخص الأحمق المذهول المائل أمامها. لا يمكنني تصور أن الحب يكمن في هذا، كان يبدو عليها التفكير. هي أيضا شعرت بوخزته، إلا أن رد فعلها حيال ذلك جاء مختلفا تماما.

بنسبة كبيرة، يرجع السبب في الأحداث المأسوية المتلاحقة بوتيرة متسارعة إلى تقاطع طرق الأطراف المختلفة المتورطة في الأمر، وبنسبة إلى مناخ الخوف والعنف المسيطر على كل إسبانيا وكذلك إلى حظ عاثر أدى لتلاقي مجموعة من الأخطاء والمصادفات.

غادر أنتوني وايتلانديز الفندق الذي يقيم فيه، حوالي السادسة مساءً، لكي يحضر الموعد مع الشخص الذي اتصل به، بدون معرفة هوية هذا الشخص أو موضوع اللقاء. مثل هذه اللامبالاة من جانبه يمكن وصفها بأنها نوع من الغباء، لو لم يكن مبررها إلى حد ما الالتباس الذي أغرقته فيه الأحداث العاطفية الأخيرة وغيرها من الأحداث، والتوتر الناجم عن الصدام الوشيك مع خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا، وهو الأمر الذي يوليه أهمية قصوى.

عملاً بنصيحة موظف الاستقبال، اتجه إلى شارع كاريتاس لكي يستقل المترو من محطة بويرتا ديل سول. وبمجرد أن وطأت قدماه الشارع بدأ في تتبعه مخبران بملابس مدنية، خصصهما الكولونيل مارانون، لمراقبته مع أوامر صارمة ألا يغيب عن أنظارهما لحظة واحدة. بعد ما حدث للنقيب كوسكويويلا، أوكل الكولونيل المهمة إلى شخصين، وهو بكل وضوح إجراء يبدو منطقيًا، لكن من الناحية العملية كان شديد الإزعاج. نزل

أنتوني محطة بويرتا ديل السول لكي يستقل المترو، ولأنه لم يكن على دراية بشبكة مترو مدريد، فقد ضل طريقه في الأنفاق أكثر من مرة حتى وصل إلى الرصيف والخط الصحيحين. كانت المحطة الواقعة في وسط البلد مزدهمة للغاية ومع تغيير الإنجليزي لاتجاهاته بصورة مفاجئة، وبالرغم من طول قامته، فقد المخبران أثره. بعد انقضاء برهة من البحث المحموم، تصورا أنها عثرا عليه، ولكن نظرا لأنها يتبعانه للمرة الأولى ولم تكن هيئته مألوفة لديهما بعد مثل سابقهما النقيب كوسكويويلا، أخطأه وظلا يتبعان شخصا آخر دون أن يتداركا الخطأ، لأن كل واحد منهما كان على ثقة في أن الآخر كان يعرف ما يفعل. إلى أن كشف تعليق عابر الخطأ، بعد مضي أكثر من نصف ساعة. ولما كان من المستحيل تعويض الأثر المفقود، قررا العودة إلى الفندق وانتظار ظهور الإنجليزي مرة أخرى. أبعدهما المتابعة الوهمية كثيرا، وعلى الرغم من أنها استقلا تاكسي إلا أنها لم يصلا الفندق قبل الساعة وعاشر دقائق، بضع دقائق بعد وصول جيرومو ديل بايي.

كان جيرومو ديل بايي قد أمضى فترة الظهرية في مركز الفلانخي، الكائن في 21 شارع نيكاسيو جاييجو، على أمل العثور على خوسيه أنطونيو وتحديد موعد بين أنتوني وايتلاندي والزعيم الوطني، وفقا لما كلفه به الإنجليزي. كان اجتماع المجلس الوطني مقررا حوالي الساعة، وكان جيرومو على ثقة من أن خوسيه أنطونيو سوف يصل مبكرا، لكن الأمر لم يسر على هذا النحو. في حوالي السادسة والنصف، سمع جيرومو ديل بايي رايمونديو فرنانديث كويستا يقول إن خوسيه أنطونيو اتصل به هاتفيا لكي يخبرهم بأنه منشغل بأمر شخصي وأن الاجتماع قد تأجل لحين إشعار آخر. خلال الاتصال أوضح خوسيه أنطونيو لصديقه ورفيقه أن التأجيل ليس له أهمية، نظرا لأن الغرض من الدعوة للاجتماع كان بحث مضمون اللقاء الذي عقد صباح

نفس اليوم بين الزعيم والجنرال فرانكو، وأن مضمون اللقاء، لم يترك بكل أسف، مجالاً للتوصل لأي اتفاق تعاون بين الفلانخي والجيش. وبناء عليه، أصبح من الضروري إعادة بحث سياسة الحزب العامة وأمر كهذا لا يجب أن يتم بدون إعداد دقيق. اجتماع المجلس الوطني من الممكن أن ينتظر. طوال المحادثة الهاتفية لم يشر خوسيه أنطونيو في أية لحظة إلى المكان الذي يتحدث منه أو ماهي طبيعة المسألة الشخصية التي انشغل بها.

بعد علمه بأمر الإلغاء، ونظراً لأنه اتفق مع أنتوني على إبلاغه بنتيجة مساعيه، اتصل جييرمو ديل بايي بالفندق من المركز. أخبره موظف الاستقبال بأن السنيور وإيتلاندرز متغيب. تراءى لجييرمو ديل بايي أنه ليس من الحكمة إطلاع موظف الاستقبال على الغرض من الاتصال، فقرر المرور بنفسه على الفندق، في طريقه إلى المنزل. عندما خرج من المنزل كان المساء قد حل، وهبت رياح باردة؛ كان الفندق بعيد للغاية على أن يقطع المسافة سيراً على الأقدام. وبينما كان على الرصيف يوازن أيهما أجدى ركوب تاكسي أم استخدام المواصلات العامة، خرج من المركز اثنان من الرفاق، يرتديان القميص القطني الأزرق المطرز عليه بالأحمر شعار الفلانخي، وسألاه ماذا يفعل هناك. إدراكاً للموقف، عرض أحد الرفاق، وكان لديه سيارة، اصطحاب جييرمو إلى الفندق. فوافق بكل سرور وانضم الرفيق الآخر للمهمة. أوقفوا السيارة في شارع أسبوت إي مينا، ودخل الثلاثة الفندق سوياً، مما أصاب موظف الاستقبال بالدهشة. ونظراً لأن أنتوني لم يكن قد عاد بعد، دوّن جييرمو رسالة مقتضبة يخبره فيها بأمر إلغاء اجتماع المجلس، ومن ثم المقابلة، حفظ الرسالة في مظروف وأغلقه وسلمه إلى موظف الاستقبال، خرج الرفاق الثلاثة بأسلوب احتفالي من الفندق في اللحظة التي وصل فيها مخبراً الشرطة المكلفان بمراقبة الإنجليزي، بعد أن فقدوا أثره في

محطة سول. نظرا لتوترهما بسبب التبعات المحتملة لحماقتها، باغتهما الالتقاء بالشبان الفلانخي الثلاثة. تصورا أنها وقعا في كمين، فأشهرها سلاحهما بصورة غريزية تصديا للهجوم. مباغتين من هذا الموقف غير المتوقع من قبل شخصين يرتديان زيا مدنيا، سارع اثنان من رفاق جيرومو بإشهار سلاحهما، وفتح الأربعة النار في وقت واحد. وبسبب تركيزهم على ألا يصابوا أكثر من التركيز على إصابة الهدف، لم يحكم أيا منهم التصويب فطاشت الطلقات في الهواء. عقب ذلك، شرع رفيقا جيرومو في الهروب، نظرا لأن عناصر الفلانخي لديهم أوامر بتجنب أية مصادمات شوارع قدر الإمكان لتفادي سقوط ضحايا وأعمال انتقامية سياسية لا طائل من ورائها.

لم تكن لدى جيرومو دليل باي خبرة يمثل هذه المناوشات. لم تكن تنقصه الشجاعة، ولكن كان يفتقد القدرة على رد الفعل بدم بارد. فبينما كان الآخرون يطلقون النار، تخشب هو في مكانه. وعندما أفاق من دهشته وأمسك بسلاحه، كان بمفرده في مواجهة شرطين مسلحين. أمام السلاح المشهر ضدّهما، أطلق المخبران الرصاص مجددا دون أن يعطياه الفرصة للضغط على الزناد. سقط ممددا على الرصيف وبجسده آثار لعدة طلقات، إحداها كسرت زجاج باب الفندق الدوار بعد أن اخترقت صدره.

غافلا عن هذا الحادث الفظيع، الذي كان بشكل غير مباشر سببا فيه، خرج أنتوني وايتلاندرز من المترو، وبعد قليل من السير وجد نفسه في حلقة سوق السمك على أطراف بويرتا ديل توليدو. في تلك الساعة كانت الحركة شطّبت في الحلقة، وعلى الضوء الكابي لمصاييح الغاز كان ثمة قطط وفئران يتنازعون فيما بينهم بقايا مخلفات ننتة. بينما تصاعد طنين أسراب من الذباب في هواء الليل شديد البرودة، والذي جعلته زناخة السمك والمحار الفاسد خانقا. كان أنتوني يبحث بلا جدوى وسط هذا الخلاء المرعب عن أي

شخص يدلّه كيف يعثر على شارع أرجانثويلا. على الجانب الآخر من الحلقة كانت هناك مجموعة من الشاحنات. غاص أنتوني بحذائه في أحوال البرك الراكدة، متوجهاً إلى هناك على أمل العثور على أحد سائقي الشاحنات نائماً في الكابينة، إلا أنها جميعاً كانت خاوية، وهو أمر منطقي نظراً لرائحة التتانة المثيرة للغثيان المنبعثة من الشاحنات.

عثر أخيراً على المكان الذي كان يبحث عنه من خلال أسلوب التجوال على غير هدى المرهق والمزعج في المنطقة. وعندما وصل في النهاية إلى ناصية شارع أرجانثويلا مع حارة الميثو، كانت الساعة السابعة وثمانى دقائق. أثناء البحث انتابه الشك في أن الأمر برمته كان في منتهى الغرابة. اتسم سلوكه حتى هذه اللحظة بالهدوء، لعلمه أن صاحب الموعد، وفقاً لما أخبره موظف الاستقبال، كان إنجليزياً: لم يكن يتصور أن يأتي الشر من أحد مواطنيه. بالرغم من ذلك، يتساءل الآن، أي صنف من الإنجليز يختار لمقابلته مكاناً مهجوراً ومخيفاً مثل هذا، إلا لو كان يريد الإفلات من ملاحقة الشرطة المحلية.

اتضح أن المكان المقصود، منزل من دور واحد، ضيق وقيح، ذو واجهة رمادية ونوافذ ضيقة عليها قضبان حديدية. كانت البوابة مغلقة ولم تكن هناك وسيلة لطرق الباب. بجوار البوابة كان ثمة باب خشبي، أكثر اتساعاً، من المحتمل أن يكون لمحل تجاري، ورشة أو مخزن. ولما كان الباب الثاني مغلقاً أيضاً، قرر أنتوني أن يوفر على نفسه عناء المجهود والرجوع. في النهاية، من المحتمل أن يكون موظف الاستقبال قد أخطأ في تدوين الرسالة. ولكن بمجرد أن قطع خطوتين، فتحت البوابة الرئيسية نصف فتحة وإذا بصوت يهمس:

- ادخل.

دخل أنتوني ووجد نفسه داخل بهو فسيح، شبه خاوٍ، كانت المصابيح المتدلية من السقف تسمح برؤية الجدران بدون محارة، عوارض السقف

الحديدية وكوة المنور القذرة. في الداخل تراصت صناديق كارتونية وفي أحد الجوانب كانت هناك سيارة معطوبة بدون إطارات. كان هناك أيضا أربعة رجال يرتدون سترات جلدية يعتمرون قلنسوات ذات حواف. ثلاثة منهم كانت هيئتهم مخيفة ويدخنون بعصبية. أما الرابع فكان الذي فتح الباب، ثم ابتعد عن زملائه بينما أسدل القبة على جبهته، مخفيا وجهه، كما لو أنه لا يريد أن يتعرف عليه أحد؛ إلا أنها كانت محاولة فاشلة، لأن أنتوني، بالرغم من ضعف الإضاءة، عرف على الفور من يكون، وخاطبه مطالبا بتوضيح.

خفض إيجينيو ثامورا ثامورانو رأسه وقوس كتفيه.

- معذرة دون أنطونيو. (غمغم بدون أن ينظر في عين محدثه).

- هذا عبث، (تذمر الإنجليزي) أن تأتي بي إلى هذا المكان القذر، وفي هذه الساعة... أعتقد أننا حسمنا بصورة قاطعة موضوع لا تونينا.

- ليس هذا هو الموضوع، دون أنطونيو. ليس للصبية شأن بشيء هنا. أنا والرفاق استدرجناك إلى هنا لتصفيتك. صدقني، ساعني بصدق.

- لتقتلونني؟ (قال أنتوني غير مصدق) هيا يا رجل، كف عن العبث! ولماذا سوف تقتلونني؟ لا أملك شيئا. الساعة و...

- مهما يكن، دون أنطونيو. هذه أوامر من فوق. محدثك وهؤلاء الرفاق أعضاء في الحزب. والرفيق كوليا أمرنا بتصفيتك، وسوف ننجز شئت أم أبيت. من أجل مصلحة القضية.

- أية قضية؟

- أية قضية ستكون، دون أنطونيو؟ قضية البلوليتاريا العالمية!

قاطع أحد الحاضرين الحوار

- انته من الموعدة، إيجينيو. جئنا لإنجاز الأمر وليس لكي نتسامر. كلما أسرعنا كان أفضل.

لم يكن يتكلم بضيق أو بخشونة. بدا واضحا أن المهمة التي كلفوا بها لم تكن تروق أيا منهم.

- اللعنة على هذا، مانولو، (رد إيجينيو) نعدم شخصا من أجل ثورة أكتوبر شيء، ونقتله كأنه خنزير شيء آخر. مهما يكن، دون أنطونيو هنا، ليس عدو الشعب. قل إنك لست كذلك، دون أنطونيو.

- إيجينيو، ومن أنت لكي تصدر أحكاما. (انفعل رفيق آخر).

قرر أنتوني توجيه النقاش إلى مسار أقل حدة. لم يكن قد استوعب بعد مدى جدية التهديد، لكن إذا كان هؤلاء الرجال قد نصبوا له فخا بالغ التعقيد، فلا بد أن لديهم دافعا قويا.

- ألا يمكن أن يكون الأمر مجرد سوء فهم؟ (تساءل) أنا لا أعرف من يكون الرفيق كوليا، كما أنه لا يعرفني. ولم نتقابل في حياتنا.

- هذا أمر لا تعلمه حضرتك. الرفيق كوليا شخصية سرية. علاوة على إن هذا ليس الموضوع. أوامر الرفيق كوليا لا تناقش. لا تؤاخذني.

- بالضبط. (أمّن الرجل الرابع الذي التزم الصمت حتى ذلك الحين).

وما أن انتهى من قول ذلك حتى قفز من فوق صندوق كان يعتليه، ليكتشف أنتوني أنه قزم. حينئذ فقط أدرك أن هيئة المحكمة الوهمية التي كانت تحاكمه عشوائيا، لم تكن مجرد استعراض هزلي، بل التمهيد الموجز لموته المحقق. انتابه جراء هذه الفكرة شعور غريب بالسكينة واللامبالاة، لم يبد له أمرا سيئا أن تنتهي هنا رحلته التي بدأها من قاعات الدرس ومكتبات كمبريدج، وامتدت لصالات متحف البرادو. وبعد سنوات من

العمل، والقليل من النجاح وبعض الفشل، والنصيب المضبوط من الآمال والفتازيا، لتختم في مدريد المندفعة بدون تبصر نحو العنف والكرهية وعلى يد مجموعة من البلطجية، يجسدون إلى حد الكمال السمات المميزة لفن الباروك الإسباني.

- تمام، هيا بنا (سمع إيجينيو ثامورا يتكلم) احتاج اثنتين فحسب لكي أوضح لدون أنطونيو بعض التفاصيل بخصوص علاقته بابنتي بالمعمودية. لا يجب أن نترك الأمور العائلية معلقة هكذا. الرفاق معنا هنا (أضف موضحا للإنجليزي) على علم بما بينك وبينك وبين لا تونينا.

انصاع أنتوني بهدوء تام لإيجينيو. ودون إيداء أي اعتراض سأل نفسه، أي تفاصيل قد تكون ذات أهمية في الثواني الأخيرة من حياته. عندما أصبحت إلى جوار الباب، جذبته إيجينيو ثامورا من ذراعه، متظاهرا بأنه يتناقش معه سرا، وهمس في أذنه:

- تركته لك مفتوحا.

استغرق الأمر لحظة من أنتوني لكي يستوعب أنه يقصد الباب. لم تصب السنوات التي ضيعها في الدراسة سرعة خاطرته بالتبلد بالكامل. بدون تفكير، دفع إيجينيو ثامورا دفعة قوية لم تتحملها بنته الضعيفة، أو أنه تظاهر بالوقوع لافتا انتباه رفاقه لجزء الثانية الذي كان الإنجليزي يحتاجه لكي يفتح باب المحل، يقفز إلى الشارع ويفر هاربا بسرعة الريح. من الخطوات المتسارعة والتهديد والوعيد وفرقة الطلقات، تبين له أن مطارديه في أعقابه. أتاح له اتساع خطواته التفوق عليهم فلا تصيبه رصاصاتهم غير محكمة التصويب لأنهم كانوا يطلقون النار بدون التوقف عن الركض. وصل سريعا إلى حلقة سوق السمك التي هام بها منذ فترة من قبل. هناك كان الهدف أسهل، بالرغم من الإضاءة الضعيفة جرى في مسار متعرج نحو الشاحنات، مع اقتراب

ثلاثة من مطارديه منه، أما القزم فكان مايزال بعيدا، متأخرا رغما عنه.

- اقطعوا عليه خط الرجوع! أنا سوف أنظر أسفل السيارات!

لاهثا منكمشا على نفسه، كان أنتوني قد تخلى عن استسلامه المستكين، وبدأ يشعر برعب يسيطر على عقله ويشل أعضائه. أغمض عينيه مستغرقا فيما بدا له وقتا طويلا، إلى أن أرغمه على فتحهما هدير محرك مسرع. غمر شعاع ضوء المصابيح الأمامية الحلقة، ليجبر الفئران والقطط على الهروب، قبل اندفاع سيارة بسرعة كبيرة، انحرفت نصف دورة وتوقفت إلى جوار الشاحنات مع صرير المكابح. من نافذة السائق أطلت يد ممسكة بمسدس. تعرف أنتوني على الشيفروليه الصفراء المميزة؛ ركض نحو باب السيارة المفتوح، ثنى جسده وقفز إلى الداخل؛ انطلقت الشيفروليه مسرعة مثيرة سحابة من الغبار والطين، تاركة خلفها إنجينييو ثامورا ورفاقه في حيرة من أمرهم بأسلحتهم المشهورة.

عندما ابتعدا بالفعل لمسافة، هدأت السيارة، والتفت السائق إلى أنتوني بابتسامة ساخرة.

- كيف أقحمت نفسك في هذه الورطة؟ (سأل) ماذا تريد؟ أن تصبح بطلا؟

- انظر من يتحدث؟! (أجاب الإنجليزي).

مكتبة

t.me/t_pdf

على عكس أحداث العنف التي وقعت في شارع بويرتا دي توليدو
النائي، اجتذب تبادل إطلاق النار في ميدان بلاثا ديل أنخل عددا كبيرا من
زبائن حانات الجعة التي لا تهدأ بميدان سانتا آنا المجاور. من بين هؤلاء
كان هناك طبيبان، هرعا على الفور وباشرا بفحص جثمان جييرمو ديل بايي،
وأعلنا أنه مازال على قيد الحياة، وإن كان نبضه ضعيفا للغاية. قام المخبران
اللذان أطلقا عليه الرصاص نفسيهما بمساعدة الأطباء في حمل الشاب
إلى داخل الفندق، مخلفين على أرض الرصيف بركة دماء، ثم مدداه على
الطاولة. كان موظف الاستقبال يساعد في كل ما يطلب منه دون التوقف
عن الارتجاف والتذمر والبرطمة، بسبب أنه سبق أن حذر من نهاية اللف
والدوران السيئة. يضاف إلى أسباب توتره الطبيعي تخيله لتحقيق طويل
واحتمالية فقدان الوظيفة.

سرعان ما حضر إلى مسرح الأحداث مخبران من قوات حفظ الأمن،
نهر الفضوليين وأمروهم بالانصراف ملوحين بهراوتيهما. أثناء ذلك، كان
أحد الطبيبين قد اتصل بالمستشفى الإكلينيكي وعربة الإسعاف في الطريق.
في الوقت نفسه اتصل المخبران بالكولونيل مارانون وأطلعاه على ما حدث.
بدوره، اتصل الكولونيل بوزير الداخلية، ثم توجه على عجل إلى الفندق. في
ذلك الوقت كانت عربة الإسعاف قد نقلت الشاب. سأل الكولونيل إذا كان

أحد قد تعرف على هوية الضحية، وجاءت الإجابة سلبية. لم يكن الشاب يحمل معه أية أوراق ثبوتية؛ إلا أن موظف الاستقبال أفاد بأنه رآه مرتين من قبل وأوضح الملابس.

- اللعنة عليه... (غمغم الكولونيل) لا يحدث شيء في هذا البلد دون أن يكون هذا الإنجليزي التافه متورطاً فيه. هل نعرف ماذا جرى له؟

لم يكن أي من الحاضرين يعرف. كان الكولونيل ليستعيد بالله لو عرف مكان أنتوني وإيتلاندر في تلك اللحظة والورطة التي كان واقفاً فيها. بينما كان يجمع هذه المعلومات، دق جرس هاتف الفندق. أجاب الكولونيل بنفسه. كان دون آموس سلفادور، وزير الداخلية. أخبروه بما حدث وأمر باتخاذ التدابير اللازمة. كما استعلم عن هوية الضحية: جيرمو ديل بايبي، نجل دوق إجوالادا، الذي كان يريد بيع لوحة بيلاثيوس. رفاق الشاب كانوا قد عادوا إلى المركز لكي يبلغوا عما اعتبروه بحق، اعتداء غير مبرر. اتصل المسؤول المناوب في الفلانخي بعائلة الضحية ليخبرهم بالنبا المفجع.

- الدوق في طريقه إلى الفندق (قال الوزير) استجوب المتسبين في هذه الفوضى وجهاز تفسيراً منطقياً قدر المستطاع. بعد ذلك لا تبق في الشارع: الليلة يمكن أن يكون هناك ألعاب نارية.

صرف الكولونيل المخبرين، لكن ليس قبل أن يغرقهما بسيل من السباب: ارتكبا في غضون ساعات قليلة خطأين متتاليين، سوف يترتب على كل واحد منهما عواقب وخيمة. بعد فترة ظهرت سيارة يقودها سائق يرتدي زيّاً رسمياً يقل السيد دوق إجوالادا وابنته فرانيسكا إوينجينا والأب رودريجو.

كان من المنطقي أن يتسبب نبا ما حدث في صدمة بقصر باسيو دي لا كاستييانا. منهاراً من شدة الألم والغضب، أخبر الدوق باقي سكان القصر بما

حدث، باستثناء السيدة الدوقة، والتي لدهشة الأسرة والخدم، كانت متغيبية عن المنزل، بدون أن تخبر أحدا إلى أين هي ذاهبة بمفردها. نظرا للساعة المتأخرة، استبعدت احتمالية أن تكون في زيارة أو تقوم بأحد طقوسها الدينية التي تمثل شاغلها الوحيد خارج المنزل. من شدة الانزعاج لم يفكروا في التحري عن الأمر، وعلى وجه السرعة انصرف الدوق وباكيثا والأب رودريجو إلى الفندق، تاركين ليلى في القصر، بعد أن أوكلوا إليها المهمة الدقيقة في إطلاع والدتها على ما جرى من أحداث بمجرد ظهورها. أما نجل الدوق الآخر، الذي كان في رحلة إلى إيطاليا، فتقوم السلطات القنصلية بالبحث عنه.

مستغلا صدمة الأب المكلم، استغنى الكولونيل عن التوضيحات، المبررات والتعازي، ليرسل الدوق ومرافقيه إلى المستشفى الإكلينيكي. كان قد تواصل مسبقا مع الأطباء المناوبين: المصاب أجريت له جراحة عاجلة وحالته حرجة.

قبل ركوب السيارة مرة أخرى، التفت الدوق إلى الكولونيل:

- لديّ علم بأن هناك شخصين متورطين (قال هامسا).

تحمل الكولونيل نظرتة على مضض.

- هو ذاك، يا صاحب السعادة: من أعطى السلاح لصبي في الثامنة عشرة من عمره ومن وفر له المال لشراؤه.

بدون أن تمنحه الوقت ليستوعب معنى الجملة، برقة حاسمة أدخلت باكيثا والدها السيارة وأعطت السائق عنوان المستشفى. كانت في غاية الشحوب، وفقا لتقدير الكولونيل، الذي كان على علم بالعلاقة بين الشابة وخوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا، إلا أنه لم يكن قد رآها مطلقا، وأمعن

النظر إليها الآن، كان يطل من عينيها وميض جنوني. من داخل السيارة المنطلقة، هتف الأب رودريجو، رافعا ذراعه إلى أعلى مرددا صيحة «إلى الأمام يا إسبانيا!» بنبرة تحمل ضمنا عقوبة الحرمان الكنسي.

عندما وصلت السيارة أخيرا إلى أتوتشا، هرع أحد الجراحين لاستقبال الوافدين الجدد. كان معطفه الأبيض ملوثا بالدماء. بعبارات مقتضبة مباشرة أخبرهم أن الصبي قد خرج للتو من غرفة العمليات، وأنهم فعلوا كل ما هو ممكن بشريا، وبالرغم من أن المؤشرات لم تكن مطمئنة، لكن (أضف بنبرة ألين وأقل حدة) لا يجب أن نفقد الأمل، الكلمة الأخيرة بيد الله وحده، أكد على أنه وعلى مدار مشوار عمله الطويل، كان شاهدا على عدد لا بأس به من المعجزات.

عند سماع هذه الكلمة، سقطت باكيثا أسيرة نوبة من الاكتئاب. خرجت بعض الراهبات من الحجرة يحملن جفنات حاولن إخفاء محتواها بينما يرددن بصوت خفيض صلوات اتقاء أمور لا تبشر بخير. اصطحب الطبيب إلى سرير المحتضر كلا من الدوق والأب رودريجو، الذي كان قد جلب معه كل ما يلزم لتجهيزه لملاقاة وجه رب كريم، أما باكيثا فتأخرت عنهم، انزوت في ركن بعيد، بحيث لا يراها أحد، ركعت على ركبتيها، واستغرقت في صلاة متبتلة.

كان يوما عصيبا بصفة خاصة على الشابة التعيسة. كانت قد فتحت قلبها إلى ليلي في حديقة القصر، إلا أن الراحة الناجمة عن البوح إلى شخص على استعداد للاستيعاب، لم يكن منها جدوى سوى إزالة الغشاوة التي كانت تمنعها حتى تلك اللحظة من أن ترى بوضوح مدى خطورة الموقف. فإذا كانت تريد إنقاذ أنتوني، الذي إن صحت رواية لا تونينا، كان معرضا لخطر محقق، فإنه يتعين عليها التصرف على الفور بدون التفكير في عواقب

تصرفاتها. كانت باكيثا تتحلى بالشجاعة في مواجهة المواقف الخطيرة. دخلت البيت، اتصلت هاتفيا بمركز الفلانخي وسألت عن خوسيه أنطونيو. أخبرتها سيدة من القسم النسائي، تتولى الرد على المكالمات أن الزعيم الوطني غير موجود وأنه ليس من المنتظر أن يتواجد قبل الرابعة أو الخامسة مساء.

كانت ماتزال مرتدية المعطف. وبدون أن تضيع ثانية، خرجت إلى الشارع، أوقفت تاكسي وطلبت منه أن يقلها إلى شارع سان سيرانو رقم 86. هناك ترجلت، صرفت التاكسي، ودلفت إلى الديوان الفخم. هب البواب واقفا من مقعده عندما رآها وخلع قبعته. فتحت لها خادمة متوسطة العمر باب الشقة.

لا إراديا، بدر منها عندما رأت باكيثا رد فعل يدل على الدهشة والخوف. استعادت رباطة جأشها على الفور، وانحنت باحترام خافضة رأسها.

- سيدتي الماركيذة، يا له من شرف!

لوحت باكيثا بالقفاز.

- دعك من المجاملات، روفينا. هل هو بالمنزل؟

- لا يا آنسة.

- هل سيأتي لتناول الغداء؟

- لم يخبرني.

- لا يهم سوف أنتظره. هل ستبقيني هنا، على الباب؟

تنحت الخادمة وأمارات القلق بادية عليها. دلفت باكيثا بدون أن تلتفت إليها ودخلت الصالون المجاور للبهو. كان الأثاث ضخما ويدل على نبالة، من طرز مختلفة، نتاج مواريث متعددة. رأت على الكونسول صورتها في إطار

من الفضة. عند وصول سيد المنزل، أعلنت دقائق إحدى ساعات الحائط تمام الثانية. كانت باكيثا تتصفح بلا اكتراث ديوان شعر ضخم من المكتبة. حينها رآها، لوهلة أشرق محيا الرجل، ثم تكدر من جديد.

- أتيت لأخبرك بأمر ما. (قالت باكيثا بدون مزيد من المقدمات) أمر يجب أن تعرفه.

خلع خوسيه أنطونيو المعطف وتركه على المقعد.

- يمكنك أن توفري على نفسك الحرج، (قال بجفاء) لقد عرفت. لم يكن متبقيا سوى أن يأتي هذا الفأر في ثوب كاهن الذي تؤونه في المنزل لكي يجبرني. إلا إذا كنت تريدين إضافة شيء.

فغرت باكيثا فمها ثم عاودت إغلاقه. كانت على وشك الاعتراف بحبها المفاجئ للإنجليزي، ولكن قبل أن تنبس بينت شفة، كما لو أن ضوءا ساطعا بدد الظلام الذي كان يكتنفها، وتداركت الحماقة التي كانت على وشك ارتكابها. جعلها الاكتشاف يتسم. حان الدور لتحنني أمام العاصفة. عندما رفعت عينيها، كانت الدموع تشوش ملامح الرجل الواقف أمامها وينظر إليها بإمعان، بدون أن يفهم.

- كانت نزوة جنونية، (غمغمت كما لو كانت تحدث نفسها) لم أحب في حياتي سوى رجل واحد. ولا يمكن أن أحب غيره. لقد تصرفت بحماقة. والآن فات أوان التراجع. لم آت لأطلب منك الصفح. لو أعطيتني مندليك فسأكون راضية.

سارع بإعطائه لها بدون المبادرة لأي تواصل جسدي مع الفتاة الشابة. جففت باكيثا دموعها وأعدت له المنديل. بذلت جهدا لكي تكبح الابتسامة المفاجئة التي كانت على وشك الإفلات منها حينها فكرت في

أنتوني وايتلاندرز؛ ذكرى ما جرى بينهما في غرفة الفندق كانت تبدو لها الآن مشهدا من فيلم كوميدي، المشاعر والأفعال فيه مجرد آليات مصطنعة للترفيه عن جمهور محكوم بتفاصيل القصة الهزلية. انتبه خوسيه أنطونيو للابتسامة الساخرة فارتبك. أما هي فاستعادت رباطة جأشها.

- آسفة (قالت) الأمر ليس طريفا على الإطلاق. أشعر بأنني خرقاء. لكن ليس لهذا علاقة بالموضوع. في الحقيقة، جئت لأطلب منك معروفا كبيرا. إنه أمر مهم بالنسبة لضميري. ذاك الشخص، الإنجليزي...، يريدون قتله.

- زوج غيور، بكل تأكيد.

صدرت عن باكيثا إيلاء شخص مجروح الكرامة.

- احتفظ بسخريتك لعاهرات ريمبوين. (قالت بجفاء) فلنوفر التظاهر فأنت وأنا نعرف بعضنا جيدا.

- ومن أخبرك أنهم يريدون قتل هذا التافه؟

- عرفت وكفى. فيما يبدو هناك أوامر صادرة من موسكو.

- بالهناء والشفاء. الأمر لا يعنيني، ولو أعطوه تأشيرة نهائية، فلن أذهب للبكاء يوم دفنه.

بدون الالتفات إلى غضبه، تناولت باكيثا يده بين كفيها.

- أحق، فعلت كل ما فعلت، من أجلك أنت (همست) ستكون أحق لو لم تستفد منه.

سحب يده وتراجع خطوة للوراء.

- سوف تصيبيني بالجنون يا باكيثا!

احمرت وجنتاها. لم تكن تتصور قيامها بذلك وكان من العار ألا تشعر بالخجل. من المحتمل أن تكون انزلت إلى ما يطلق عليه الأب رودريجو دوامة الخطيئة: بمجرد ولوج طريق الانحراف، فلا سبيل لإيقاف السقوط، إلا لو تدخلت البركة المقدسة. إلا أنه لم يكن وقت الاستغراق في تأملات لاهوتية: البركة المقدسة بوسعها الانتظار.

بعد ذلك بعدة ساعات، كانت الشيفروليه الصفراء الصغيرة تشق شوارع مدريد ليلا، حاملة كلا من خوسيه أنطونيو والإنجليزي. في شارع الكالا، أوقف السائق السيارة بجوار مكتب البريد.

- سنتناول كأسا (قال بمرح) سأسمح لك بأن تعزمي. بعد كل هذا، أنت مدين لي بشيء.

كان الوقت مازال مبكرا في بار كلوب ولم يكن هناك سوى ثلاثة أزواج من الرفاق منكفئين على بعضهم في الزوايا البعيدة عن الأضواء. شغل خوسيه أنطونيو وأنتوني طاولة وحضر النادل مهرولا. لم يشرعا في الحديث إلا بعد أن أتيا على نصف زجاجة الويسكي الأولى. اكتفى خوسيه أنطونيو بالتحديق في الإنجليزي بحدة خفف من وطأتها ومضات سخرية. انتاب أنتوني القلق: كان يواجه خصما يمسك بكافة أوراق اللعب الرابحة بين يديه، بينما لم يكن لديه سوى ورقة واحدة رابحة، كان يتوقف عليها مستقبلا وربما أيضا حياته. في النهاية قرر المبادرة.

- لماذا جئت بي إلى هذا البار؟ (سأل).

- لشرثر. أخبروني بأنك تريد رؤيتي لأمر هام. كما ترى ليس من السهل عليّ إيجاد فسحة من الوقت في أجندي.

- سأضع ذلك في اعتباري ولن أسلبك الكثير من وقتك. (قال أنتوني)

لكن أريد منك أن توضح مسألة: كيف عثرت عليّ؟

- واحدة من صديقاتك الصغيرات حذرت باكيثا وهي بدورها طلبت مساعدتي. ولمعرفتي بما جرى بينكما، رفضت إنقاذك من المأزق. لكن، كما تعلم قدرات باكيثا على الإقناع لا تقاوم.

جزع أنتوني. لم يكن يتوقع هذه المنعطف غير الملائم على الإطلاق لمخططاته.

- هل عرفت منها؟

- ليس هناك أي فارق. سنتكلم لاحقاً عن باكيثا. الآن هات آخر ما عندك من أوهام.

بثقة أقل، استأنف أنتوني الحديث.

- منذ بضعة أيام جاءني أحد عناصر الفلانخي، لن أكتشف عن هويته. كان يتصور أنه اكتشف قضية خيانة عظمى داخل الحزب وترجاني أن أخبرك بالأمر. وضعي كأجنبي يمنحني حيادية مزعومة، وهذا من وجهة نظره، سوف يضيفي مصداقية على تدخلتي. فأجبت أنه بسبب هذه الحيادية تحديداً، كنت أرفض الانغماس في السياسة الإسبانية، خاصة مع عدم توافر أدلة إدانة. تفهم هو موقفي متعهداً بالحصول على تلك الأدلة، وإزاء إصراره وافقت على الحديث معك بمجرد حصوله على تلك الأدلة. حاول في أكثر من مناسبة الاتصال بي، ولم تكلل مساعيه بالنجاح أبداً. ومن ثم لم نلتق ثانية منذ المرة الأولى. اللقاء الوحيد الذي دار بيننا تم في حجرة فندقتي.

بمجرد أن رأى النادل كؤوسهما فارغة، اقترب لعلهما يرغبان في طلب شيء آخر. نفحه خوسيه أنطونيو من حافظة نقوده ورقة بنكنوت وطلب منه إحضار زجاجة ويسكي، ثلج وماء مكربن وألا يزعجهما مرة أخرى. بعد أن

تم ذلك، تابع الإنجليزي روايته.

- بعد ذلك ببضعة أيام، تاجر نصف إنجليزي، نصف إسباني، يدعى بدرو تيتشر، ضرب موعدا معي في التشيكوتي وحاول الكشف لي عن معلومات في غاية الأهمية. ولكنه قُتل قبل أن يتمكن من ذلك. في وقت سابق تلقيت تحذيرا من وجود عميل سري في مدريد، تابع للشرطة السرية السوفيتية اسمه الحركي كوليا. ولهذا السبب، ظل رفاقه، وهم شيوعيون إسبان يتبعون تعليقات موسكو، يتبعونني منذ اليوم الأول. والآن جاء المدعو كوليا من أجل تسوية الأمر بطريقة حاسمة. هذه الليلة تم الإيقاع بي بالخدعة في هذا المكان المشؤوم المهجور، حيث كان من الممكن أن يقضي عليّ مجموعة من القتلة المأجورين لولا إخلاص أحدهم وظهورك في الوقت المناسب.

توقف برهة ريثما يتناول رشفة ثم تابع.

- كنت أسأل نفسي منذ البداية إذا كانت هناك علاقة بين هذه الأحداث، التي في الظاهر لا يوجد رابط بينها ولا مبرر لها، والغرض الاساسي الذي من أجله تم التعاقد معي. والاستنتاج الذي توصلت إليه أنه بالفعل يوجد. ويجدر القول إن إدارة الأمن العام، ووزارة الداخلية و رئاسة الحكومة نفسها يتفقون مع تصوري. سوف أتحدث بدون لف أو دوران: الخائن المهندس بين الفلانخي، قاتل بدرو تيتشر وكوليا الغامض هم جميعا الشخص نفسه: إنه أنت. لا تنكر: أنت عميل سوفيتي.

بشكل غريزي، تلفت خوسيه أنطونيو حوله، وبعدهما تأكد من أن أحدا لم يستمع إلى كلام الإنجليزي، حلق فيه بنظرات عينيه الثاقبتين ثم قال:

- نعتوني بشتى الأوصاف، لكن هذه جديدة. هل يمكنني معرفة أساس مزاعمك، أم أنك انضمت لفريق منتقدي بدون دليل؟

- ليس لدي أدلة موثقة، إذا كان هذا ما ترمي إليه. لإشباع فضولك، سوف أطلعك على عملية الاستقراء التي أوصلتني إلى هذا الاستنتاج. الأمر على هذا النحو: وفقا لرأي غالبية الإسبان الموقف السياسي متداعٍ من المتوقع أن يجري انقلاب. ويتبقى انتظار ما إذا كان الانقلاب سيأتي من اليمين أم اليسار. الفريقان متأهبان، ويخيم على كليهما التشرذم. العسكريون هم الأكثر جهوزية وربما الأكثر تحمسا، إلا أنهم متخبطون: لا يعرفون إن كانوا يحظون بالتأييد التام لقيادة الأركان وكبار الضباط، لا يثقون في إخلاص أو كفاءة القوات، لم يتضح لديهم بعد الهدف النهائي من حركة التمرد، فضلا عن اختلافهم لمن تكون القيادة. بينما يتجادلون، يتزود اليسار بالسلاح وينظم صفوفه. إلا أن التنسيق فيما بينهم أصعب. أما الفاشيون فعالقون بين التكتلين، عبارة عن مجموعة ضئيلة لا تحظى بتأييد حقيقي، بدون اصطفاف جماهيري أو أفكار محددة: لا يريدون أن يسمعوا أي شيء عن الاشتراكية السوفيتية، كما لا يريدون التشبه برد الفعل الظلامي من جانب العسكريين، رجال الدين والأثرياء. يعيشون على البلطجة وعدة مفاهيم فارغة. وحدة المصير العالمي! وحدة عظيمة وحررة! عبارات ساذجة وشعارات تصلح كهتافات، خاصة لو كان من يرددتها محامٍ وسيم شاب، لامع، شجاع، ويحمل لقب نبالة. وهنا نصل إلى لب القضية. المحامي الشاب خطيب مفوه وشخصية عامة جذابة، ولكنه كسياسي، صفر على اليسار. يلهب حماس جمهور الحضور بخطبه، إلا أنه لا يحصل على أية أصوات من صناديق الانتخاب. الأمر سيان بالنسبة له، لأن لديه اهتمامات أخرى: الذهاب إلى حمام سباحة نادي بويرتا دي ييرو لخوض نزوات نسائية مع نساء طيبات، والحديث عن الأدب مع أصدقائه. يقول إنه دخل عالم السياسة دفاعا عن ذكرى والده ومن أجل إنقاذ الوطن، وهذا حقيقي إلى حد ما: تحركه مشاعر بنوة ووطنية كارتونية، لا تعدو أن تكون مجرد نوع من الغرور. كأبي محامٍ

مبتدئ من الطبقة العليا، يمقت عنف الطبقات الدنيا، إلا أنه لا يستطيع منع تحول حزبه شيئاً فشيئاً إلى عصابة من البلطجية. يستغله الرأسماليون معدومو الضمير لتهييج الرأي العام، أما النقابات العمالية فتسخر من خطته الرامية إلى القضاء على الصراع الطبقي، وفي الوقت نفسه يتعين عليه أن يرى كيف يتساقط أنصاره قتلى يوماً تلو الآخر في مصادمات شوارع بلا جدوى. فقد سيطرته على المشروع، إذا كان لديه مشروع من الأساس، أما الحماس الخطابى الذى يقويه فمن الممكن أن يظل يثير حماس الجماهير، إلا أنه يصيبه بالملل والغثيان. هل ما قلته صحيح؟

- لا تزال هناك تفصيلاً واحدة (قال خوسيه أنطونيو بصوت متحرج، وعيون مسبلة، كما لو كان يحدث نفسه) المحامى الشاب بطل الحدودة كان لديه حب مستحيل. بدافع الإخلاص والاحترام، لم يشأ أن يدفع المرأة المحبوبة إلى سفينة جانحة: لم يكن يريد أن تخرج الأمور عن السيطرة. كان يجب إبقاء شيء بعيداً عن العنف، الخداع والخيانة. فى النهاية اتضح أن التضحية كانت بلا جدوى، لأن حبه العظيم انحرف أيضاً، عندما سنحت أول فرصة، بأكثر الأساليب حماقة ومع الشخص الأقل جدارة. دعنا من ذلك الآن.

كان الرفقاء الأزواج قد غادروا المكان ولم يعد هناك أحد سواهما والنادل. كان من الممكن أن يلفت هذا الموقف غير الطبيعى انتباههما لولا استغراقهما فى الحوار.

- يائسا من الفكرة التى بذل من أجلها كل شيء (تابع أنتوني، سعيداً بتأثير وقع كلماته فى نفس محدثه) محبطاً من هؤلاء الذين كان من المفترض أن ينضموا إلى صفوفه ولم يفعلوا بدافع المصلحة أو التخاذل، محبطاً من الشعب الذى لا ينصت إليه، يقرر المحامى الشاب النابه تفجير البلد، الذى بالغ فى

جحد تضحياته. يشرع في التواصل مع الاستخبارات السوفيتية ويقدم لها عرضاً: إذا يسرت له موسكو السبل، فسوف يقدم لها الثورة على صينية من فضة. يبدأ مع وحداته الضئيلة انتفاضة تشمل جميع أنحاء إسبانيا. من أجل التصدي للتهديد الحقيقي، ينحي الفاشيون والاشتراكيون والفوضيون خلافاتهم جانبا؛ وتصبح المحصلة ثورة شعبية. كل هذا من أجل عدم السماح باستمرار النظام الليبرالي الفاسد أو قيام العسكريين بتأسيس نظام يخدم المصارف وملاك الأراضي. ستكون قد سفكت دماء الكثير من الأبرياء لكي تُحل كافة الأمور من خلال خطاب مبسط بين الأعيان والإمبراطوريات غير قابلة للحياة. إما أنك أنت كوليا أو كوليا هو وسيطك.

- رائع! (هتف خوسيه أنطونيو بمرح).

- نعم، الأمر ليس سيئاً، إلا أنه لنجاح الخطة يجب توافر شرطين أساسيين: الأول أن لا يكتفي الفلانخي بالامثال دون تفكير في الأوامر التي تُسند إليهم، والثاني وهو التصرف بأقصى سرعة قبل توصل جماعات اليمين إلى اتفاق، أو قبل أن يؤدي حادث غير متوقع لتسارع وتيرة الأحداث. بطبيعة الحال تتعقد الأمور كما هو معتاد. الموقف على الصعيد الدولي بسرعة مذهلة، ستالين قلق من نوايا هتلر الحربية ويفضل عدم التصادم مع الديموقراطيات الأوروبية. من الأفضل تأجيل المغامرات الثانوية. صدرت أوامر من موسكو لدعم الجمهورية الإسبانية في كل شيء. تنهار خطة المحامي الشاب. ولكن لأن الخطوة الأولى نفذت بالفعل فلا سبيل أمامه للتراجع، فيفضل المضي قدماً مع ثورة بلا دعم خارجي، والحصول على المال والسلاح من أي مكان. يكتشف شاب فلانخي التجاوزات؛ وإزاء استحالة الشك في أنها تأتي من الزعيم الوطني بذات نفسه الذي يعشقه، يطلب مني الحديث معك. لكي تحول دون ذلك. تصدر أوامر بتصفيتي. ثم تتفرغ بعد

ذلك لإسكات الواشي. أتمكن من الهرب فتحضرنى إلى هنا لكي تتملقننى،
وتتم المهمة فى النهاية.

قطع فجأة خطابه المنمق. كانت حنجرتة جافة ورأسه يدور. كانت
زجاجة الويسكى فارغة. انتبه لنظرة خوسيه أنطونيو الخبيثة والمتشفية المثبتة
عليه. بعد برهة صاح خوسيه أنطونيو:

- عزيزى أنتونى، أنت مجنون تماماً! أتدعى أنك أخبرت مدير إدارة
الأمن العام بهذا الأمر؟

- وإليك هذه أيضاً، وأخبرت أثنان ذات نفسه.

لم يستطع خوسيه أنطونيو تمالك نفسه وانفجر فى موجة ضحك هادرة.
حاكاه أنتونى. ظل الاثنان يضحكان ويربتان على أكتاف بعضهما البعض
ويضربان الطاولة، ومن شدة عجزهما عن كبح جماح نوبة الضحك، أسقطا
الزجاجة والكؤوس. استعادا من جديد أجواء الصداقة التى جمعت بينهما
بصرف النظر عن تنفاسهما.

اقرب منها النادل بوجه متجهم.

- معذرة على المقاطعة. هناك مكالمة هاتفية عاجلة للسيد بريمو دى ريبيرا.

بعد انقضاء فترة ترقب، اتصلت ليلي بالمستشفى، للاطمئنان على حالة شقيقها. وعقب عدة محاولات تمكنت من التواصل مع الأب رودريجو. مازال الشاب على قيد الحياة، إلا أن الأطباء يسوا من شفائه، ومن المرتقب في أية لحظة وقوع النهاية المفجعة. لم يفارق السيد الدوق فراش المريض، وإزاء عجز باكيثا عن تحمل معاناة الانتظار، ظلت تدخل وتخرج من الحجرة وعليها أمارات حزن جلي. منهارة تحت وقع هذه الأنباء، استغرقت ليلي في تفكير يائس في سر اختفاء أمها الغامض. أرسلت كبير الخدم قبل قليل، للبحث عنها في الجوار، فشرع في تنفيذ المهمة والبنديقية مخبأة أسفل ثنيات معطفه.

بعد نحو الساعة عاد كبير الخدم دون أن يعثر على أثر للسيدة الدوقة. كان الليل موحشا فلم يكن يلتق بأي شخص يحتمل أن يكون قد التقى بالمختفية، سواء في باسيو دي لا كاستييانا أو الشوارع المجاورة. آثرت ليلي عدم الاتصال بالشرطة، والانتظار واضعة ثقته في تدبير العناية الإلهية وكان هذا كل ما بوسعها القيام به في الوقت الراهن. أعطت أوامر بأن يحيطوها علما إذا جد جديد، وأغلقت حجرتها على نفسها. لم تستطع مواصلة التظاهر بالسكينة. إلا أن حميمية غرفتها، بدلا من أن تمنحها السلام المفقود، زادت من حزنها: ذكرها كل شيء هناك بآخر لقاء لها بالإنجليزي. ربما في تلك اللحظة نفسها كان هو أيضا قد لقي حتفه. صوره لها خيالها الجامح كمرآة ممددا وشاحبا، ممزقا برصاص قاتل مأجور أو طعنة بلطجي. وربما كانت هي

آخر شيء ورد على خاطره.

كانت ليلى تدعي أمام من يتصورون معرفتها حق المعرفة، أنها ذات مزاج متوازن وموقف إيجابي من الحياة وميل فطري للمرح، وبأنها غير ناضجة وساذجة. حقيقة الأمر أنها كانت على العكس من ذلك تماما. وزاد من تأزم موقفها، أن دفعها عقلها البارد والتحليلي وقلبها المشتعل المتمرد إلى أن ترفض سرا التعاليم الدينية التي تتلقاها. والآن، مع حرمانها من عزاء الصلاة والثقة في تدخل إلهي، وعندما بلغت أقصى حدود طاقة مقاومتها لكل هذه التجارب العنيفة، كادت تصاب بالجنون.

في الحادية عشرة وعشر دقائق طرق أحدهم باب حجرتها. غطت ليلى أذنيها براحة كفيها لكي لا تسمع نذير الخبر المفجع. سرعان ما استعادت رباطة جأشها وردت. أخبرتها الوصيصة أن والدها على الخط. هرولت نحو الهاتف. كان الدوق يتحدث بصوت يكاد يكون غير مسموع وبجمل متقطعة من شدة التأثر. ومن بين اللهات والنحيب أخبرها بأن الدوقة وصلت إلى المستشفى منذ عشر دقائق، وأنها سحقت الأب رودربجو عندما حاول منعها من الاقتراب من الفراش الذي يرقد عليه ولدها، اقتحمت الحجرة وانقضت على الصبي، تناديه وتغمره بالقبلات. وفي تلك اللحظة حدثت المعجزة. فتح جيرومو ديل بايي عينيه وابتسم عندما تعرف على محيا والدته. الأطباء المندهشون من رد الفعل الذي ليس له أي تفسير علمي محض، اضطروا للإسعاف باكيता التي فقدت الوعي. لم يكن ينقص هذا المشهد المفعم بسعادة لا توصف، سوى ليلى.

- تعالي على عجل يا ابتي، (صاح الدوق) انضمي إلينا لكي نشكر الرب. واطلبي من خوليان أن يصطحبك. السير في الشوارع خطر هذه الليلة. على ما يبدو وقعت مجددا حوادث إطلاق نار وحوادث.

ما إن وضعت الساعة حتى رنّ جرس الهاتف من جديد. ولما كانت إلى جواره، أجابت ليلى. سألت صوت غريب عن السنيوريتا باكيثا.

- غير موجودة. من يتحدث؟

- صديق، (أجاب الصوت على الطرف الآخر من الخط) أخبرتها فقط بأن الإنجليزي نجا.

جلست ليلى على أحد المقاعد. سألتها الوصيعة إن كانت بخير. ردت ليلى بالإيجاب، وطلبت منها استدعاء جميع الخدم في قاعة الموسيقى. عندما أصبحوا جميعا حولها، أخبرتهم بنبأ تعافي جيرومو غير المتوقع. وبعد أن أسكتت مظاهر الابتهاج، طلبت منهم أداء صلاة المسبحة شكر الله على نعمته المسداة، ثم كلفت كبير الخدم بالخروج بحثا عن سيارة أجرة لاصطحابها إلى المستشفى. عادت بعد ذلك إلى حجرتها وارتدت ثيابها للخروج.

تأخر كبير الخدم عشرين دقيقة في العودة إلى بوابة القصر بسيارة أجرة. بسبب الاضطرابات في بعض مناطق وسط المدينة، انسحب كثير من السائقين من الشارع تفاديا للتورط في أحداث قد تسفر عن أضرار في سياراتهم.

- يحرقون السيارة ويخربون بيتك (علق سائق الأجرة).

بالفعل، كانت السماء تعكس وميضاً لضوء مائل للحمرة بسبب إحدى الحرائق.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، عندما وصلت ليلى في النهاية إلى محطة أتوتشا بدون معوقات واستطاعت دخول حجرة شقيقتها، حيث سادت فرحة منقوصة. على الرغم من أن حياة الشاب لم تعد معرضة للخطر، لكن التنبؤ بحالته مازال صعباً، ومن ثم لا يجب الإفراط في التفاؤل مبكراً: لا يمكن استبعاد انتكاسة كما لم تتحدد بعد الآثار المحتملة المترتبة على

الإصابات والعملية الجراحية العاجلة التي أجريت له.

انضمت ليلى لفرحة باقي الأسرة، ثم تنحت بباكيها جانبا وأطلعتها على فحوى المكالمات الهاتفية بشأن أنتوني. تلقت باكيها النبأ بلا مبالاة: بات واضحا أنها لم تعد تكثرث للإنجليزي. سألت ليلى نفسها عن سبب التغير المفاجئ كما تسألت أين كانت الدوقة خلال فترة غيابها التي امتدت حتى وصولها إلى المستشفى.

كانت الإجابة على السؤال الأخير سهلة للغاية وغير متوقعة، وتستدعي سردا موجزا للأحداث.

قبل بلوغ الستين، قرر دون نيتو الكالا ثامورا إنهاء الفترة النشطة من تفرغه للعمل السياسي. كان أول رئيس منتخب للجمهورية الثانية وظل محتفظا بذلك المنصب بمسؤولياته الجسم طوال خمس سنوات من عمر الجمهورية المضطرب. بالرغم من انتهائه لتيار محافظ كاثوليكي، اضطر للتعامل مع تطرف اليسار واليمين، والحركات العمالية، ومطالب القوميين، وضغط الكنيسة والجيش، الذين اعتبروه ضمانة للأمن العام، والسلم الداخلي ووحدت إسبانيا، ومع صحافة متأهبة دوما أن تعلق على قراراته كل مصائب البلاد، والأسوأ من كل هذا، التعامل مع المكائد، والتنافس والوضاعة المتأصلة في السلطة. كان يستحيل عليه إرضاء الجميع، وبالفعل اكتسب عداء الأغلبية، ومع ذلك كان يفتخر بأنه حمى الديمقراطية، بجلد وبجدارة وموقف حاسم في مواجهة مخططات وأوهام خصومه. بالرغم من ذلك، يرى الآن اقتراب نهاية ولايته. فلم يكن شخصه أو أساليبه تروق الجبهة الشعبية، أو مانويل أثانيا. كانت تحزنه فكرة الاستقالة من المنصب، وربما من العمل السياسي بصفة عامة، ولكن لم تصبه بالإحباط: كان متشائما بشأن المستقبل ويرى الكارثة وشيكة ومن ثم لم يكن يريد ترأس تأيين نظام

بذل من أجله كل شيء وأنقذه من كوارث في مناسبات كثيرة. الأسوأ أن إحدى بناته كانت متزوجة من الجنرال كيبيو ديل يانو: سوف يجلب الحرب إلى منزله في حالة وقوع انقلاب عسكري. مثل كل السياسيين، كانت فكرة التنازل عن السلطة تحطم قلبه، ولكن نظرا لسنه وبالإضافة إلى المشكلة التي طرأت بسبب بوادر إصابته بالعمى، كان يفكر كثيرا في التنحي بسعادة وليس بحزن.

في تلك الليلة كان على وشك إعلان نهاية مشواره، عندما أخبره أحد الياوران بحضور سيدة تصر على رؤيته. يجلب البطاقة المقدمة تاج دوقي؛ وقرأ له أحد المساعدين الاسم؛ فأمر بأن يدخلوا السيدة على الفور. بس معتل ميز الهيئة الباهتة لدوقة إجوالادا، وبراعة شخص يحفظ عن ظهر قلب كل شبر في المكان الذي شغله فترة طويلة، تفادي قطع الأثاث والمساعدين ليقبل يدي صديقه العزيزة.

- ماروخين!

- نيشيتو!

صرف الموظفين ودعاها للجلوس. كان الرئيس والدوقة من بريجو، من أعمال محافظة قرطبة. يرحل الشاب اليافع ذو الذكاء غير العادي، والمجد المجتهد، عن بريجو من أجل الدراسة في الجامعة، يسلك مجال السياسة، ويصل إلى أعلى المراتب في الدولة. أما هي فتصغره قليلا، رحلت عن القرية بعد ذلك لفترة قصيرة، لتلقى تعليما جيدا في مدرسة راهبات القلب المقدس الداخلية بإشبيلية، وتخرج منها لتتزوج من دون ألبارو ديل بايي، دوق إجوالادا. قبل افتراقهما، تشارك نيشيتو وماروخين ألعاب وعبث الأطفال، وكانت تسنح لهما الفرصة أحيانا للشروع في الغزل الطفولي البريء. في لقاءاتها العابرة بعد ذلك، كانا دائما محاطين بالمراسم والبروتوكولات.

- مازلتِ جميلة كالعادة، ماروخين. بالنسبة لكِ الزمن لم يمر.

- لقد أخبروني أنك مصاب بالعمى، نيثيتو. لقد أصبحت خيال مآتة. علاوة على أنه أصابني أسوأ ما يمكن أن تمر به سيدة. ولهذا جئت.

منزعجا من هذا الاعتراف غير المتوقع، سوّى دون نيثيتو الكالا ثامورا
شاربه.

- أخبريني بأحزانك، يا صغيرتي (قال بحنان).

أومات الدوقة بيدها المرتدية القفاز مصدرة صوتا تحذيريا.

- جئت أطلب منك معروفا صغيرا. شيء بيني وبينك، نيثيتو. لكي
آتي، هربت من باب المنزل الخلفي؛ لا يعلم أحد بأنني هنا ولا يجب أن يعرف
أحد. ليس من أجل سمعتنا: العمر يقينا القيل والقال. بل بسبب ما سوف
أطلبه منك.

- كل ما بوسعي، كما تعلمين.

- أريدك أن تسجن ماركيز إستيبيا. عدني بأنك ستفعل، نيثيتو، من أجل
خاطر صداقتنا القديمة.

- ابن بريمو؟ عجبا، أحيانا لا تنقصني الرغبة، أعترف بذلك. هذا الولد
خداع حقيق. ربما ليس ذنبه: فقد أمه في الخامسة من عمره، ثم هو والده...
ولكن ما تطلبيته يتجاوز قدراتي، ماروخا. أنا لست دكتاتورا. يجب عليّ
مراعاة الشرعية الجمهورية، ليس فقط بالكلام بل وبإعطاء القدوة أيضا.

بدون تمهيد تحولت الدوقة من الرعونة إلى المأسوية. لبرهة من الزمن
أنصت الرئيس لانتحابها ورأى اهتزاز بطنها البارز. ساعدت التوسلات
المكررة وأمارات الود على استعادة الأم الحزينة لرباطة جأشها شيئا فشيئا.

- ابن الذوات الدخيل على الطبقة هذا هو مصدر كل أحزاني، (قالت) بالأمس فقط فاجأت ابنتي الكبرى غارقة في بحر من الدموع. رفضت إطلاعي على السبب، ولكن الأم لا تحتاج أن يخبرها أحد لتعرف السبب. الماركيز التافه يحوم حولها منذ فترة. باكيثا امرأة مستقلة الطباع، متعلقة وقداها راسختان على الأرض، ولكنها امرأة في النهاية. والشيطان يعلم الدونجوانات الكثير من الحيل.

- ماروخا، لسنا متأكدين. وبدون بلاغ من أحد الأطراف فلن تكون هناك قضية.

- تأكيد! أنا دوقه إجوالادا وكلمتي تكفي وتزيد! ولكن هناك شيء آخر. لقد استحوذ بأفكاره على عقل أسرتي: زوجي يريد التصرف في أملاكه، ابني الكبير في روما، استجابة لرغبة هذا المهرج الماجن، والصغير، منطلق في مدريد مرتديا الأزرق، كما لو كان عامل سبابة. في النهاية ستكون نهاية كل هذا سيئة. نيثيتو، أنت رئيس الجمهورية، أبعد هذا المسخ عن حياتي! تحسبا لنوبة انتخاب وشيكة، لجأ الكالا ثامورا إلى حل حكيم.

- لا تبك يا ماروخا. إليك ما سأقوم به. سأمر بتوقيفه بأية حجة. ونظرا لطبيعته فلن يكون من الصعب العثور له على مخالفة بسيطة، وعندما نلقيه خلف القضبان، سوف نفكر في الخطوة التالية. اتركني الأمر لي.

وقبل أن يتاح للدوقة الوقت لتقييم العرض، دخل الياور تبدو عليه علامات انفعال كبير. وبدون أية اعتذارات لاقتحامه، اقترب من الرئيس وأخبره في أذنه بشيء. امتقع وجه الكالا ثامورا.

- ماروخا، صديقتي العزيزة (قال بنبرة جادة) أنا مضطر أن أخبرك نبأ سيئ. جاءني أن ابنك جييرو أصيب في تبادل إطلاق نار. لا أدري إن

كانت الإصابة خطيرة. هو الآن يتلقى الإسعافات في المستشفى الإكلينيكي. مكانك الآن إلى جوار ابنك. هو بحاجة إليك. سوف أكلف سيارة رسمية بنقلك إلى جواره. وأرجوكِ اطلعيني على ما يحدث للفتى.

ضغط جرسا، هرع المساعدون، وعقب وداع مقتضب، رحلت الماركيعة المرتاعة. عندما أصبح الكالا ثامورا بمفرده، أمر بالاتصال بوزير الداخلية، وعندما أصبح معه على الخط كلفه بضبط وإحضار خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا. من دهشته، تجرأ دون أموس سلفادور على إبداء اعتراضه.

- من الناحية القانونية لا توجد أية مشكلة، سيدي الرئيس. ولكن وضع الزعيم الوطني للفلانخي في السجن يعد بمثابة قبلة موقوتة. كتابته سوف تخرج إلى الشارع. ولن يكون بوسعنا حبسهم جميعا.

- اعتقل بعض الرؤوس الكبيرة. كما تعلم، واحد من كل عشرة لإضعاف الصفوف مؤقتا. في هذا البلد قضاء بعض الوقت في الظل ليس مشينا على الإطلاق. أنا نفسي اعتقلت عام 31. وضعهم في سجن الموديلو، ولو ساءت الأمور رحلهم من مدريد إلى مكان أكثر هدوءا: لوجو، تنيريفي، أليكانتي، أي مكان يخطر على بالك. هناك سيكونون بأمان من الناس ومن أنفسهم.

أفاق أنتوني وايتلاندر مفزوعا. ألقى رفيقه على وجهه جرعة سيفون⁽¹⁾. كان من الصعب عليه تذكر أين كان حتى وصل إلى هنا، بعد تنظيف زجاج عدسات نظارته، رأى إلى جواره وجه خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا العابس المتكدر. كانا مازالا في بار كلوب بشارع الكالا. قال عندما رآه مستيقظا:

- أنباء سيئة. قتلوا جييرمو ديل بايي.

لم يكن في البار أحد سواهما؛ حتى النادل اختفى. استعاد أنتوني رباطة جأشه على الفور.

- جييرمو قُتل؟ (كررها غير مصدق) أنت الفاعل! جييرمو ديل بايي من الفلانخي وجاء ليقابلني. كان هو من اكتشف وجود خائن. لقد فهمت الآن! سمعت لا تونينا الحوار من دولاب الحجر، حيث كانت مخبئة. ثم تظاهرت بالإغماء، ثم تحينت أول فرصة وهرولت لتخبر إيجينيو ثامورا بكل شيء. إيجينيو الجبان قدم لي صغيرته لكي تراقبني...

- لا تقل المزيد من السخافات. حتى لو كانت ترهاتك صحيحة، أنا لا أمس شعرة من شقيق باكيئا. جييرمو قتله مخبران من أتباع صديقك

1. ماركة شراب صودا كان شائعا في تلك الفترة (المترجم)

الكولونيل مارانون. والآن أصدرنا أمرا باعتقالي. وقد ألقوا القبض بالفعل على شقيقي ميغل وبعض قادة الفلانخي وهناك دوريات تبحث عني في كل مدريد. سرعان ما سيأتون. النادل بلغ بالتأكيد. ولهذا فر.

- وماذا ستفعل؟ مازال بإمكانك الهرب.

- لا. أنا الزعيم الوطني للفلانخي. أنا لا أختبئ. إذا أرادوا اعتقالي، فليتحملوا العواقب.

أثناء الكلام أخرج المسدس من جيبه. أصيب أنتوني بالفرع.

- أنت لن تتحدى الشرطة.

ابتسم خوسيه أنطونيو، أخرج خزانة المسدس وتركها مع السلاح على الطاولة.

- أنا لست مجنوناً إلى هذا الحد. أترك السلاح هنا حتى لا يطلقوا النار عليّ مدعين الدفاع الشرعي عن النفس. لا أريد مزيداً من العنف. سواء صدقت ذلك أم لا، لطالما رفضت اللجوء إلى العنف. ويعلم الله كمّ الجهد الذي اضطررت لتحمله للسيطرة على غضب الرفاق المبرر إزاء انتهاكات الاشتراكيين الأوغاد وتواطؤ السلطات، ولمنع انجرار الفلانخي إلى هذا النزاع الذي ليس له آخر. للأسف، اضطررت للاستسلام أمام الواقع والمواقفة على حمل السلاح لكي لا يبيدوننا كالحشرات. أنا تعبت. ربما أنت على حق. ربما كان لدي من الأسباب ما يكفي لكي أدير ظهري لأهلي أنفسهم. كنت أريد السلام والمصالحة. ولكنهم لم يتركوني. أفنيت حياتي من أجل إسبانيا، وإسبانيا أعطتني ظهرها. دافعت عن الطبقة العمالية، والطبقة العمالية تهاجمني بدلاً من أن تصغي إلي. لا أحد يكثر لي. ومع ذلك، كان بوسعي بلوغ ما لم يحققه ولن يحققه أحد: تجاوز الصراع الطبقي العبيث، وإرساء قواعد إسبانيا الجديدة،

وطنا للجميع. ذهبت جهودي أدراج الرياح: الإسبان يفضلون الاستمرار مع أيديولوجياتهم التي عفا عليها الزمن، ديباجوجيتهم الظلامية، حكمهم الاستبدادي المتكرر في صورة ديمقراطية وتصفية الحسابات بوحشية. ما هو الفرق بين الخروج في موكب مشهد القلب المقدس وحرقة؟ هذا بلد بربري غارق في البؤس، التخاذل، وقلة النظافة.

وضع يده على كتف أنتوني وتابع بنبرة أكثر حميمية.

- عد إلى وطنك يا صديقي، هذا ليس مكانك. عد إلى إنجلترا ذات الحقول الخضراء وهناك احك ما شاهدته: تحدث عن نضالي، تطلعاتي والعقبات التي يجب عليّ مواجهتها.

أوما أنتوني برأسه معتذرا.

- معذرة، (قال) أخشى أنني لن أفعل ذلك. سأعود إلى إنجلترا كما جئت: بدون أن أشارك. وهذا لا يعني أنني لا أبالي على الإطلاق؛ بالعكس: الموقف أصابني باليأس وبصورة أكبر ما سيستجد. ولكنها ليست مشكلتي. لم يستشرني أحد عند البدء في هذا، أو عند رسم الأهداف، أو تحديد قواعد اللعبة. والآن لا تحملونني عبأ الحكم. التزامي شخصي تماما. لو كانوا في انتظارك في الخارج، فسوف أخرج معك. وهذا ليس لأنني أفكر مثلك، بل لأننا دخلنا معا وشربنا معا. لو كان في نيتهم إطلاق النار، فسوف يفكرون مرتين حين يرونك بصحبة أحد الرعايا البريطانيين. أما الأفكار التي أنتم على استعداد لتقتلوا بعضكم بعضا من أجلها، فلا أريد أن أسمعها أو أتحدث عنها.

كان المرور مقطوعا في شارع الكالا. لم يكن هناك سوى سيارتين سوداوين أمام البار وستة مخبرين من قوات حفظ الأمن، مسلحين بالبنادق، مستترين بزوايا البوابات. حينها خرج خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا

وأنتوني وإيتلاندر وأيديهما مرفوعة لأعلى، ترجل الكولونيل مارانون من إحدى السيارات وذهب لملاقاتها.

- كنت مندهشا من عدم رؤية سحتك. (خاطب الإنجليزي) مقبوض عليكما انتما الاثنین.

- بأية تهمة؟ (سأل خوسيه أنطونيو).

- حمل سلاح بدون ترخيص.

- لا أنا ولا هذا السيد نحمل سلاحا (اعترض أنتوني).

- أيها التافه، لا تجبرني على التلفيق! سأضعكما في الحبس وغدا القاضي يقرر التهمة. تعال سيادتك معي. أما السنيور بريمو ففي السيارة الأخرى.

مد خوسيه أنطونيو يده إلى الإنجليزي.

- لا أعتقد أننا سنتقابل مرة أخرى.

بسط له أنتوني يده محذقا في عينيه.

- لو لم يقبضوا علينا، هل كنت ستقتلني؟ أخبرني بالحقيقة.

ابتسم خوسيه انطونيو، هز كتفيه واتجه نحو السيارة التي خصصوها له، محاطا بستة حراس. التفت وقدمه على عتبه السيارة وحيا رافعا ذراعه. احتل أنتوني والكولونيل أماكنهما في المقعد الخلفي من السيارة الأخرى. بينما كان يرافقهما مخبر واحد على المقعد الإضافي.

- فيم تحدثتا؟ (سأل الكولونيل أثناء الطريق).

- عن النساء، بصفة أساسية.

- توقعت ذلك. هل عرف بأمر ذلك الصبي، شقيق المرأة التي كنتما

تحدثان عنها؟

- نعم. هل مات؟

- بالطبع لا. أولاد الذوات مثل القطط. تقذف بهم من فوق السطح
وبلا جدوى.

اتكأ أنتوني على المخدع الجلدي. أغمض عينيه وأخذ نفسا عميقا.
عندما فتحها مجددا، كانوا متوقفين عند باب الفندق. كانوا قد نظفوا أحجار
الطريق بالدلاء ولم يعد هناك أي أثر للدماء في بلاثا ديل أنخيل.

- ألم تلق القبض عليّ؟

- سيادتك لا. لا أريد أن أراك نهائيا. أنت مثير للإزعاج. تفوح منك
رائحة ويسكي مثيرة للغثيان. ولكي تتورط في مؤامرات دولية يجب أن
تكون أكثر ذكاء، أكثر تعقلا، وأقل رومانسية. قطارك سيغادر أتوتشا غدا
في تمام الساعة الثانية ظهرا. لا تفوته ولا تحاول النزول قبل عبور الحدود.
الحرس المدني لديهم أوصافك ومن عاداتهم السيئة إطلاق النار بدون إنذار.
بصعوبة وصل إلى حجرته واستلقى في الفراش بثيابه، ولكنه لم يتمكن
من النوم حتى نفاذ أول ضوء نهار عبر فتحات شيش النافذة. استيقظ على
هزات عنيفة من شخص مجهول. معتادا على هذه النوعية من الأمور الشاذة،
فلم يجزع.

- من حضرتك وماذا تفعل في حجرتي؟ (اكتفى بالسؤال).

- ألا تتذكرني، وايتلانديز؟ هاري باركر، من السفارة. علمت أنك
سوف تُرحل فجئت لكي أصطحبك إلى المحطة. سنشعر جميعا بارتياح أكبر
عندما ينطلق القطار وحضرتك داخله.

- بحق الله، باركر، القطار سوف يتحرك الثانية ظهرا والساعة الآن
التاسعة إلا عشر دقائق.

- نعم، الوقت محدود لدينا. هناك عدة أمور صغيرة معلقة. ارتد ثيابك وأعدّ حقيبتك. ثمة سيارة عند الباب. فلتسرع. سنتناول قهوة هنا في الجوار. مع تشوروس إذا لم تتأخر كثيرا.

من شدة التعب انصاع أنتوني دون إبداء اعتراض. نزل بالحقيبة، وبعد أن دفع الحساب، انتبه إلى أنهم غيروا موظف الاستقبال؛ بالمثل كان الجديد متعجرفا ولا مباليا. كان الباب الدوار ينقصه لوح زجاجي، إلا أن شظايا الزجاج أزيلت من المدخل. تركا الحقيبة في سيارة السفارة في عهدة السائق، وفي ميدان سانتا آنا تناولا في صمت إفطارا متقشفا. أثناء الإفطار وكذلك في السيارة، لاحظ أنتوني على مرافقه علامات استياء طفيفة، كما لو كان يبذل جهدا لكي لا يبوح بشيء مهم. ترجلا عند بوابة السفارة.

- اترك الحقيبة (قال الدبلوماسي الشاب) لن نتأخر كثيرا. بعض السادة يريدون توديعك. سوف تتعرف عليهم.

- وإذا رفضت أن أرى أي أحد؟ (قال أنتوني بنبرة تحدي).

- سوف تورطني، وايتلاندرز، وأنت بالفعل تسببت لي في الكثير من وجع الرأس. كن ولدا طيبا؛ إنها مجرد دقيقة.

صعدا إلى الصالون الفخم، الذي يتصدره بورتريه صاحب الجلالة إدوارد الثامن، حيث عقد المرة السابقة اجتماعا مع لورد بومبليه واثنين من موظفي السفارة. انبعثت من المدفأة نيران هادئة. حضر لورد بومبليه للقاء الوافدين

- يسعدني أن نلتقي مجددا، وايتلاندرز. لعلك تعرفت على ديفيد روس، سكرتير أول السفارة، وبيتر أتكينز، الملحق الثقافي. في هذه المناسبة يحضرنا... حسناً، لا داعي للمقدمات.

أثار إدراك أنتوني لوجود إيدوين جاريجو اندهاشه وانزعاجه، المرمم العجوز المداهن الخبيث. حيا الجميع بانحناءة رأس، وبناء على إشارة من لورد بومبلييه شغل مقعدا. ثم توجه إلى هاري باركر وسأله:

- هل أخبرته؟

- لا يا سيدي. فضلت أن تجربه بنفسك (أجاب الدبلوماسي الشاب).

أمن لورد بومبلييه على كلامه، لقم غليونه ببطء متعمدا، نظر إلى الحاضرين فردا فردا، كما لو كان يبحث عن دعم معنوي، تنحنح، ثم خاطب أنتوني، قائلا:

- حسنا. سوف أدخل في الموضوع، وايتلاندرز. يتعين علينا إطلاعك على خبرين: أحدهما جيد والآخر سيئ. سوف أبدأ بالسيئ. مساء أمس، بينما كانت أسرة صديقك دوق إجوالادا مجتمعة في المستشفى الإكلينيكي بالمدينة، من أجل... كما تعرف عنصر الفلانخي الجريح... إنه أمر مؤسف، بالفعل يا سيدي. وليس لأنه أمر متكرر لا يصبح مؤسفا. في النهاية، لحسن الحظ، نجا الصبي. في معركة فردان عام 1917، رأيت حالات مشابهة. القليل منها تحسنت، وهذا حقيقي. أخيرا، كما كنت أقول لك، بينما كانت الأسرة في المستشفى، وقع...، حسنا، شب حريق بقصر لا كاستيانا. هل هو هجوم؟ لا يمكننا استبعاد الاحتمال، في ظل الوضع الراهن، على الرغم من شكّي في ذلك، نظرا لسهات الواقعة. على الأرجح أن يكون نتيجة حادث منزلي: ماس كهربائي، عقب سيجارة لم يطفأ جيدا، أو أي شيء. مع اضطراب الظروف، غياب الأسرة؛ انزعاج الخدم، يكون الإهمال جسيما. لحسن الحظ لم تقع إصابات. تنبه أحدهم فأسرع رجال الإطفاء وتم إخماد الحريق بدون صعوبات كبيرة. في الواقع، لم يتضرر سوى القبو. يبدو أنهم كانوا يحتفظون فيه بأثاث قديم، سجاد، مخلفات. سرعان ما التهمتها النار

كالهشيم. كما احترقت بعض اللوحات... لا يمكن ترميمها حسبما يبدو. أقص عليك تلك الواقعة، متصورا أنني فهمت في وقت من الأوقات أن لوحة بيلاثكيث المزعومة كانت في ذلك القبو.

امتقع لون أنتوني مع استمرار لورد بومبلييه في سرد القصة. نظر بطرف عينه إلى إدوين جاريجو، خيل إليه أنه رأى ابتسامة سخرية ترسم على شفثيه المطلية بطبقة رقيقة من الروج. طلب كوبا من الماء. اقترح عليه هاري باركر مشروبا منعشا أكثر، إلا أن جسم أو عقل أنتوني لم يكونا ليحتملا المزيد من الصدمات. تابع لورد بومبلييه، بينما كان الدبلوماسي الشاب يملأ كوب ماء من دورق:

- لا تنهر، وايتلاندر. هذا كان النبأ السيء. الجيد سوف يطلعك عليه صديقنا جاريجو. وقتما تشاء، إدوين.

ترك المرمم العجوز بضع لحظات تمر، ريثما يستمتع مقدما بحلاوة الانتصار الذي يستعد لإثباته.

- الخبر الجيد، وايتلاندر أن اللوحة لم تكن لبيلاثكيث. لا تشتعل غيظا قبل أن تسمعي. في المقام الأول، شرفك ومكانتك الأكاديمية في الحفظ والصون. لم تكن لوحة مزيفة، ونظرا للظروف التي أجريت فيها الاختبار، فإن نسبك اللوحة إليه مفهوم. وسأزيد على ذلك إن: افتراضاتك لم تكن مضللة. أنا في غاية الانبهار.

- من فضلك، جاريجو، (قال أنتوني بصوت خفيض) وضع وجهة نظرك.

- سأفعل، سأفعل. إذا لم تخني الذاكرة. حضرتك تعرفت على الشخصية في اللوحة، لوحة نسائية عارية لدونيا أنطونيا دي لا ثيردا، زوجة جاسبار

جوميث دي هارو. أنت كنت محقا بكل تأكيد، ومن ثم، فإن هذا يؤكد هوية المرأة التي كانت موديل لوحة «فينوس روكبي». إنه اكتشاف هام وايتلاندرز. إذا تمكنت من إثباته، فسوف أبشرك بنجاح مدوّ وسط دائرتنا الضئيلة. إلا أن اللوحة الثانية، التي شاهدها لم يرسمها بيلاثكيث، بل مساعده.

- مارتينيث ماثو؟

- لا. خوان دي بارينجا. لمن لا يعلمون من يكون (قال ملتفتا لجميع الحاضرين) أقول لكم إنه كان من أصل عربي، عبد مجلوب من إشبيلية، عمل في ورشة بيلاثكيث لسنوات طويلة، منذ بداية مشواره الفني، حيث تعلم تقنيات التصوير الأساسية. نال تقدير بيلاثكيث من الناحية المهنية والشخصية أيضا، ولهذا سمح له بمرافقته خلال رحلته إلى إيطاليا. لا يعرف على وجه الدقة تاريخ ومحل ميلاد خوان دي بارينجا (تابع المرمم العجوز شرحه المتفصّل) إلا أنه كان أصغر سنا من بيلاثكيث. وكان يحظى بموهبة فطرية، فلم يتعلم من سيده فحسب، بل من كبار الفنانين الإيطاليين الذين سنحت له الفرصة ليلتقي بهم ويتعرف عليهم أيضا في إيطاليا. رسم بعض البورتريهات واللوحات ذات الطابع الديني؛ نظرا لطبيعة ظروفه كعبد، لم يتمكن من عرضها أثناء حياته، إلا أنه يمكن مشاهدتها اليوم في متحف البرادو، وفي بالثيا وحتى في متاحف عالمية. ونظرا لقربه من بيلاثكيث، فمن المنطقي أن يصاب بتأثيره، ولهذا في أكثر من مناسبة، نسبت بعض أعمال بارينجا على سبيل الخطأ إلى بيلاثكيث.

صمت برهة لكي يترك التمليح الأخير يتغلغل في وجدان مستمعيه ثم واصل بنفس النبرة التعليمية.

- أثناء رحلة إيطاليا الثانية (تابع إدوين جاريجو) رسم بيلاثكيث بورتريها لبارينجا. بعد عودته ظلت اللوحة في إيطاليا. وهي حاليا في إنجلترا،

ضمن مجموعة سير ويليام هاميلتون. لقد رأيتها ويوسعي أن أؤكد لكم أنها عمل على أعلى مستويات الجودة. ربما شاهدتم نسخاً مقلدة للوحة، إن كان ذلك قد حدث فأنتم تعرفون هيئة خوان دي بارينجا: حسنا لا أستطيع قول أكثر من ذلك. بشرة داكنة، عينان مشتعلتان، شعر مجعد، ميل للكبرياء. يقولون إن بيلاثكيث رسمه كتمرين قبل رسم بورترية البابا أنوثشيو العاشر. أنا لا أنفق مع هذا الرأي. عام 1650 كان بيلاثكيث قد رسم الكثير من البورتريهات لفيليب الرابع والعائلة المالكة؛ فلم يكن محتاجا للتدريب، كما لم تكن تنقصه الثقة. بمنتهى البساطة، رسم خوان دي بارينجا لأنه كان قد ضج من رسم الكرادلة، ولأنهم كانوا أصدقاء. ولهذا أعتقه. وإذا كان بيلاثكيث قد رسم زوجة دون جاسبار دي هارو على هيئة فينوس، فمن المحتمل أن تكون الموديل والمساعد قد تعارفا، وبكل تأكيد نشأ بينهما أكثر من ذلك. خوان دي بارينجا رسمها سرا، مثلما رسم جميع لوحاته. وربما سرت شائعات في مدريد، وكما جرت العادة يتحمل السيد عواقب جرائم الخادم، فرّ بيلاثكيث وبارينجا إلى روما.

صمت لبرهة وظل محملا في أنتوني منتظرا رد فعله.

- من أين جئت بهذه النظرية، جاريجو؟ أنت حتى لم تر اللوحة.

- بدرو تيتشر كان على علم. ولم يخبر أحدا مطلقا، ولا أدري كيف تحرى عن الأمر. بعد مصرعه، فتشت الاستخبارات البريطانية المعرض والمنزل في لندن وعثرت على الأدلة. وأحاطونا علما بها هذا الصباح. وإذا كان دوق إجوالادا يعرف أو يعتقد بحسن نية أن اللوحة من أعمال بيلاثكيث، فهذا ما لا نعلمه، في هذه اللحظة، بعد اختفاء اللوحة، المسألة لم يعد لها أهمية.

رأى سكرتير أول السفارة، ديفيد روس أنه من الواجب أن يبوح بما يعرفه.

- بدرو تيتشر كان عميلا للاستخبارات الألمانية. وكنا نعرف منذ فترة ونقتفي أثره. كان يعمل مع رئيس الاستخبارات الألمانية الأدميرال كناريس. وربما أيضا لصالح قوى أخرى. عميل مزدوج. معظمهم كذلك.

- ألهذا قتلوه؟

- لا أعتقد. لا يقتل الجواسيس بعضهم. إنهم زملاء. يتعاونون ويساعدون بعضهم ما لم يتعارض ذلك مع مصالحهم الخاصة. والحكومات أيضا كذلك. إذا اكتشفت الاستخبارات جاسوسا ضدها، يحاولون إقناعه بتغيير الجهة التي يواليها وبصفة عامة ينجحون في ذلك. إنهم مرنون كما تقتضي المهنة. الجاسوس الحي مفيد أكثر، موته لن يفيد شيئا. أحيانا تقرر حكومته تصفيته. ولكن كما قلت لك هذا شيء نادر. لا نعلم من قتل بدرو تيتشر، والقضية لا تمنا.

- قبل أن يقتلوه، كان سيروح لي بسر في غاية الأهمية. (تابع أنتوني).

- لا تشغل به (أجاب ديفيد روس) لقد كان ثرثارا كبيرا. بالتأكيد كان يحاول كسب ثقتك ليحصل منك على معلومات. كان قلقا بسبب صفقة اللوحة. وكانت علاقته بالدوق قد أصابها الفتور مؤخرا ويشعر بالتهميش في عملية كان هو من رتب لها بعناية كبيرة.

- وكوليا؟

أخذ لورد بومبليه الكلمة.

- فقدت عيوننا أثره. ومازلنا لا نعلم هويته الحقيقية. ربما كان كوليا هو نفسه بدرو تيتشر. من المحتمل أيضا أن يكون أي شخص من الحاضرين. هؤلاء الجواسيس الملاحين يندسون في كل مكان. انس أمر كوليا. بعد اختفاء اللوحة، لم تعد لحضرتك أدنى أهمية. سواء له، أو لموسكو. أو لنا، إذا لم يكن

ذلك مهينا بالنسبة لك .

- ولكنه حاول قتلي .

- لا، (قال ديفيد روس) لو كان كوليا قد حاول قتلك لما كنت موجودا الآن. ما حدث في بويرتا دي توليدو كان مسرحية هزلية. إنجنيو ثامورا ثامورانو يعمل لدينا.

نظر هاري باركر في الساعة.

- الوقت يمر (قال بنبرة محايدة) ربما يجدر بنا الرحيل، ما لم يكن هناك شيء تود أن تقوله أو تسأل عنه، وايتلاندرز.

ترك أنتوني الكوب الفارغ على طاولة جانبية صغيرة ونهض من المقعد. كان رأسه يؤلمه ومعدته مقلوبة. مدركا لحزنه، وضع لورد بومبلييه يده على كتفه.

- باركر معه حق. عُد إلى الوطن، وانس مدريد. إنها مدينة قدرة، متقلبة. الناس لا يعرفون حدودا. ولا تقلق بشأن صديقك بريمو؛ لن يحدث له شيء. الفاشية مزعجة، إلا أنها ليست مشكلة. روسيا هي مصدر المشكلة. آجلا أم عاجلا سوف تتحالف إنجلترا مع ألمانيا من أجل التصدي للتهديد الشيوعي. (التفت إلى بورتره صاحب الجلالة، إدوارد الثامن وأشار إليه بغليونه) هكذا يتفهم صاحب الجلالة الأمر ولا يخفي تعاطفه مع هتلر. هتلر ليس ديمقراطيا عاقلا، هذا صحيح، إلا أن السياسية لا تسمح بالتمييز. ولهذا فهي لا تناسب أشخاصا مهذبين وحساسين مثل حضرتك، وايتلاندرز. عد إلى لندن، إلى لوحاتك وكتبك. واطلب من كاثرين الصفح. سوف تنهال عليك بالسباب، ولكنها سوف تصفح عنك. هي تتوق لذلك. النساء مزعجات، ولكنهن أفضل ما لدينا.

على العكس، السياسة، فظيعة. الشيوعيون والنازيون وحوش أما نحن
الأخيار، فلسنا سوى حفنة أوغاد.

خاتمة

عندما خرج من السفارة كانت الشمس تسطع عاليا وسط سماء صافية، والنسيم دافئا، كما تفتحت بعض براعم فروع الأشجار وزهور بيضاء وصفراء في أحواض الحدائق، إيذانا بربيع 1936 البديع. عندما أصبحا بالقرب من السيارة، عاود هاري باركر النظر في ساعة يده، ثم استوقف أنتوني بينما كان يتهيأ للركوب.

- مازال الوقت مبكرا، (قال الدبلوماسي الشاب) وخطر على بالي أنك ربما وددت القيام بزيارة أخيرة إلى متحف البرادو. إذا وعدتني بعدم ارتكاب أية حماقات، فسأترك هناك وأعود إليك بعد ساعة. ستبقى الحقيبة في السيارة.

- أشكرك، باركر (قال أنتوني متأثرا) هذا لطف منك.

في المتحف، حيا عاملة شباك التذاكر واتجه مباشرة إلى قاعة بيلاثكيث. وبمجرد أن وصل إلى هناك، وقف في المنتصف، مترددا: لديه قليل من الوقت، ويجب عليه التركيز حتى لا يضيع فرصة قد لا تسنح له لسنوات. قبل أن يمد بصره ليركز على عمل محدد. سمع اسمه يتردد بصوت رقيق فانخلع قلبه.

- أنت هنا! (صاح) كيف تمكنت من العثور علي؟

- ليست هنالك أسرار (أجابت) طلبت من السنيور باركر أن يحضرك.
يبدو هذا المكان مناسباً من أجل الوداع.

- آه، صحيح، إن كان علينا توديع بعضنا، فلا أنسب من هذا المكان.
فلنتجول في القاعة. وإذا أعجبتك أية لوحة، يمكنني أن أشرحها لك.

تعلقت باكيثا بذراعه ومتلاصقين شرعاً في تجوال بطيء.

- لعلك عرفت بموضوع حريق القبو (قالت هي) أنا آسفة حقاً، أنتوني.

هز الإنجليزي كتفيه.

- حالفني الحظ، على ما يبدو. فلو أن موريسكيا حقاً كان هو من رسم
اللوحه، لكنت أرتكبت أكبر حماقة. بالنسبة لكم، على العكس يمثل الأمر
خسارة كبيرة.

- الأمر سيان. نحن أثرياء. صدمة جييرمو جعلتنا نرى تفاهة قيمة
الأشياء المادية.

- ربما كنت على حق. كيف حال جييرمو؟ وحال باقي الأسرة؟ يؤسفني
أنني لن أتمكن من وداع الجميع.

- جييرمو يتعافى بصورة رائعة. وتراجعت احتمالات تعرضه لانتكاسة،
خلال يومين سيكون بيننا في المنزل من جديد. لك أن تتصور فرحة والدي
الجنونية. لكن ليلي المسكينه، في منتهى الحزن. ماتزال طفلة، وكل هذه
الصددمات حطمت معنوياتها، لا تكف عن البكاء مرددة أن الحريق شب
بسببها. هذا جنون بالتأكيد. لن نعرف مطلقاً سبب نشوب الحريق. وعلى
أية حال، قرر أبي إرسال ليلي إلى بداخوث، حيث ضيعة أحد أقاربنا، دوق
أوليبيثا. ستنسى هناك هذا الجحيم، وتسترده عافيتها وروحها المرحه.

فتح أنتوني فمه ليقول شيئا، ولكنه شعر بمدى وطأة نظرة الكونت دوق أوليفاريس القاسية ترقبه من فوق حصانه. بدا وكأنه يشير له بالقضيب الحديدي إلى الطريق الذي يجب أن يسلكه. فهز الإنجليزي رأسه وغمغم:

- مسكينة ليلى! (ولكي يغير مجرى الحديث، أضاف) وخوسيه أنطونيو، هل تعرفين شيئا عنه؟

- التقى ذات صباح بألونسو مالول، مدير إدارة الأمن العام. لم يكن الحوار وديا؛ يبدو أن خوسيه أنطونيو نعته بالقواد. فرحلوه إلى سجن الموديلو، وأضيف إلى حيازة السلاح الخروج على السلطة. سوف أذهب غدا لزيارته. أريد أن أودعه أيضا.

- وداع؟

- بالفعل (قالت الشابة) سوف يطلقون سراحه خلال بضعة أيام. حينئذ لن أكون هنا. سوف أرحل، أنتوني. لم آتِ لكي أودعك فحسب، بل لأخبرك بأمر أعتقد أنك يجب أن تعرفه.

لم يكن هناك أي أحد سواهما بقاعة اللوحات المهيبة. صممت باكيثا لبرهة ثم تابعت:

- أمس كان يوما غريبا. لطالما اعتبرت نفسي شخصا حكيما، وبالرغم من ذلك، في يوم واحد غيرت رأبي ثلاث مرات. في الصباح كنت مقتنعة بأنني أحبك بجنون. أذهلني هذا الاكتشاف إلى أن جاءت فتاة الفندق إلى المنزل، تلك التي تحمل الرضيع. كانت على علم بتدبير محاولة اغتيال ذاك السنيور الإنجليزي الطيب وجاءت لتحذرنى. لم تكن تريد التواطؤ على جريمة. لهذا رحلت مع ابنها من مدريد. فليراف الرب بها وبطفلها المسكين. بعد جهد كبير، ذهبت إلى منزل خوسيه أنطونيو، لم يكن هناك شيء في العالم

يدفعني لرؤيته في تلك اللحظة، ولكن كنت أعلم أن لا أحد سواه يمكنه إنقاذ حياتك. وبمجرد أن أصبحت هناك، وجها لوجه، أدركت أن حبي لك لم يكن إلا نزوة عابرة. بالنسبة لي لن يكن في حياتي سوى رجل واحد. ما جرى بيننا كان سقطة. المشاعر لا تتحول بهذه السرعة.

- أنتِ فعلتها ثلاث مرات في يوم واحد (أجاب أنتوني، شاعرا بجرح في مشاعره) ما هي المرة الثالثة؟

- النهائية (قالت باكيثا بمنتهى الجدية) عندما أخبرونا بما حدث لجيرمو، أدركت أننا جميعا مندفعون نحو الهاوية وأنه يجب فعل شيء لتفادي السقوط. في المستشفى...

توقفت لحظات عن الحديث متأثرة لاستدعاء تلك اللحظة، ثم تابعت بمزيد من الأسى.

- أرفض التهويل. في المستشفى قطعت على نفسي عهدا جادا. إذا نجا شقيقي، فسأنسحب من العالم. المعجزة التي صنعها الرب أكدت لي ما كنت أعتقد. إن كل المصائب التي حلت بأسرتي كانت عقابا لي على خطاياي. لا أعلم إن كنتُ أنا والسءاء الآن قد سوينا حسابنا، لكنني على الأقل أصبحت أعرف طريقي. تشغل إحدى قريبات أُمي منصب الشقيقة الكبرى بأحد الأديرة في سلمنكة. عندما أنتهي من تسوية أموري سأعزل هناك. في الوقت الراهن لا أفكر في الرهينة. ستكون خطوة متسرعة، وقد تسرعت كثيرا في الآونة الأخيرة. سأقضي بضعة شهور في الصلاة والتأمل وبعد انتهاء الصيف سأقرر.

حاول أنتوني استيعاب تعاقب الأنباء الغريبة. كل النساء اللاتي ارتبط معهن بعلاقة غيرن حياتهن وأماكن إقامتهن: لا تونينا، ليلي والآن باكيثا.

بسببي مدريد ستبقى بلا ناس، فكر. بدلا من التعليق بشيء قاد باكيثا إلى بورترية الأم خيرونيا دي لا فويتتي. على الرغم من أن اللوحة ضخمة نسبيا، إلا أن الراهبة كانت تبدو ضئيلة الحجم، كما لو أن مرور السنين، الزهد والتجربة جعلوا حجمها ينكمش من غير أن يؤثر ذلك على الطاقة الكامنة في شخصيتها. نظرتها منهكة، مثقلة الجفون، مع احمرار خفيف، مزمومة الشفتين في تكشيرة عنيدة. تمسك كتابا بيد نحيلة عروقتها بارزة؛ وبالأخرى صليبا ضخما للغاية. أشاحت ببصرها للحظات عن مشهد المسيح المصلوب لتلقي نظرة عابرة على الشخص الذي كان يرسمها، وبعد ذلك بقرون عديدة على كل من سيتوقف ليشاهد اللوحة. هيئتها فظة إلا أن نظرتها كانت تنم عن ورع وتفهم.

- في مدريد لوحتين متطابقتين (قال أنتوني) والاثنتان تنسبان إلى بيلاثكيث. هذه هي الأفضل؛ أما الثانية فتقع ضمن مجموعة مقتنيات خاصة. يتصدر اللوحتين شعار، تغير لونه بمرور الزمن، ولكن قراءته يسيرة: *Bonum Est Pretolare Cum Silentio Salutare Dei*. وتعني «من الأمور الجيدة انتظار خلاص الرب في صمت». بالإضافة إلى ذلك يحمل البورترية الثاني راية مكتوب عليها شعار آخر لا أتذكره بالكامل، ولكنه يحمل معنى «مجده سوف يكون سعادتي الوحيدة». أخشى أنه وأنت بمفردك، في صومعتك، سوف يتعين عليك اختيار أي من الروايتين تعبر عنك.

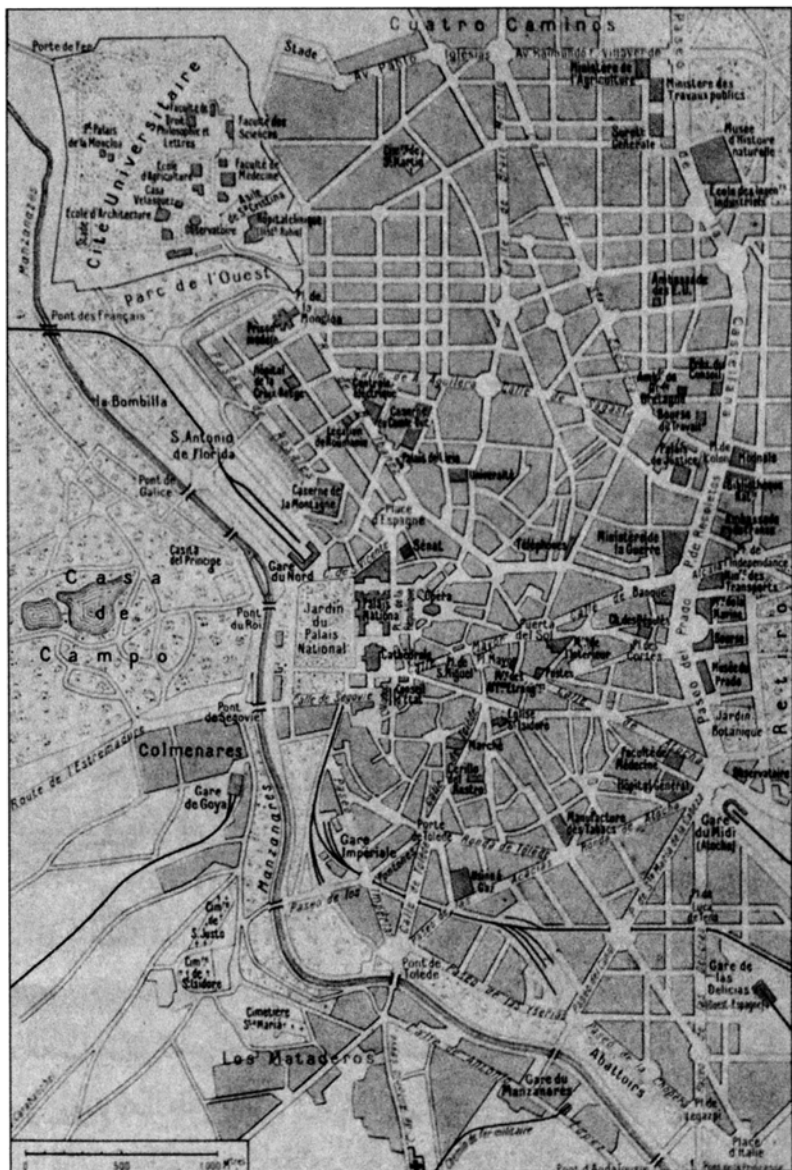
- بدون أن تقول أي شيء، أفلتت باكيثا ذراع الإنجليزي وخرجت بخطى بطيئة ولكن حاسمة. ولم يلتفت أنتوني لينظر إليها. ظل يتأمل بورترية الأم خيرونيا دي لا فويتتي ثم ذهب إلى الركن حيث علقت لوحة لاس مينيناس. هناك عثر عليه هاري باركر عندما دخل ليبحث عنه بعدما انتابه القلق بسبب تأخره.

- حان الوقت، وايتلاندرز.

- هل لاحظت، باركر؟ (قال أنتوني) بعد فترة طويلة من الصمت،
بيلاثكيث رسم هذه اللوحة في أواخر عمره. أعظم أعمال بيلاثكيث
ووصيته أيضا. إنها بورتريه بلاط معكوس: يصور مجموعة من الأشخاص
التافهين: أطفال، خدم، أقزام، كلب، اثنان من الموظفين والرسام نفسه. في
المرآة تنعكس صورة غير واضحة الملامح للملكين، رمز السلطة. إنها خارج
اللوحة، ومن ثم خارج حياتنا، إلا أنهما يرون كل شيء، وسيطرون على كل
شيء، وهما اللذان يمنحان اللوحة سبب وجودها.
نظر الدبلوماسي الشاب في ساعته مرة أخرى.

- الرأي ما ترى، وايتلاندرز، لكن الوقت تأخر، ولا يمكن أن يفوتنا
ذلك القطار من أجل أي شيء في الكون.

مكتبة
t.me/t_pdf



مدريد 1936

المؤلف في سطور

إدورادو مندوثا، روائي أسباني يكتب بالكتالونية والإسبانية، من مواليد برشلونة، 11 يناير 1943. درس القانون وعاش في نيويورك بين عامي 1973 - 1982؛ حيث عمل مترجما في الأمم المتحدة. نشر أول أعماله الروائية «الحقيقة حول قضية سابولتا» عام 1975، وتنتمي مثل «شجار ققط» للسرد التاريخي في إطار بوليسي. تتناول أحداثها الحياة في برشلونة بين عامي 1917 و1919، وقد نال عنها جائزة النقد عام 1976. وظلت برشلونة، مسقط رأسه، بشكل عام مسرحا وخلفية لمعظم أعماله، فيما تعد شجار ققط، الأولى له حول مدريد واختار أن تكون إرهابيات الحرب الأهلية: 1936 - 1939، خلفية لها. بالإضافة إلى الرواية كتب مندوثا أيضا المقال والقصة. حصل عام 2010 على جائزة بلانتا عن رواية «شجار ققط: مدريد 1936». وتعد روايته «سر السرداب المسحور» عام 1979 و«مدينة العجائب» عام 1986 و«عام الطوفان» 2004، من أشهر أعماله كما صدر له مؤخرا كتاب تحليلي سياسي عن أزمة كتالونيا، وله أعمال مسرحية، وأعمال من أدب الأطفال مثل «الطريق إلى المدرسة». حصل عام 2015 على جائزة فرانز كافكا، وعام 2016 على جائزة ثربانتيس، التي تعد نوبل الآداب الناطقة بالإسبانية، وكانت آخر أعماله الروائية «سر الموديل المخطوفة»، وتنتمي أيضا إلى الأدب البوليسي.

المترجم في سطور

طه زيادة، القاهرة 1971، مترجم وصحفي مصري درس الإسبانية في كلية الآداب جامعة القاهرة، وحصل على ماجستير الترجمة من جامعة سلمكنة الإسبانية 2016، حصل على جائزة الترجمة من المركز القومي للترجمة وكلية الألسن في جامعة عين شمس، وسفارة إسبانيا في القاهرة لعام 2015، حصل على منحة بيت المترجم في تراثونا بإسبانيا 2017م.

نشر له حتى الآن: «أساطير شعبية من آسيا» مشروع لجمع تراث حكايات جنوب شرق آسيا برعاية اليونسكو، عن الهيئة العامة للكتاب، 2006. و«الآتي من الزمان أسوأ» لرفائيل سانثيث فرلوسيو 2015 عن المركز القومي للترجمة. و«رحلة إلى مصر وسوريا وفلسطين» لإيميلو جارثيا جوميث 2018، عن المركز القومي للترجمة.

EDUARDO MENDOZA

RIÑA DE GATOS

MADRID 1936

إدواردو مندوثا

شجار قطط

مدريد ١٩٣٦

يصل الإنجليزي أنتوني على متن قطار إلى مدريد في ربيع عام 1936. كان يجب عليه أن يصادق على لوحة مجهولة، يمتلكها صديق خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا، نجل الديكتاتور الراحل ميغيل بريمو دي ريبيرا؛ لوحة يمكن أن تكون قيمتها الاقتصادية عالية وحاسمة لصالح تغيير سياسي كبير في تاريخ إسبانيا. إلا أن شغف الحب مع نساء من مختلف الطبقات الاجتماعية يصرف الناقد الفني عن مهمته دون أن يعطيه الوقت لقياس مدى تضاعف المضطهدين له من رجال شرطة، دبلوماسيين، سياسيين وجواسيس، في جو من المؤامرات وأعمال الشغب.

تجمع مهارات السرد الاستثنائية لإدواردو مندوثا بين جدية الأحداث التي رواها مع وجود حس الفكاهة، حيث كل مأساة هي جزء من الكوميديا البشرية.

ISBN: 978-1-968463-64-9



9 781988 483849

SNIP

منشور للنشر والتوزيع
Sanaa Publishing & Distribution